محبة النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته

بين الإنسان والجماد

تأليف

أ.د. خليل إبراهيم ملا خاطر
نزيل المدينة المنورة

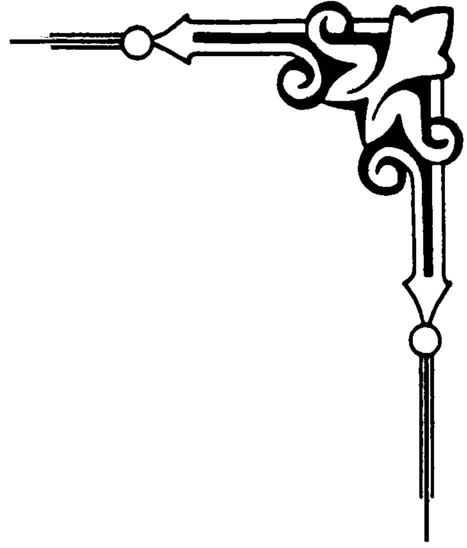
الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



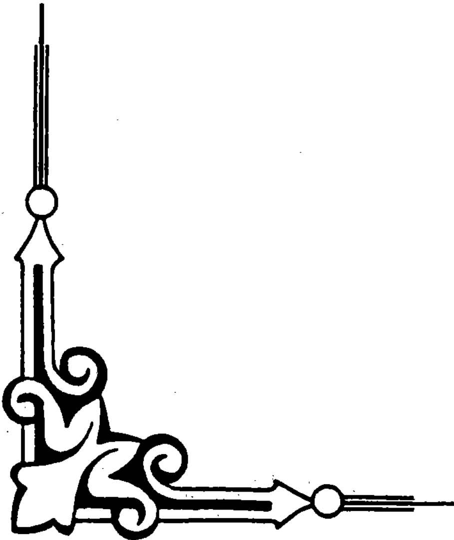
دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - ت: ٦٧١٠٠٠٠ - تلكس: ٤٠٠٠٨٠ - دلة.س.ج


محبة النبي وطاعته
صلى الله عليه وسلم
بين الإنسان والجماد

بسم الله الرحمن الرحيم



وَأُلْقِيَ حَتَّى في الجَمَادَاتِ حُبُّهُ فكانَتْ لإِهْداءِ السَّلامِ لَهُ تُهْدى
وَفارَقَ جِذْعاً كانَ يَخْطُبُ عِنْدَه فَـأَنَّ أَنِيـنَ الأُمِّ إِذْ تَجِـدُ الفَقْـدا
يَحِنُّ إِلَيْهِ الجِذْعُ يا قَوْمُ هَكَذا أَمَا نَحْنُ أَوْلى أَنْ نَحِنَّ لَهُ وَجْدا
إِذا كانَ جِذْعٌ لَم يُطِقْ بُعْدَ ساعَةٍ فَلَيْـسَ وَفـاءً أَنْ نُطِيـقَ لَـهُ بُعْـدا



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، كفاءَ حقه، والحمد لله الذي أقام الحجةَ على جميع خلقه، والحمد لله الذي اصطفى مَنْ شاء مِنْ خلقه، واجتبى من الأمم لشرعه وهدايته، والحمد لله الذي هدانا لدينه وعبادته، وخدمةِ وحيهِ وشرِعته، والحمد لله الذي أقام من الكائنات أدلةَ وجوده، ومن الجمادات أدلةَ قدرته وإرادته، وفي خَلقه بيانَ تصرفه وفعله، وخص الإنسانَ بالتكريم والتفضيل على كثير من خلقه.

والحمد لله الذي خص من عباده مَنْ شاء بالمقام الأسمى، وقذف في قلوب محبيه من نوره الأسنى، فأضفى على ذواتهم كمالاً، وعلى صفاتهم جمالاً، وعلى أخلاقهم أفضالاً، وعلى أعيانهم سناء وبهاء، فجعلهم هداةً مهتدين، يدلّون الخلقَ عليه، ويحببونه إلى خلقه، فأوجب الثناء والفضل.

والحمد لله الذي خصَّنا بالنبي الأمي، والرسول المكي المدني، الذي جعله خيرَ عباده، من مخلوقاته في أرضه وسمواته، الذي حَنَّت إليه الجمادات، واشتاقت إليه الصم الشامخات، واستجابت لأوامره الأشجارُ والمزنُ الهاطلات، وأعلنت بنبوته الجماداتُ والحيواناتُ، وقذف في الجماد والنبات والحيوان وكثير

من الإنس والجان محبتَه وطاعتَه، فصارﷺ أحبَّ إليهم من كل شيء، فإن غاب عنهم حزنوا، وإن اقترب منهم سعدوا وفرحوا، وإن تأخر عنهم اشتاقوا وتألموا، وإن ناداهم استجابوا وأقبلوا، وإن أمرهم أطاعوا ونفَّذوا،... وإن استنطقهم نطقوا، وإن دعاهم لبّوا وأسرعوا، ... فصاروا بذلك حجةً على المؤمنين المسلمين، وعلى الفسقة والمنافقين والكافرين، بل على العقلاء والمدركين.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على هذا النبي الكريم، والرسول العظيم، والمصطفى الفخيم، والمجتبى الأمين، الذي أرسله ربه تبارك وتعالى إلى جميع خلقه، فأوجب عليهم الإيمانَ به ومحبتَه، وجعله رحمةً مهداةً، وسراجاً منيراً، وأقام به الحجة، بتبليغه الرسالة، وأدائه الأمانة، وتعليمه الشريعة، ونصحه للأمة، حتى تركهم ـ حين فارقهم ـ على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، صلوات الله تعالى وسلاماته عليه وعلى آله وصحابته وأتباعه وإخوانه... كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وزكانا ـ جميعاً ـ بالصلاة والسلام عليه، وألهمنا رشدنا، وسلك بنا سبيلَ الاستقامة على شرعه، وأخذ بنواصينا إلى طريق الحق الأبلج، وحضرنا بالعصمة، ورزقنا الاتباعَ الكاملَ لحبيبه وصفيِّه عليه وآله الصلاة والسلام، وحشرنا مع أحبابنا تحت لوائه، وسقانا من يده شربةً هنيئةً مريئةً، لا نظمأ بعدها في عرصات يوم القيامة، وجعلنا جميعاً في زمرته، وأكرمنا بصحبته في أعلى عليين... إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. اللهم آمين.

أما بعد،

فهذا الكتاب «محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد» هو الحلقة الرابعة ضمن سلسلة «بين الإنسان والجماد» حيث كتبت قبله ثلاثة كتب كبار، هي:

١ ـ الإدراك عند الجمادات.

٢ ـ معرفة الله عز وجل بين الإنسان والجماد.

٣ ـ شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ.

وهذا هو الرابع فيها. ولكن شاء الله تعالى أن يكون هو الأول منها يخرج إلى النور، فهذه هي طبعته الثانية. أسأله تعالى أن يجعله ـ وسائر كتبي وأعمالي ـ عنده مقبولاً، ويدخره لي عندما ألقاه؛ في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. إنه قادر عزيز حكيم.

وهذا الموضوع نادر ـ فيما أظـن ـ إذ لا أعلم كتاباً في هذا الموضوع، وقد لفت نظري هذا الموضوع منذ فترة من الزمن، وقد بينت ذلك في مقدمة «الإدراك عند الجمادات».

وإذا كنا نجهل الإدراك عند الجمادات بمظاهره المختلفة، فذلك راجع إلى عدم إحاطتنا نحن البشر بما هو حولنا، وتقصيرنا في الإدراك، كما قال جلّ شأنه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(١).

والإدراك عند الجمادات له مظاهر مختلفة متعددة، ذكرها القرآن الكريم في كثير من آياته، وذكرها النبي المصطفى ﷺ في كثير من أحاديثه. وقد بينت ذلك في «الإدراك عند الجمادات» وأظنه أول كتاب في بابه، بل لعل هذه السلسلة كلها أول ما يفرد في بابها أيضاً. والعلم عنده تعالى.

ومن مظاهر ذلك الإدراك: التسبيح، والسجود، والتلبية، والفرح، والسرور، والحزن، والشوق، والكلام، والتسخير، والطاعة، والامتثال، والبكاء، والإباء، والخوف، والخشية، والخشوع، والدعاء، والاستغفار، والفزع، والحب، والحنين، والاهتزاز والطرب، والسلام، والاختيار، والمعاقبة، والحركة، والاستجابة، والاستعاذة، والنمو، والشهادة، والتأمين، والقشعريرة، والفساد، والسماع، والإشفاق، والاستئذان، . . . إلخ، كما بينت ذلك كله بنصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية الصحيحة الصريحة.

---

(١) سورة الإسراء (٤٤).

وإن عدم شعورنا وإحساسنا وإدراكنا لكثير من مظاهر الإدراك عند الجمادات هو عدا عن كونه نابعاً من قصورنا وعدم إحاطتنا بما في هذا الكون، ومن عدم سبرنا لحقائقه... فإنه أيضاً لا يغير من حقائق هذا الكون وتكوينه وقيامه، وذلك لأن لهذا الكون رباً خلقه وأتقنه وأحسنه وصرّفه،... فهو تحت قبضته وتصرفه، يعلم ما تقوم به أجزاء هذا الكون بدقة وانتظام، لأنه خلقها. وخلقها تعمل وتقوم بمهمة موكولة بها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] بلى إنه عالم بالذي خلقه وسخره وكوّنه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

وقد عظّم الله سبحانه وتعالى نبيه المصطفى ﷺ، وأكرمه، وفضّله على سائر الخلق، وأعطاه من الميزات والخصائص ما لا يوجد عند أحد من البشر،... وقد توسعت في بيان عظمة هذا النبي الكريم ﷺ في عدد من كتبي. مثل «الأمانة العظمى ونبيها ﷺ» و«الخصائص التي انفرد بها ﷺ...» و«عظيم قدره ﷺ...» و «فضائل النبي الكريم ﷺ...» وغيرها.

ومن عظم مكانة هذا النبي الكريم ﷺ عند ربه جلّ شأنه أن غرس اللهُ سبحانه وتعالى في الجمادات والنباتات والحيوانات حبَّه وطاعتَه ﷺ، وجعلها سبحانه وتعالى عارفةً به، عالمة برسالته ﷺ.

وقد ظهر هذا الحب وتلك الطاعة في مظاهر مختلفة منوعة، فقد حنَّ الجذع شوقاً إليه ﷺ حين فارقه، وسلَّم الحجر والشجر، وسجدت له ﷺ - سجود تحية وتعظيم وتوقير، لا سجود عبادة - وأحبه جبل أُحد، وأضاءت المدينة المنورة يوم دخوله ﷺ عليها، وأظلمت يوم وفاته ﷺ، فرحت فأضاءت، وحزنت

---

(١) سورة الملك (١٤).

(٢) سورة الزمر (٦٧).

فأظلمت، وسبّح الطعام بين يديه ﷺ، كما سبّح الحصى بيديه ﷺ، وأخبرته الشاة المسمومة خوفاً عليه ﷺ، وأخبرته الشاة التي ذُبحت بغير إذن أهلها غَيْرَةً عليه ﷺ، وأظهر الشجر خوفه عليه، وشهدت الأشجار بنبوته، والحيوانات برسالته ﷺ، كما احترمته الحيوانات ووقّرته، وسجد الجمل له وانقاد خضوعاً واستجابة لأمره ﷺ.

واستجابت الجبال (أحد، وحراء، وثبير) لأوامره ﷺ، بعد أن اهتزت طرباً وفرحاً وسروراً به ﷺ، وتفرّق الغيم بإشارته، وانشق القمر لرغبته ﷺ، وتساقطت الأصنام بإشارته ﷺ، واهتز المنبر واضطرب خشية وهيبة لقراءته ﷺ، وتجزأت ذرات التراب فدخلت في عيون جيوش الكفار من حفنة رماها بقبضته ﷺ، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وكثر الطعام والماء واللبن... لطلبه ﷺ، واستجابت الأحجار والأشجار والحيوانات لأوامره ﷺ، ودرّ الضرع الحائل لطلبه ﷺ.

وما ظهر من الجمادات والنباتات والحيوانات... من مظاهر الحب والطاعة والامتثال... إنما هو ـ إضافة على إدراكها ـ هو فرع اعترافها بنبوته ورسالته ﷺ، والله سبحانه وتعالى هو الذي غرس فيها هذا الحب والطاعة والامتثال بمظاهرها، وألزمها بالاعتراف بنبوته وطاعته ﷺ.

وقد بيّن النبي ﷺ اعترافَ هذا الكون (بما فيه من جماد وحيوان ونبات وإنس وجن) بنبوته ورسالته ﷺ، وما يلزم هذا الاعتراف من حب وتقدير وطاعة واحترام وخوف عليه...

فعن جابر رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر... الحديث، وفيه قصة سجود الجمل ـ فقال ﷺ: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس» كما سيأتي بيانه وتخريجه في الفقرة (الحادية عشرة) من الحقائق.

وكيف لا يعلم ما بين السماء والأرض به ﷺ وهو رحمة للعالمين. كما قال

سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

والعالَمون: السموات والأرض وما بينهما، من بحار وقفار، وجبال ووديان، ونبات وثمار، وأنهار وأشجار، . . . وما بين ذلك من الهواء والطير، والحيوان والإنس والجان، والجماد والسائل، والساكن والمتحرك. . . وما يحتوي عليه الجو وباطن الأرض، . . . وما نراه وما لا نراه.

ويدل على هذا قول الله تعالى لموسى وهٰرون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى هو رب كل هذه المخلوقات التي خلقها، وجعل نبيه وصفيه محمداً ﷺ رحمة لها، لذا فهي تعرفه، وتقر برسالته ونبوته ﷺ، ومن لازم ذلك المحبة والطاعة، والله تعالى أعلم.

وإذا كانت الجمادات والحيوانات والنباتات هي من حيث الظاهر غير مكلفة ولا مأمورة ـ لأن التكليف منوط بالعقل والإدراك، ولا عقل لها من حيث الظاهر ـ فما بال الإنسان العاقل المدرك المكلف المأمور.

إن الإنسان مكلف بطاعة الله تعالى ومحبته، وبطاعة رسول الله ﷺ ومحبته. وقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله عزّ وجلّ وفي سنة رسوله ﷺ تأمر بطاعة رسول الله ﷺ ومحبته، وتحذر من مخالفته ومشاقته ومحادّته ومعصيته ﷺ. كما جاءت نصوص السنة الشريفة تحذر من تقديم محبة أي مخلوق على محبة رسول الله ﷺ، بل جاء التهديد في كتاب الله تعالى لمن يقدم محبة أي محبوب على محبة رسول الله ﷺ.

كما جاءت نصوص الكتاب والسنة تبين أن طاعة رسول الله ﷺ هي طاعة الله تعالـى.

---

(١) سورة الأنبياء (١٠٧).

(٢) سورة الشعراء (١٦ ـ ٢٤).

إضافة إلى النصوص الكثيرة في بيان ثواب وفوائد وثمرات الطاعة والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وإذا كان الجماد ـ هو الصلد الأصم غير العاقل وغير المكلف في الظاهر ـ قد ظهرت منه المحبة والطاعة وشركه فيهما الحيوان والنبات. فكيف بنا معشر المسلمين وقد جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة تأمر وتحث على المحبة والطاعة، وتبيّن لنا الثمرات والفوائد؟ والإنسان هو العاقل المكلف الذي سخَّر الله تعالى له هذا الكون لخدمته. لذا فلا يدع العاقلُ من البشر الجمادَ يسبقه ويتقدم عليه في المحبة والطاعة، وعليه أن يكون هو السابق.

إن الله سبحانه وتعالى أقام الحجة على الإنسان ـ كل الناس ـ في حنين الجذع، وشوق الجماد، ومحبة الجبال، واستجابة الأحجار والأشجار، واحترام وتقدير الحيوان. . .

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى[1]: يا معشر المسلمين؛ الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه ﷺ.

أسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا أهلاً لمحبته وطاعته، ويرزقنا المحبة التامة والطاعة الكاملة والاتباع الدقيق في الحال والقال والفعل لرسول الله ﷺ.

وأصل هذا الكتاب هو محاضرة كنت قد ألقيتها بعد صلاة الظهر من يوم الأحد، الثاني عشر (١٢) من شهر رمضان المبارك من عام (١٤١٢) اثني عشر وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية، في مكتبة كلية التربية فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، بمناسبة افتتاح الموسم الثقافي فيها.

ونظراً لإلحاح الأخوة من الأساتذة والأصحاب والأحباب بطبع هذه

---

(١) انظر: صحيح ابن حبان (٨: ١٥١) وسنن الدارمي (١: ٢٥) وفضائل المدينة للجندي (٣٧) ومسند ابن المبارك (٢٩) ومسند علي بن الجعد (٤٦٦) ومسند أبي يعلى (٥: ١٤٣) والشمائل المحمدية لابن كثير (٢٤٠) وفتح الباري (٦: ٦٠٢).

المحاضرة وسائر محاضراتي التي ألقيتها في المدينة المنورة، على ساكنها الصلاة والسلام، ليعم النفع بها بإذن الله تعالى، طلبت من أولادي ـ سلمهم الله تعالى ووفقهم للخير ـ نقل تلك المحاضرات من الأشرطة المسجلة عليها، لعدم وجود شيء مكتوب منها عندي. ثم أعدت فيها النظر من جديد، فأضفت بعض النصوص، بعد ذكري لها بألفاظها، وتجريدها من التعليقات التي ذِكرتها أثناء المحاضرة، وذكرت بعض الفوائد على تلك النصوص، ووضعت عناوين جزئية، ليسهل حفظها وفهمها، مع العزو لتلك النصوص في حواشي الكتاب، ليسهل الرجوع إليها لمن أراد استكمال الموضوع.

ولم أغير من الباب الأول شيئاً، لأني اختصرته من كتابي «شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ» لكني توسعت في الباب الثاني، لعدم وجود كتاب مستوعب لطاعته ومحبته ﷺ ـ فيما أحسب ـ.

وقد جعلت الكتاب في بابين:

الباب الأول: محبة الجمادات وطاعتها له ﷺ.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: محبة الجمادات له ﷺ.

الفصل الثاني: طاعة الجمادات له ﷺ.

الباب الثاني: محبة الإنسان وطاعته له ﷺ.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: محبة الإنسان له ﷺ.

الفصل الثاني: طاعة الإنسان له ﷺ.

والخاتمة: وقد توسعت فيها، حيث ذكرت المقارنة بين الإنسان والجماد في المحبة والطاعة للنبي ﷺ، ومظاهر تكريم وتفضيل الإنسان، والتلازم بين المحبة

والطاعة، وتكلمت عن الفرق بين ادعاء المحبة والمحبة الصادقة، والطاعة، وأن الله سبحانه وتعالى أغلق جميع الأبواب إلا باب المصطفى ﷺ. أسأله تعالى أن يكرمنا جميعاً بالولوج عليه من باب مصطفاه ﷺ محبة وطاعة واتباعاً...

وفي الختام فإن الحديث عن محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد ليس بالأمر السهل الميسور ـ إلا على من سهله الله تعالى ويسره عليه ـ لأنه يحتاج إلى نفس زكية صافية، وقلب سليم، وروح نقية، وعقل نير، ولب محب، ونظر ثاقب، ونية صادقة خالصة، ومحبة صادقة عالية، وقصد أمين، وسبر لحقائق الأشياء... ومن ثم إلى توفيق من الله عزّ وجلّ من قبل ومن بعد.

وإذا كان الأخوة قد حسنوا فيّ الظن عندما طلبوا مني التحدث في هذا الموضوع، فإني أسأل الله تعالى أن يجعلني خيراً مما يظنون، ويغفر لي ما لا يعلمون، وأن يحققني فيما يقولون، وخيراً مما يقولون، وأن يجعل سريرتي خيراً من علانيتي، ويجعل علانيتي صالحة، ولا يجعل قولي وما أكتبه حجة عليّ، إنه جواد كريم، رؤوف بعباده المذنبين رحيم.

وقبل الدخول في الحديث عن محبة الجمادات للنبي ﷺ سوف أذكر مجموعة من الحقائق التي لا بد من ذكرها، لتكون لنا مدخلاً للموضوع.

أسأله تعالى أن يجعلنا جميعاً من عباده المقبولين، ويرزقنا صدق محبته ومحبة رسوله وصفيه ﷺ، وأن يكرمنا بطاعته وطاعة رسوله وحبيبه ﷺ، وأن يحمينا جميعاً من الفتن الظاهرة والباطنة، ويحفظني في أهلي، وأولادي وزوجي وذريتي ومشايخي وأحبابي، ويجمعنا جميعاً تحت لواء حبيبه المصطفى الكريم ﷺ، ويحفظني فيما بقي من العمر، ويغفر لي ولوالدي ولوالد والدي ولمشايخي وأهلي وأحبابي وللمسلمين والمسلمات.

وأسأله تعالى أن يرزقني الصدق في القول، والإخلاص في العمل، وأن يجعل كتابي هذا وسائر كتبي وأعمالي خالصةً لوجهه الكريم، ومقبولة لديه جل

شأنه، نافعة مدخرة متقبلة في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إنه رؤوف رحيم، وقادر كريم.

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين.

وكتب

أبو إبراهيم

خليل إبراهيم مُلا خاطر العزامي

نزيل المدينة المنورة.

المدينة المنورة

يوم الجمعة ٩ صفر الخير ١٤١٣ هـ

حقائق لا بدّ من ذكرها

وقبل أن أتحدث عن محبة الجمادات وطاعتها للنبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أحب أن أذكر بعض الحقائق التالية لتكون لنا مدخلاً، ندخل منه بعد ذلك على الموضوع الذي سأتحدث عنه.

أولاً: إتقان الخالق جل شأنه صنع هذا الكون وتدبيره بحكمة دقيقة، فلم يخلقه من عبث، ولم يخلقه لعبث، وإنما لحكمة يريدها جلّ شأنه، وقد كثرت النصوص القرآنية الكريمة في هذا الموضوع.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾(٢).

وقال جلّ شأنه: ﴿... بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ...﴾(٣).

وقال عزّ من قائل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ

---

(١) سورة النمل (٨٨).

(٢) سورة السجدة (٧).

(٣) سورة البقرة (١١٧) وسورة الأنعام (١٠١).

﴿ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]، لا لن تجد فيها من فطور.

ثانياً: عظمة هذا الخالق المدبر المصور خالق هذا الكون بهذه الدقة المتناهية وهذا النظام البديع المحكم الصنع...

ثالثاً: جميع ما في هذا الكون هو ملك لله عزّ وجلّ، وهو مقر بوحدانيته وربوبيته، وهو مطيع لأمره تعالى، وممتثل لما يريده جلّ شأنه.

ولو نظرنا إلى قوله جلّ شأنه: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لوجدناها قد تكررت في القرآن الكريم (٤٢) ثنتين وأربعين مرة. وقوله جلّ شأنه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقوله جلّ شأنه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فقد تكرر كثيراً، وأما ما سوى ذلك فقد تكرر كثيراً.

والرب في اللغة: هو المالك، المستحق، الصاحب، السيد المطاع، المدبِّر، المربِّي، القيِّم، المنعم، المولى، والمصلح.

وكل ذلك متطابق، فالله تعالى هو المالك، وهو المستحق للعبادة، وهو الصاحب، وهو السيد المطاع، وهو مدبر الكون، وهو المربي، وهو قيم السموات والأرض، وهو المنعم على خلقه، وهو المولى لهم، والذي يصلحهم جل شأنه.

وأما طاعته وامتثال أمره جلّ شأنه، فيكفي نص واحد لبيان حال تلك الجمادات في طاعتها وامتثالها.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2]، وقد فصلت ذلك في كتابي «الإدراك عند الجمادات» فانظره إن شئت لترى كثيراً من ذلك. والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: قيام هذا الكون بحق العبودية لله عزّ وجلّ، إلا ما كان من فسقة الإنس والجن.

---

(١) سورة الملك (١ ـ ٤).

(٢) سورة فصلت (١١) وانظر «معرفة الله عز وجل بين الإنسان والجماد».

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[1].

وقال جلّ شأنه: ﴿. . . وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ. . .﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ. . .﴾[3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[4].

والنصوص في ذلك كثيرة. انظر إن شئت «الإدراك عند الجمادات» و «معرفة الله عز وجل بين الإنسان والجماد» لترى كيف يقوم هذا الكون بحق العبودية لله عزّ وجلّ.

خامساً: كل ما يجري في هذا الكون فهو بأمر الله عزّ وجلّ، وقدرته، فهو المتصرف في ملكه ما يشاء، لا يشركه فيه أحد.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[5].

وقال جلّ شأنه: ﴿. . وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ. . .﴾[6].

والنصوص القرآنية في ذلك كثيرة ولله الحمد.

---

(١) سورة الأنبياء (١٩ ـ ٢٠).

(٢) سورة الإسراء (٤٤).

(٣) سورة الجمعة (١) وسورة التغابن (١).

(٤) سورة الحشر (١) وسورة الصف (١).

(٥) سورة آل عمران (٢٦ ـ ٢٧).

(٦) سورة المائدة (١٧، ١٨).

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1].

فإذا كانت الآيات السابقات تبين مطلق ملكه، لا بخصوص زمن معين، فإن هذه الآية تبين ذلك يوم القيامة أيضاً، فهو المتصرف بذلك دنيا وأخرى، ولا إله معه ولا ند ولا شريك.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

سادساً: جميع هذا الكون كلِّيّه وجزئيّه مسخَّر بقدرة الله تعالى وأمره، يسير بنظامٍ قَدَّره تعالى له، بحكمة دقيقة متناهية، والنصوص القرآنية كثيرة.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿... وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...﴾[4].

وقال عزّ شأنه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5].

---

(١) سورة غافر (١٥ ـ ١٦).
(٢) سورة الأنبياء (٢٢).
(٣) سورة الأعراف (٥٤).
(٤) سورة النحل (١٤).
(٥) سورة البقرة (١٦٤).

وقال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) إلخ.

وقد استوعبت ذكر ذلك في «الإدراك عند الجمادات» فانظره إن شئت.

سابعاً: تسخير ما في هذا الكون مما بين السماء والأرض للإنسان، سخر الله سبحانه وتعالى ذلك كله بقدرته جلّ شأنه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٢).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٣).

وقال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ...﴾(٤) إلى آخر النصوص، وقد ذكرت كثيراً من ذلك في «الإدراك عند الجمادات».

ثامناً: هذه الجمادات في هذا الكون هي مدركة، هي مطيعة، هي معترفة بربها وخالقها، هي خائفة من عقابه، ومشفقة من عصيانه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(٥). أدركتْ عظمَ وثقل هذه الأمانة، فعرفت أنها لن تستطيع أداءها بالتمام إذا هي حملتها، فأشفقت من ذلك،

---

(١) سورة النحل (٧٩).

(٢) سورة لقمان (٢٠).

(٣) سورة إبراهيم (٣٢ ـ ٣٣).

(٤) سورة الحج (٦٥).

(٥) سورة الأحزاب (٧٢).

وطلبت أن تعبده من غير تكليف بذلك، وحملها الإنسان. وإلا فإنها مطيعة خائفة وجلة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[١] وانظر «الإدراك عند الجمادات» فقد بحثت ذلك بشكل موسع، والحمد لله على فضله.

تاسعاً: إن لله عزّ وجلّ في هذا الكون خواص، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

فضَّل شهر رمضان على سائر شهور السنة، وفضَّل ليلة القدر على سائر الليالي، وفضَّل يوم الجمعة، وفضَّل ساعة الجمعة.... إلخ.

فضَّل الحرمين الشريفين على سائر البلدان، وفضَّل المساجد على سائر البيوت.. الخ.

وأما الإنسان.

فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[٢] حيث قال: ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾.

وقال عزّ شأنه: ﴿ ... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ... ﴾[٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[٤].

عاشراً: تفضيل سيدنا ومولانا محمد ﷺ على سائر الخلق، بما فيهم الأنبياء والمرسلون عليه وعليهم الصلاة والسلام. ويتضح ذلك:

---

(١) سورة فصلت (١١).
(٢) سورة الإسراء (٧٠).
(٣) سورة الإسراء (٥٥).
(٤) سورة البقرة (٢٥٣).

من أخذ العهد على جميع الأنبياء والرسل السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام أن إذا بُعث وواحدٌ منهم حي يلزمه اتباعه والإيمان به ونصرته.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم[2].

ورواه الترمذي[3] ـ وصححه ـ من نفس الطريق بلفظ «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة...» ثم ذكر تتمة الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة...» رواه مسلم[4].

وعند الترمذي وغيره[5] من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ـ وصححه أيضاً ـ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس

(١) سورة آل عمران (٨١).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي ﷺ، رقم (١).
(٣) سنن الترمذي: كتاب المناقب: باب فضل النبي ﷺ، رقم (٣٦٠٥، ٣٦٠٦).
(٤) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٣).
(٥) سنن الترمذي: كتاب التفسير: باب ومن تفسير سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وكتاب المناقب: الباب السابق: رقم (٣٦١٥) وسنن أبي داود: كتاب السنة: باب التخيير بين الأنبياء، رقم (٣٦٧٣).

يوم القيامة. . .» الحديث بطوله متفق عليه[1]. وانظر «عظيم قدره ﷺ. . . .»، وأصله: «الخصائص التي انفرد بها عليه وآله الصلاة والسلام عن سائر الأنبياء السابقين» عليهم السلام، فقد استوعبت كثيراً من ذلك.

الحادي عشر: اعتراف هذا الكون بما فيه من الجمادات والنباتات والحيوانات والجن والإنس. . . سوى فسقة الإنس والجن، برسول الله ﷺ، والإيمان به، بما قذف الله سبحانه تعالى فيها من الاعتراف به، ومعرفته، ومحبته، وطاعته، واحترامه، وتقديره، والخوف عليه، . . . ﷺ.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار، إذا فيه جمل لا يدخل الحائطَ أحدٌ إلا شدَّ عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فجاء، حتى أتى الحائط، فدعا البعير، فجاء واضعاً مشفَرَه إلى الأرض، حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي ﷺ: «هاتوا خطاماً» فخطمه، فدفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس فقال: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس» رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والطبراني وعبد بن حميد والبزار، وأبو نعيم والبيهقي والتيمي ـ ثلاثتهم ـ في دلائل النبوة، والضياء المقدسي. من طرق عن الأجلح عن ذبال بن حرملة عن جابر رضي الله عنه.

ورواه أحمد والطبراني والبيهقي وصححه ـ بلفظه ـ من حديث يعلى بن مرة رضي الله عنه، ورجال أحمد رجال الصحيح.

ورواه الطبراني برجال ثقات ـ وفي بعضهم ضعف ـ وأبو نعيم والبيهقي والتيمي ـ كلهم في الدلائل ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

وقال البيهقي رحمه الله تعالى: هذه طرق جيدة متعددة تفيد غلبة الظن أو

---

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ. .﴾، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم (٣٢٧، ٣٢٨).

القطع. . . . اهـ[1] والله تعالى أعلم.

وبعد ذكري لهذه الحقائق أنتقل للحديث عن محبة الجمادات وطاعتها للنبي ﷺ، ثم عن محبة الإنسان وطاعته للنبي ﷺ، سائلاً المولى جل شأنه أن يحققنا جميعاً بما أقول، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) مسند أحمد (٣: ٣١٠) وسنن الدارمي (١: ١٩ رقم ١٨) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٤٧٣) ومسند عبد بن حميد (٣٣٧) رقم (١١٢٢) وكشف الأستار (٣: ١٥٠ ـ ١٥١) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٤٩١ ـ ٤٩٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦: ٢٢ ـ ٢٣، ٢٦، ٣٠) وللتيمي (١٢٩، ١٥٨ رقم ١٣٩، ١٨٣) وانظر: كنز العمال (١١: ٤١٧) والشمائل لابن كثير (٢٦٣ ـ ٢٦٤، ٢٧٠) ومجمع الزوائد (٩: ٤ ـ ٧) وسبل الهدى والرشاد (٢: ٣٩٢) والمعجم الكبير (٢٢: ٢٦١ ـ ٢٦٢) والأحاديث الطوال (٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم ٥٤) وعلامات النبوة (١٢٥ ـ ١٢٦).

الباب الأول

محبة الجمادات وطاعتها للنبي ﷺ

وفيه فصلان

الفصل الأول: محبة الجمادات للنبي ﷺ

الفصل الثاني: طاعة الجمادات للنبي ﷺ

الفصل الأول

محبة الجمادات للنبي ﷺ

سأذكر في هذا الفصل محبة الجمادات، ومظاهر تلك المحبة من فرح وسرور.. وسجود، وحنين، وخوف على المحبوب، وحرص عليه، ....

كما أني سأذكر فيه ـ إن شاء الله تعالى ـ موضوعاً من النبات، وآخر من الحيوان، وذلك لاستكمال الموضوع، حتى لا يُظَنَّ أن الجماد هو المنفرد بالمحبة، بل على العكس فإذا كان الجماد يحب ويفرح ويحن ويخاف... فالنبات والحيوان من باب أولى، لأن فيهما حياة، وفي الحيوان نوعاً من الإدراك. لكني لن أطيل في هذا الموضوع، إن شاء الله تعالى.

١ ـ محبة جبل أحد(١)

من المعهود أن يحب الإنسان الجماد، إذا كان المنظر جميلاً، لما يبعث في النفوس الهدوء والسكينة، والطمأنينة... أو مما يثير في نفس الإنسان مشاعرَ معينة أو ذكريات.... أو كان مما يرتاح فيه.. أما أن يحب الجمادُ الإنسانَ فهذا غير مألوف ولا معروف ظاهراً، لأنه جماد لا ينطق.

ولكن الله سبحانه وتعالى جعل الإدراك في الجمادات، كما بينت ذلك في «الإدراك عند الجمادات» ومن مظاهر الإدراك: الحب والبغض، والبكاء... والفرح، والسرور، والغضب، والطاعة، والخشوع، والرهبة، والرغبة، والذكر، والخشية.... إلخ.

---

(١) انظر ما كتبته في هذا الموضوع «فضائل المدينة المنورة» و«شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ» و«الإدراك عند الجمادات».

ومن الإدراك في جبل أحد، ما أكرمه الله تعالى أن جعل فيه محبة النبي ﷺ، كما جعل محبته في النبي ﷺ، وقد أعلن النبي ﷺ ذلك، وتواتر ذلك عنه ﷺ[1]. لكني أقتصر على ذكر حديثين فقط.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً، وبدا له أُحُدٌ، قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه..» متفق عليه، واللفظ للبخاري[2].

وفي رواية لهما[3] أيضاً عنه رضي الله عنه، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أُحُدٍ فقال: «إن أُحُداً جبلٌ يحبنا ونحبه».

وعن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك.. الحديث بطوله، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إني مسرع، فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث» فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة، فقال ﷺ: «هذه طابة، وهذا أُحد، وهو جبل يحبنا ونحبه...» متفق عليه[4].

والشاهد في هذين الحديثين قوله ﷺ: «جبل يحبنا».

إن الإنسان السوي يحب المناظر الطبيعية الجميلة، من جبال مكسوة بالخضرة، وبساتين منوعة الخضرة،... ويألف ذلك، ويرغب تكرار النظر إليه، والجلوس عنده، والتمتع فيه، لما يجد في نفسه من أُنْسٍ وراحة ومتعة وهناء وطمأنينة وهدوء وسعادة...

---

(١) انظر: النظم المتناثر (١٢٨) والأزهار المتناثرة (١٣٦).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب فضل الخدمة في الغزو، ورواه في غيرهما مطولاً. وصحيح مسلم: كتاب الحج: باب فضل المدينة...، رقم (٤٦٢).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب أحد جبل يحبنا ونحبه ـ وفي غيرها ـ وصحيح مسلم: كتاب الحج: باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (٥٠٤).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الزكاة: باب خرص التمر. وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب معجزات النبي ﷺ، رقم (١١) ورواه مختصراً: كتاب الحج: باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (٥٠٣).

كما يحب الشيء الجميل، والشيء الحسن، حتى لو كان جماداً.

أما محبة الجماد الصلد القاسي للإنسان، فهذا غير مألوف ولا معهود، بل مستغرب وغير معروف، ولهذا قدَّمه ﷺ، لإظهار حصوله، وبيان وجوده، وتأكيد فضله، «يحبنا ونحبه» في جميع الروايات.

ومن نظر إلى جبل أُحد، لا يجد فيه ـ من حيث الظاهر ـ ما يفرقه عن غيره من الجبال، بل قد يكون دون غيره بكثير، فلا شجر ولا ماء ولا خضرة.. لديه، لذا قل أن يثير ما يُحَبُّ لأجله. فلما غرس الله سبحانه وتعالى فيه محبة النبي ﷺ، بادله النبيُّ ﷺ نفسَ الحب والشوق.

كما أن في هذا النص إظهاراً لمكانة النبي ﷺ، حيث غرس الله سبحانه وتعالى في الجمادات حبه، والشوق إليه... مع ما في الجبال من يباسة وفظاظة وقوة وصلابة وكثافة.

فإذا كانت الجمادات ـ والمتمثلة بالجبال في هذا الحديث ـ وهي التي لا تعقل ولا تدرك في الظاهر، قد أسكن الله سبحانه وتعالى فيها محبة نبيه وصفيه وحبيبه ﷺ.... فما أدل على محبة الله تعالى لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام، وعلو قدره ورفعة مكانته عليه وآله الصلاة والسلام عنده سبحانه وتعالى.

وإذا كانت الجمادات ـ وهي التي لا تعقل ولا تدرك، وغير مكلفة في الظاهر ـ ومع هذا تحبه ﷺ، فكيف يكون الإنسان العاقل المدرك المكلف المأمور؟!.

٢ ـ حنين الجذع

كان النبي ﷺ ـ قبل صنع المنبر الشريف ـ يخطب قائماً، معتمداً على جذع نخلٍ منصوب على يمين المحراب اليوم[١]، فإذا طال وقوفه ﷺ، أو شعر بتعب،

(١) لأنه لم يكن في زمانه ﷺ محراب، بل كان يصلي إلى جذع سارية من سواري المسجد، وهي أمام المحراب اليوم.

وضع يده الشريفة على ذلك الجذع.

فلما كثر عدد المصلين، وضاق المسجد بأهله، بحيث لم يعد يَرى من صلى في آخر المسجد ـ أو من كان جالساً في آخره ـ رسولَ الله ﷺ إذا وقف في مقدمة المسجد، إضافة إلى تقدم سن النبي ﷺ، مما جعل الصحابة رضي الله عنهم يشفقون عليه ﷺ إذا طال وقوفه، لذا اقترحوا عليه رضي الله عنهم أن يصنعوا له منبراً، فوافق ﷺ على ذلك، فصنعوه من طرفاء الغابة.

فلما وضع النبيُّ ﷺ المنبرَ في موضعه، وخرج ﷺ من باب الحجرة الشريفة، يوم الجمعة يريد المنبر، ليخطب عليه، فلما جاوز الجذع الذي كان يخطبُ عنده، ولم يقف عنده، وصعد المنبر، وإذا بالجذع يصرخ صراخاً شديداً، ويحن حنيناً مؤلماً، حتى ارتج المسجد، وتساقط الغبار، وتشقق الجذع، ولم يهدأ، فتأثر الصحابة رضي الله عنهم، وبكوا بكاءً شديداً لحنين هذا الجذع.

هذا الجذع الميت يحن ويصيح؟! نعم.

نزل النبي ﷺ عن المنبر، وأتى الجذع، فوضع يده الشريفة عليه، ومسحه، ثم ضمه ﷺ بين يديه إلى صدره الشريف حتى هدأ، ثم خيره ﷺ ـ بأن ساره وهو الجماد الميت ـ بين أن يكون شجرة في الجنة؛ تشرب عروقه من أنهار الجنة وعيونها، ويأكل منه المؤمنون فيها، وبين أن يعود شجرة مثمرة في الدنيا؛ وذلك بأن يعيده إلى بستانه الذي كان فيه، فيثمر من جديد، ويأكل منه المؤمنون؟.

فاختار الجذع المشوق الحنّان أن يكون شجرة في الجنة، فقال عليه وآله الصلاة والسلام: «أفعل إن شاء الله، أفعل إن شاء الله، أفعل إن شاء الله»، فسكن الجذع. ثم قال عليه وآله الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لبقي يحن إلى قيام الساعة شوقاً إلى رسول الله ﷺ» كما جاء في عدد من الأحاديث.

هذا جماد ابتعد عنه رسول الله ﷺ أمتاراً أربعة أو خمسة، فلم يتحمل هذا

البعد، ولم يطقه، فصرخ، وحنَّ شوقاً إليه عليه وآله الصلاة والسلام، وحزناً على فراقه ﷺ، ولم يهدأ حتى ضمه ﷺ وخيّره.

ما هذا العقل عند هذا الجماد ـ لو جاز لي أن أقول ـ لم يرض أن يعود ثانية شجرة مثمرة في بستانه الذي كان فيه، لأنه لو عاد فيه لكان بعيداً عن رسول الله ﷺ عشرات أو مئات الأمتار، فإذا لم يطق بُعْدَ أمتارٍ معدودات، فكيف سيصبر ويطيق بُعْدَ المسافة الطويلة؟ ولم يرض أن يعود شجرة في الدنيا مرة ثانية، لأنه لو حصل ذلك فلا بدّ من الفراق مرة أخرى، وذلك إما بموته هو، أو بانتقال النبي ﷺ من هذه الدار ـ وكلاهما حتم مقضي ـ وقد يكون موته هو قبل انتقال النبي ﷺ، وما حن وصرخ إلا لأنه ﷺ ابتعد عنه أمتاراً.

وفي كل الأحوال البعد حاصل، والفراق آتٍ وطويل، وإذا لم يصبر ولم يتحمل بُعد رسول الله ﷺ عنه عدة أمتار، فكيف سيكون حاله إذا أعيد إلى بستانه، وابتعد عن رسول الله ﷺ مسافة طويلة.

لذا اختار الجنة التي لا موت فيها، بل فيها البقاء والحياة، وإن فارقه رسول الله ﷺ ـ بالموت ـ أو هو بالدفن والبلاء مثلاً، فإنما هو فراق مؤقت وقصير، لحياة طويلة وإقامة مستديمة، ودار إقامة. ولم يرد الفناء مع البقاء المحدود، لأن الجنة هي دار الحياة، وليس فيها موت.

ويكون الجذع الحنّان بذلك قد أقام الله سبحانه وتعالى ـ بحنينه وشوقه ـ الحجةَ على جميع المسلمين فيما لو قصَّروا أو تهاونوا، إذ هم أَولى بهذا الشوق والحنين من هذا الجذع الجماد الميت.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى[1]: يا معشر المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه ﷺ.

---

(١) صحيح ابن حبان (٨: ١٥١) وسنن الدارمي (١: ٢٥) وفضائل المدينة للجندي (٣٧) ومسند ابن المبارك (٢٩) ومسند علي بن الجعد (٤٦٦) ومسند أبي يعلى (٥: ١٤٣) والشمائل لابن كثير (٢٤٠) وفتح الباري (٦: ٦٠٢).

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: ما أعطى الله تعالى نبياً ما أعطى محمداً ﷺ.

فقال له عمرو بن سواد: أعطى عيسى عليه السلام إحياءَ الموتى.

فقال الشافعي رحمه الله: أعطى محمداً ﷺ حنين الجذع حتى سُمع صوتُه، هذا أكبر من ذلك. ا هـ[1].

فإحياء الميت إعادته إلى ما كان عليه، أما حنين الجذع فهو أكبر، لأن الجذع أصله نبات، فلو أعيد كان نباتاً، والنبات لا يتكلم ولا ينطق ولا يحس الإحساس الذي يحسه العاقلون من المدركين، بينما هنا ـ وهو جماد ميت ـ جعله يدرك ويحس، ويحب ويحزن. . . . كحال أشرف المخلوقين العاقلين المدركين، فكان هذا أبلغ وأعظم من إحياء الموتى، والجذع تجاوز إحياؤه النبات، إلى أشرف المخلوقين حيث انقلب من جماد ميت إلى عاقل مدرك كامل الصفات، والقدرة الإلهية لا يعجزها ذلك.

وقد تواتر حنين الجذع لرسول الله ﷺ، وشوقه إليه عندما فارقه ﷺ، حيث ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وقد نص عدد من العلماء على ذلك، وقد ذكرت في «فضائل المدينة المنوّرة» و «الإدراك عند الجمادات» و «شوق الجمادات» مجموعة منها، فمن أراد الوقوف عليها، فليرجع إلى تلك الكتب[2].

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه (٨٣) ودلائل النبوة للبيهقي (٦ : ٦٨) وفتح الباري (٦ : ٦٠٣) والشمائل لابن كثير (٢٥١) وانظر عظيم قدره ﷺ (٦٣ ـ ٦٤).

(٢) وانظر أيضاً: لقط اللآلىء المتناثرة (٢٨ ـ ٣٠) وقطف الأزهار (٢٦٨ ـ ٢٧٠) والأزهار (٣٦) والخصائص الكبرى (٢ : ٧٥ ـ ٧٦) والزرقاني على المواهب (٥ : ١٣٣ ـ ١٤٠) ونظم المتناثر (١٣٤ ـ ١٣٥) وحجة الله على العالمين (٢ : ١٢ ـ ١٤) وانظر دلائل النبوة للبيهقي (٢ : ٥٦٣) والشفا (١ : ٤٢٧) وفتح الباري (٦ : ٥٩٢).

٣ ـ سلام الحجر

ومن مظاهر المحبة: السلام، فالإنسان لا يسلم غالباً إلا على من يعرف ويحب، وإن كان الشرع قد حث على السلام ـ مطلقاً ـ على من عرفت ومن لم تعرف من المسلمين.

فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عَلَيَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن» رواه مسلم[(١)].

وفي رواية عند أحمد والترمذي والبيهقي[(٢)] «كان يسلِّم عَلَيَّ ليالي بُعثت».

وهذا السلام من هذا الحجر يوضحه حديث علي رضي الله عنه، وإن كان الحجر لم يتفرد بالسلام على النبي ﷺ، بل كان يشاركه الجبل والشجر والمدر.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ بمكة؛ فخرجنا معه في بعض نواحيها، فمررنا بين الجبال والشجر، فلم نمر بشجرة ولا جبل، إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

وفي لفظ «فجعل لا يمر على شجرٍ ولا حجرٍ إلا سلَّم عليه».

وفي لفظ للبيهقي: «فما استقبله شجر ولا مدر إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله».

وفي لفظ له أيضاً: لقد رأيتني أدخل معه ـ يعني النبي ﷺ ـ فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، وأنا أسمعه. رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي، والدارمي وأبو نعيم والبيهقي[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (٢).

(٢) مسند أحمد (٥: ١٠٥) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ، رقم (٣٦٢٤) ودلائل النبوة للبيهقي (٢: ١٥٣).

(٣) سنن الترمذي: كتاب المناقب: الباب (٦)، رقم (٣٦٢٦) وسنن الدارمي: المقدمة (١: ٢٠ ـ ٢١ رقم ٢١) والمستدرك (٢: ٦٢٠) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٥٠١) وللبيهقي (٢: ١٥٣ ـ ١٥٤) والشمائل لابن كثير (٢٥٩ ـ ٢٦٠).

ففي هذه النصوص: لا يمر بحجر ولا شجر ولا جبل ولا مدر إلا وسلَّم عليه، عليه وآله الصلاة والسلام.

ومن الملاحظ أن في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن الذي سمع السلام هو النبي ﷺ، لأنه كان بمفرده. أما في حديث علي رضي الله عنه، فقد سمعه علي رضي الله عنه ومن معه، إضافة إلى سماع النبي ﷺ، فهو نطق صريح من هذه الجبال والأشجار والأحجار في سلامها على النبي ﷺ.

كما روى أهل السير أن النبي ﷺ، حين أراد الله عزّ وجلّ كرامته، وابتدأه بالنبوة، جعل لا يمر في شعاب مكة وبطون أوديتها، فيمر بحجر أو شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله[1].

ويلاحظ هنا صيغة السلام: السلام عليك يا رسول الله. ولم يكن هذا السلام معروفاً في الجاهلية. فهي تعلم إذاً أنه رسول الله ﷺ. لذا خاطبته بهذه الصيغة، فما بال فسقة الإنس والجن؟!.

٤ ـ وأما سلام الشجر

فأقتصر على رواية واحدة.

فعن يعلى بن مرة الثقفي رضي الله عنه قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ، فنزلنا منزلاً، فنام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض، حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذكرت له ذلك، فقال: «هي شجرة استأذنت ربها عزّ وجلّ في أن تسلِّم عليَّ، فأذن لها» رواه أحمد والطبراني وأبو نعيم والبيهقي، ورجال أحمد وأبي نعيم والبيهقي رجال الصحيح[2]، وللحديث شواهد.

---

(١) انظر الدلائل للبيهقي (٢: ١٤٣ ـ ١٤٦) والطبقات لابن سعد (١: ١٥٧) والسيرة لابن هشام (١: ٢٥٢ ـ ٢٥٣) ولابن كثير (١: ٤٠١ ـ ٤٠٢، ٤١١).

(٢) مسند أحمد (٤: ١٧٣) والمعجم الكبير (٢٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٦) ولم يَسُق لفظه كاملاً، والدلائل لأبي نعيم (٢: ٥٠٤) والدلائل للبيهقي (٦: ٢٣ ـ ٢٤) ودلائل النبوة لإسماعيل التيمي (٤٥ رقم ١٩).

٥ ـ سجود الحجر والشجر

وقد بلغ الأمر ذروته في سجود الحجر والشجر.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه رسول الله ﷺ، وأشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب ـ وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إليهم ـ قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟.

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يُسجَدُ إلا لنبي. رواه ابن أبي شيبة واللفظ له، والترمذي وحسنه، وأبو نعيم، والحاكم وصححه، والتيمي والبيهقي، وكلهم من طريق قراد [واسمه عبد الرحمن بن غزوان الضَّبِّي] وهو ثقة، عن يونس بن أبي إسحاق ـ وهو صدوق من رجال مسلم ـ عن أبي بكر بن أبي موسى ـ وهو ثقة ـ عن أبيه.

وقال الحافظ رحمه الله في الفتح ـ عند شرحه لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي ـ: وأول ذلك مطلقاً ما سمعه من بحيرا الراهب، وهو عند الترمذي بإسناد قوي عن أبي موسى. . إلخ.

وقال في الإصابة ـ في ترجمة الراهب بحيرا ـ: وقد وردت هذه القصة بإسناد رجاله ثقات، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أخرجها الترمذي وغيره، ولم يسم فيها الراهب، وزاد فيه لفظة منكرة، وهي قوله: «وأتبعه أبو بكر بلالاً»، وسبب نكارتها أن أبا بكر رضي الله عنه حينئذٍ لم يكن متأهلاً، ولا اشترى يومئذٍ بلالاً، إلا أن يحمل على أن هذه الجملة الأخيرة مقتطعة من حديث آخر، أدرجت في هذا الحديث، وفي الجملة هي وهم من أحد رواته. ا هـ.

قلت: ما ذكرته من أصل الحديث هو رواية ابن أبي شيبة، وليس فيه تلك

الزيادة، وإنما هي في سنن الترمذي ومن بعد، وبما قال الحافظ رحمه الله يجاب على استنكار الحافظ الذهبي رحمه الله على هذه الجملة في تلخيص المستدرك[١].

ولسجود الشجر شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه:

فعنه رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني عامرٍ إلى النبي ﷺ ـ كان يداوي ويعالج ـ فقال: يا محمد، إنك تقول أشياء، فهل لك أن أداويك؟ قال: فدعاه رسول الله ﷺ، ثم قال له: «هل لك أن أريك آيةً؟» وعنده نخل وشجر، قال: فدعا رسول الله ﷺ عذقاً منها، فأقبل إليه، وهو يسجد ويرفع، ويسجد ويرفع رأسه، **حتى انتهى إليه، فقام بين يديه، ثم قال له رسول الله ﷺ: «ارجع إلى مكانك»** فرجع إلى مكانه، فقال: والله لا أكذبك بشيء تقوله بعدها أبداً. رواه أبو يعلى برجال الصحيح ـ عدا إبراهيم بن الحجاج ـ وهو ثقة، وصححه ابن حبان، ورواه الطبراني في الكبير وابن سعد وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهما هكذا. ورواه **أحمد، والترمذي والحاكم ـ وصححاه ـ والبخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير،** والدارمي والبيهقي بنحوه أيضاً من غير لفظ السجود[٢]. والله تعالى أعلم.

والسجود نوعان:

الأول: سجود عبادة، فهذا لا يجوز شرعاً، لا في شرعنا ولا في شرع من قبلنا إلا لله عزّ وجلّ.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١١: ٤٧٩ ـ ٤٨٠) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، رقم (٣٦٢٠) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١: ٢١٧ ـ ٢١٨) وللبيهقي (٢: ٢٤ ـ ٢٦) والمستدرك (٢: ٦١٥ ـ ٦١٦) والإصابة (١: ٣٥٣) وفتح الباري (١: ٣٥٣).

(٢) مسند أبي يعلى (٤: ٢٣٦ ـ ٢٣٧) وصحيح ابن حبان (٨: ١٥٧ ـ ١٥٨) ط بيروت، والمعجم الكبير (١٢: ١٠٠، ١١٠ ـ ١١١) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٥٠٦) وللبيهقي (٦: ١٥ ـ ١٧) ومعجم الزوائد (٩: ١٠) والتاريخ الكبير (٣: ٣) والطبقات الكبرى (١: ١٨٢) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: الباب (٦)، رقم (٣٦٢٨) ومسند أحمد (١: ٢٢٣) وسنن الدارمي (١: ٢٠) والمستدرك (٢: ٦٢٠) وعلامات النبوة (٣٢٦ ـ ٣٢٧) والشمائل لابن كثير (٢٤٠ ـ ٢٤٢).

والثاني: سجود تحية وتعظيم، وهذا كان موجوداً من بدء خلق الإنسان إلى زمن النبي ﷺ. وهو جائز في الديانات السماوية السابقة. ومنه سجود الملائكة لآدم عليه السلام على رأي الكثيرين. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(1) والنصوص في ذلك كثيرة.

وقال الله عزّ وجلّ في قصة يوسف وأبويه عليهم السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾(2) هذا سجود تحية وتعظيم، وهو موجود في شرع من قبلنا، وبقي مستمراً إلى زمن النبي ﷺ، ويدل على ذلك:

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا؟» قال: يا رسول الله، قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك، قال: «فلا تفعل، فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها...» الحديث، رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان ورجاله رجال الصحيح.

ورواه أحمد والبزار برجال الصحيح، والحاكم وصححه وأقره الذهبي، وجعلوه من حديث معاذ نفسه(3)، وللحديث شواهد أخرى كثيرة.

فهذا السجود هو تحية وتعظيم وإكبار، وليس هو سجود عبادة. ومع هذا فقد حرَّم النبيُّ ﷺ هذا النوع من السجود أيضاً، وبيَّن أنه لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لكان ذلك للمرأة أن تسجد لزوجها، لعظم حقه عليها، ولكنه لا يجوز.

وسجود الشجر والحجر والدواب للنبي ﷺ إنما هو للتعظيم، وليس هو

---

(1) سورة البقرة (34).

(2) سورة يوسف (100).

(3) مسند أحمد (4 : 381) وسنن ابن ماجه: كتاب النكاح: باب حق الزوج على المرأة، رقم (1853)، والسنن الكبرى (7: 292)، وصحيح ابن حبان (6 : 186 ـ 187) والمستدرك (4 : 172) ومجمع الزوائد (4 : 309 ـ 310).

سجود عبادة، فتنبه لذلك، والله تعالى أعلم.

٦ ـ إضاءة المدينة يوم دخوله ﷺ

ومن مظاهر المحبة إظهار السرور والبشر بقدوم الحبيب، فينعكس ذلك نوراً وإضاءة على المحب، كما أن من مظاهر المحبة الحزن والأسى على فراق المحبوب. وهكذا كانت المدينة يوم استقبالها النبي ﷺ يوم الهجرة، ويوم توديعها له ﷺ يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء من المدينة كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ أظلم من المدينة كلُّ شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا. رواه أحمد، والترمذي وابن حبان والحاكم ـ وصححوه ـ وابن ماجه والدارمي والبغوي وأبو يعلى وغيرهم(١).

فرحت المدينة به ﷺ يوم قدومه عليها فأضاءت، وحزنت عليه ﷺ يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى فأظلمت، وهكذا شأن المحب. والله تعالى أعلم.

٧ ـ إخبار الشاة المسمومة

إن من شأن المحب أن يخاف على محبوبه من كل شيء يسيئه، فضلاً عن أن يؤذيه، أما إذا كان الأمر يصل إلى حد الهلاك فلا يمكن للمحب أن يصبر على هلاك محبوبه، لذا فإنه يسارع إلى العمل على نجاته وإنقاذه منه بكل وسيلة يستطيع

---

(١) مسند أحمد (٣: ٢٢١، ٢٦٨ و ٢٨٧ بنحوه) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب فضل النبي ﷺ، رقم (٣٦١٨) والشمائل له (٣٣٣ ـ ٣٣٤) ط بيروت، وسنن ابن ماجه: كتاب الجنائز: باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٣١) والمستدرك (٣: ٧٥) وصحيح ابن حبان (٨: ٢١٨) والموارد، رقم (٢١٦٢) وشرح السنة (١٤: ٤٩ ـ ٥٠) وسنن الدارمي (١: ٤١ رقم ٨٩) ومسند أبي يعلى (٦: ٥١، ١١٠) والطبقات الكبرى (٢: ٢٧٤) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٥١٦) بنحوه.

القيام بها، وهذا ما حصل فعلاً.

لما انتهت غزوة خيبر سألت يهوديةٌ عن أحب الأعضاء إلى رسول الله ﷺ من الشاة، فلما أُخبرت بذلك، ذَبحتْ شاةً وطبختها، وسمَّتْها، وزادت السم في الذراع، وقدمتها للنبي ﷺ، فلما جلس ومعه بعض أصحابه رضي الله عنهم، وتناول الذراع، أخبرته الذراع بأنها مسمومة، وأن الشاة كلها مسمومة، فقال ﷺ لأصحابه: «ارفعوا أيديكم» ثم دعا يهود فاعترفوا بذلك.

وقد وردت هذه القصة في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، كما رواها أهل المغازي والسير في غزوة خيبر. لكنني سأقتصر على ذكر بعض النصوص.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك، قال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك». متفق عليه واللفظ لمسلم[(١)].

جاء في رواية البزار[(٢)] من هذا الحديث: فلما مدَّ يده ليأكل قال رسول الله ﷺ: «إن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة» ثم ذكر الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فُتحت خيبر، أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم [زاد في رواية أبي داود والبيهقي، فقال ﷺ: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»] فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود»، فجُمعوا له، فقال رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقوني عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان: فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الهبة: باب قبول هبة المشرك. وصحيح مسلم: كتاب السلام: باب السم، رقم (٤٥).

(٢) كشف الأستار (٣: ١٤٠ ـ ١٤١) ومجمع الزوائد (٨: ٢٩٥).

بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت... الحديث، وفيه: ثم قال لهم: «هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم، فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟» فقالوا: نعم. فقال: «ما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. رواه البخاري(١).

وفي حديث جابر رضي الله عنه ـ عند أبي داود(٢) ـ قال لهم رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم» وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية، فدعاها، فقال لها: «أسممتِ هذه الشاة؟» قالت اليهودية: من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه في يدي، للذراع».

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «أمسكوا، فإن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة» رواه البزار برجال ثقات(٣).

إلى آخر النصوص في ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى(٤): في الحديث إخباره ﷺ عن الغيب، وتكليم الجماد له ﷺ. اهـ.

وهكذا شأن المحب يخاف على محبوبه، يغار على محبوبه، ويخاف عليه من الأذى، فكيف بما هو أعظم؟.

٨ ـ إخبار الشاة التي ذبحت بغير إذن أهلها

كما أن من شأن المحب أن يغار على محبوبه التقي النقي الورع الزاهد...

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الطب: باب ما يذكر في سم النبي ﷺ ـ وفي غيرهما ـ وسنن أبي داود: كتاب الديات: باب في من سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات...، رقم (٤٥١٢).
(٢) سنن أبي داود: في الكتاب والباب السابقين، رقم (٤٥١٠).
(٣) كشف الأستار (٣: ١٤١) ومجمع الزوائد (٨: ٢٩٥)، وانظر السيرة النبوية لابن كثير (٣: ٣٩٤ ـ ٤٠١).
(٤) فتح الباري (١٠: ٢٤٦).

أن يدخل جوفه مالٌ مشبوه، أو طعام مشبوه.. لأن في ذلك إيذاء له، وهو لا يريد له الإيذاء، بل يخاف عليه أشد من خوفه على نفسه، وهذا ما حصل من الشاة التي ذُبحت من غير إذن أهلها، وقُدمت له ﷺ ومعه بعض أصحابه رضي الله عنهم، حيث أخبرته بذلك.

فعن رجل من الأنصار رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فرأيت رسول الله ﷺ - وهو على القبر - يوصي الحافرَ: «أَوْسع من قِبَلِ رِجْليه، أَوْسع من قِبَل رأسه» فلما رجع، استقبله داعي امرأةٍ، فجاء، وجيء بالطعام، فوَضع يدَه، ثم وضع القومُ فأكلوا، فنظر آباؤنا رسولَ الله ﷺ يلوك لقمةً في فمه، ثم قال: «أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها» فأرسلت المرأة، قالت يا رسول الله، إني أرسلت إلى البقيع، ليُشترى لي شاة، فلم أجد، **فأرسلتُ** إلى جارٍ لي قد اشترى شاةً: أن أرسل إليَّ بها بثمنها، فلم يوجد فأرسلتُ إلى امرأته، **فأرسلتْ** إليّ بها، فقال رسول الله ﷺ: «أطعميه الأسارى» رواه أبو داود وأحمد والبيهقي والدارقطني بأسانيد صحيحة(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ وأصحابه، مروا بامرأةٍ، فذبحت لهم شاةً، واتخذت لهم طعاماً، فلما رجع قالت: يا رسول الله، إنا اتخذنا لكم طعاماً، فادخلوا فكلوا، فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا لا يبدؤون حتى يبتدىء النبي ﷺ، فأخذ النبي ﷺ لقمةً، فلم يستطع أن يسيغها، فقال النبي ﷺ: «هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها» فقالت المرأة: يا نبي الله، إنا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ، ولا يحتشمون منا، نأخذ منهم، ويأخذون منا. رواه أحمد برجال الصحيح(٢).

فقد حفظ الله سبحانه وتعالى نبيه وصفيه ﷺ أن يأكل مالاً حراماً، فأخبرته

---

(١) سنن أبي داود: كتاب البيوع: باب في اجتناب الشبهات، رقم (٣٣٣٢) ومسند أحمد (٥: ٢٩٣ - ٢٩٤) وسنن الدارقطني (٤: ٢٨٥ - ٢٨٦) ودلائل النبوة (٦: ٣١٠).
(٢) مسند أحمد (٣: ٣٥١) ومجمع الزوائد (٤: ١٧٢ - ١٧٣).

اللقمة التي وضعها ﷺ في فمه. وكل ذلك حفظ من الله تعالى وعناية. والله تعالى أعلم.

٩ ـ تسبيح الطعام

ومن مظاهر الحب: إظهارُ السرور من المحب بين يدي محبوبه، ولهذا كان الطعام يسبح بين يدي رسول الله ﷺ، وهذا لون من ألوان التعبير عن المحبة، وإن كان خارقاً للعادة، فإن كل ما ذكرته ـ وما سأذكره ـ هو خارق للعادة أيضاً.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقَلّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلةً من ماء» فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ. ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. رواه البخاري(١).

وفي رواية الإسماعيلي والترمذي والبيهقي(٢) ـ لهذا الحديث ـ: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعامَ، ونحن نسمع تسبيح الطعام.

وهذا النص يدل على التكرار «كنا نسمع»، والله تعالى أعلم.

وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فدعا بالطعام، وكان الطعام يسبح. رواه ابن حبان(٣) بسند قوي.

١٠ ـ تسبيح الحصى

وإذا كان في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان المسبِّح هو

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام.

(٢) فتح الباري (٦ : ٥٩٢)، وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب (٦)، رقم (٣٦٣٣) وقال: حسن صحيح، ودلائل النبوة (٦ : ٦٢).

(٣) صحيح ابن حبان (٨ : ١٤٤).

الطعام، فإنا نجد الحصى تسبِّح بين يدي رسول الله ﷺ أيضاً، ولم يقتصر تسبيحها على كونها في يد رسول الله ﷺ، بل سبحت في يد أبي بكر ويد عمر ويد عثمان رضي الله عنهم جيمعاً. ولكن ذلك كان بدفعه هو ﷺ.

والنبي ﷺ لم يأمر الحصيات ـ ظاهراً ـ ولكن الفعل أبلغ من القول.

فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: إني لشاهد عند النبي ﷺ في حلقة، وفي يده حصيات، فسَبَّحْنَ في يده ـ وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ يسمع تسبيحَهن مَنْ في الحلقة، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى أبي بكر، فسبَّحْن مع أبي بكر، يسمع تسبيحَهن مَنْ في الحلقة، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عمر، فسبَّحْن في يده، يسمع تسبيحَهن مَنْ في الحلقة، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عثمان، فسبَّحْن في يده، ثم دفعهن إلينا، فلم يسبّحن مع أحد منا. رواه أبو نعيم في دلائل النبوة ـ بإسنادين ـ أحدهما برجال ثقات. ورواه البزار بإسنادين أحدهما برجال ثقات، ورواه ابن أبي عاصم بإسناد جيد، ورواه البيهقي والطبراني في الأوسط، من طريق آخر. وقال الهيثمي عن إسناد البزار الأول: إسناده صحيح. وقال في موطن آخر: رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف. ورواه التيمي مختصراً ومطولاً في الدلائل[1].

قلت: وإسناد أبي نعيم الأول وإسناد البزار الثاني كافيان لصحة الحديث. والله تعالى أعلم.

١١ ـ إخبار الشجرة له ليلة الجن

كما أن من شأن المحب الخوف على محبوبه فيما يرتاب منه، ويخشى عليه، ولما كان الجن من عالم غير عالم الإنس، وقد جلس نفر منهم خلف الشجرة

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٥٥٥، ٥٥٦) وللبيهقي (٦: ٦٤ ـ ٦٥) وللتيمي (٤٧، ٢١٥) والسنة (٢: ٥٤٣) وكشف الأستار (٣: ١٣٥ ـ ١٣٦) ومجمع الزوائد (٥: ١٧٩) و (٨: ٢٩٨ ـ ٢٩٩) وانظر الشمائل لابن كثير (٢٥٦ ـ ٢٥٨).

يستمعون القرآن الذي كان يقرؤه عليه وآله الصلاة والسلام، في تلك الليلة المؤلمة، بعد أن لقِيَ من أهل الطائف ما لقي، لذا أخبرته تلك الشجرة بوجود هؤلاء النفر الغرباء الذين يستمعون إليه ﷺ.

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: سألت مسروقاً: من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك (يعني عبد الله) أنه آذنته بهم شجرة. متفق عليه[1].

١٢ ـ شهادة الشجر بنبوته ﷺ

كما أن من شأن المحب إسعاد محبوبه، ومساعدته على الخير، ومعاونته عليه، والشهادة له فيما يعلم. وإن مما يعلم الجماد والشجر... رسالة رسول الله ﷺ، فإذا استُشْهِد شيء من ذلك: نطق به؛ إبلاغاً للأمانة، وتصديقاً للرسالة، وأداءً للشهادة.

وهذا ما حصل عندما استشهد رسول الله ﷺ شجرةَ سَمُرٍ من الشجر.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فأقبل أعرابيٌ، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أين تريد؟» قال: إلى أهلي، قال: «هل لك إلى خير؟» قال: ما هو؟، قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال ﷺ: «هذه السَّمُرَة» فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تَخُدُّ الأرض خداً، حتى كانت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إن يتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت إليك، فكنت معك. رواه ابن حبان والدارمي وأبو يعلى والطبراني في الكبير والبزار والبيهقي في الدلائل. وقال ابن كثير ـ بعد ذكره من

---

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ذكر الجن. وصحيح مسلم: كتاب الصلاة: باب الجهر بالقراءة في الصبح، والقراءة على الجن، رقم (١٥٣).

طريق الحاكم ـ: هذا إسناد جيد ولم يخرجوه، ولا رواه الإمام أحمد، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى والبزار. وقال البوصيري ـ فيما نقله الشيخ حبيب الرحمن، في تعليقه على المطالب ـ: رواه أبو يعلى بسند صحيح والبزار والطبراني وابن حبان في صحيحه[1].

قلت: وللحديث شواهد من حديث جابر عند مسلم، وأنس وعمر وابن عباس ويعلى وبريدة رضي الله عنهم. وقد ذكرت طرقهم وراوياتهم في «شوق الجمادات».

وفي هذا النص أمران:

أولاً ـ طاعة الشجر في دعوة النبي ﷺ، إذ أمرها في الحضور ثم في الانصراف، وهذا خارق للعادة.

ثانياً ـ شهادة الشجر له ﷺ، لله تعالى بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالنبوة والرسالة، مع النطق بذلك، بحيث سمع الأعرابي هذا الكلام منها، مما حمله على هذا القول. وكل ذلك خارق للعادة أيضاً. ولكن الله تعالى الذي أيد رسول الله ﷺ بما هو أكبر من هذا: قادر على ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

١٣ ـ أدب الحيوانات

إن من شأن المحب عدم إزعاج من يحب، ومن شأنه توقيره واحترامه، والعمل على إدخال السرور والراحة إليه. وإذا كان الإنسان العاقل المكلف يفعل ذلك مع من يحب، فإن الحيوان قد صدر منه نحو ذلك، وذلك أن الله عزّ وجلّ

(١) صحيح ابن حبان (٨: ١٥٠) وموارد الظمآن، رقم (٢١١٠)، وسنن الدارمي (١: ١٧ ـ ١٨) رقم (١٦) ومسند أبي يعلى (١٠: ٣٤) وكشف الأستار (٣: ١٣٣ ـ ١٣٤) والمعجم الكبير (١٢: ٤٣١ ـ ٤٣٢) رقم (١٣٥٨٢) ومجمع الزوائد (٨: ٢٩٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦: ١٤ ـ ١٥) والمطالب العالية (٤: ١٦) رقم (٣٨٣٦) وينظر الحاشية. والشمائل لابن كثير (٢٤٢) ط ثانية.

غرس في الجمادات والنباتات والحيوانات الاعتراف به والعلم به ﷺ، ومن لازم ذلك توقيره واحترامه وعدم ازعاجه والعمل على راحته.. ﷺ.

وبذلك يكون الحيوان قد شارك الإنسان في ذلك. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد غرس في نفوس الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان ـ محبة النبي ﷺ وطاعته وتوقيره وتعزيره واحترامه.... والعمل على راحته... وظهر ذلك منهم بمظاهر عديدة.. فإن الحيوان قد أظهر شيئاً من ذلك، لكن على حسب حاله.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لآل رسول الله ﷺ وحشٌ، فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد، وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل، ربض فلم يترمرم، ما دام رسول الله ﷺ في البيت، كراهية أن يؤذيه. رواه أحمد ـ من طريقين ـ وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل والدارقطني برجال الصحيح. وقال ابن كثير رحمه الله عن سند أحمد: هذا الإسناد على شرط الصحيح، ولم يخرجوه، وهو حديث مشهور[(١)]. اهـ. والله تعالى أعلم.

فهذا حيوان بهيم يحترم ويقدِّر ـ النبيَّ ﷺ ـ ويبجله ويجله، ولا يزعجه بحركته، ولا يؤذيه بلعبه واشتداده، فإذا أحس بدخوله ﷺ ربض ولم يتحرك، وهو حيوان. فماذا يقال للمسلمين الذين يصدر عنهم ما يؤذي من صراخ وعويل.. عند الحجرة الشريفة، وعند افتتاح أبواب الحرم في السَحَر، وفي الروضة الشريفة، وفي المناسبات؟! أسأل الله تعالى الأدب الكامل معه ومع نبيه ﷺ، إنه قادر.

---

(١) مسند أحمد (٦: ١١٢ ـ ١١٣، ١٥٠، ٢٠٩) ومسند أبي يعلى (٧: ٤١٨) (٨: ١٢١) وكشف الأستار (٣: ١٥٠) ومجمع الزوائد (٩: ٣ ـ ٤) وجزء الحسن بن عرفة (٨٤ رقم ٧٣) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٤٩١) ودلائل النبوة للبيهقي (٦: ٣١) وشمائل رسول الله ﷺ لابن كثير (٢٨٣) ط ثانية.

وأذكر حادثة طريفة غريبة، تدل على مدى أدب الحيوانات واحترامها وتقديرها للنبي ﷺ، مع أنها حصلت بعد وفاته ﷺ.

فعن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر، فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحاً من ألواحها، فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إليّ يريدني، فقلت يا أباالحارث، أنا مولى رسول الله ﷺ [زاد في روايةٍ، كان من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد] فطأطأ رأسه، وأقبل إليّ، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ووقفني على الطريق، ثم هَمْهَمَ، فظننت أنه يودعني. فكان ذلك آخر عهدي به. رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي، والطبراني في الكبير،والبزار،وعبد الرزاق في مصنفه، وأبو نعيم في الحلية والدلائل، والبيهقي في الدلائل، والتيمي في الدلائل، وأبو يعلى، وعزاه السيوطي في الخصائص: لابن سعد وابن مندة، إضافة لأبي يعلى والبزار والحاكم...[1].

قلت: ورجاله عند عدد منهم ثقات، وقد ورد عند أغلبهم: عن محمد بن المنكدر عنه، لكن ورد عنه أيضاً من طريق أبي ريحانة.

وقد قال ابن سيد الناس رحمه الله تعالى[2]:

والليث أذوى في سفينة مفرداً   بـالـروم في فيفـاء قفـر بلقـع
مــا زال يكلــؤه إلى أن دلَّــهُ   عنـد الأمـان على سـواء المشرع

فإذا كان الأسد ـ وهو الأسد، ويظهر أنه جائع لأنه جاء يريده ـ عندما سمع من سفينةَ رضي الله عنه أنه مولى رسول الله ﷺ ما كان منه إلا أن طأطأ

---

(١) المستدرك (٣: ٦٠٦) ومصنف عبد الرزاق (١١: ٢٨١ ـ ٢٨٢) والمعجم الكبير (٧: ٩٤) وكشف الأستار (٣: ٢٧١) وحلية الأولياء (١: ٣٦٩) ودلائل النبوة له (٢: ٧٤٦ ـ ٧٤٧) وللبيهقي (٦: ٤٥ ـ ٤٦) وللتيمي (١٦٣ رقم ١٩٦) ومجمع الزوائد (٩: ٣٦٦ ـ ٣٦٧) والمطالب العالية (٤: ١٢٤ ـ ١٢٥) وتهذيب الكمال (١١: ٢٠٦) والمقامات العلية (٨٦ ـ ٨٧) والبداية والنهاية (٥: ٣١٦).

(٢) المقامات العلية (٨٦).

رأسه وتأدب، ثم لم يكتف بذلك، بل بقي يسير معه ويوجهه من مكان لآخر، وإذا سمع صوتاً ذهب إليه، ثم عاد إلى سفينةَ رضي الله عنه، حتى أوصله إلى الطريق الذي فيه الجيش الذي كان قد ابتعد عنه.

هذا حيوان مفترس متوحش... وفعل هذا الفعل، فماذا يقول المسلمون المقصِّرون؟!.

وفعل الأسد إنما هو بإذن الله تعالى قذف في قلبه ونفسه التأدب والاحترام ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ...﴾[1] والله تعالى أعلم.

١٤ ـ سجود الجمل

إن قصة سجود الجمل للنبي ﷺ وانقياده له وخضوعه بين يديه واستجابته لأمره.. متواترة[2]، تكررت في مواطن متعددة، وقد رواها عدد من الصحابة، منهم: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأبو هريرة، وعائشة، ويعلى بن مرة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن أبي أوفى، وغيلان بن سلمة، في آخرين، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم. لكنني سأقتصر على ذكر بعض النصوص:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنه كان لنا جمل نستني عليه، وأنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط، والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله قد صار مثل الكلْبِ الكَلِب، نخاف عليك صولته،

---

(١) سورة النساء، الآية: (٦٤).

(٢) انظر قطف الأزهار (٢٦٦) ونظم المتناثر (١٣٧ ـ ١٣٨) والأزهار المتناثرة (٣٦) وإتحاف ذوي الفضائل (١٤١ ـ ١٤٢).

قال: «ليس عليَّ منه بأس» فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه، حتى خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط، حتى أدخله في العمل.

فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذا بهيمة لا يعقل يسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك، قال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لعظم حقه عليها...» الحديث، رواه أحمد والبزار برجال الصحيح غير حفص بن أخي أنس وهو ثقة، وروى البزار نحوه، وروى النسائي آخره، وقال المنذري: إسناد جيد، رواته ثقات مشهورون اهـ، وقال ابن كثير: إسناد جيد. اهـ، وصححه السيوطي في تخريج أحاديث الشفا[1]. والله أعلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ دخل حائطاً من حوائط الأنصار، فإذا فيه جملان يضربان ويرعدان، فاقترب رسول الله ﷺ منهما، فوضعا جرانهما بالأرض، فقال من معه: سجد له، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، ولو كان أحد ينبغي أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لما عظَّمَ الله عليها من حقه» رواه ابن حبان، والبزار بنحوه، وروى الترمذي آخره وحسنه، وإسنادهم حسن[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في سفر... الحديث بطوله، وفيه: ثم سرنا ورسول الله ﷺ بيننا، فجاء جملٌ نادٌّ، فلما كان بين السماطين خر ساجداً، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، من

---

(١) مسند أحمد (٣: ١٥٨) وكشف الأستار (٣: ١٥١ ـ ١٥٢) وعشرة النساء (٢٢٥) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٤٩١ ـ ٤٩٢) ومجمع الزوائد (٩: ٤) والترغيب والترهيب (٤: ١٢٣) والشمائل لابن كثير (٢٦٢ ـ ٢٦٣) والنظم المتناثر (١٣٨).

(٢) صحيح ابن حبان (٦: ١٨٣) وكشف الأستار (٣: ١٥٠) ومجمع الزوائد (٩: ٧) والشمائل لابن كثير (٢٦٥) وسنن الترمذي: كتاب الرضاعة: باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، رقم (١١٥٩).

صاحب هذا الجمل؟» فقال فتية من الأنصار: هو لنا يا رسول الله، قال: «فما شأنه؟» قالوا: سنونا عليه منذ عشرين سنة، فلما كبرت سنُّه وكان عليه شحيمة، أردنا نحره لنقسمه بين غِلمتنا. فقال رسول الله ﷺ: «تبيعونيه؟» قالوا: يا رسول الله هو لك، قال: «فأحسنوا إليه حتى يأتيه أجله» قالوا: يا رسول الله نحن أحق أن نسجد لك من البهائم، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لبشر أن يسجد لبشر، ولو كان ذلك كان النساء لأزواجهن» رواه ابن أبي شيبة والبيهقي، وأبو نعيم في الدلائل، والدارمي، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد، رجاله ثقات(١).

والسجود هنا ـ كما قلت قبل قليل عند سجود الحجر والشجر ـ هو سجود تعظيم وتحية، لا سجود عبادة، لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله عزّ وجلّ. ولما طلب الصحابة الكرام رضي الله عنهم أن يسجدوا له ﷺ تعظيماً وتجلةً وتقديراً، نهاهم عن ذلك، وأعلمهم أن هذا لا يجوز لأحد من البشر ـ حتى لو كان على سبيل التعظيم والتوقير ـ ولو جاز لأحد من البشر لكان للمرأة أن تسجد لزوجها، لكنه لا يجوز، فسَدَّ الباب، وأَغلق الميزاب، صلوات الله وسلامه عليه.

وبعد:

فهذه صور من محبة الجمادات للنبي ﷺ، مع بيان مظاهر تلك المحبة، وقد أضفت إليها صوراً من النبات والحيوان، وهي كلها لا تعقل وغير مكلفة... ومع هذا فقد ظهر منها هذا الشوق والحب والحنين، والخوف والخشية على المحبوب ـ وهو المصطفى ﷺ ـ والتعظيم والتوقير والاحترام، وكراهية الإِيذاء، بل والسجود تعظيماً وتوقيراً، وإظهار الفرح والسرور وذلك بالتسبيح...

---

(١) سنن الدارمي (١: ١٨ ـ ١٩) رقم (١٧) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٤٩٠ ـ ٤٩٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦: ١٨ ـ ١٩) ولأبي نعيم (٢: ٤٩٣) والشمائل لابن كثير (٢٧١ ـ ٢٧٢) وانظر الرواية السابقة تحت الحقيقة الحادية عشرة، حيث رواه أحمد وابن أبي شيبة والدارمي وعبد بن حميد والطبراني والبزار وأبو نعيم والبيهقي والتيمي، والله أعلم.

وهذا كله من جماد لا يعقل، فما بال الإنسان العاقل المدرك المكلف المأمور، فهل هو سابق الجماد والنبات والحيوان، فيَنالُ المعية وحلاوة الإيمان.. أم هو دونه؟؟؟

أسأل الله تعالى أن يرزقنا محبته ومحبة نبيه ﷺ ومحبة عباده الصالحين، على الوجه الذي يرضيه، إنه جواد كريم، نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الثاني
طاعة الجمادات للنبي ﷺ

وكما ذكرت في الفصل الأول محبة الجمادات ـ بمظاهرها المتعددة ـ للنبي ﷺ، مقتصراً على بعض النصوص من غير شرح ولا تطويل. كذلك الأمر هنا سأذكر بإذن الله تعالى طاعة الجمادات للنبي ﷺ.

وكما ذكرت في الفصل الأول نصاً من النبات وآخر من الحيوان، فكذلك سأفعل هنا إن شاء الله تعالى ولا أزيد، حتى يكون الموضوع متكاملاً إن شاء الله عزّ وجلّ.

١ ـ استجابة جبل أُحد

إن من شأن المحب إن لقي محبوبه أن يفرح ويُسر ويَستبشر بلقياه... ويظهر من الفرح والسرور... ما يعبر به عما في كامن نفسه، ولكن لا يصل ما يظهر تجاه محبوبه إلى حد الإيذاء به، وهذا ما حصل بالنسبة لجبل أُحد، وكذا جبل حراء، وجبل ثبير، عندما صعد عليها النبي ﷺ ومعه بعض الأخيار من الصحابة الكرام رضي الله عنهم؛ اهتزت واضطربت ـ وهذا هو تعبيرها عن فرحها وسرورها ونشوتها ـ ولكن لا ينبغي الإيذاء، لذا ركلها ﷺ برجله، وأمرها بالسكون، فاستجابت على الفور وسكنت. وسوف أذكر الأحاديث التي وردت عن كل جبل، ثم أذكر التعليق بعدها إن شاء الله تعالى.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ صعد **أُحُداً** وأبو بكر

وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله وقال: «اثبت أحد، فما عليك إلا نبي أو صِدِّيق أو شهيدان» رواه البخاري[1].

وفي رواية أخرى[1] له أيضاً: «فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: ارتج أُحُدٌ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان، فقال النبي ﷺ: «اثبت أحد، ما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان» رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان برجال الصحيح[2]. وصححه الحافظ ابن حجر، إلى غير ذلك من النصوص.

٢ ـ استجابة جبل حراء

وأما ما جاء في جبل حراء فالأحاديث فيه كثيرة، منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صِدِّيق أو شهيد» رواه مسلم[3].

وزاد في رواية ثانية[3]: وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: أشهد على التسعة أنهم في الجنة، ولو شهدتُ على العاشر لم آثم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»، وباب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وباب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) مسند أحمد (٥: ٣٣١) ومسند أبي يعلى (٦: ٤٩١) ط دار القبلة، وصحيح ابن حبان (٨: ١٤٤) والسنة (٢: ٦٢٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٦: ٣٥١) وفتح الباري (٧: ٣٨).

(٣) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، رقم (٥٠).

بحراء [زاد في رواية قال: اهتز حراء] فقال رسول الله ﷺ: «اثبت حراء، فإنه ليس عليك إلا نبي أو صِدِّيق أو شهيد» قيل: ومن هم؟ قال: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن. قيل: فمن العاشر؟ قال: أنا. رواه أحمد وابن أبي شيبة والطيالسي وأبو داود، والترمذي والحاكم وابن حبان وصححوه، وابن ماجه وأبو يعلى وغيرهم[(١)].

وقد ورد اهتزاز جبل حراء من حديث عثمان، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبُريدة، وابن عباس، رضي الله عنهم أيضاً، وقد ذكرت رواياتهم في «فضائل المدينة المنورة».

٣ ـ استجابة جبل ثبير

ومن ذلك أيضاً استجابة جبل ثبير في مكة، عندما اهتز تحت قدمي النبي ﷺ ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم، فأمره النبي ﷺ بالسكون فسكن.

فعن ثمامة بن حَزْنٍ القشيري رحمه الله تعالى قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال: . . . أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير ـ ثبير مكة ـ ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل، فركله رسول الله ﷺ برجله، وقال: «اسكن ثبير، فإنما عليك نبي وصِدِّيق وشهيدان»؟، قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر، شهدوا لي ورب

(١) مسند أحمد (١: ١٨٨، ١٨٩) وفضائل الصحابة (١: ١١٣ ـ ١١٤) وسنن أبي داود: كتاب السنة: باب في الخلفاء، رقم (٤٦٤٨) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب سعيد بن زيد رضي الله عنه، رقم (٣٧٥٧) وسنن ابن ماجه: المقدمة: فضائل العشرة رضي الله عنهم، رقم (١٣٤) والمستدرك (٣: ٤٥٠ ـ ٤٥١) وصحيح ابن حبان (٩: ٦٩) ومسند الطيالسي (٣٢) ومسند أبي يعلى (٢: ٢٥٨، ٢٥٩) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢: ١٤) والسنة (٢: ٦١٨ وما بعد) ومسند الشاشي (١: ٢٣٦، ٢٣٨ ـ ٢٤٠، ٢٤٦ ـ ٢٤٩).

الكعبة، يعني أني شهيد. رواه الترمذي وحسنه، والنسائي والدارقطني[1].

ففي هذه الأحاديث أمور:

الأولى: اهتزاز هذه الجبال الصُم الشداد عندما صعد عليها النبي ﷺ ومعه هؤلاء الأخيار الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، فرحاً بهم، وسروراً بصعودهم، وانتعاشاً بقربهم. . . ولم يكن اهتزازها زلزلة، بدلالة سكونها بعد أمر النبي ﷺ لها.

وهذه الجبال هي أكبر الجبال في الحجاز، فأحد في المدينة، وحراء وثبير في مكة المكرمة، ومع ذلك فقد اهتزت وطربت.

قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى في العارضة[2]: . . . . إنما اضطربت الصخرة ورجف الجبل استعظاماً لما كان عليه من الشرف، وبمن كان عليه من الأشراف.

ولقد أفاد هذا الحديث فائدة عظيمة، وهي أن عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير شهداء كلهم، وأن أبا بكر صِدِّيق، ومحمداً رسول الله ﷺ نبي عظيم، وقد جمعتْ هؤلاء الشهداء الشهادة، وإن اختلفت أسبابها، وتباينت وجوهها، ولكن لِفَهْمِ شرف هذه الصحبة واجتماعهم جملة: أبان جليل مقدارهم.

وأَمْرُ النبي ﷺ للجبل بالهُدُو والسكون: لأجل شرف من عليه. . .

وقد رجف الجبل بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، وقد رجف بهؤلاء الأعيان، وقد كان ذلك بمكة ـ وبِحِراء ـ وقد كان بالمدينة ـ وبِأُحُد ـ وأنبأنا الله بالفضل مرتين، وَأَكَّدَهُ، وعضد مقدارَهم، ومهَّدَه في جبلين. ا هـ.

فلم تكن الرجفة عن زلزلة أو غضب ـ حاشا لله تعالى ـ وإنما كانت هزة

---

(١) سنن الترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم (٣٧٠٣) وسنن النسائي: كتاب الأحباس: باب وقف المساجد (٦: ٢٣٥ ـ ٢٣٦) وسنن الدارقطني (٤: ١٩٦).

(٢) عارضة الأحوذي (١٣: ١٥١ ـ ١٥٤).

طرب، انتابتها عندما صعد عليها هؤلاء الأشراف وسيدهم ﷺ.

قال ابن المنير ـ فيما نقله القسطلاني ـ رحمهما الله تعالى، في الإرشاد[1]: الحكمة في ذلك أنه لما ارتجف أراد النبي ﷺ أن يبين أن هذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسى عليه السلام لَمَّا حرَّفوا الكَلِمَ، فتلك رجفة الغضب، وهذه هزة الطرب، ولهذا نص على مقام النبوة والصِّدِّيقية والشهادة، التي توجب سرور ما اتصلت به، فأقر الجبل بذلك، فاستقر. ا هـ.

ولهذا عَامَلَ النبي ﷺ هذه الجبال معاملة العاقل بالقول، حيث خاطبها ﷺ بقوله: «اثبت أحد» «اسكن ثبير» «اثبت حراء». . . . وبالفعل أيضاً، وهو ضربه ﷺ لها برجله، فسكنت.

وقد يسأل سائل: إن إبراز صفات هؤلاء الأخيار مدعاة للاهتزاز عند الصعود عليها طرباً وافتخاراً، فكيف تؤمر بالسكون؟.

والجواب: نعم، لكن لما تشرَّفت هذه الجبالُ بهؤلاء الأخيار، كان الأولى بها ـ لما علمت بمنزلة من عليها ـ ألا تكون سبباً في إيذائهم، وهم هم في هذه المراتب، لهذا نبَّهها ﷺ بأوصافهم حتى لا تكون سبباً في الإيذاء، وإن كانت الجبال مسرورة فَرِحَةً بهم، ولكن ما هذا شأن المحب أن يؤذي محبوبه، لهذا استقرت في الحال[2]. والله تعالى أعلم.

بين اهتزاز الجبل بالنبي ﷺ وبمن معه، ورجفة الجبل بموسى عليه السلام وبمن معه[3]

لقد أخبرنا الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم عن اهتزاز الجبل عندما صعد عليه موسى عليه السلام ومعه سبعون من أعيان بني إسرائيل، فهل كانت رجفة الجبل

---

(١) إرشاد الساري (٦ : ٩٧) وانظر لامع الدراري (٨: ١٥٨).
(٢) انظر مرقاة المفاتيح (١١ : ٣٧٢) ولامع الدراري (٨: ١٥٧ ـ ١٥٨).
(٣) مأخوذ من «شوق الجمادات» و «فضائل المدينة المنورة».

بموسى عليه السلام وقومه كما هو الحال في اهتزاز الجبال (أحد، حراء، ثبير) تحت قدمي النبي ﷺ ومعه الكرام من أصحابه رضي الله عنهم؟.

الجواب: لا، ليس الأمر كذلك، بل هناك فرق كبير بين الحالتين.

إن جبال أُحد وحراء وثبير اهتزت طرباً وانتعاشاً بمن كان عليها من الأخيار ـ وهم النبي ﷺ وكرامٌ من أصحابه رضي الله عنهم «صِدِّيق وشهيد» ـ فلما أخبر النبيُّ ﷺ هذه الجبال بأوصاف من عليها، سكنت واستقرت، حتى لا تكون سبباً في إيذائهم، لذا لم يصابوا بأدنى أذى، والحمد لله تعالى.

أما قوم موسى عليه السلام؛ فقد كانوا على النقيض تماماً، عبدوا العجل فعَنَّفَهُم موسى عليه السلام، وطلب منهم التوبة، فأظهروها، والتوبة عندهم هي القتل، فاختار موسى عليه السلام منهم سبعين رجلاً، ليعتذروا إلى الله عزّ وجلّ عن قومهم، ويعرفوا مكانة نبيهم عليه السلام، ولكنهم لما جاء الموعد، وكلم الله تعالى موسى عليه السلام، وإذا بهم ـ بدلاً عن الاعتذار ـ قد تمادوا في غيهم وطغيانهم وظلمهم أنفسهم، وطلبوا الرؤية، لذا غضب الله تعالى عليهم، وأمر الجبل فرجف بهم، فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعاً، حتى طلب موسى عليه السلام من ربه جل شأنه أن يحييهم قائلاً: ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أَهلكتَ خيارهم؟، فأحياهم الله عزّ وجلّ. فإذا كان هذا فعل خيارهم، فكيف بغيرهم؟!.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ

---

(١) سورة الأعراف (١٥٥) وانظر تفسيرها ـ والتي بعدها ـ في تفسير الطبري والقرطبي والرازي والآلوسي، وغيرها.

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

لذا فشتان بين الحالتين، الأولى: اهتزاز طرب وانتعاش وسرور، لذا لم يُصب أحد من الأخيار الذين كانوا عليها بأدنى أذى ـ ولله الحمد والمنّة ـ كيف وهم خيار من خيار. . . والثانية: رجفة غضب وانتقام، لذا ماتوا جميعاً، ثم أحياهم الله تعالى بعد طلب موسى عليه السلام.

مع أن كلاً من الجماعتين معها نبي رسول كريم من أولي العزم، فمع بني إسرائيل: موسى عليه السلام. ومع المسلمين سيدنا رسول الله حبيبه وصفيه ﷺ، لكن الفرق بين الرسولين الكريمين معروف.

أما الفرق بين الجماعتين فكبير وكبير جداً، فالذين مع المصطفى المختار ﷺ هم صدِّيقون شهداء، وهم أعلى درجات عباد الله تعالى الصالحين المقربين بعد الأنبياء عليهم السلام من البشر ﴿. . . مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[2] وهم مطيعون مُتَّبِعون محسنون صالحون، مؤدّون حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ. . . . وهم في غاية الطاعة والامتثال والتصديق واليقين فيما يقوله ﷺ، لا يتجاوزونه، ولا يتقدمون عليه، ولا يطالبون بما لا يجوز. . . . حتى بُشروا بالجنة وهم أحياء. . . . رضي الله عنهم وأرضاهم. . . وهم خير البشر بعد الأنبياء عليهم السلام على مدى الدهور، من خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، فكيف لا يفخر بهم الجبل، ويُسر بهم، ويسعد بهم، ويفرح بهم، وينتعش بصعودهم عليه. . . ؟!.

أما الذين مع موسى عليه السلام فليسوا كذلك، ولا هم قريبون منه، إذ ما أن ابتعد عنهم موسى عليه السلام قليلاً حتى عبدوا العجل، ولما رجع إليهم

---

(١) سورة البقرة (٥٤ ـ ٥٦).

(٢) سورة النساء (٦٩).

قالوا: ﴿... فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1] ولما عاتبهم وأظهروا الندم، طلبوا منه حضور المناجاة ـ وهذه إساءة أدب منهم، وعدم يقين وتصديق ـ فلما حضروا: طلبوا الرؤية، بدلاً من إظهار الندم والاعتذار، وكل ذلك تمادٍ منهم، وظلم لأنفسهم، وعدم تصديق لنبيهم عليه السلام، لذا استحقوا العقوبة من الله عزّ وجلّ، فرجف بهم الجبل، وأخذتهم الصاعقة، فماتوا جميعاً، ثم أحياهم الله عزّ وجلّ تكريماً لنبيه وكليمه موسى عليه السلام. حتى لا يُكَذَّبَ من قبل الآخرين ويُتَّهَمَ. والله تعالى أعلم.

فكما هو الحال في الفرق بين القومين والجماعتين، كذلك الحال في الفرق بين الحالتين. والله تعالى أعلم.

إذ اهتزت هذه الجبال بمن عليها من الأخيار شوقاً وطرباً وانتعاشاً، وسكنت استجابة وطاعة. والله تعالى أعلم.

٤ ـ تفَرُّقُ الغيم

وإذا كان قد صدر الأمر من النبي ﷺ لجبال (أُحد وحراء وثبير) بالقول، ثم بالفعل ـ وهو الضرب بالرجل ـ فإن الإشارة تدل على الأمر أيضاً، والمأمور مطلوب منه الطاعة، سواء صدر الأمر عن طريق التعبير باللفظ، أو التضمين... أو الإشارة.

وهكذا كان الغيم، حيث صدرت له الإشارة من النبي ﷺ بالتفرق، فامتثل وأطاع، فتفرق. وقد كان هذا في المدينة، وهو ﷺ على المنبر.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصابت الناسَ سَنَةٌ على عهد رسول الله ﷺ، فبينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا، قال: فرفع

---

(١) سورة المائدة (٢٤).

رسول الله ﷺ يديه، وما في السماء قزعةٌ، قال: فثار سحاب أمثال الجبال، ثم لم **ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، قال: فَمُطِرنا يومنا ذلك، وفي الغد، ومن بعد الغد، والذي يليه، إلى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو رجل** غيره فقال: يا رسول الله، تهدَّم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» قال: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا تفرجت، حتى صارت المدينةُ مثلَ الجَوْبَةِ، حتى سال الوادي ـ وادي قناة ـ شهراً، قال: فلم يَجِئ أحد من ناحية إلا حدَّث بالجود. متفق عليه(١) وله روايات وطرق متعددة.

زاد في رواية لمسلم: فرأيت السحاب يتمزق، كأنه الملاء حين تُطوى.

حيث شبَّه تقطع الغيم وطيه على بعضه بالملحفة التي تلتف بها المرأة إذا كانت منشورة ثم تطوى. والله تعالى أعلم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى(٢): وفيه (أي في هذا الحديث) عَلَمٌ من أعلام النبوة، في إجابة الله تعالى دعاء نبيه عليه وآله الصلاة والسلام عقبه أو معه، ابتداءً في الاستسقاء وانتهاءً في الاستصحاء، وامتثال السحاب أمره بمجرد الإشارة. ا هـ.

فالشاهد من هذا الحديث قوله: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا تَفَرَّجَتْ حتى صارت المدينةُ مثلَ الجَوْبَةِ. وهذاالنص واضح وصريح في امتثال الغيم لإشارته ﷺ، فتقشع، بل كما في الرواية الثانية عند مسلم «يتمزق» حيث ينطوي بعضه على بعض، وينجاب عن المدينة، فصارت كالدائرة فوقهم، وسطعت الشمسُ، وخرجوا يمشون في الشمس، بينما المطر حوالي المدينة، على الآكام والظِّراب وبطون الأودية ومنابت الشجر والعشب. . . .

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاستسقاء: باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الاستسقاء: باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨ ـ ١٢).

(٢) فتح الباري (٢: ٥٠٧).

فإذا كان الجبل يطيع والمطر يطيع، فما بال الإنسان العاقل المدرك المكلف المأمور؟؟.

٥ ـ انشقاق القمر

لما طلب كفار قريش من رسول الله ﷺ آية ـ وهم متعنتون ـ حتى يؤمنوا، أراهم انشقاق القمر، ومع كل هذا قالوا: سحرنا، وسألوا السُّفَّار، فأخبروهم بأنهم قد رأوا القمر قد انشق إلى فلقتين، وقد استشهد النبي ﷺ من كان حاضراً من الصحابة على ذلك.

والحديث في انشقاق القمر متواتر(١)، وقد نص عليه القرآن الكريم، حيث قال جلّ شأنه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۞ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۞ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾(٢).

ولن أستطيع ذكر جميع روايات الحديث في ذلك، لكني سأقتصر على ذكر رواية واحدة، وأشير إلى بعض الروايات الأخرى إشارة.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آيةً؛ فأراهم انشقاق القمر. متفق عليه(٣).

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فقال لنا رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر نظم المتناثر (١٣٥ رقم ٢٦٤) وإتحاف ذوي الفضائل (١٤٠) وفتح الباري (٧: ١٨٣ وما بعد).

(٢) سورة القمر (١ ـ ٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر ـ وفي غيرها ـ وصحيح مسلم: كتاب المنافقين: باب انشقاق القمر، رقم (٤٦ ـ ٤٧).

«اشهدوا» متفق عليه[1].

وفي رواية للبخاري: «اشهدوا، اشهدوا».

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا» رواه مسلم[2].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد» لفظ مسلم[3].

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾[4] عرفنا سر طاعة الجمادات والنباتات والحيوانات.... للرسول ﷺ، إنما هو ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تعالى لا غير، فهو الآذن والآمر جل شأنه.

لقد طلب كفار قريش منه ﷺ أن يريهم آية ـ وفي بعض الروايات أن يشق لهم القمر ـ فأراهم انشقاق القمر، وأشهد ﷺ على ذلك ربه تعالى بقوله: «اللهم اشهد» وأشهد من حضر من الصحابة رضي الله عنهم بقوله: «اشهدوا...» فهل سلَّم المشركون بما طلبوا أم تمادوا في طغيانهم فادعوا أنه كما سحرهم سحر القمر أيضاً، حتى سألوا من قدم عليهم من المسافرين فأخبروهم؟

علماً بأن القمر لم يزايل السماء ـ في حال انشقاقه ـ بل انفرق باثنتين، وسارت إحداهما حتى صارت وراء جبل حراء، والأخرى من الناحية الأخرى، وصار الجبل بينهما، وكلتا الفلقتين في السماء، وأهل مكة الذين طلبوا ذلك ينظرون إلى هذا المنظر الغريب.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، وكتاب التفسير: باب ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وصحيح مسلم: كتاب المنافقين: باب انشقاق القمر، رقم (٤٣ ـ ٤٤).

(٢) صحيح مسلم: كتاب المنافقين: باب انشقاق القمر، رقم (٤٥).

(٣) صحيح مسلم: في الكتاب والباب السابقين.

(٤) سورة النساء (٦٤).

وأما ما يذكره بعض القصاص، من أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه ﷺ، أو دخلت كل فرقة في كم من أكمامه ﷺ، ونحو هذا الكلام فليس له أصل يعتمد عليه. والله تعالى أعلم[1].

٦ ـ اهتزاز المنبر الشريف

لقد تكلمت في «الإدراك عند الجمادات» عن الخشية التي تنتاب الجماد، وذكرت النصوص القرآنية والحديثية في ذلك، ومن جملة ذلك اهتزاز المنبر الشريف عندما قرأ النبي ﷺ ـ وهو فوقه ـ آية من كتاب الله عزّ وجلّ، ويكرر عظمة الخالق الجبار المتكبر.

فعن عُبيد الله بن مِقْسَم، أنه نظر إلى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كيف يحكي رسولَ الله ﷺ قال: «يأخذ الله عزّ وجلّ سمواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها) أنا الملك» حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أَساقِطٌ هو برسول الله ﷺ؟ رواه مسلم، ورواه البخاري مختصراً[2].

وفي رواية لأحمد وابن حبان ـ وغيرهما[3] ـ عنه رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ـ وهو على المنبر ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4] قال: «يقول الله: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا المتعال [أنا العزيز، أنا

---

(١) انظر الشمائل لابن كثير (١٥٠) ط ثانية.

(٢) صحيح مسلم: كتاب صفة المنافقين: صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٥) وصحيح البخاري: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

(٣) مسند أحمد (٢: ٧٢، ٨٨) وصحيح ابن حبان (٩: ٢١٤) والسنة (١: ٢٤٠ ـ ٢٤١) ومجمع الزوائد (١: ٨٤) والتوحيد (٧٢) والأسماء والصفات (٣٣٩) والعظمة (٢: ٤٥٠ ـ ٤٥١) وتفسير الطبري (٢٤: ١٧) وانظر الدر المنثور (٧: ٢٤٧).

(٤) سورة الزمر (٦٧).

الكريم] يمجِّدُ نفسه» قال: فجعل رسول الله ﷺ يرددها، حتى رجف بها المنبر، حتى ظننا أنه سيخر به. ورجاله رجال الصحيح.

إلى آخر النصوص في ذلك.

لقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية التي تبين حال المشركين - بعد عرضهم على النبي ﷺ أن يعبد معهم الأصنام - فلم يعظِّموا الله تعالى حق عظمته، وكرر هذه الأسماء الجلالية لله عزّ وجلّ، التي يمجد الله عزّ وجلّ بها نفسه، فأحدث ذلك هيبة تخشع لها ذرات الوجود، كيف لا، وهي تقرر حقيقة واقعة يوم القيامة، حيث تكون الأرض جميعاً قبضته تعالى، والسموات مطويات بيمينه، والمنبر جزء من الأرض، لذا أصابته الخشية والرهبة، فاضطرب اضطراباً شديداً، وخاف وفزع، حتى خشي الصحابة رضي الله عنهم سقوطه بالنبي ﷺ.

وخص يوم القيامة بالذكر، لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، ولهذا قال في الحديث: «أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون...؟» فلا أحد يجيب، ولا أحد ينطق، وهذا نظير قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(1).

هذا الجذع اهتز واضطرب لما أخذه من الهيبة والخشية من ذلك الموقف الرهيب - عندما سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية، ويكرر تلك العبارات - فلما سكت النبي ﷺ سكن المنبر، وزال عنه ما اعتراه.

فقراءة النبي ﷺ هي التي حملته على الارتجاف والرهبة، ولو قرأ غيره لما ارتجف. والله تعالى أعلم. فلما سكت ﷺ سكن وهدأ. والله تعالى أعلم.

٧ - تساقط الأصنام بإشارته ﷺ

لقد كان حول الكعبة المشرفة - يوم دخول النبي ﷺ مكة يوم الفتح -

---

(١) سورة غافر (١٦).

(٣٦٠) ثلاثمائة وستون صنماً، فصار ﷺ يشير إليها بقوس في يده ـ واحداً واحداً ـ وهو يقرأ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ. فصارت الأصنام تخر على وجوهها، مع أن الشيطان كان قد ثبّت أسافلها في الأرض بالرصاص.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح، وحول الكعبة ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿. . . جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] ﴿. . . جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[2] متفق عليه[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: . . . . وأقبل رسول الله ﷺ، حتى أقبل إلى الحَجَر، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، قال: فأتى على صنم إلى جنب البيت ـ كانوا يعبدونه ـ قال: وفي يد رسول الله ﷺ قوس، وهو آخذ بِسِيَةِ القوس[4]، فلما أتى على الصنم، جعل يطعنه في عينه، ويقول: ﴿. . . جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ﴾ . . . الحديث. رواه مسلم[5].

وأما تساقط تلك الأصنام بإشارته ﷺ.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح، وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم وستون صنماً، وقد شَّد لهم إبليس أقدامهم بالرصاص، فجاء ومعه قضيبه، فجعل يهوي به إلى كل صنم منها، فيخر لوجهه ويقول: «﴿. . . جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾» حتى مرّ به عليها كلها. رواه الطبراني في الكبير، والتيمي في الدلائل، والبزار، والبيهقي في

---

(١) سورة الإسراء (٨١).

(٢) سورة سبأ (٤٩).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح. وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب إزالة الأصنام يوم دخول مكة، رقم (٨٧).

(٤) أي بطرفها المنحني.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب فتح مكة، رقم (٨٤).

الدلائل ـ باختصار ـ برجال ثقات، والفاكهي[1] وفيه: فلم يبق وثن استقبله إلا سقط على قفاه، مع أنها كانت ثابتة بالأرض، وقد شد لهم إبليس أقدامها بالرصاص.

ورواه الفاكهي والطبراني في الكبير والأوسط ـ وصححه ابن حبان ـ والبيهقي في الدلائل أيضاً: بنحوه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، لكن في إسناده ضعف[2]، ويشهد له ما قبله. والله تعالى أعلم.

٨ ـ رميه ﷺ التراب يوم بدر ويوم حنين

إن مما يلفت النظر في هاتين الغزوتين أن النبي ﷺ حمل كفا من تراب أو حصباء ورمى بها في وجوه الأعداء، فلم يبق منهم واحد إلا دخل التراب في عينيه وفمه، فانهزموا جميعاً، مع أن الميزان هو في كفة الأعداء، فيوم بدر كان عدد المشركين يفوق ثلاثة أمثال عدد المسلمين، إضافة للعدة والسلاح. أما يوم حنين فقد كانت الأرض لهم، وكانوا مستعدين، فباغتوا المسلمين، فانكفأ أغلبهم ولم يبق إلا النبي المصطفى ﷺ ومعه العدد القليل وهو يتقدم إلى العدو، فلما رماهم بحفنة من التراب انكفؤوا مولين منهزمين.

فكم رمى ﷺ؟ رمى حفنة ـ قبضة من تراب ـ لكننا إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر تصورنا ذلك جيداً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ . . .﴾[3]. إذا عرفنا الحقيقة زال العجب والتعجب.

---

(١) المعجم الكبير (١٠: ٣٣٩) وكشف الأستار (٢: ١٦٧) ودلائل النبوة للبيهقي (٥: ٧١ ـ ٧٢) وللتيمي (١٩٦ رقم ٢٦٣) ومجمع الزوائد (٦: ١٧٦) وفتح الباري (٨: ١٧).

(٢) المعجم الكبير (١٢: ٤٥٢) وصحيح ابن حبان (٨: ١٥٧) وموارد الظمآن (٤١٦ رقم ١٧٠٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٥: ٧٢) ومجمع الزوائد (٦: ١٧٦) وفتح الباري (٨: ١٧).

(٣) سورة الأنفال (١٧).

وأقتصر على ذكر بعض النصوص.

فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً، فلما واجهنا العدو، تقدمتُ فأعلو ثنيةً، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسهم، فتوارى عني، فما دريتُ ما صنع، ونظرت إلى القوم، فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ، فولّى صحابة النبي ﷺ، وأرجع منهزماً، وعليّ بردتان، متّزراً بإحداهما، مرتدياً الأخرى، فاسْتَطْلَقَ إزاري، فجمعتهما جميعاً، ومررت على رسول الله ﷺ منهزماً، وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأى ابنُ الأكوع فزعاً» فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله عزّ وجلّ، وقسّم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين. رواه مسلم[1].

وقوله: «ومررت على رسول الله ﷺ منهزماً» هو حال من ابن الأكوع، كما صرح هو في الأول بانهزامه، وتوضحه مقالة النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ هو المنهزم، والإجماع منعقد على عدم جواز اعتقاد انهزامه ﷺ، ولأنه لا يجوز ذلك عليه ﷺ.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نُفاثة الجذامي. فلما التقى المسلمون والكفار، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرَة» فقال

(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب في غزوة حنين، رقم (٨١).

عباس: (وكان رجلاً صيِّتاً): فقلتُ بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرَة؟ قال: فوالله، لكأن عطفتُهم، حين سمعوا صوتي عطفةَ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار... الحديث وفيه: فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس» قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا، ورب محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيأته فيما أرى، قال: فوالله، فما هو إلا أن رماهم بحَصَيَاتِهِ فما زلت أرى حدَّهم كليلاً وأمرَهم مدبراً.

وفي رواية: وقال: «انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة» حتى هزمهم الله. رواه مسلم[1].

وقد ورد هذا المعنى عن عدد من الصحابة منهم: أبو عبد الرحمن الفهري، كما عند أحمد والدارمي الطيالسي وأبي داود والترمذي وابن أبي شيبة والطبراني والبيهقي وغيرهم، ومنهم: عبد الله بن مسعود كما عند أحمد والحاكم، وغيرهما.

وأما في بدر، فقد ذكر أهل المغازي والسير نقولاً كثيرة في هذا الموضوع، كما رووا عن ابن عباس، وحكيم بن حزام، ونوفل بن معاوية، وجاء عن أئمة أهل المغازي كالزهري، ومحمد بن يحيى بن حَبّان، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر وغيرهم، أنه ﷺ أخذ حفنة من تراب ثم استقبل بها كفار قريش فنفح بها في وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه» فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين[2].

فكأنه لم تبق ذرة من ذرات التراب التي رماها ﷺ إلا وتجزأت إلى ذرات كثيرة؛ فدخلت في عيني كافر وأنفه وفمه. والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب في غزوة حنين، رقم (٧٦، ٧٧).

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٣: ٧٨ ـ ٨١) ولأبي نعيم (٢: ٦٠٤ ـ ٦٠٦) والسيرة النبوية لابن كثير (٢: ٤٣٣ ـ ٤٣٥) وسبل الهدى (٤: ٧٤ ـ ٧٥) وغيرها.

٩ ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ

ومما يدخل في هذا الموضوع نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، بعد إحضار قليل من الماء، ثم وضع يده الشريفة فيه ـ لا يغطيها الماء ـ ففار الماء حتى اكتفى به العدد الكثير من الناس، والنصوص في ذلك كثيرة، أقتصر على ذكر أربعةٍ منها، وإن كان قد تكرر ذلك داخل المدينة وخارجها.

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، أن نبي الله ﷺ وأصحابه بالزوراء ـ (قال: والزوراء: بالمدينة عند السوق، والمسجد فيما ثَمَّهْ) ـ دعا بقدح فيه ماء، فوضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ جميع أصحابه.

قال [قتادة] قلت: كم كانوا يا أبا حمزة؟ قال: كانوا زهاء الثلاثمائة. متفق عليه واللفظ لمسلم(١). وللحديث طرق أخرى متعددة وبألفاظ أخرى.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحُدَيْبِيَة، والنبي ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ، فجهش الناس نحوه فقال: «مالكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ، ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا.

قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. متفق عليه واللفظ للبخاري(٢)، حيث رواه مسلم مختصراً.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقَلَّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلة من ماء» فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيَّ على

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب معجزات النبي ﷺ، رقم (٥ ـ ٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم(٧٢).

الطهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ. . . الحديث، رواه البخاري[1].

وفي حديث جابر رضي الله عنه ـ الطويل ـ والذي فيه: قال: فأتينا العسكر، فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ناد بوَضوء» فقلت: ألا وَضوء؟ ألا وَضوء؟ ألا وَضوء؟، قال: قلت: يا رسول الله، ما وجدت في الركب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يُبرِّد لرسول الله ﷺ الماءَ في أشجاب له على حِمارةٍ[2] من جريد، قال: فقال لي: «انطلق إلى فلان بن فلان الأنصاري، فانظر هل في أشجابه من شيء؟» قال: فانطلقت إليه، فنظرت فيها، فلم أجد فيها إلا قطرةً في عزلاءِ[3] شجبٍ منها، لو أني أفرغه لشربه يابسُه، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني لم أجد فيها إلا قطرة في عزلاءِ شجبٍ منها لو أني أفرغه لشربه يابسُه، قال: «اذهب فأتني به» فأتيته به، فأخذه بيده، فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو، ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه فقال: «يا جابر، ناد بجفنةٍ» فقلت: يا جفنة الركب، فأُتيت بها تُحمل، فوضعتها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجفنة هكذا، فبسطها وفرَّق بين أصابعه، ثم وضعها في قعر الجفنة، وقال: «خذ يا جابر، فصب عليَّ، وقل: بسم الله» فصببت عليه، وقلت: بسم الله، فرأيت الماءَ يفور من بين أصابع رسول الله ﷺ، ثم فارت الجفنة، ودارت حتى امتلأت، فقال: «يا جابر، ناد من كان له حاجة بماء» قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا، قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة، وهي ملأى. رواه مسلم[4].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام.

(٢) أشجاب: جمع شجب، وهو السقاء القديم الذي صار شناً. وحمارة: أعواد تعلق عليها أسقية الماء لتبرد.

(٣) أي فم القربة.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق: باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر، رقم (٧٤).

لقد تواتر حديث نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ تواتراً معنوياً.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير، عن الجم الكثير، عن الكافة، متصلة بالصحابة. وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم؛ في المحافل، ومجمع العساكر، ولم يرد عن أحدٍ منهم إنكارٌ على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته ﷺ. اهـ.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: قضية نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، تكررت منه ﷺ في عدة مواطن، في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها: العلمَ القطعيَّ المستفاد من المتواتر المعنوي.

قال: ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه. اهـ من الفتح[1]. ﷺ.

وقد اختلف في كيفية نبع الماء على قولين:

الأول: وهو قول أكثر العلماء: أن معناه أن الماء كان يخرج من نفس أصابعه ﷺ، وينبع من ذاتها، قالوا: وهو أعظم في المعجزة من نبعه من حجرٍ.

ويؤيد هذا أنه جاء في رواية جابر: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه.

قال الإمام المزني رحمه الله: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربه موسى عليه السلام بالعصا، فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم.

قال الحافظ رحمه الله: وأوضح منه ما وقع في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني: فجاؤوا بشنٍ فوضع رسول الله ﷺ يده عليه، ثم فرق أصابعه، فنبع الماء من أصابع رسول الله ﷺ... [قلت: ورواه أحمد والبيهقي بلفظ أوضح وهو: فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، قال فجعل رسول الله ﷺ

---

(١) فتح الباري (٦: ٥٨٥) وانظر الشفا (١: ٤٠٢ _ ٤٠٥).

يده على فم الإناء وفتح أصابعه، قال: فانفجرت من بين أصابعه عيون] ا هـ.

الثاني: يحتمل أن الله تعالى كثَّرَ الماء في ذاته، فصار يفور من بين أصابعه ﷺ، لا من نفسها، وكلاهما معجزة ظاهرة، وآية باهرة.

قال الحافظ رحمه الله: والأول أبلغ في المعجزة، وليس في الأخبار ما يرده، وهو أولى. ا هـ[1]. والله أعلم.

قلت: أما الأول فهو واضح، وأما الثاني: فإما أن يكون الماء كثَّره الله في ذاته، بحيث تتجزأ ذراته إلى أجزاء فيزداد، أو أن يضاف ماء آخر إلى الماء الموجود. وكلاهما إعجاز.

وقد طلب ﷺ الماء رحمة بالأمة، حتى لا يُظَنَّ أنه ﷺ هو الموجد له. مع أن القدرة الإلهية صالحة لإيجاد موجود من معدوم. والله تعالى أعلم.

١٠ ـ تكثير الماء

ومما يدخل في ذلك: تكثيره الماء في غير ما موطن على صفات متنوعة، وذلك إما بإرسال سهم من كنانته ﷺ، أو بوضوئه وصب الماء في البئر، أو بغسل يديه ومجه في قليل من الماء ثم صب ذلك في البئر، أو بمسح القربة بيديه الشريفتين، أو بإرسال حصيات فتلقى في البئر.. إلخ، وهذا كثير، وقد تنوعت وتعددت تلك الحالات، سواء في الحَضَرِ أم في السفر. وأقتصرُ على ذكر بعض النصوص.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: كنا يوم الحُدَيْبِيَة أربع عشرة مائة، ـ والحُدَيْبِيَة بئر ـ فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر، فدعا بماء فمضمض، ومج في البئر، فمكثنا غير بعيد، ثم استقينا

---

(١) انظر فتح الباري (٦: ٥٨٥) والتمهيد (١: ٢٢٠ ـ ٢٢١) وشرح مسلم للنووي (١٥: ٣٨ ـ ٣٩) والحديث في مسند أحمد (١: ٢٥١) والدلائل للبيهقي (٤: ١٢٧ ـ ١٢٨) وانظر الشمائل لابن كثير (١٨٩) ط ثانية.

حتى روينا، ورويت ـ أو صدرت ـ ركائبنا. رواه البخاري[١].

وعنه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأتينا على رَكِيٍّ ذمَّة، يعني قليلة الماء، قال: فنزل فيها ستة أناس، أنا سادسهم. . قال البراء: فكدت بإنائي هل أجد شيئاً أجعله في حلقي؟ فما وجدت، فرفعت الدلو إلى رسول الله ﷺ فغمس يده فيها، فقال ما شاء الله أن يقول، وأعيدت إلينا الدلو بما فيها، قال: فلقد رأيت أحدنا أُخرج بثوبٍ خشيةَ الغرَق، قال: ثم ساحت ـ يعني جرت ـ نهراً. رواه أحمد بإسناد جيد، وقال ابن كثير: والظاهر أنها قصة أخرى غير يوم الحديبية. والله أعلم[٢].

وفي حديث سلمة عند مسلم[٣]: فقعد رسول الله ﷺ على جبا الرَّكِيَّةِ، فإما دعا وإما بصق فيها، قال: فجاشت، فسقينا واستقينا. ا هـ.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ـ في قصة غزوة تبوك ـ وفيه، قال ﷺ: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عينَ تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» فجئناها. . قال: اثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فَجَرَتِ العين بماء منهمر ـ أو قال: غزير ـ حتى استقى الناس، ثم قال: «يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً» رواه مسلم[٤].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: «إنكم إن لا تدركوا الماء غداً تعطشوا» الحديث، وفيه: قال: فنمنا فما أيقظنا إلا حر الشمس، فانتبهنا، فركب رسول الله ﷺ، فسار، وسرنا هنيهة، ثم نزل

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، وفي غيرهما.
(٢) مسند أحمد (٤ : ٢٩٧) وانظر الشمائل لابن كثير (١٨٤) ط ثانية.
(٣) صحيح مسلم: كتاب الجهاد: باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٣٢).
(٤) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب من معجزات النبي ﷺ، رقم (١٠).

فقال: «أمعكم ماء؟» قال: قلت نعم، معي ميضاة فيها شيء من ماء، قال: «ائت بها» قال: فأتيته بها، فقال: «مسوا منها، مسوا منها» فتوضأ القوم، وبقيت جرعة، فقال: «ازدهر [أي احتفظ] بها يا أبا قتادة، فإنه سيكون لها نبأ. . . . » الحديث.

فلما اشتدت الظهيرة، رفع لهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، هلكنا عطشاً، تقطعت الأعناق، فقال: «لا هلك عليكم» ثم قال: «يا أبا قتادة، ائت بالميضاة» فأتيته بها، فقال: «احلل لي غُمَري» ـ يعني قدحه ـ فحللته، فأتيته به، فجعل يصب فيه، ويسقي الناس، فازدحم الناس عليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، احفوا الملأ، فكلكم سيصدر عن ري» فشرب القوم، حتى لم يبق غيري وغير رسول الله ﷺ، فصبَّ لي، فقال: «اشرب يا أبا قتادة» قال: قلت: اشرب أنت يا رسول الله، قال: «إن ساقي القوم آخرهم» فشربت، وشرب بعدي، وبقي في الميضاة نحوٌ مما كان فيها، وهم يومئذٍ ثلاثمائة. رواه أحمد ـ وهذا لفظه ـ ومسلم(١).

ماء قليل بدأ رسول الله ﷺ يسكب منه في قدحه، فأروى ثلاثمائة من الناس، والماء هو الماء لم ينقص من الميضاة. لكنَّا إذا ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ . . .﴾ وقوله تعالى: ﴿. . . وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ . . .﴾ عرفنا بأن المتصرف هو الله تعالى.

وفي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ في قصة صلح الحديبية الطويل ـ وفيه: فعدل عنهم رسول الله ﷺ، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ قليلِ الماء، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالريّ، حتى صدروا عنه. . . الحديث: رواه البخاري بطوله(٢).

---

(١) مسند أحمد (٥: ٢٩٨) وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٣١١).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الشروط: باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب.

وقد اختُلف فيمن غرس السهم في البئر، فقيل: سلمة، وقيل: البراء، وقيل: ناجية بن جندب، وقيل: خالد بن عبادة الغفاري، وقيل: غيرهم[1]. رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما ـ المتفق عليه[2] ـ أنهم كانوا مع النبي ﷺ في مسير ـ الحديث بطوله، وفي آخره ـ: وقد عطشنا عطشاً شديداً، فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إنه لا ماء، فقلنا: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: يوم وليلة، فقلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ، قالت: وما رسول الله؟ فلم نمكّنها حتى استقبلنا بها النبي ﷺ، فحدثته بمثل الذي حدثتنا، غير أنها حدثته أنها مُؤتِمة، فأمر بمزادَتَيها، فمسح في العزلاوَيْن (وفي رواية: فمجَّ في العزلاوين العلياوين) فشربنا عطاشاً أربعون رجلاً، حتى روينا، فملأنا كل قربة معنا وإداوة غير أنه لم نسق بعيراً. وهي تكاد تَنِضُّ من المِلْ... الحديث.

وهناك نصوص كثيرة في غير هذه المواطن، سواء داخل المدينة أو خارجها.

ومن الملاحظ أن التصرف الذي فعله ﷺ حتى كثر الماء في هذه الحوادث مختلف، ففي حديث البراء ـ في قصة الحديبية ـ: مضمض في الماء ثم مجه، وفي الرواية الأخرى: غمس يده الشريفة في الدلو، وتكلم ما شاء الله أن يقول، وفي حديث سلمة: دعا أو بصق في البئر، وفي حديث معاذ ـ في عين تبوك ـ: غسل فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها، وفي حديث المسور: أعطاهم سهماً من كنانته فغمسوه في البئر، وفي حديث أبي قتادة: حمل ﷺ القدح الصغير وصار أبو قتادة رضي الله عنه يسكب من الميضاة، والنبي ﷺ هو الساقي، بينما في حديث عمران بن حصين: مسح ﷺ في العزلاوَيْن ـ وفي رواية: مج فيهما ـ وفي كل هذه الروايات

---

(١) انظر فتح الباري (٥ : ٣٣٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة، رقم (٣١٢).

كثر الماء، وأروى الأعداد الكبيرة، ولو كان الشيء بالأمر العادي، فإن هذا لا تحتمله العقول، ولكن الذين عايشوا ذلك، وتكرر معهم كثيراً في أزمنة مختلفة، وأمكنة مختلفة، وحالات مختلفة، لم يشكُّوا لحظة في ذلك، بل كانوا يلجؤون إليه ﷺ عند العطش الشديد، لعلمهم بأن الله تعالى يجري على يديه الكثير ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ...﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾.

ولو أضفنا إلى هذه النصوص: ما جاء في إرسال حصيات تلقى في البئر - فلم يُر قعرُه بعد ذلك - كما في حديث زياد بن الحارث الصُّدائي، وغير ذلك عرفنا استجابة الجمادات - بإذن الله تعالى - لرسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

١١ - تكثير الطعام

وهذا مما تواتر - تواتراً معنوياً - عنه ﷺ، وهو تكثير الطعام، حيث جاء في أزمنة مختلفة، وفي أماكن مختلفة، وفي أحوال مختلفة، داخل المدينة وخارجها، والنصوص فيه كثيرة - سواء بصق ﷺ فيه، أو مد يده الشريفة وبرَّك عليه، أو مسحه بيده الشريفة.... - ويصعب ذكر كل ما ورد في ذلك، لذا سأذكر بعض النصوص، ثم أشير إلى بعضها الآخر.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حُفِر الخندق، رأيت بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفيت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خَمَصاً شديداً، فأخرجَت إليَّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحتها، وطحنَتْ الشعيرَ، ففرغَتْ إلى فراغي، وقطعتُها في بُرمتها، ثم ولَّيت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته، فساررته، فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بُهيمة لنا، وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفرٌ معك، فصاح النبي ﷺ: «يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سُوراً، فحيَّ هَلا بكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكم،

ولا تَخْبِزُنَّ عجينكم حتى أجيء» فجئتُ، وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس، حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلتِ، فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معكِ، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو. متفق عليه[1].

وفي رواية للبخاري[2]: فقال ﷺ: «ادخلوا ولا تضاغطوا» فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمِّر البرمةَ والتنور إذا أخذ منه، ويقرِّب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف، حتى شبعوا.. الحديث. وللحديث طرق، وفيه زيادات.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سُليم: قد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخذت خماراً لها فَلَفَّت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبي، ورَدَّتْني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدت رسول الله ﷺ جالساً في المسجد، ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» قال: فقلت: نعم، فقال: «ألطعام؟» فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» قال: فانطلق، وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسولَ الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ معه حتى دخلا، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي، ما عندك يا أم سُليم؟» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وعصرت عليه أم سُليم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الأشربة: باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك...، رقم (١٤١).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق.

عُكَّةً لها فأدمَتْه، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون. متفق عليه[1]. وقد رواه مسلم من تسع طرق.

وقد جاء في بعض الروايات «من شعير» وعند أحمد «نصف مد من شعير».

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، فقال النبي ﷺ: «هل مع أحد منكم طعام؟» فإذا مع رجلٍ صاعٌ من طعامٍ أو نحوه، فعجن، ثم جاء رجل مشرك مشعان [أي منتفش الشعر] طويل بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ: «أبيع أم عطية ـ أو قال: أم هبة؟» قال: لا بل بيع، فاشترى منه شاة، فصنعت، وأمر رسول الله ﷺ بِسوادِ البطن [أي الكبد] أن يشوى، قال: وايْم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا حزَّ له رسول الله ﷺ حُزَّةً حُزَّة من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاه، وإن كان غائباً خبَّأ له.

قال: وجعل قصعتين، فأكلنا منهما أجمعون، وشبعنا، وفَضُل في القصعتين، فحملته على البعير. أو كما قال. متفق عليه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: اللّهِ الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه. . . الحديث، وفيه: ثم مَرَّ بي أبو القاسم ﷺ، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي، وما في وجهي، ثم قال: «يا أبا هر» قلت: لبيك رسول الله، قال: «الْحَقْ» ومضى، فتبعته، فدخل،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام. وصحيح مسلم: كتاب الأشربة: باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك. . .، رقم (١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الهبة: باب قبول الهدية من المشركين ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الأشربة: باب إكرام الضيف، وفضل إيثاره، رقم (١٧٥).

فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبناً في قدح. . . قال: «الْحَقْ إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي» . . . فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصُّفَّة؟ كنت أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاؤوا، أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد.

فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «يا أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «خذ فأعطهم» فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدحَ، فأعطيه الرجلَ فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدحَ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدحَ. حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح، فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسم، فقال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقتَ يا رسول الله، قال: «اقعد فاشرب» فقعدتُ فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكاً، قال: «فأرني» فأعطيته القدحَ، فحمد الله، وسمَّى، وشرب الفضلة. رواه البخاري[1].

فإذا كانت الكبد قد أكل منها ثلاثون ومائة، وصاع شعير وشاة قد أكل منها هذا العدد وفضل منها فضلة حملها عبد الرحمن رضي الله عنه على بعيره، فإنه في هذا الحديث: قعب لبن أروى أهل الصفة كلهم، وهو في الحالة العادية لا يكفي شخصاً واحداً، وإذا عرفنا أن عدد أصحاب الصفة يقرب أو يزيد على المائة، عرفنا عظم هذه المعجزة الكريمة، وبركة النبي ﷺ. والله تعالى أعلم.

وعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: صُنعَ لرسول الله ﷺ شاة مصلية، فأُتِيَ بها، فقال لي: «يا أبا رافع، ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع، ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع، ناولني الذراع» فقلت: يا رسول الله وهل للشاة إلا ذراعان؟ فقال: «لو سكتَّ لناولتني منها ما دعوتُ به»

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه.

رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وأحدُ إسنادَي أحمد حسن.

ورواه أحمد وابن حبان وأبو نعيم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند حسن أيضاً.

ورواه أحمد والدارمي وابن سعد والترمذي في الشمائل والطبراني في الكبير من حديث أبي عبيد مولى رسول الله ﷺ، ورجالهم رجال الصحيح، عدا شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، فهو حسن.

ورواه الطبراني في الكبير ـ برجال ثقات ـ وذكره ابن كثير عن أبي يعلى ـ من حديث سلمى امرأة أبي رافع رضي الله عنهم.

ورواه أبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي ـ كلاهما في الدلائل ـ وحسنه الحافظ في المطالب، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وفيه ضعيف لكن له شاهد، ونقل المحقق عن البوصيري تحسينه.

ورواه أحمد ـ بإسناد فيه مجهول ـ عن رجل من الصحابة.

فالحديث بطرقه المتعددة صحيح[1]، والله تعالى أعلم.

وهناك نصوص كثيرة فيها خوارق ومعجزات عجيبة، كحديث سلمة رضي الله عنه ـ عند مسلم ـ في إطعام الجيش يوم خيبر من تمر كربض شاة. ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ عند مسلم ـ في إطعام الجيش من زاد قليل في السفر. وحديث جابر في قصة الشعير، وعكة أم مالك ـ وكلاهما عند مسلم ـ وقرص شعير السيدة عائشة رضي الله عنها المتفق عليه. وإعطاء الدائنين عن دَيْنِ

(١) مسند أحمد (٢: ٤٨، ٥١٧) (٣: ٤٨٤ ـ ٤٨٥) (٦: ٨، ٣٩٢) وسنن الدارمي: المقدمة: باب ما أكرم الله به النبي ﷺ من بركة العطام (١: ٢٧) والشمائل للترمذي (١: ٢١٥) وصحيح ابن حبان (٨: ١٣٩) والمعجم الكبير (٢٢: ٣٣٥ ـ ٣٣٦) (٢٤: ٣٠٠ ـ ٣٠١) والدلائل لأبي نعيم (٢: ٥٠٧ ـ ٥٠٨) وللبيهقي (٦: ٢٤ ـ ٢٦) والمطالب العالية (٤: ٨ ـ ١٠) ومجمع الزوائد (٨: ٣١١ ـ ٣١٢) وعلامات النبوة (٣٣٠ ـ ٣٣٢) والشمائل لابن كثير (٢٣٣ ـ ٢٣٦).

والد جابر من كوم واحد ـ وهو عند البخاري ـ ومزود أبي هريرة، وحديث سمرة في قصة القصعة، وحديث النعمان بن مقرن في إعطاء أربعمائة رجل من كوم تمر. وحديث دكين بن سعيد في إعطاء أربعمائة وأربعين رجلاً من تمر قليل وكفاهم جميعاً. وكلها نصوص صحيحة، وغيرها كثير، وما ذكرته كافٍ في التدليل. والله تعالى أعلم، وهو المعين.

١٢ ـ استجابة الحجر

ومن ذلك استجابة الحجر والصخر الأصم وطاعته، وقد ظهر هذا في عدد من الحالات، أقتصر على ذكر بعضها.

فعن أيمن المخزومي رحمه الله قال: أتيت جابراً رضي الله عنه فقال: إنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدية شديدة، فجاؤوا النبيّ ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام، وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبيُّ ﷺ المعول، فضرب في الكُدية، فعاد كثيبا أهْيَلَ ـ أو أهْيَم ـ. . . الحديث، رواه البخاري[١].

صخرة ضخمة عجزت عنها معاول الصحابة رضي الله عنهم، حتى شكوا إليه ﷺ، فضربها مرة واحدة فعادت رملاً متفتتاً.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمَرنا رسولُ الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول، فقال: «باسم الله» فضرب ضربةً فكسر ثلث الحجر، وقال: «الله أكبر، أُعْطيتُ مفاتيحَ الشام، والله إني لأبصر قصورَها الحمْر من مكاني هذا» ثم قال: «باسم الله» وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: «الله أكبر، أُعْطيتُ مفاتيحَ فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا» ثم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق.

قال: «باسم الله» وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا» رواه أحمد والنسائي في الكبرى، والبيهقي، وحسنه الحافظ في الفتح.

ورواه الطبراني بنحوه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ورواه البيهقي من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

ورواه النسائي من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ بسند حسن مطولاً، وروى منه أبو داود بعضه أيضاً.

ورواه الطبراني في الكبير ـ برجال الصحيح عدا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ونعيم العبدي وهما ثقتان ـ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1]. والله تعالى أعلم.

وفي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما ـ وقد أشرت إليه قبل قليل ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجته التي حجها... الحديث بطوله، وفيه قصة المرأة التي معها صبيها، وقصة الذراع، وفي آخره: فقلت: يا رسول الله، قد رأيت نخلات متقاربات، ورجماً من حجارة، قال: «انطلق إلى النخلات، فقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تَدانَين لمخرج رسول الله ﷺ، وقل للحجارة مثل ذلك» قال: فأتيتهن، فقلت لهن ذلك، فوالذي بعثه بالحق نبياً، لقد جعلتُ أنظر إلى النخلات يخددن الأرض خداً حتى اجتمعن، وأنظر إلى الحجارة يتقافزن حتى صرن رجماً خلف النخلات، فأتيته: فقلت ذاك له، قال: «خذ الإداوة وانطلق» فلما قضى حاجته وانصرف، قال: «يا أُسَيْم، عد إلى النخلات والحجارة، فقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن ترجعن إلى موضعكن» ثم

(١) مسند أحمد (٤: ٣٠٣) وتحفة الأشراف (٢: ٦٥) ودلائل النبوة (٣: ٤١٨ ـ ٤٢١) وسنن النسائي: كتاب الجهاد: باب غزوة الترك والحبشة (٦: ٤٣ ـ ٤٤) وسنن أبي داود: كتاب الملاحم: باب في النهي عن تهييج الترك والحبشة، رقم (٤٣٠٢) وفتح الباري (٦: ٣٩٧) والمعجم الكبير (١١: ٣٧٦ ـ ٣٧٧) ومجمع الزوائد (٦: ١٣٠ ـ ١٣٢) والبداية والنهاية (٤: ٩٩ ـ ١٠١).

ذكر من عودتهن إلى مكانهن. . . الحديث رواه أبو يعلى، وأبو نعيم والبيهقي ـ كلاهما في الدلائل ـ وفي إسنادهم جميعاً معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف. ومع هذا فقد قال الحافظ في المطالب: إسناد حسن فيه ضعيف، ولكن له شاهد من طريق يعلى عند أحمد. ا هـ[1] ونقل محققه عن البوصيري قوله: رواه أبو يعلى بإسناد حسن، وتقدم له شواهد في الباب. وقال البيهقي: قد مضى شواهد هذا الحديث في الباب. ا هـ. وهو بنحو حديث جابر ويعلى بن مرة رضي الله عنهم في قصة الثلاثة (الصبي والشجرتين) وزاد الذراع.

قلت: للحديث شواهد متعددة، سأذكر وسأشير إليها إن شاء الله تعالى في الفقرة التالية.

١٣ ـ استجابة الشجر

وإذا كانت الجبال تستجيب، والحجارة تستجيب، والغيم يستجيب، والتراب يستجيب، والأصنام تستجيب، والماء يستجيب، والطعام يستجيب. . . كذلك فإن الشجر يستجيب لرسول الله ﷺ. وقد تكرر ذلك، فجاء عن عدد من الصحابة مما يبلغ حد التواتر. لكني سأقتصر على ذكر بعض النصوص القليلة.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ـ في حديثه الطويل عند مسلم[2] ـ وفيه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح [أي واسع] فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ، فلم يرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش، الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ

(١) دلائل النبوة لأبـي نعيم (٢: ٥٠٧ ـ ٥٠٨) وللبيهقي (٦: ٢٤ ـ ٢٦) والمطالب العالية (٤: ٨ ـ ١٠).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق: باب حديث جابر الطويل، وقصة أبـي اليسر، رقم(٧٤).

من أغصانها، فقال: «انقادي عليّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمَنْصَفِ مما بينهما، لأَمَ بينهما (يعني جمعهما) فقال: «التئما عليَّ بإذن الله» فالتأمتا.

قال جابر: فخرجتُ أُحْضِرُ مخافة أن يُحِسّ رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد. فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق. الحديث رواه مسلم كما قلت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: «أرأيت لو دعوتُ هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم. قال: فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض، فجعل ينقز حتى أتى النبي ﷺ، قال: ثم قال له: «ارجع» فرجع حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وآمن. هكذا في هذه الرواية، وقد ورد بألفاظ أخرى. وقد رواه أحمد، والبخاري في التاريخ، والترمذي والحاكم وابن حبان وصححوه، وأقره الذهبي، والدارمي وأبو يعلى والطبراني في الكبير، والبيهقي وأبو نعيم ـ كلاهما في الدلائل[1] ـ وأغلبهم أسانيدهم صحيحة. وقد سبق ذكر رواية أخرى في الفصل الأول في سجود الشجر. والله تعالى أعلم.

وعن يعلى بن مرة رضي الله عنهما قال: لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً، ما رآها أحد قبلي ولا يراها أحد بعدي، لقد خرجت معه في سفر.. الحديث بطوله، وفيه قال: وخرجت ذات يوم إلى الجبانة، حتى إذا برزنا قال: «انظر ويحك، هل ترى شيئاً يواريني؟» قلت: ما أرى شيئاً يواريك إلا شجرة، ما

---

(١) مسند أحمد (١ : ٢٢٣) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: الباب (١٦) رقم (٣٦٢٨) وسنن الدارمي (١ : ٢٠) والتاريخ الكبير (٣: ٣) والمستدرك (٢ : ٦٢٠) وصحيح ابن حبان (٨: ١٥٧ ـ ١٥٨) ومسند أبي يعلى (٤ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧) والمعجم الكبير (١٢: ١٠٠، ١١٠ ـ ١١١) ومجمع الزوائد (٩ : ١٠) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٥٠٦) وللبيهقي (٦ : ١٥ ـ ١٧) وعلامات النبوة (٣٢٦ ـ ٣٢٧) والشمائل لابن كثير (٢٤٠ ـ ٢٤٢).

أراها تواريك، قال: «فما قُربها؟» قلت: شجرة مثلها أو قريب منها، قال: «اذهب إليهما، فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا بإذن الله» قال: فاجتمعتا، فبرز لحاجته، ثم رجع قال: «اذهب إليهما، فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركما أن ترجع كل واحدة منكما إلى مكانها» فرجعت. الحديث، وقد رواه بعضهم عن أبيه «مرة». رواه أحمد وابن أبي شيبة برجال الصحيح، وابن ماجه، والحاكم وصححه وأقره الذهبي، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، وقال ابن كثير: هذه طرق جيدة متعددة تفيد غلبة الظن أو القطع عند المتبحرين أن يعلى بن مرة حدَّث بهذه القصة في الجملة(١).

هذا وقد وردت نصوص كثيرة في قصة استجابة الشجر للنبي ﷺ، سواء كان هو الآمر مباشرة، أو كان يأمر بعض الصحابة بدعوتها، وقد جاء عن أكثر من عشرة من الصحابة، منهم عمر، وأنس، وجابر - رواية أخرى - وابن عمر، وبريدة، وابن مسعود، وغيلان بن سلمة، ويعلى بن أمية، وأسامة بن زيد. . . . رضي الله عنهم.

١٤ - استجابة الضرع

وكما استجابت الجمادات والنباتات للنبي ﷺ، كذلك استجابت الحيوانات، لكني سأذكر هنا جزءاً من الحيوان، وهو الضرع، وسأذكر استجابة الحيوانات في الفقرة التالية بإذن الله تعالى.

وقد تكرر وقوع استجابة الضرع من الحيوان، لكني سأقتصر على نصين فقط.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت غلاماً يافعاً، أرعى غنماً

---

(١) مسند أحمد (٤: ١٧٠ - ١٧٣) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٤٨٨ - ٤٩٠) وسنن ابن ماجه: كتاب الطهارة: باب الارتياد للغائط والبول، رقم (٣٣٩) والمستدرك (٢: ٦١٧) ومجمع الزوائد (٩: ٥ - ٦) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٥٠٧) وللبيهقي (٦: ٢٠ - ٢٤) والشمائل لابن كثير (٢٦٧ - ٢٧١).

لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ـ وقد فرا من المشركين ـ فقالا: «يا غلام هل عندك من لبن فتسقينا؟» قلت: إني مؤتمن، ولست ساقيكما. فقال النبي ﷺ: «هل عندك من جذعةٍ لم يَنْزُ عليها الفحل؟» قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها النبي ﷺ، ومسح الضرع، ودعا، فحفل الضرع، ثم أتاه أبو بكر رضي الله عنه بصخرة منقعرة، فاحتلب فيها، فشرب، وشرب أبو بكر، ثم شربتُ، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص، فأتيته بعد ذلك، فقلت: علمني من هذا القول، قال: «إنك غلام معلم» قال: فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد. رواه أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة وأبو يعلى، وأبو نعيم والبيهقي والتيمي ـ ثلاثتهم في الدلائل ـ والطبراني في الكبير والصغير، وابن سعد والفسوي وابن حبان والحسن بن عرفة، وغيرهم، وصححه الذهبي وأحمد شاكر. وهو حديث حسن(١).

ففي هذا الحديث أمران: الحلب، وهي شاة لم يَنْزُ عليها فحل، وهذا خلاف العادة. وقوله ﷺ للضرع: «اقلص»، فقلص ورجع كما كان.

وفي قصة أم معبَدٍ رضي الله عنها ـ في قصة خروج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة المنوّرة، ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة رضي الله عنهما، والدليل ابن أُريقط، فمروا بخيمتي أم مَعْبَدٍ الخزاعية رضي الله عنها ـ وكانت امرأة جلدة تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها، فلم يصيبوا

---

(١) مسند أحمد (١: ٣٧٩، ٤٦٢) ونسخة أحمد شاكر (٦: ١٩٠) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٥١٠) والطبقات الكبرى (١: ١٨٤) ومسند الطيالسي (٤٧) ومنحة المعبود (٢: ١٢٤) وجزء الحسن بن عرفة، رقم (٤٦) ومسند أبي يعلى (٨: ٤٠٢ ـ ٤٠٣) وصحيح ابن حبان (٩: ١٠٠) والحلية (١: ١٢٥) ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢: ٤٢٤) وللبيهقي (٢: ١٧١ ـ ١٧٢) (٦: ٨٤) وللتيمي (٥٨) والمعجم الكبير (٩: ٧٦ ـ ٧٧) والمعجم الصغير (١: ٣١٠ ـ ٣١١) والمعرفة والتأريخ (٢: ٥٣٧) والمغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٨٦) بحاشية الإحياء، وسير أعلام النبلاء (١: ٤٦٥) والخصائص الكبرى (١: ١٢١ ـ ١٢٢) وأسد الغابة (٦: ٢٢٤ ـ ٢٢٥) والسيرة النبوية لابن كثير (٢: ٢٦٤ ـ ٢٦٥) ومجمع الزوائد (٦: ١٧).

عندها شيئاً من ذلك ـ وكان القوم مرملين مسنتين ـ فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كِسْر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم مَعْبَدٍ؟» قالت: شاة خلفها الجَهْدُ عن الغنم، قال: «فهل بها من لبن؟»، قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حَلَباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله عزّ وجلّ، ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه، ودرَّت، واجترَّت، ودعا بإناء، يُربض الرهط، فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب آخرَهم، ثم أراضوا عللا بعد نهل، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، ثم ارتحلوا عنها... الحديث. رواه الطبراني وابن سعد، وأبو نعيم والبيهقي والتيمي ـ ثلاثتهم في الدلائل ـ والحاكم من طرق وصحح بعضها، وأقره الذهبي، والآجري، والبغوي، وصححه الهيثمي وابن حجر من حديث قيس بن النعمان، وغيرهم[1].

قال ابن الأثير رحمه الله: حديث أم معبد حديث مشهور بين العلماء، مروي في كتبهم، وهو من أعلام النبوة، ورواه جماعة من الحفاظ... إلخ.

---

(١) المعجم الكبير (٤: ٥٥ ـ ٥٨) والأحاديث الطوال (٢٥: ٢٥٤) رقم (٣٠) وشرح السنة (١٣: ٢٦١ ـ ٢٦٩) والشمائل له (١: ٣٤٠ ـ ٣٤٢) ومجمع الزوائد (٦: ٥٤ ـ ٥٨) (٨: ٢٧٨ ـ ٢٧٩) والدلائل لأبي نعيم (٢: ١١٧ ـ ١١٩) وللبيهقي (٢: ٤٩١ ـ ٤٩٧) وللتيمي (٥٩ ـ ٦١) والمستدرك (٣: ٨ ـ ١١) وكشف الأستار (٢: ٣٠٠ ـ ٣٠١) وزوائد البزار (٢: ١٠ ـ ١١) والطبقات الكبرى (١: ١٨٥ ـ ١٨٦، ٢٣٠) وتهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٢٦ ـ ٣٢٩) والاستيعاب (٤: ٣٦٧ ـ ٣٦٨، ٤٩٥ ـ ٤٩٨) وأسد الغابة (١: ٤٥١ ـ ٤٥٣) والإصابة (٨: ٣٠٦ ـ ٣٠٨) (٢: ٢٧) والخصائص الكبرى (١: ١٨٨ ـ ١٩١) والشريعة للآجري (٤٦٥ ـ ٤٦٨) وغريب الحديث لابن قتيبة (١: ٤٦٢ ـ ٤٧٨) ومنال الطالب (١٧١ ـ ١٧٥) والسيرة النبوية لابن هشام (٢: ٢٢٤ ـ وما بعد) بشرح الروض. والسيرة الشامية (٣: ٣٤٦ ـ ٣٥١) وعيون الأثر (١: ١٨٧ ـ ١٩١) والاكتفاء (١: ٤٤٦ ـ ٤٤٩) والسيرة لابن كثير (٢: ٢٥٧ ـ ٢٦٣) والشمائل له (٥٣ ـ ٥٧) والوفا بأحوال المصطفى (١: ٢٤٢ ـ ٢٤٦) والزرقاني على المواهب (١: ٣٤٠ ـ ٣٤٦). وانظر شمائل الرسول الأمين ﷺ للمؤلف (٤٤ ـ ٥٢).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: قصتها مشهورة، مروية من طرق يشد بعضها بعضاً. ا هـ.

قلت: وفي الحديث أمران أيضاً كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنهما مع اختلاف الحادثتين، فهذه في الهجرة، وحادثة ابن مسعود في أول البعثة.

كما وردت أحاديث كثيرة ـ حديث جابر وأبي بكر وبريدة... رضي الله عنهم ـ فيها نحو هذا، والله تعالى أعلم.

ومما يلفت النظر، أن الشاة في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عاد ضرعها بعد قول رسول الله ﷺ: «اقلص» أما في قصة أم مَعْبَدٍ فإن الشاة استمرت في حلبها، وأن البركة التي حلت عليها بقيت حتى زمن سيدنا عمر رضي الله عنه، حيث جاءت عدد من الروايات أنها في عام المجاعة بقيت تعطيهم الحليب لها ولقومها. ولعل السر أن الشاة في حديث ابن مسعود كانت لرجل مشرك ـ وهو ابن أبي معيط ـ وبقي كذلك، أما شاة أم مَعْبَد فهي لأناس مسلمين. والله تعالى أعلم.

١٥ ـ استجابة الحيوانات

وكما استجابت الجمادات والنباتات، كذلك استجابت الحيوانات، وإن كان بعضها متواتراً، كما سأذكر إن شاء الله تعالى. وسوف أقتصر على ذكر بعض النصوص ليكتمل الموضوع، وإن كنت لم أطل، لأن الأصل هو عن الجماد.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس، وكان أجودَ الناس، وكان أشجعَ الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُري، في عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا» قال: «وجدناه بحراً أو إنه لبحر» قال: وكان فرساً يُبَطَّأُ. متفق عليه واللفظ لمسلم(١).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب في شجاعة النبي عليه الصلاة والسلام، وتقدمه للحرب، رقم (٤٨، ٤٩).

وفي رواية للبخاري[1] قال: إن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة كان يقطف ـ أو كان فيه قطاف ـ فلما رجع قال: «وجدنا فرسكم هذا بحراً» فكان بعد ذلك لا يجارى.

وفي رواية أخرى للبخاري[2] قال: فزع الناس؛ فركب رسول الله ﷺ فرساً لأبي طلحة بطيئاً، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: «لم تراعوا، إنه لبحر» فما سبق بعد ذلك اليوم.

هذا الفرس كان بطيئاً، فلما ركبه ﷺ بورك، فصار سابقاً، بحيث لا يجارى، ولم يُسبق بعد ذلك اليوم. وصلوات الله وسلامه على نبيه ومصطفاه.

وإذا كانت البركة قد حلت على هذه الفرس بركوبه ﷺ عليها فصارت لا تسبق ولا تجارى، فإن فرس جُعيل الأشجعي حلت عليها بضربه ﷺ لها ودعوته.

فعن جُعيل الأشجعي رضي الله عنه قال: غزوت مع النبي ﷺ في بعض غزواته، وأنا على فرس لي عجفاء ضعيفة، فلحقني رسول الله ﷺ فقال: «سر يا صاحب الفرس» قلت: يا رسول الله عجفاء ضعيفة، فرفع رسول الله ﷺ مخفقةً كانت معه فضربها بها وقال: «اللهم بارك له فيها» قال: فلقد رأيتني ما أملك رأسها أن تقدم الناسَ، ولقد بعتُ من بطنها باثني عشر ألفاً. رواه النسائي في الكبرى، والبيهقي في الدلائل، وصححه الحافظ في الإصابة[3].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه كان يسير على جمل له قد أَعيا، فأراد أن يسيبه، قال: فلحقني النبي ﷺ، فدعا لي وضربه، فسار سيراً لم يسر مثله.. الحديث متفق عليه[4].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب الفرس القطوف.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب السرعة والركض في الفزع.
(٣) السنن الكبرى (٥: ٢٥٣) ودلائل النبوة (٦: ١٥٣ ـ ١٥٤) والإصابة (١: ٤٩٠).
(٤) صحيح البخاري: كتاب الشروط: باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى =

وفي رواية عند مسلم(١): قال غزوت مع رسول الله ﷺ، فتلاحق بي، وتحتي ناضح لي قد أعيا ولا يكاد يسير، قال: فقال لي: «ما لبعيرك؟» قال قلت: عليل، قال: فتخلف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، قال: فما زال بين أيدي الإبل قدامها يسير، قال: فقال لي: «كيف ترى بعيرك؟» قال: قلت: بخيرٍ . . . الحديث.

وفي رواية أخرى له(٢) قال: فنخسه ـ رسول الله ﷺ ـ فوثب، فكنت بعد ذلك أحبس خطامه لأسمع حديثه، فما أقدر عليه.

فقد نخسه ﷺ وزجره، ثم دعا له فما يستطيع حبس خطامه، لأنه صار يتقدم الإبل، يسير أمامها.

وهذا شبيه بقصة ضرب النبي ﷺ ناقةَ الخاطب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ- أو قال: فتى - فقال: إني تزوجت امرأة. . . الحديث، وفيه: فبعث بعثاً إلى بني عبس، وبعث الرجل فيهم، فأتاه، فقال: يا رسول الله، أعيتني ناقتي أن تنبعث، قال: فناوله رسول الله ﷺ كالمعتمد عليه للقيام، فأتاها، فضربها برجله، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لقد رأيتها تسبق القائد. رواه مسلم مختصراً، وهذا لفظ البيهقي(٣).

وعن الحكم بن الحارث السلمي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ في السَّلَب، فمرَّ بي رسول الله ﷺ، وقد خلأت ناقتي، وأنا أضربها، فقال: «لا

= جاز. وصحيح مسلم: كتاب المساقاة: باب بيع البعير واستثناء ركوبه، رقم (١٠٩ - ١١٧).

(١) صحيح مسلم: كتاب المساقاة: باب بيع البعير واستثناء ركوبه، رقم (١١٠).

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساقاة: باب بيع البعير واستثناء ركوبه رقم (١١٣).

(٣) صحيح مسلم: كتاب النكاح: باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد النكاح، رقم (٧٥) ودلائل النبوة (٦: ١٥٤).

تضربها» وقال النبي ﷺ: «حل» فقامت، فسارت مع الناس. رواه الطبراني ورجاله ثقات[1]. والله أعلم.

والنصوص في استجابة الحيوانات كثيرة، وما ذكرته كافٍ في التدليل ـ إن شاء الله تعالى ـ والله تعالى أعلم.

---

(١) المعجم الكبير (٣: ٢٤١) ومجمع الزوائد (٩: ١١).

خاتمة الباب

من خلال النصوص التي ذكرتها في الفصلين «محبة الجمادات» و «طاعة الجمادات» مع ما أضفته من محبة النباتات والحيوانات وطاعتها.. للنبي ﷺ، يعطينا أربع فوائد رئيسة:

١ ـ الإدراك عند الجمادات، ومثله يقال عن النبات والحيوان، وقد أفردت كتاباً ضخماً ـ والحمد لله على نعمائه ـ في هذا الموضوع، أسأل الله تعالى إنجازه عن قريب.

٢ ـ من مظاهر ذلك الإدراك عند الجمادات: محبتها للنبي المصطفى المختار عليه وآله الصلاة والسلام.

٣ ـ ومن مظاهر ذلك الإدراك عند الجمادات أيضاً: طاعتها للنبي ﷺ.

٤ ـ عظمة هذا النبي الكريم، والرسول المبجل الأمين، عليه وآله الصلاة والسلام، وعُلُو مكانته، ورفعة قدره، ومحبة الله تعالى له.. حيث أسكن في الجمادات والنباتات والحيوانات محبته وطاعته.

وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه الكريم أنه سخر ما بين السماء والأرض للإنسان، كما قال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾[1].

وقال جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ...﴾[2].

---

(١) سورة لقمان (٢٠).

(٢) سورة الحج (٦٥).

وقال جلّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...﴾[1].

فالخطاب للإنسان، فإن أراد أصله ـ وهو آدم عليه السلام ـ فهو تحت لواء المصطفى ﷺ يوم القيامة، وقد كان النبي ﷺ نبياً وآدم عليه السلام منجدلٌ في طينته، فهو ﷺ أفضل منه ـ بلا خلاف ـ.

وإن أراد ـ عامة الناس ـ فالنبي المصطفى ﷺ سيدهم وخيرهم وأفضلهم، لأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من سائر البشر، والرسل عليهم السلام أفضل من سائر الأنبياء، وأولو العزم عليهم السلام أفضل من سائر الرسل، وهو ﷺ أفضل منهم جميعاً[2].

فإذا كان الله تعالى سخرها للإنسان، فمن باب أولى أن تكون مسخرة لسيد رسله وأفضل خلقه ﷺ.

بل إن الله تعالى أخبرنا أنه سخر بعض هذه الجمادات لبعض رسله، كما قال جلّ شأنه: ﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾[4].

فإذا كان قد سخر هذا لداود عليه السلام، فالرسول ﷺ أولى، لأنه ﷺ خير المخلوقات، وأكرم الخلق على الله تعالى.

بل إن الله تعالى سخر بعض عناصر هذا الكون لكافر خبيث ـ وهو الدجال ـ وذلك استدراجاً منه، لا كرامة له، فالإنسان المؤمن التقي من باب أولى، وإن كان كل ذلك ليس بلازم.

---

(١) سورة الجاثية (١٣).

(٢) انظر ما كتبته في هذا الموضوع: فضائل النبي الكريم كما وردت في القرآن العظيم. وكتاب الخصائص التي انفرد بها ﷺ عن جميع الأنبياء عليهم السلام، وكتاب عظيم قدره ﷺ...

(٣) سورة الأنبياء (٧٩).

(٤) سورة ص (٣٦ ـ ٣٨).

ويكفي في بيان فضله ﷺ على جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، أخذ العهد له عليهم، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

لهذا غرس الله تعالى محبة نبيه وصفيه محمد ﷺ في الجمادات والنباتات والحيوانات، وألزمهم طاعته.

ذلك أن هذا الكون مسخر بإذنه تعالى وأمره جل شأنه، ولا يكون فيه إلا ما يريد، حسب ما قدَّر عزّ وجلّ، وما أرسل رسوله ﷺ إلا ليطاع بإذنه تعالى، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ...﴾[2].

لهذا كان ﷺ يقول: «انقادي عليّ بإذن الله» كما مر معنا، فهي تطيعه ﷺ بإذن الله تعالى، لا من عند ذاتها، وإنما حسبما أراد الله عزّ وجلّ.

والنبي ﷺ لِما يعلم من مكانته عند ربه عزّ وجلّ، وما أعطاه الله تعالى وما أكرمه به، فإنه عندما يقدم على مثل هذه الأفعال؛ من دعوة الجمادات والنباتات والحيوانات... فإنه يقدم وهو واثق من تحقق ذلك.

بل إن الصحابة رضي الله عنهم عندما يدعوهم لذلك، فإنهم واثقون ـ أكثر من ثقتهم بأنفسهم ـ من تحقق ذلك، ولهذا كانوا يفزعون إليه، لِما يعلمون من عظم مكانته ﷺ، وكريم منزلته عند ربه جلّ شأنه، وأن الله تعالى محقق له ما يريد.

لهذا ضرب الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم أروع الأمثلة في المحبة والطاعة لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وقد توسعتُ في بيان حالهم في غير هذا الكتاب.

وبعد، فإن مثل هذه الأمور كلها من عالم الملك، وهو جائز شرعاً وعقلاً،

---

(١) سورة آل عمران (٨١).

(٢) سورة النساء (٦٤).

وقد ثبتت بالنصوص الصحيحة الصريحة، ومنها ما يفيد القطع ـ كما مر ـ فهو غير مستغرب.

لكن بقي سؤال يلح بنفسه: هل يسبق الإنسانُ الجمادَ والنباتَ والحيوانَ في المحبة والطاعة؟ وهل هذه الأمة المتأخرة تلحق بسلفها الصالح من الصحابة الكرام رضي الله عنهم في محبتهم لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه وطاعتهم له؟ فيكونون على دربهم ونهجهم.. فينالوا رضى الله تعالى وجناته، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، مع أنَّ هذه الأمة مأمورة بمحبته ﷺ وطاعته ﷺ.

أرجو الله تعالى أن يحققنا فيما نقول، وألا يجعل ما نكتبه ونتكلم به حجة علينا، إنه جواد كريم.

في الباب التالي بفصليه نرى أدلة وجوب محبته ﷺ وطاعته، وأنها مقدمة على كل شيء.

(١) سورة التوبة (١٠٠).

الباب الثاني

محبة الإنسان وطاعته للنبي ﷺ

وفيه فصلان

الفصل الأول: محبة الإنسان للنبي ﷺ

الفصل الثاني: طاعة الإنسان للنبي ﷺ

الفصل الأول

محبة الإنسان للنبي ﷺ

الإنسان السوي مجبول ومفطور من أصل خلقه على الحب، ولا يُتصورُ وجود إنسان سوي عاقل بدون حب، سواء كان ذلك الحب متدنياً أو جبلياً. . . أو مرتفعاً. . . وإذا كان قد ظهر في التاريخ ما يسمى بالحب العذري والعشاق و. . . فما ذلك إلا لتصور في النفوس، وقصور في ذلك التصور، لأن الإنسان كلما كانت نفسه كبيرة، كان مبتغاه عالياً، وكلما كانت نفسه وضيعة، كان مبتغاه دنيّا وضعيفاً.

والدوافع إلى الحب كثيرة، ولا بأس باستعراض ما يدفع الإنسان إلى الحب ليكون لنا مدخلاً إلى هذا الموضوع المهم والحساس.

عوامل المحبة وأسبابها:

يمكنني أن ألخص تلك العوامل والدوافع والأسباب بما يلي:

١ ـ المحبة الفردية أو الأنانية

وهي محبة الإنسان لنفسه، ولهذا لا يوجد في الكون من يفادي بنفسه، إلا إذا كان هناك دوافع أغلى عنده وأعز مما في نفسه، ولذلك نرى الحث على الجهاد وتقديم النفس ـ أحياناً ـ على المال، لكون المبتغى أغلى وأعلى.

وقد ينحط عند بعض الناس هذا الحب، فيسقطها فيما يسمى «بالنرجسية»،

فترتفع النفس البشرية وتتكبر على غيرها، ويرى وجوده أعز، ونفسه أغلى وأرفع من بقية الناس.....

٢ ـ المحبة الجبلية

وهذه موجودة عند كل الناس العقلاء السويين، وهي محبة الوالد لولده، وكذا محبة الولد لوالده، فهذا أمر مجبول عليه الإِنسان، لأنه يرى ولده امتداداً لحياته، واستكمالاً لكيانه، ولولا هذه المحبة المفطور عليها الإِنسان لما تعمرت البيوت وطالت الديار، فالوالد يتعب ويشقى، والأم تهلك في العمل المضني، كل ذلك في سبيل إسعاد الأولاد صغاراً كانوا أو كباراً... ومثل ذلك محبة الإِنسان لأهله وأقربائه وعشيرته... وهكذا.

٣ ـ المحبة الغريزية أو الشهوانية

مثل محبة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، خاصة إذا كانوا في مرحلة الشباب، وفي ابتداء الزواج، أما بعد طول الفترة وتقدم السن، فإن هذا النوع من الحب غالباً ما يتغير، ولن تبقى العلاقة بين الزوجين علاقة جنسية غريزية أو شهوانية، بل ترتفع إلى مستوى المودة والمشاكلة... ونحو ذلك.

٤ ـ المحبة الفطرية

ويغلب عليها جانب العقل، كمحبة الجمال، إذ قَلَّ أن يوجد إنسان عاقل سوي، إلا وهو يحب الجمال، سواء كان حقيقياً أو خيالياً أو واقعياً، كمحبة المناظر الطبيعية الجميلة، من مياه وأنهار وخضار.... وجبال مكسوة.. بل حتى لو كانت صورة تمثل منظراً حقيقياً، لكن بقدر نجاح تلك الصورة يكون الميل والهوى، ومثل ذلك ارتياح الإِنسان إلى الشكل الحسن...

٥ ـ محبة المشاكلة واتحاد الصفة

وهذا أمر واقع حيث نرى الإنسان يهوى، ويميل إلى من يتحد معه في صفة من صفاته، ولهذا نرى في كثير من البلدان قيام نقابات معينة، لفئة من الناس يتحدون في صفة معينة، وقَلَّ أن يجتمع مخلوق مع آخر يخالفه في خلقه، إلا إذا اتحد معه في صفة.

يروى أن غراباً وحمامة كانا يطيران معاً ويحطان معاً ويعيشان معاً. . . فزُجِرا، فتبين أن كلاهما أعرج، والطيور على أشكالها تقع.

وهكذا نرى البخلاء يحبون بعضهم، والصالحين يحبون بعضهم، والمنافقين يحبون بعضهم، ومثل ذلك يقال في الصم والبكم، وفي الصنعات المختلفة؛ التجار، والصناع. . . والجنس يألفه الجنس.

٦ ـ محبة المصلحة والمنفعة. وهذه نوعان:

١ ـ المنفعة للشخص نفسه. فالنفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها مباشرة، وتصبح مأسورة لمن قدّم إليها منفعة، خاصة في أوقات وظروف قاسية، فمن أحسن إلى إنسان في نفسه مادياً أو معنوياً. . . ومن غير طلب، فإن المحسَنَ إليه يرى نفسه انجذبت ـ بدون إرادة منه ـ إلى محبة ذلك المحسِن، فيتذكره بالخير، ويسعى جاهداً لمكافأته، ومقابلة يده التي قدمها. . وهذا أمر معروف، وكلما كانت المكرمة عظيمة، كان الاعتراف بالتفضل والتقدير أعظم.

٢ ـ المنفعة لغيره. إن النفوس السليمة مجبولة ومنقادة على محبة أهل الخير والصلاح والمنفعة والاستقامة، . . . وإن كانوا في بلاد أخرى، أو في قرون سابقة. . .

فإذا بَلَغَ الإنسان وجودَ عالم عاملٍ فاضل داعٍ إلى الله تعالى، ينتفع الطلاب والمسلمون في قطره ومصره به، وهو من أهل الاستقامة والصلاح. . . فإن النفس

البشرية لا ترى نفسها إلا وهي متجهة نحو هذا الإنسان العالم بالمحبة والتقدير والرغبة في رؤيته. . .

وكذا لو بلغها وجود حاكم عادل صالح مستقيم، يخدِم شعبه وأمته، ويتفانى في رفع مستواها العلمي والثقافي والديني. . . . ويسعى جاهداً إلى إيجاد الأمان والخدمات العامة. . فيعبد الطرقات، ويشق الأنهار، ويصلح الجسور. . . ويستصلح الأراضي. . . ويتفقد الرعية بنفسه، ويسهر الليل على مصالح العباد. . . ثم هو في دينه واستقامته وصلاحه وتواضعه. . . بحيث لا يُرى إلا كواحد من أفراد الشعب. . . ثم هو في بيته في بساطته وعيشه. . . . فإن النفس البشرية السوية لا ترى ذاتها إلا منقادة إلى محبة هذا الإنسان، وتتمنى أن لو كانت من رعاياه. . . . مع أن منفعته لم تصل إليها.

وهذا ما نرى أنفسنا عليه وهي مُحبةٌ لزعماء الإسلام وقادته وعلمائه وخلفاء المسلمين. . . مع أنهم عاشوا في غير زماننا، ولم نكن في أزمانهم حتى تلحقنا منفعتهم. . . . والله تعالى أعلم.

٧ ـ المحبة الروحية أو محبة التقابل القديم

قد يرى إنسان آخر لأول مرة، فتقع في قلبه محبته، ويأنس إليه، وينبسط ويُسرُّ معه، وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد، فيرجع إلى نفسه، ما هذه المحبة؟ وما هذا الأنس؟ وما هذا الانبساط؟ وما هذا السرور؟ فلا يجد له سبباً، فما هو ذلك السبب؟ وليس بينهما قرابة، ولا صلة سابقة، ولا مخالطة بينهما، إنما هو اللقاء الأول، بل قد يكونا من بلدين مختلفين، ومن منطقتين مختلفتين، ومن قبيلتين مختلفتين، بل قد يكونان من جنسين مختلفين. . . . ومع كل هذا ما إن يراه حتى كأنه يعرفه منذ زمن بعيد.

وعلى العكس من ذلك أيضاً، قد يرى شخصاً لم يسبق له لقاء معه من قبل، ولم يسمع به من قبل، ولم يره من قبل، وليس بينهما سابق مخالطة أو معاشرة أو

معرفة... ومع هذا ما إن يراه حتى يقع في نفسه بغضه وكراهيته والصد عنه.. فما هو السبب؟.

إنه اللقاء السابق بينهما يوم خلق الأرواح، والتعارف المسبق في ذلك اليوم، يوم خلق الله تعالى الأرواح، فما كان منها متقابلاً ـ في عالم الذر ـ تآلف في هذه الدنيا، وما تدابر في ذلك العالم تنافر في هذا العالم...

ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه ـ تعليقاً ـ عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم في صحيحه[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». والله تعالى أعلم.

٨ ـ الصفات الكاملة

ليس في الكون إنسان كامل إلا رسول الله ﷺ، فهو صفوته المختارة، وحبيبه المجتبى صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله سبحانه وتعالى الأسوة الحسنة لمن تبعه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وكلما كانت صفات الإنسان قريبة ـ في المحاكاة ـ من صفاته ﷺ، كان قريباً من الكمال. وذلك أن العصمة له وحده ﷺ، وما بعده فهم بين الحفظ والخطأ أو العصيان.

فالكمال بالنسبة لسائر الناس نسبي، بالنسبة لغيرهم ممن ينقصهم، وبالنسبة له ﷺ، فإذا نظرنا إلى من ينقصهم، فهم أكمل، وإذا نظرنا بالنسبة له ﷺ فعلى قدر قربهم واتصافهم يكون كمالهم.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: باب الأرواح جنود مجندة. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب الأرواح جنود مجندة، رقم (١٥٩ ـ ١٦٠) وانظر معنى الحديث، فتح الباري (٦: ٣٦٩ ـ ٣٧٠) ومعالم السنن (٧: ١٨٦ ـ ١٨٧) وشرح السنة (١٣: ٥٧) وكشف الخفاء (١: ١١١ ـ ١١٣) والمقاصد الحسنة (٥٠ ـ ٥٢) وانظر مسند أبي يعلى (٧: ٣٤٤) ومجمع الزوائد (٨: ٨٨) لبيان سبب ورود الحديث في قصة نزول المرأة المزاحة المكية على نظيرتها المدنية.

وهكذا كلما كانت الصفات قريبة، أو كان عددها المتقارب أكثر. . . كانت النفوس المتصفة بها أكمل. . . والنفوس مجبولة على محبة أمثال هؤلاء الكُمَّل من الناس.

لذلك نرى المسلمين يحبون ويقدرون الأئمة المهديين، والصحابة الكرام المبجلين، والعلماء العاملين، والصالحين المصلحين. . . بقدر ما كَمُلَ من صفاتهم، وزكى من نفوسهم، وعلا من مقامهم، وما لهم عند ربهم عزّ وجلّ، لأن الله تعالى إذا أحب عبداً قذف في قلوب عباده محبته، وجعل له القبول، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وبعد هذا الاستعراض السريع لعوامل المحبة، لو أني أردت تطبيق ذلك بالنسبة لمحبة النبي ﷺ لوجدت أغلبها موجوداً، سوى ثنتين.

تطبيق ذلك بالنسبة للنبي ﷺ

فالمحبة الجبلية، والمحبة الفطرية، ومحبة المشاكلة، ومحبة المصلحة، ومحبة الصفات الكاملة: كلها تصلح أن تكون دافعاً لمحبة النبي ﷺ، وإليك البيان:

أما المحبة الجبلية: فهو ﷺ بمثابة الوالد لكل مسلم، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ. . . ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد. . . .» الحديث، رواه الشافعي والحميدي وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حبان وابن خزيمة وأبو عوانة والطحاوي والبيهقي[2].

---

(١) سورة الأحزاب (٦).

(٢) الأم (١: ١٨) والمسند (١٣) ومسند الحميدي (٢: ٤٣٤ ـ ٤٣٥ رقم ٩٨٨) ومسند أحمد (٢: ٢٤٧، ٢٥٠) وسنن أبـي داود: كتاب الطهارة: باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، رقم (٨) وسنن النسائي: كتاب الطهارة: باب النهي عن الاستطابة بالروث (١: ٣٨) وسنن ابن ماجه: كتاب الطهارة: باب الاستجمار بالحجارة. . .، رقم (٣١٣) وسنن الدارمي (١: ١٣٨ رقم ٦٨٠) وصحيح ابن خزيمة (١: ٣٩ ـ ٤٠ رقم =

فإذا كان الولد يحب أباه لأنه سبب وجوده في هذه الدنيا ـ دار التعب والشقاء ـ وهو الذي رباه وأحسن إليه، . . . فيجب عليه محبة النبي ﷺ ـ بل هي أولى ـ لأنه سبب نجاته في الدنيا والآخرة، إن كان صالحاً، وإلا أدركته شفاعته ﷺ. والله أعلم.

وأما **المحبة الفطرية**، وهي محبة الجمال، فليس في البشر أجمل منه ﷺ، وإذا كان بعض الخلق قد تجمل بحسن الصورة، فالمصطفى ﷺ قد فاق في صورته وزاد في صفاته وأخلاقه. . . فلا نظير له ولا نِدَّ ولا مثيل من البشر، فهو إذاً أولى ﷺ.

وأما **محبة المشاكلة**، فكلما قوي الإيمان في قلب صاحبه كان مشاركاً ـ في أصله ـ والمؤمنون أخوة، وهو سيدهم وإمامهم ﷺ، فإذا كان رجلان تحابا في الله تعالى، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، حشرهما الله تعالى تحت ظل العرش، والمتحابون في جلال الله على منابر من نور. . . ومن تحابا في الله أو أحب شخصاً في الله أحبه الله تعالى، فكيف بمن يحب رسول الله ﷺ. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما **محبة المصلحة**، فهل يوجد في الكون من البشر من له المِنَّة بعد الله تعالى على خلقه مثلما للنبي المصطفى ﷺ؟ وأنعامه وأفضاله ومنافعه ليست خاصة بمخلوق. . بل شاملة لكل الخلق، به الله تعالى هدى هذه الأمة، وبه الله تعالى أنقذها من الضلالة، وبه الله تعالى أخرجها من العمى، وبه الله تعالى جعلها خير أمة أخرجت للناس. . . ثم هي في الآخرة كلها في الجنة. . .

فهل بعد هذا الخير من خير؟ لا والله ما بعده من خير، لذا فالإنسان عاجز عن شكر الله تعالى في شكره لنبيه ﷺ، وكيف لا يحبه.

ومثل ذلك يقال بالنسبة **للمحبة الروحية**، حيث إن الله سبحانه وتعالى

= ٨٠) وصحيح ابن حبان (٢: ٣٥٠، ٣٥٣) ومسند أبي عوانة (١: ٢٠٠) ومعاني الآثار (٤: ٢٣٣) والسنن الكبرى للبيهقي (١: ٩١، ١٠٢، ١١٢) والسنن الصغرى له (١: ٣٥) ومعرفة السنن والآثار (١: ٣٤٣ رقم ٨٤٦).

اختار هذه الأمة منذ الأزل لتكون أمة هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، كما اختاره سبحانه وتعالى ليكون رسولاً لهذه الأمة، فمن كان كذلك كان التطابق. لذا فليحرص الإنسان أن يكون من ضمن من اختار الله تعالى أن يكون من هذه الأمة، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «أنا حظكم من الأنبياء، وأنتم حظي من الأمم» كما رواه البزار وابن حبان برجال الصحيح، خلا أبي حبيبة الطائي، وقد صحح له الترمذي وابن حبان والحاكم، وأقره الذهبي، وحسن له الحافظ في الفتح، ورواه الطبراني بسند آخر وفيه أبو عامر: القاسم بن محمد الأسدي، وقال الهيثمي: لم أرَ من ترجمه وبقية رجاله ثقات، وكلهم من حديث أبي الدرداء.

ورواه أحمد وعبد الرزاق والطبراني والبيهقي وابن عبدالبر والخطيب البغدادي من حديث عبد الله بن ثابت رضي الله عنه، وفي إسنادهم جابر الجعفي. فالحديث حسن(١). والله تعالى أعلم.

وأما **صفات الكمال**، فماذا بعد ثناء الله تعالى عليه، ومنحه من الصفات والكمالات والخصائص ما لا يوجد عند الأنبياء السابقين، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وانظر «الخصائص التي انفرد بها ﷺ عن جميع الأنبياء والمرسلين» عليهم السلام و «عظيم قدره ﷺ . . .» فقد بينت ذلك.

لقد كانت أخلاقه ﷺ القرآن، كما في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئِلَت عن خُلُقِهِ ﷺ فقالت: إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. رواه مسلم(٢).

---

(١) مسند أحمد (٣: ٤٧٠ ـ ٤٧١) (٤: ٢٦٥ ـ ٢٦٦) وكشف الأستار (٣: ٣٢١) وصحيح ابن حبان (٩: ١٧٢) ومصنف عبد الرزاق (١٠: ٣١٣ ـ ٣١٤) وشعب الإيمان (٤: ٣٠٧) وجامع بيان العلم (٢: ٤٢) والجامع الأخلاق الراوي (٢: ١١٣) ومجمع الزوائد (١: ١٧٣، ١٧٤) (١٠: ٦٨) وانظر لتصحيح حديث أبي حبيبة: سنن الترمذي: كتاب الوصايا: رقم (٢١٢٣) حيث قال: حسن صحيح، وصحيح ابن حبان (٥: ١٤٠ ـ ١٤١) والمستدرك (٢: ٢١٣) وفتح الباري (٥: ٣٧٤) وقال الذهبي عنه في الكاشف (٣: ٣٢٤): وُثِّق.

(٢) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين: باب جامع صلاة الليل، رقم (١٣٩).

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً. متفق عليه[1].

وقد ورد من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة منهم: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ عند مسلم[2] ـ واللفظ له، وأبو المعلى، وأبو هريرة رضي الله عنهما، قال ﷺ: «لو كنت متخذاً [من أهل الأرض] خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عزّ وجلّ صاحبكم خليلاً».

وأصل الحديث ثابت عند البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد، وابن عباس رضي الله عنهم أيضاً.

فقد جمع الله سبحانه وتعالى له ﷺ بين المحبة والخلة، وهذا شرف كبير وفضل عميم، وتكريم عظيم.

ولهذا جعله الله سبحانه وتعالى أسوة حسنة، وقدوة تامة لمن أراد الله تعالى هدايته، ولمن أراد الاقتداء به، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

فلو لم يكن النبي ﷺ كامل الذات، كامل الأوصاف، ما جاز أن يكون قدوة وأسوة حسنة، فلما أمر الله تعالى بذلك دل على كماله وتمامه ﷺ.

وكل هذه الأنواع التي ذكرتها عند الناس هي محبة عاطفية، فليست هي المرادة، إنما المراد هي المحبة الشرعية، ذلك لأن المحبة العاطفية لا أثر لها ولا وجود، وهي موجودة عند كثير من الناس الذين يدَّعون المحبة، لكنهم عند

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الكنية للصبي. وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب جواز النافلة، رقم(٢٦٧) وكتاب الآداب: باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم (٣٠).

(٢) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٣، ٦، ٧) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب (١٥) رقم (٣٦٥٩، ٣٦٦٠).

(٣) سورة الأحزاب (٢١).

التطبيق والامتثال تجدهم بعيدين غير صادقين.

أما المحبة الشرعية الدينية - وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى - فهي المؤثرة في السلوك والأخلاق والطباع، فتجعل صاحبَها يسير وِفْق هوى محبوبه، وبها يتضح الصادق من الكذوب. والله تعالى أعلم.

الدافع إلى محبة النبي ﷺ

إن الدوافع إلى محبة النبي ﷺ - سوى أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بذلك - كثيرة جداً، لا يمكن حصرها، إذ كل فضيلة وكل منقبة وكل خصيصة وكل صفة... مدعاة لمحبته ﷺ، فكيف وقد أمر الله تعالى بها، وجعلها رسوله ﷺ عنوان الإيمان، وبرهان الانتساب إلى هذا الدين، وعربون الالتحاق بركب الإيمان.

إن كل منتسب إلى جماعة - مهما كانت - يتوجب عليه محبة واحترام وتقدير واتباع مؤسسها، حتى لو كانت على ضلال، فكيف إذا كانت على هداية، فكيف إذا كانت ديناً، ثم كيف لو كانت بأمر الله تعالى، وما ناله الإنسان من مكرمات في الدين والدنيا والآخرة إلا عن طريقه وبطاعته واتباعه والسير على منواله.

إذا كان الله تعالى أغلق جميع الأبواب فلا يقبل منها شيئاً إلا ما كان من هذا الباب وهو اتباع النبي ﷺ، وأبطل جميع الأديان إلا ما كان من دين النبي محمد ﷺ، وهو الإسلام الذي هو دين الله تعالى، فكيف يعامل نبيُّ هذا الدين، والمأمور باتباعه وطاعته ومحبته؟.

لذا لا يمكن أن أستعرض جميع ما يجب وما يدفع إلى محبته ﷺ. لكن حسبي ذكر بعض الدوافع القليلة لتكون لنا مثالاً - لا استيعاب فيها - لأن الذي لا يُدرَكُ كله لا يُترَكُ جُلُّهُ. وهذه بعض الدوافع وإن لم تكن أهمها.

١ - جعله الله تعالى سبباً لهداية الخلق

لقد بُعِث ﷺ والناسُ في ضلال، في غواية، في عمى: يأكل القوي

الضعيف، جهل مطبق، وظلام دامس، وشريعة الغاب سائدة، لا يعرف معروف، ولا ينكر منكر، كان الناس متفرقين، السائد نظام القبيلة تحت رحمة زعمائها، والسلب والنهب من مصادر القوت...

عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: لما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ يوم حنين، قَسَمَ في الناس: في المؤلفة قلوبهم، ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً، فكأنهم وَجَدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم، فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي...» الحديث متفق عليه[1].

٢ ـ رحم الله تعالى به هذه الأمة فأكرمها وفضَّلها

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة برسولها ﷺ، وفضَّلها وشَرَّفها وأعطاها من الفضائل، وخصَّها من المكرمات، ومنحها من الأعطيات.... ما لا يكون في أمة من الأمم، فجعلها خير الأمم، وسمّاها بالمسلمين، وخصهم بالإسلام ـ الدين الذي ارتضاه لنفسه ـ وأكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، وجعلها شهداء للأنبياء السابقين على أممهم، وأحل لها الغنائم، وحط عنها من الإصر والأغلال ما كان موجوداً في الأمم السابقة، ولا تزال طائفة منها على الحق، وهي أول من يجتاز الصراط، وأول من يدخل الجنة، وسيفديها بغيرها من الأمم، وهي أكثر أهل الجنة، وفيها سادات أهل الجنة... وتمنى الكفار لو كانوا منها[2].

قال الله عزّ وجلّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. وصحيح مسلم: كتاب الزكاة: باب إعطاء المؤلفة قلوبهم...، رقم (١٣٩).

(٢) انظر عظيم قدره ﷺ... (١٠٩ ـ ١٥٣) والخصائص التي انفرد بها ﷺ... وفضائل النبي ﷺ... حيث فصلت ذلك.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . . ﴾[1].

وقال جلّ شأنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ . . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . . ﴾[3].

وقال ﷺ: «نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم» متفق عليه[4] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية لمسلم: « . . . ونحن أول من يدخل الجنة . . . ».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۞ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾[5].

إلى آخر ما أعطى الله تعالى هذه الأمة، ولولا رسولها ﷺ ما مُنحت، فكيف لا يُحَب الحبَّ الأوفى، والله تعالى أكرم به، صلوات الله وسلامه عليه.

٣ ـ هو ﷺ أولى بأمته من أنفسها

كما جعل الله سبحانه وتعالى نبيه وصفيه وخليله محمداً ﷺ أولى بالأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام من أممهم، كذلك جعله تعالى أولى بأمته من أنفسها.

---

(١) سورة آل عمران: (١١٠).
(٢) سورة البقرة (١٤٣).
(٣) سورة المائدة (٣).
(٤) صحيح البخاري: كتاب الجمعة: باب فرض الجمعة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الجمعة: باب هداية الله هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (١٩ ـ ٢٠).
(٥) سورة الحجر (١ ـ ٢).

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾[1].

والذي هو أولى الناس بإبراهيم ـ وهو أبو الرسل عليهم السلام بعده ـ هو أولى بهم جميعاً أيضاً.

قال ﷺ: «أنا أولى بموسى منهم. . .» متفق عليه[2] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة. . . .» متفق عليه[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا كان ﷺ أولى بالأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام، فكيف لا يكون أولى بأمته.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ . . . ﴾[4].

فإذا كان الله تعالى قد جعل نبيه ﷺ أولى بالأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام من أممهم، فإنه تعالى قد جعله ﷺ أولى بأمته لكن من أنفسها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم» متفق عليه[5].

---

(١) سورة آل عمران (٦٨).
(٢) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة. وصحيح مسلم: كتاب الصيام: باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١٢٧، ١٢٨).
(٣) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا . . .﴾ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضائل عيسى ابن مريم عليه السلام، رقم (١٤٣).
(٤) سورة الأحزاب (٦).
(٥) صحيح البخاري: كتاب الكفالة: باب الدين ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الفرائض: باب من ترك مالاً فلورثته، رقم (١٤).

وفي رواية لهما[1] قال ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة...».

فالذي هو أولى بك منك كيف تعامله، وكيف تقابل ذلك الولاء، وتلك المحبة...

إن الذي هو أولى به من نفسه مقدَّم عنده على نفسه، بل يفني نفسه في طاعته ومرضاته، ويبذل الغالي قبل الرخيص في تحقيق ذلك. وهكذا كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم، حيث بذلوا أقصى مايملكون في طاعة نبيهم ﷺ، وبذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل ذلك، حيث إن أحدهم ليتقدم بين يديه ﷺ في الحرب حتى لا يصاب ﷺ بأي أذى، بل يتمنى أحدهم أن يقطَّع أوصالاً، ولا يصاب نبيه ﷺ بشوكة وهو بين أهله وأصحابه، ومن قرأ كتب السير والمغازي يرى الكثير الطيب المبارك الذي لم تعرفه البشرية إلا لهذا الجيل الذين رباهم ﷺ على عينه، وقد توسعتُ في بيان حالهم رضي الله عنهم في «الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان»، أسأل الله تعالى ظهوره عن قريب.

٤ ـ حرصه ﷺ على أمته

لا نعلم رسولاً من الرسل الكرام عليهم السلام حريصاً على أمته مثل رسول الله ﷺ، وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ عن ذلك.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ومن حرصه ﷺ ما كان عليه من الرحمة والرأفة بأمته، والحرص على نجاتها.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاستقراض: باب الصلاة على من ترك ديناً. وصحيح مسلم: كتاب الفرائض: باب من ترك مالاً فلورثته، رقم (١٥).

(٢) سورة التوبة (١٢٨).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تَقَحَّمون فيه» متفق عليه واللفظ لمسلم[١]، والنصوص كثيرة في ذلك.

هو ﷺ آخذ بحجزهم حتى لا يقعوا في النار، وهم يتفلتون من بين يديه ليقعوا فيها، هو ﷺ يريد نجاتهم، وهم يريدون هلاك أنفسهم، هو ﷺ يريد سعادتهم في الدارين، وهم يريدون شقاوتهم في الدارين، فكيف يقابل ذلك.

ومن حرصه ﷺ على أمته تأخير دعوته المستجابة لتكون شفاعة لهم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» متفق عليه واللفظ لمسلم[٢].

وقد روياه[٢] من حديث أنس رضي الله عنه، وقد ورد عن غيرهما أيضاً.

ومن حرصه ﷺ على أمته ما أكرمه الله تعالى أنه سيرضيه فيها يوم القيامة ولا يسوؤه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ تلا قول الله عزّ وجلّ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ . . . ﴾[٤] الآية، وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب الانتهاء عن المعاصي. وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب شفقته ﷺ على أمته، رقم (١٧، ١٨).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الدعوات: باب لكل نبي دعوة مستجابة. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، رقم (٣٣٤ ـ ٣٤٠).

(٣) سورة الضحى (٥).

(٤) سورة إبراهيم (٣٦).

ٱلْحَكِيمُ﴾[1] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله عزّ وجلّ: «يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله، ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك». رواه مسلم[2].

فمن كان هذا حاله وحرصه وشفقته ورحمته... بأمته، فكيف لا يُحَبُّ...؟ إنه يُحَب غاية الحب ﷺ.

٥ ـ جعله الله تعالى رحمة مهداة[3]

فقد جعله الله تعالى رحمة للعالمين، ورؤوفاً رحيماً بأمته.

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

وقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

فقد أعطاه الله تعالى اسمين من أسمائه جل شأنه «رؤوف، رحيم» ووصفه بهما لأمته.

وقال جل شأنه أيضاً: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6].

---

(١) سورة المائدة (١١٨).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب دعاء النبي ﷺ لأمته، رقم (٣٤٦).

(٣) انظر المستدرك (١: ٣٥) وصححه على شرطهما وأقره الذهبي، ومجمع الزوائد (٨: ٢٥٧).

(٤) سورة الأنبياء (١٠٧).

(٥) سورة التوبة (١٢٨).

(٦) سورة التوبة (٦١).

ومن رحمته بأمته أن قُبض قبلها ليكون ﷺ لها فرطاً وسلفاً.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيَّها قبلها، فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها. . .» الحديث رواه مسلم[1].

فقد كان في الدنيا يخفف ﷺ على أمته فيقول: «لولا أن أشق. . . .» وفي الآخرة يقول: «اللهم أمتي أمتي» حين ينشغل الناس بما فيهم الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام بأنفسهم، بينما هو ﷺ ينشغل بأمته لا بنفسه، فهمُّه أمته، ويفوض أمر نفسه لربه عزّ وجلّ.

فهو سابق لها إلى رحمة الله تعالى، وسابقهم إلى الحوض. . . ﷺ، فمن كان هكذا، كيف لا يُحبُّ. . . . ؟! إنه يحب منتهى الحب صلوات الله وسلامه عليه.

٦ ـ وضع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة

ومن حرص النبي المصطفى ﷺ ورحمته بأمته، أن وضع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على من سبقهم من الأمم، وأحل لهم الطيبات، وحرَّم عليهم الخبائث، فما من خير إلا دلَّهم عليه، وما من شر إلا وحذّرهم منه، ونهاهم عنه ﷺ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿. . . وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها، رقم (٣٤).

ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ . . . ﴾[1].

ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى دينه الإسلام دين يسر وسماحة، ليس فيه عسر، ولا حرج ولا مشقة ، جعله موافقاً للفطرة ، ليواكب استمرارية الدعوة.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿. . . هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . . . ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿. . . مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . . . ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿. . . يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ . . . ﴾[4].

وعلى سبيل المثال مما خففه الله تعالى عن هذه الأمة كون التوبة في بني إسرائيل هي: قتل النفس.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ . . . ﴾[5]، بينما التوبة في الإسلام: الندم والإقلاع عن الذنب، والاستغفار، والعزم على عدم العودة إليه، وإن كان في حقوق العباد فيضاف إلى ذلك استحلالهم منه.

ومثال آخر، كان إذا أصاب ثوبَ أحدِهم، أو جلدَ أحدهم بولٌ: قرضه

---

(١) سورة الأعراف (١٥٦ ـ ١٥٧).
(٢) سورة الحج (٧٨).
(٣) سورة المائدة (٦).
(٤) سورة البقرة (١٨٥).
(٥) سورة البقرة (٥٤).

بالمقاريض، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه المتفق عليه[1]، بينما في الإسلام غسله بالماء لا غير.

فما جزاء من كان هذا شرعه ـ حيث خفف الله تعالى به عن أمته ما كان شديداً في الأمم السابقة ـ سوى المحبة والتقدير والاحترام. . . صلوات الله وسلامه عليه.

٧ ـ ما يُكِنُّهُ قلبه الشريف تجاه أمته

لو علم المسلمون ما حواه قلب نبيهم ﷺ الكبير الرحيم من شوق ومحبة لأتباعه المؤمنين، وما يكنه في نفسه من حرص على هدايتهم ونجاتهم وخلاصهم مما هم فيه من غمِّ الدنيا وهمِّ الآخرة، وما يتلجلج به صدره الشريف في ليله ونهاره، وما يشغل فكره ﷺ تجاههم، وما يأخذه من الخوف عليهم في دنياهم وآخرتهم، ومن كثرة بكائه وحزنه عليهم، وما يتقطع قلبه ﷺ أسىً وحزناً وجزعاً وفزعاً على تقصيرهم أو عدم اتباعهم، وتأسفه الطويل على إعراضهم، وما يعِزُّ عليه مما يشق عليهم. . . . . حتى إن الله عزّ وجلّ واساهُ وسلّاهُ أكثر من مرة بألا يقتل نفسه ويهلكها حزناً وأسى وحسرة وجزعاً عليهم. . .

لو علم المسلمون هذا ـ وغيره أكثر، بل مضاعف ـ مما يكنه لهم ﷺ؛ لذابوا وجداً وشوقاً وهياماً ومحبة له ﷺ، بل لذابوا خجلاً وحياءً مما تجنيه أيديهم وأنفسهم في تقصيرهم نحوه ﷺ، ومن بُعدهم عنه، وإعراضهم، وقلة اتباعهم. . . وهم سيلقونه غداً على الحوض أو الصراط. . . . . في المحشر.

لقد عرف الصحابة رضي الله عنهم ذلك كله، فأعطوه ﷺ ما هو أهله، لأن الله تعالى اختارهم، وجعلهم أهلاً لذلك وأحق: ﴿. . . وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ . . ﴾[2].

ولقد كثرت النصوص القرآنية في مؤاساة الله تعالى لنبيه ﷺ، ألّا يهلك

(١) صحيح البخاري: كتاب الوضوء: باب البول عند سباطة قوم. وصحيح مسلم: كتاب الطهارة: باب المسح على الخفين، رقم (٧٤).
(٢) سورة الفتح (٢٦).

نفسه الشريفة حزناً وأسى وجزعاً عليهم.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1].

أي فلعلك قاتل نفسك أو مهلكها حزناً وأسفاً وتلهفاً على إعراضهم عنك...

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ...﴾[3].

هكذا يؤاسيه ويسليه الله عزّ وجلّ حتى لا يهلك نفسه عليهم أسى وحزناً وحسرة وجزعاً، فما هذا القلب الكريم الذي يواسيه ربه جل شأنه حتى لا يتفطر أسى وحزناً على أمته، وهؤلاء كفار فكيف بالمؤمنين.

ولهذا يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾[4] أي يعزُّ عليه ما يشُقُّ على أمته، بل يريد أن يكون كل شيء سهلاً ميسوراً، وهكذا كانت شريعته سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

فكيف يقابَل هذا القلب الكريم الرحيم الحنون الشفوق... وكيف يقابَل صاحبه الذي يحمله... صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا عندما يرى الكفارُ مصيرَ هذه الأمة يوم القيامة من النجاة من النار، والنعيم المقيم في الجنان... يتمنون لو كانوا من هذه الأمة، فينالوا مما تنال من فضل وتكريم وإحسان.

---

(١) سورة الكهف (٦).
(٢) سورة الشعراء (١ ـ ٣).
(٣) سورة فاطر (٨).
(٤) سورة التوبة (١٢٨).

قال الله عزّ وجلّ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[1].

٨ ـ شفاعاته ﷺ في الآخرة

ومما أُعطيه ﷺ الشفاعة، وقد اختص ﷺ ـ عن سائر الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ بالشفاعة العظمى، كما اختُص ﷺ بعدد من الشفاعات، سواء لإخراج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ولأهل الصغائر، والكبائر، والشفاعة التي لا ترد، ولإراحة الخلق من هول الموقف، أو لدخول الجنة، . . وقد استوعبت ذكر ذلك وأدلته في «الخصائص».

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي. . . وأعطيت الشفاعة. . .» متفق عليه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة. . .» الحديث، وفيه: «فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك. . .» الحديث متفق عليه[3].

ويشفع لمن دخل النار من أمته حتى لا يبقى فيها إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود، كما في حديث أنس المتفق عليه[4].

---

(١) سورة الحجر (١ ـ ٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التيمم: الباب الأول ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب المساجد، رقم (٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم (٣٢٧).

(٤) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة البقرة: باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ=

وشفاعته ﷺ لا تشمل أهل الصغائر فحسب، بل لأهل الكبائر أيضاً، كما في حديث أنس عند أحمد والطيالسي وأبي داود، والترمذي وابن حبان والحاكم ـ وصححوه ـ وغيرهم، وحديث جابر عند الترمذي ـ وحسنه ـ وابن حبان والحاكم ـ وصححاه ـ وابن ماجه وغيرهم[1]. وهو مروي عن غيرهم أيضاً.

ولهذا قال موسى عليه السلام ـ بعدما بكى ـ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي». كما في حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه، المتفق عليه[2].

وفي حديث أبي سعيد: قال موسى: «يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني» زاد الأموي في روايته: «ولو كان هذا وحده هان عليّ، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند الله»[3].

ويتضح ذلك من كثرة من يدخل الجنة من أمته ﷺ.

فقال ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، المتفق عليه[4].

= كُلِّهَا﴾، وكتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار ـ وفي غيرها ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم (٣٢٢).

(١) مسند أحمد (٣: ٢١٣) ومسند الطيالسي، رقم (٢٠٢٦) وسنن أبي داود: كتاب السنة: باب في الشفاعة، رقم (٤٧٣٩) وسنن الترمذي: كتاب صفة القيامة: باب (١٢)، رقم (٢٤٣٥، ٢٤٣٦) وسنن ابن ماجه: كتاب الزهد: باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣١٠) وصحيح ابن حبان (٨: ١٣١، ١٣٢) والمستدرك (١: ٦٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب المعراج. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات، رقم (٢٦٤).

(٣) انظر فتح الباري (٧: ٢١١).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب الحشر. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، رقم (٣٧٨) ومثله من حديث أبي سعيد عندهما أيضاً.

بل في حديث بريدة رضي الله عنه «ثلثي أهل الجنة»[1].

وكلها تدخل الجنة إلا من عصى وكذَّب بما جاء به رسول الله ﷺ[2].

كما يجعل ما على المذنبين من هذه الأمة من الذنوب والخطايا على اليهود والنصارى، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه عند مسلم[3].

ومن عصى فإن كان كافراً فهو لا يدخل الجنة أصلاً، وإن كان مسلماً فهو لا يدخلها مع أول داخل من هذه الأمة، وإنما بعد ذلك، والله تعالى أعلم، وذلك لأنه تعالى سيرضيه في أمته ﷺ، كما مر معنا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[4].

فإذا كان هذا شأنه ﷺ وتكريم الله تعالى له في أمته، فكيف يعامل من قِبَلِ من هم منتسبون إليه ﷺ، ولولاه لما أُعطوا هذا العطاء العميم وهذا الفضل الكريم؟

٩ ـ اشتياقه ﷺ لرؤية أحبابه

الحب الكامل التام النافع ما كان بين اثنين متقابلين متقاربين، أما إذا كان

---

(١) مسند أحمد (٥: ٣٤٧، ٣٥٥، ٣٦١) ومصنف ابن أبـي شيبة (١١: ٤٧٠ ـ ٤٧١) وسنن الدارمي (٢: ٢٤٣ رقم ٢٨٣٨) ومشكل الآثار (١: ١٥٦ ـ ١٥٧) وسنن الترمذي: كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في وصف أهل الجنة، رقم(٢٥٤٦) وفتح الباري (١١: ٣٨٨) لتصحيح الترمذي. وسنن ابن ماجه: كتاب الزهد: باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩) والمستدرك (١: ٨١ ـ ٨٢) وصحيح ابن حبان (٩: ٢٧٥) وموارد الظمآن (رقم ٢١٥٥).

(٢) انظر: صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، لحديث أبـي هريرة. والموارد، رقم(٢٣٠٦) ومجمع الزوائد (١٠: ٧٠) لحديث أبـي سعيد. ومسند أحمد (٥: ٢٥٨) والمستدرك (١: ٥٥ ـ ٥٦) ومجمع الزوائد (١٠: ٧١) لحديث أبـي أمامة.

(٣) صحيح مسلم: كتاب التوبة: باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٤٩ ـ ٥١).

(٤) سورة الضحى (٥).

بين شريف ووضيع، أو بين كامل وناقص، أو بين عالٍ ونازل. . . . فهذا فضل وتكرم من الأول، فكيف إذا كان من رسول الله ﷺ وبين سائر أفراد أمته، وكذا بين الخالق تعالى وبين مخلوقيه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿. . . يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ. . . ﴾[1].

وقال جلّ شأنه: ﴿. . . رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ. . . ﴾[2].

فقد قدَّم الله تعالى حبه لهم ورضاه عنهم على حبهم له ورضاهم عنه، وهذا غاية الشرف والكرامة لهم.

وإذا كان الكامل يقدم حبه لمن دونه فليس من الإنصاف أن يعتذر الآخر أو يتأخر في محبته، بل على العكس يسرع في محبته وشوقه وسعادته، لكون الذي يبادله الحب هو ممن فوقه وليس في مستواه، بل حتى لو كانا في مستوى واحد فإن إعراض أحدهما مع حب الآخر بلاء.

كما قال الشافعي رحمه الله تعالى[3]:

ومِـــــنَ البَلِيَّـــــةِ أَنْ تُحِـ ـــبَّ ولا يُحِبُّـكَ مَـنْ تُحِبُّـهُ
وَيَصُـــدُّ عَنْـــكَ بِـــوَجْهِـــهِ وتُلِـــحُّ أَنْـــتَ فَـــلا تُغِبُّـــه

ولهذا كان النبي ﷺ يحن ويشتاق ويود رؤية محبيه وأحبابه ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا» قالوا: أَوَ لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟، فقال: «أرأيتَ لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ محجَّلةٌ، بين ظهري خيلٍ دُهْمٍ

---

(١) سورة المائدة (٥٤).
(٢) سورة المائدة (١١٩) وسورة التوبة (١٠٠) وسورة المجادلة (٢٢) وسورة البينة (٨).
(٣) ديوان الإمام الشافعي (٢٤ ـ ٢٥).

بُهْمٍ، ألا يعرف خيلَه؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غُرّاً محجَّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض...» الحديث رواه مسلم[1].

فما جزاء من يحبُّ إلا أن يُحَبَّ، وما جزاء من يشتاق إلا أن يُشتاقَ إليه، وسيأتي بيان ذلك من قبل محبيه ﷺ.

١٠ ـ ما جبل عليه ﷺ من صفات الجمال والكمال

ماذا أقول في وصفه ﷺ، وناعِتُه يقول: لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ[2]، ذلك أن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا حسن الوجه، حسن الأخلاق، فكيف برسول الله ﷺ الذي حوى الجمال والكمال.

لقد كان ﷺ أعلمَ الخلق بالله عزّ وجلّ، وأشدهم له خشية، كان أشجع الناس، وأحسنهم خَلْقاً وخُلُقاً، كان أجود الناس، وأحسن الناس، كان أجود بالخير من الريح المرسلة، يلوذ به الشجعان في المعارك، ما سُئل عن شيء فقال: لا، كثير العطاء، سخّاء اليمين، من سلّم عليه لا يدع يده حتى يكون الآخر هو الذي يدعُ، يرى كلُّ واحدٍ من جلسائه أنه الأقرب إليه من غيره.

كان ﷺ أشد حياءً من الفتاة في خدرها، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، رحيماً بالصبيان والعيال، يمزح، ولا يقول إلا حقاً، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ما ضرب بيمينه شيئاً قطُّ، لا امرأة ولا خادماً: إلا أن يكون في سبيل الله تعالى، لا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لها، إلا أن تُنتَهك حرمات الله عزّ وجلّ، إذا تحدث أصحابه تحدث معهم، وإذا تكلموا أصغى إليهم، يُقبِل على جليسه بِكُلِّيّتِهِ، كثير التبسم، رحيماً بالنساء يرفق بهن، قريباً من الناس، يأتيه الخدم بأوانيهم فيها الماء في الغداة الباردة فيغمس يده فيها، تأتيه الأَمَة أو الجارية فتوقفه حتى يقضي لها حاجتها، ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الطهارة: باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٣٩).
(٢) انظر: شمائل الرسول الأمين ﷺ، للمصنف (٦٦ ـ ٧٥).

كان ﷺ بعيداً عن الآثام، ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، سمحاً، سهلاً، ميسراً، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ﷺ.

كان ﷺ متواضعاً، حليماً، صبوراً، شفوقاً، رؤوفاً، رحيماً، عطوفاً، حنوناً، رحيماً بالصغار، عطوفاً على الكبار، رقيق القلب، سريع الدمعة جاريها، صفي النفس، نقي السريرة، كريم الأخلاق، كامل الشمائل، وقوراً، كامل العبادة، قام حتى تفطرت قدماه، شكوراً لربه، حييّاً، سِتِّيراً، طيباً، شديد الخشية، طاهر النسب، متوكلاً على ربه، شديد التوكل، معتصماً به، شفوقاً على أمته، مبالغاً في تحذيره لها مما يضرها، صلوات الله وسلامه عليه.

كان ﷺ طيب الرائحة، ذكيّها، ليِّن المس، قال أنس رضي الله عنه: ما **شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسستُ** شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً ألين مسّاً من رسول الله ﷺ (رواه مسلم)، كان عرفُه كاللؤلؤ، وهو أطيب من الطيب، كانت أم سُليم تديف بعرقه ﷺ طِيبها فيطيِّبُه، كان أبيض مليح الوجه، ﷺ.

ولا يمكن أن أنعته أو أصفه ، فالعبارات عجزت عن ألسن الصحابة رضي الله عنهم أن يصفوه وينعتوه، فكيف أصف أو أنعت من كمَّله مولاه وجمَّله ، وجعله خيرَ خلقه وخِيرَتَه من خَلْقِه، واصطفاه من خواصِّ عباده، ﷺ.

وما ذكرته هو للتقريب، لا للمقاربة، وللتنبيه لا للتعيين، فهذا دونه خرق القتاد، والله أعلم.

فمن كان بهذه الصفة فكيف لا يُحَبُّ، ويرغب الإنسان في التقرب إليه، والدنو إلى جنابه؟ وهكذا فعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

١١ ـ ما أكرمه الله تعالى به من الخصائص والمميزات والمكرمات والمعجزات

لقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه وصفيه ﷺ خير الخلق، وأكرم الرسل، فعظّم قدره، ورفع مكانته، وأعلى مقامه، فأكرمه بخصائص لا توجد عند الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وخصه بميزات وكرامات ومعجزات لا تجارى، ولا توجد عند غيره ﷺ، أخذ له العهد على جميع الرسل والأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، كان نبياً وآدم منجدل في طينته، جعله أول المسلمين، وخاتم النبيين، وهو ﷺ أولى بالأنبياء من أممهم، وبالمؤمنين من أنفسهم، وجعل أزواجه ﷺ ورضي الله عنهن أمهات المؤمنين، وجعله منة يمتنّ بها على عباده، جعله خيرة الخلق، وسيدَ ولد آدم، جعل تعالى طاعته ﷺ طاعة لله عـزّ وجلّ، ومبايعته ﷺ مبايعة لله عزّ وجلّ، وجعل الإيمان به مقروناً بالإيمان به تعالى، وهو رحمة للعالمين، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، وعمَّم رسالته، وتكفل المولى بحفظه، وعصمته، وأقسم بحياته، وببلده، وله، ولم يناده باسمه، ونهى عن مناداته باسمه ﷺ، بل ينادى: يا رسول الله، يا نبي الله. ونهى عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ، وجعله نوراً، وتولى الإجابة عنه، وجعل الصلاة عليه مستمرة، وأكرمه بالإسراء والمعراج، وشقِّ الصدر، وانشقاق القمر، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، مع أنه معصوم لا يخطىء ﷺ.

وأعطاه جوامع الكلم، ومفاتيح خزائن الأرض، ونصره بالرعب، وشهد له الله تعالى وملائكته الكرام، وجعل قرنه الذي بُعث فيه خير القرون، وإماماً في الأنبياء في بيت المقدس، بل سيصلي المسيح عليه السلام خلف رجل من أمته، وجعله يرى من خلف ظهره ﷺ، ورؤيته في المنام حقاً، وعرض عليه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مع أممهم، وأطلعه على المغيبات، وجعل خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ، وجعله شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، وأعطاه الشفاعة العظمى، ﷺ.

وجعله ﷺ أول من يبعث، وهو إمام الأنبياء، وخطيبهم إذا وفدوا، وكل

الأنبياء تحت لوائه ﷺ، وهو أول من يجيز الصراط، وأول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها، وأعطاه الوسيلة والفضيلة، والمقام المحمود، والحوض المورود، والكوثر، وبيده لواء الحمد، وهو سيد الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهو أول شافع ومشفع، وأكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وهو مبشر الناس إذا أيسوا، ﷺ.

وغير ذلك كثير، ذكرته في «فضائل النبي الكريم ﷺ...» و «الخصائص التي انفرد بها ﷺ...» و «عظيم قدره ﷺ...» بشواهدها وأدلتها.

فمن كان هكذا فكيف لا يُحَبُّ ويُقَدَّر ويُحْتَرَم ويُبَجَّل... ويُشْتاق إليه؟! صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

١٢ ـ أمر الله تعالى بتوقيره واحترامه وتشريفه وتبجيله

لقد أمـر الله تعالى هذه الأمة بتبجيـل نبيها وحبيبها صلوات الله وسلامه عليه، واحترامه وتقديره وتشريفه، فلا ينادونه باسمه، بل ينادونه: يا رسول الله، يا نبي الله. وهذا بخلاف ما كان عند الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام ؛حيث كانت أقوامهم تناديهم بأسمائهم، وهذا الأمر من الله تعالى قد فعله سبحانه وتعالى مع نبيه ﷺ، حيث لم يناده باسمه، بل بالنبوة والرسالة، وهذا أيضاً بخلاف ما خاطب الله تعالى به رسله وأنبياءه السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وقد ذكرت هذا مفصلاً في الكتب السابقة، وأقتصر على بعض النصوص للتذكير:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ... ﴾[١].

وقال جلّ شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ... ﴾[٢]..... إلخ.

---

(١) سورة المائدة (٦٧).

(٢) سورة الأنفال (٦٤).

بينما قال تعالى عن الأنبياء السابقين: ﴿... يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ...﴾[1] ﴿... يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ...﴾[2] ﴿... يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ...﴾[3] ... إلخ.

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾[4].

بينما كان في الأمم السابقة: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا...﴾[5]. ﴿... قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ...﴾[6] ... إلخ.

ومن ذلك التبجيل عدم رفع الصوت فوق صوته ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[7].

فقد حذر تعالى من رفع الصوت، وأثنى على الذين يغضون الصوت، وشنّع على الذين رفعوا الصوت، فهل بعد هذا من تكريم؟.

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[8].

---

(١) سورة هود (٤٨).
(٢) سورة القصص (٣٠).
(٣) سورة الصافات (١٠٤ ـ ١٠٥).
(٤) سورة النور (٦٣) وانظر تفسير ابن كثير (٣: ٣٠٦).
(٥) سورة هود (٣٢).
(٦) سورة الأعراف (١٣٤).
(٧) سورة الحجرات (٢ ـ ٥).
(٨) سورة الفتح (٨ ـ ٩).

وقال جلّ شأنه مبيناً ثواب الذين يوقرون نبيه ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

والتوقير أعلى من المحبة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

فإذا كان الله تعالى يطلب منا توقير نبيه ﷺ فكم هو يحبه..... حتى يطلب منا أن نوقره ونعزره وننصره... صلوات الله وسلامه عليه، وكم هذا يقتضي من حب وتبجيل وتعظيم...؟

١٣ ـ مسارعة ربه عزّ وجلّ في هواه ﷺ

وأدل ما يدل على وجوب محبته ﷺ، وطلب مرضاته ﷺ كون الله عزّ وجلّ يحقق له رغباته من غير طلب منه، ولكن بعلم الله عزّ وجلّ ذلك منه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾[2] فهو رضا المحبة، لأنه ﷺ كان مأموراً بالتوجه إلى بيت المقدس.

وفي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ـ في غيرتها من اللآئي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ـ قالت: فلما أنزل الله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ...﴾[3] قلت: ما أرى ربّك إلا يسارع في هواك. متفق عليه[4].

---

(١) سورة الأعراف (١٥٧).

(٢) سورة البقرة (١٤٤).

(٣) سورة الأحزاب (٥١).

(٤) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قول الله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ من سورة الأحزاب، وكتاب النكاح: باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد؟ وصحيح مسلم: كتاب الرضاع: باب هبتها نوبتها لضرتها، رقم (٤٩ ـ ٥٠).

وقولها رضي الله عنها: «يسارع في هواك» أي في رضاك[1].

فإذا كان الله عزّ وجلّ يسارع في رضاه، ويحقق له رغباته من غير طلب منه إلا لعلم الله تعالى أنه يرغب ذلك، فما هو حال المسلم المتَّبع، كيف لا يحبه ويرجو فضل الله تعالى فيه؟.

١٤ ـ تكريم كل ما يتصل به ﷺ

ومن تكريم الله تعالى لنبيه وصفيه ﷺ أن كرَّم كلَّ ما يتصل به ﷺ.

فقد كرّم نسبه الشريف فجعله خير الناس نسباً، وكرّم أهل بيته فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأوجب الصلاة عليهم تبعاً للصلاة والسلام عليه ﷺ، وكرّم قرابته فأوجب لهم المودة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]. وكرّم قومه وعشيرته فشرفهم ورفع ذكرهم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي شَرَفٌ لك ولقومك. وكرّم نساءه ﷺ ورضي الله عنهن فجعلهن أمهات المؤمنين، وحرَّم نكاحهن من بعده ﷺ، وكرّم ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها فجعلها سيدة نساء أهل الجنة أو نساء العالمين، وأمها السيدة خديجة رضي الله عنها فجعل لها بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، وكرّم ولدي فاطمة الحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً فجعلهما سيدي شباب أهل الجنة، وكرّم عمّه سيدنا حمزة رضي الله عنه فجعله سيد الشهداء، وكرّم صحابته الكرام رضي الله عنهم حيث جعلهم أهلاً للتقوى، واختارهم من جميع الخلق ليكونوا صحابة لنبيه ﷺ، فهم حظه ﷺ، وكرَّم قرنه ﷺ فجعله خير قرون بني آدم، وكرّم قبلته ﷺ فجعلها أول بيت وضع للناس، وكرّم كتابه فتولى الله تعالى بنفسه حفظه.

وكرّم بلده ﷺ فجعله حرماً، وأقسم به، وأنزل فيه سورة «البلد».... وكرّم مدينته ﷺ فجعلها حرماً، وجعل منبره فيها في الجنة على حوضه،

---

(١) انظر فتح الباري (٩: ١٦٥) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٠: ٤٩ ـ ٥٠).

(٢) سورة الشورى (٢٣).

والروضة من الجنة، وأُحُداً في الجنة... وكرّم مسجدَه الشريف فجعل الصلاة فيه أفضل من ألف صلاة، وجعل الرَحْل تشد إليه مع المسجد الحرام وبيت المقدس، وكرّم أمته ﷺ فجعلها وسطاً، وخيرَ الأمم، وشاهدة على الأمم السابقة، وكرّم قرينه فأسلم فلا يأمره إلا بخير... ثم أعطاه الشفاعة ليعرف الجميع فضله ﷺ، ثم قال له بعد هذا كله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[1].

فإذا كان الله تعالى قد أعطاه هذا بل أكثر[2] ـ وكل ذلك تكريم منه جلّ شأنه ـ فكيف لا نقدره ونحترمه ونجله ونحبه.. ﷺ...؟

١٥ ـ مكافأته على معروفه ﷺ إلينا

إن من الواجب شرعاً وعقلاً مكافأة من صنع أو أهدى معروفاً لغيره على معروفه الذي قدمه، استناداً لقوله ﷺ: «من صنع ـ أو أهدى ـ إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا، فادعوا الله له حتى تعلموا أن قد كافأتموه» كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما[3]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[4].

فإذا كان هذا في الأمور الدنيوية، فكيف بما هو أجل وأعظم: من هداية وإنقاذ وسعادة الدارين؟.

إن الإنسان العاقل يقابل من أهدى له هدية، أو أعطاه عطية بأحسن منها

---

(١) سورة الضحى (٥).
(٢) انظر: «الأمانة العظمى...» و«الخصائص التي انفرد بها ﷺ ..» و«فضائل النبي الكريم ﷺ ...» و«عظيم قدره ﷺ ...».
(٣) انظر مسند أحمد (٢: ٦٨، ٩٥ ـ ٩٦، ٩٩، ١٢٧) ومصنف ابن أبي شيبة (٣: ٢٢٨) وسنن أبي داود: كتاب الزكاة: باب عطية من سأل بالله، رقم (١٦٧٢) وكتاب الأدب: باب في الرجل يستعيذ من الرجل، رقم (٥١٠٩) وسنن النسائي: كتاب الزكاة: باب من سأل بالله عز وجل (٥: ٨٢) ومسند الطيالسي (٢٥٧ رقم ١٨٩٥) والأدب المفرد (٨٧ رقم ٢١٦) والمستدرك (١: ٤١٢) (٢: ٦٣ ـ ٦٤) وصحيح ابن حبان (٥: ١٧٣ رقم ٣٤٠٠) والسنن الكبرى (٤: ١٩٩) والآداب (١٦١ ـ ١٦٢).
(٤) سورة الرحمن (٦٠).

أو مثلها على الأقل، كما لا يمكن أن ينسى من أحسن إليه، وخلّصه من مأزق حرج، وكلما كانت المكرمة عظيمة كان الاعتراف بالفضل والتقدير أعظم.. وهذا في أمور الدنيا، فكيف بمن كان سبب خلاصك من نار الجحيم، وبمن كان سبباً في هدايتك وإرشادك، وبمن جعلك على الجادة المستقيمة، وبمن كان سبب سعادتك في الدارين، ومع هذا وقبله وبعده هو أحرص عليك وأولى بك منك.

بماذا يُكافأ ﷺ، والذي قدَّمه لأمته لا يقابل بثمن، ولا يحتمله ميزان، ولا تحيط به العقول، ولا تدركه الألباب... وإذا كانت أمور الدنيا من الممكن مقابلتها، فبماذا تُقابل أمور الآخرة من شفاعة وسعادة وجنة؟... وقد أمرنا أن ندعو له إن لم نجد ما نكافئه به، فكيف نكافئه ﷺ؟ وكم ندعو له؟ وهل دعاؤنا يقابِل ما قدّمه لنا ﷺ؟ فنحن عاجزون عن مقابلة ذلك، فالحب والتقدير والاحترام والتوقير... قليل في جنب ما قدمه ﷺ.

١٦ ـ هو رسول الله ﷺ

إن من يدعي محبة الله عزّ وجلّ يلزمه محبة رسوله وصفيه وحبيبه ﷺ، وذلك:

لأن الله تعالى يحبه ﷺ، ومن شرط المحبة أن تحب من يحبه المحبوب.

ولأن الله عزّ وجلّ أرسله، ومن شرط الإيمان المحبة، إذ لا يمكن أن يؤمن بأنه رسول الله وهو لا يحبه.

ولأن الله سبحانه وتعالى أمر بمحبته ﷺ وتوقيره وتبجيله...

ولأن الله جلت قدرته امتن على عباده به ﷺ.

ولأن الله سبحانه وتعالى جعل طاعته ﷺ طاعته تعالى، ومبايعته ﷺ مبايعته تعالى.

ولأن الله عزّ وجلّ رفع شأنه، وأعلى مقامه، وعظَّم قدره، ورفع

منزلته. . . فجعله خير خلقه، وأفضل رسله ﷺ . . . إلخ.

فكيف تكون محبته ﷺ؟ إن من يدعي محبة الله تعالى ولم يحب رسوله ﷺ - وقد جعلها الله عبادة، وساقها مساقاً واحداً كما سيأتي - فهو كذاب مدعٍ، شأنه في ذلك شأن من يؤمن بالله تعالى ولم يؤمن برسوله ﷺ، فهو كذاب أيضاً.

١٧ - أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بذلك

إذا كان كل ما مر، يوجب عقلاً وشرعاً محبة النبي ﷺ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك أمر الله عزّ وجلّ، وأمر رسوله ﷺ بذلك، بل أوجب تقديم محبته ﷺ على محبة كل مخلوق، وحذّر من تقديم محبة أحد من المخلوقات على محبته ﷺ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في الفقرة التالية.

إن شرط الإيمان المحبة، فمن آمن ولم يحب فليس بمؤمن، وهذا ما أكد عليه القسم - كما سيأتي - والمرء على دين خليله.

ولا يمكن أن يتذوق حلاوة الإيمان إلا محب لله تعالى ولرسوله ﷺ تام المحبة.

ولهذا جعله الله تعالى أسوة حسنة.

وقد أثنى عليه وشهد له ﷺ كما سيأتي بيانه. . .

كل ذلك - وغيره كثير - يستدعي محبة النبي ﷺ، ولا يمكن أن نحصر الأسباب والعوامل الموجبة لمحبته ﷺ، إذ كل صفة من صفاته ﷺ توجب محبته ﷺ، وكل خُلق من أخلاقه ﷺ يوجب محبته ﷺ، وكل كمال من كمالاته ﷺ يوجب محبته، وكل خصيصة من خصائصه كذلك. . .

فإذا عرفنا مكانته ﷺ عند ربه عزّ وجلّ، ومعاملته تعالى له ﷺ، وحسن شمائله ﷺ . . . أَذْعَنّا - طائعين أو مكرهين - على محبته ﷺ، فكيف وقد أمر الله تعالى بها، وأوجب تقديمها، وحذّر من التقصير فيها. . .؟

أسأل الله تعالى أن يرزقنا حبه وحب نبيه وصفيه وحبيبه ﷺ على الوجه الذي يرضيه ويرضى به، إنه سميع مجيب، جواد كريم، وبالإجابة جدير.

الأدلة على وجوب محبة النبي ﷺ

لقد أمر اللهُ عزّ وجلّ ورسولُه ﷺ بمحبة النبي الكريم ﷺ وتبجيله واحترامه وتوقيره ﷺ، . . . كما أمر اللهُ عزّ وجلّ ورسولُه ﷺ بتقديم محبة نبيه وصفيه وحبيبه ﷺ على محبة كل شيء، وقد جاء التهديد من الله عزّ وجلّ للذين يقدِّمون محبةَ غير الرسول الكريم على محبته ﷺ، كما جاء نفي الإيمان عمن لم يقدِّم محبته ﷺ على محبة كل مخلوق.

والنصوص على وجوب محبته ﷺ، وعلى تقديمها على محبة كل شيء كثيرة، دلَّ عليها القرآن الكريم، والسنّة النبوية الشريفة، وعلى ذلك إطباق الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأذكر هنا بعض الأدلة ـ لا كلها ـ للتقريب والتنبيه، حتى لا يطول البحث، والله تعالى هو المعين.

١ ـ تقديم المحبة

لقد جاء عدد من النصوص في وجوب تقديم محبته ﷺ على محبة الوالد والولد والمال والناس. . . إلخ.

أ ـ تقديم محبته ﷺ على محبة الوالد والولد:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده» رواه البخاري[1].

فقد حلف ﷺ على نفي الإيمان الكامل عمن لم يقدِّم محبتَه ﷺ على محبة الوالد والولد، وقدم الوالد على الولد لأنه الأصل، ولأن جميع الناس ـ خلا آدم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب حب الرسول ﷺ من الإيمان.

وعيسى عليهما السلام ـ لهم والد، وليس لكل الناس ولد، ولتقدمه في الزمان والإجلال.

كيف يحب الولد والده وكيف يحب الوالد ولده، يجب أن تكون محبة النبي ﷺ أحبَّ إلى كل منهما من الآخر، وذكر الوالد والولد لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من النفس.

وقد عنون البخاري رحمه الله تعالى على هذا الحديث بقوله: باب حب الرسول الله ﷺ من الإيمان.

ولم يذكر الأم، لكن تدخل في لفظ الوالد، لأنه إن أريد به من له الولد فيعُم، أو يقال: اكتفى بذكر أحدهما كما يُكتفى بذكر أحد الضدين بالآخر، أو يكون ما ذكر على سبيل التمثيل، والمراد الأعزة، كأنه قال: أحب إليه من أعزته[١].

ب ـ تقديم محبته ﷺ على محبة الوالد والولد والمال والناس أجمعين:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس **أجمعين**» متفق عليه[٢].

وفي رواية مسلم: «حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس **أجمعين**».

وفي رواية لمسلم[٣] عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد ـ وفي رواية: الرجل ـ حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».

ففي هاتين الروايتين «الوالد، والولد، والأهل، والمال، والناس أجمعون».

---

(١) انظر فتح الباري (١: ٥٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب حب الرسول ﷺ من الإيمان. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، رقم(٧٠).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، رقم (٦٩).

وقد ذكر الناس بعد ذكر الوالد والولد والأهل من باب عطف العام على الخاص، وأيضاً ليشمل سائر المخلوقين من البشر، وما ذكرهم أولاً هم أعز على نفس الإنسان في الجبلة والفطرة.

كما قدَّم الولد على الوالد في رواية مسلم الثانية، وذلك لمزيد من الشفقة والإحسان والعطف، والله أعلم.

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى: لم يرد به حب الطبع، بل أراد به حب الاختيار، لأن حب الإنسان نفسه طبع، ولا سبيل إلى قلبه.

قال: فمعناه، لا تصدُقُ في حبي حتى تُفني في طاعتي نفسَك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك. ا هـ النووي(١).

وقال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما رحمة الله عليهم: المحبة ثلاثة أقسام:

- محبة إجلال وإعظام، كمحبة الوالد.
- ومحبة شفقة ورحمة، كمحبة الولد.
- ومحبة مشاكلة واستحسان، كمحبة سائر الناس.

فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته. ا هـ نووي أيضاً(٢).

وقال ابن بطال رحمه لله تعالى: معنى الحديث؛ أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن به ﷺ استُنقِذنا من النار وهُدِينا من الضلال. ا هـ(٣).

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: ومن محبته ﷺ، نصرة سنتِه، والذب عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢: ١٥) وانظر فتح الباري (١١: ٥٢٨).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢: ١.٥) وانظر فتح الباري (١١: ٥٢٨).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢: ١٥ ـ ١٦).

قال: وإذا تبين ما ذكرناه، تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ، ومنزلته على كل والد وولد، ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن ا هـ[1].

وإذا كان قد ذكر في الحديثين السابقين: الوالد، والولد، والأهل، والمال، والناس أجمعين، فإنه قد بقي النفس، ولا يصح الإيمان إلا بتقديمها عليها.

ج ـ تقديم محبته ﷺ على النفس:

فعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه: ـ الآن ـ والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر». رواه البخاري[2].

فقد اكتمل بهذا الحديث جميع المخلوقات ـ لكن على سبيل الإجمال ـ وسيأتي في الآية القرآنية الكريمة بعد قليل فيها تفصيل لما أجمل، والله المستعان.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى[3]: ومن علامة الحب المذكور: أن يعرض على المرء أن لو خُيِّرَ بين فَقْدِ غرض من أغراضه، أو فقد رؤية النبي ﷺ ـ لو كانت ممكنة ـ فإن كان فقدها ـ أن لو كانت ممكنة ـ أشدَّ عليه من فقد شيء من أغراضه، فقد اتصف بالأحبية المذكورة، ومن لا، فلا.

وليس ذلك محصوراً في الوجود والفقد، بل يأتي مثله في نصرة سنّته، والذب عن شريعته، وقمع مخالفيها، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ا هـ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢ : ١٦) وانظر الشفا (٢ : ٥٧٩ وما بعد).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الأيمان والنذور: باب كيف كانت يمين النبي ﷺ.
(٣) فتح الباري (١ : ٥٩).

قلت: لكن لا بدّ من تقييد الشيء المفقود بالأهمية بحيث يكون بمكانة المذكورين من والد وولد وأهل... أما إذا كان شيئاً حقيراً فالغالب عدم الالتفات إليه، والله تعالى أعلم.

ومحبة النبي ﷺ وتقديمها على محبة الآخرين لا يخلو منها قلب مسلم، لكن ذلك يتفاوت.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته، بحيث يؤثرها على أهله وولده وماله ووالده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة، ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه.. غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات، والله المستعان. اهـ من الفتح[1].

٢ ـ وجوب محبته ﷺ لحب الله عزّ وجلّ له

لقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تعالى إذا أحب عبداً يحبه جبريل عليه السلام وأهلُ السماء ويوضع له القبول في الأرض.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبَّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض...» الحديث متفق عليه[2].

---

(١) فتح الباري (١: ٦٠).

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب ذكر الملائكة، ورواه في كتابي الأدب والتوحيد أيضاً. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، رقم (١٥٧).

فقوله: «يوضع له القبول» أي يحبه أهل الأرض، ويقبلون عليه، ونظير ذلك آخر الحديث: «ثم توضع له البغضاء في الأرض» لذا من لم يحبه ﷺ ويقدِّم محبته فهو خارج عن نطاق هؤلاء الذين يحبهم الله تعالى وجبريل عليه السلام وأهل السماء، والله أعلم.

وقد مر قبل فترة قوله ﷺ: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً.... وقد اتخذ الله عزّ وجلّ صاحبكم خليلاً» وهذا لفظ مسلم، والحديث ثابت في الصحيحين عن عدد من الصحابة.

فهو ﷺ خليل الله، وهو ﷺ حبيب الله، وكل من يدعي محبة الله تعالى يلزمه أن يحبه ﷺ أيضاً، ولا يجد من نفسه إلا ذلك، وإلا فليس بمؤمن ولا محب لله تعالى.

ولهذا قال ﷺ ـ كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله...» الحديث، رواه الترمذي ـ وحسنه ـ والحاكم ـ وصححه، وأقره الذهبي ـ والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وغيرهم[1]، وشاهده ما سبق.

٣ ـ الأمر بتوقيره ﷺ

لقد أمر الله عزّ وجلّ بتعظيم نبيه ﷺ واحترامه وإجلاله وإكباره، وهذا فوق المحبة.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2].

---

(١) سنن الترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، رقم (٣٧٨٩) والمستدرك (٣: ١٤٩ ـ ١٥٠) وشعب الإيمان (٢: ١٣٠) والمعجم الكبير (١٠: ٣٤٢) والحلية (٣: ٢١١) وتاريخ بغداد (٤: ١٥٩ ـ ١٦٠) وفضائل الصحابة (٢: ٩٨٦) والمعرفة والتأريخ (١: ٤٩٧) والتاريخ الكبير (١: ١٨٣) وتهذيب الكمال (١٥: ٦٤).

(٢) سورة الفتح (٨ ـ ٩).

فقوله تعالى: ﴿وَتُعَـزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: تعظموه، وفي رواية: تجلّوه. وقال المبرد: تبالغوا في تعظيمه.

وقوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ هو من التوقير، وهو الاحترام والإجلال والإعظام. وقال قتادة: أمر الله بتسويده وتفخيمه وتشريفه وتعظيمه.

فيكون المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ لتعظموا رسولكم ﷺ وتبجِّلوه وتجلوه غاية الاحترام والإجلال والإعظام، وتحترموا رأيه وأمره وتقدّروه.. وكل ذلك دال على المحبة، بل أكثر.

قال الإمام الحَلِيمي رحمه الله تعالى[1]: هذه منزلة فوق المحبة، لأنه ليس كل محب معظماً، ألا ترى أن الوالد يحب ولده، ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه، ولا يدعوه إلى تعظيمه، والولد يحب والده، فيجمع له بين التكريم والتعظيم، والسيد قد يحب مماليكه، ولكنه لا يعظمهم، والمماليك يحبون ساداتهم ويعظمونهم.

فعلمنا بذلك أن التعظيم رتبة فوق المحبة.

والداعي إلى المحبة: ما يفيض عن المحب على المحب من الخيرات.

والداعي إلى التعظيم: ما يجب للمعظَّم في نفسه من الصفات العلية، ويتعلق به من حاجات المعظِّم التي لا قضاء لها إلا عنده، ويلزمه من مننه التي لا قوام له بشكرها، وإن جد واجتهد...

وإذا كان هذا هكذا فيما بين العبد وسيده، والوالد وولده، فمعلوم أن حقوق رسول الله ﷺ أجل وأعظم، وأكرم وألزم لنا، وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم، والآباء على أولادهم، لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة، وهدانا به، كما إذا أطعناه فيه أدانا إلى جنات النعيم، وأيةُ نعمة توازي

---

(١) المنهاج (٢: ١٢٤ ـ ١٢٥) وشعب الإيمان (٢: ١٩٣ ـ ١٩٤) وصححت العبارات من النسخة الهندية(٤: ١٤٩ ـ وما بعد).

هذه النعم؟ وأية مِنَّةٍ تداني هذه المنن؟.

ثم إنه جلّ ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعدنا على معصيته بالنار، ووعدنا باتباعه الجنة، فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة؟ وأي درجة تساوي ـ في العلى ـ هذه الدرجة؟.

فحقٌّ علينا إذاً أن نحبه ونجله، ونعظمه ونهيبه أكثر من إجلال كل عبد سيده، وكل ولد والده، وبمثل هذا نَطَق الكتاب، ووردت أوامر الله جلّ ثناؤه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ...﴾(١).

فأخبر أن الفلاح إنما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيرَه، ولا خلاف في أن التعزير هنا التعظيم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ...﴾(٢).

فأبان أن حق رسول الله ﷺ في أمته أن يكون معزّراً موقّراً مهيباً، ولا يعامل بالاسترسال والمباسطة، كما يعامِل الأكفاءُ بعضهم بعضاً... الخ.

ومما يدخل في التعظيم والتبجيل نهيه سبحانه وتعالى عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ، وعدم الجهر له بالقول خشية إحباط العمل، كما مدح قوماً يغضون أصواتهم عنده ﷺ، وشنع على آخرين بأن أكثرهم لا يعقلون حيث رفعوا أصواتهم ينادونه ﷺ من وراء الحجرات، وذلك في سورة الحجرات، وهذا باب واسع يصعب ذكره في هذه السطور، والله المعين.

٤ ـ عدم الرغبة بالنفس عنه ﷺ

لقد أعلمنا الله عزّ وجلّ أن نفس رسول الله ﷺ أكرم وأشرف وأجل

(١) سورة الأعراف (١٥٧).
(٢) سورة الفتح (٨ ـ ٩).

وأزكى من نفوس سائر الناس، لذا لا يصح أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيصرفوها عما لا يصرفوا نفسه الكريمة ﷺ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ... ﴾(1).

فقوله تعالى: ﴿... وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ... ﴾ فيه دليل وجوب تقديم نفسه الشريفة ﷺ على نفوسهم، وإلا كيف تكون رغبتهم بأنفسهم، حتى عاتبهم الله عزّ وجلّ. حيث أعلمهم جلّ ثناؤه أن نفس نبيه ﷺ هي أكرم وأشرف وأزكى وأجل.. من أنفسهم، فلا يَسَعهم إلا أن يقدِّموها على نفوسهم... ولا يقدموا نفوسهم عليها.

وهكذا كان حال الصحابة الكرام رضي الله عنهم حيث كانوا يفدونه ﷺ بالغالي والرخيص، وكانوا أحرص عليه ﷺ من العين على البصر، ومن الظمآن على الماء، والأذن على السمع... وقد ظهر هذا منهم في مواقف مختلفة، سواء في المعارك والجهاد أم في المدينة... كما بينت ذلك في غير هذا الموضع.

٥ ـ جَعلُ اتباعِه ﷺ سبباً في محبة الله تعالى للمتَّبع

لقد اتخذ الله عزّ وجلّ نبيه وصفيه ﷺ حبيباً، وجعل اتباعَهُ ﷺ يفيد المتبع له محبةَ الله عزّ وجلّ وغفران الذنوب، فإذا كان اتباعُهُ يثمر محبة الله تعالى وغفران الذنوب، فكيف محبته ﷺ؟ والاتباع فرع المحبة.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ... ﴾(2).

لقد جعله سبحانه وتعالى حادياً يحدو بقلوب أمته باتباعه ﷺ، وهو دليل

---

(1) سورة التوبة (١٢٠).

(2) سورة آل عمران (٣١).

يسلك بهذه الأمة في الدروب الصعبة المسالك، وفي المتاهات التي لا يعلمها إلا من اتبعه وسلك سبيله - إذ كل الطرق والسبل مهلكة إلا الطريق الذي يسلكه ﷺ- فمن حاد عنه ضل وهلك، ومن مشى خلفه واتبع سبيله ﷺ نجا وسعد، وصوتُه ﷺ ينادي هذه الأمة ومن يزعم محبة الله عزّ وجلّ دائماً، بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ لتنالوا ﴿... يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ فالسبل إلى محبة الله تعالى مقفلة إلا اتباع النبي ﷺ، والمتبع استحق هذا الاسم (محب) بمتابعته ﷺ.

فمُتَّبِع النبي ﷺ هو حبيب ومحبوب لله تعالى، فكيف النبي ﷺ.

فإذا كان اتباعه ﷺ يُعطي متبعَه محبوبَ الله، فكيف تكون محبته ﷺ وهو حبيب الله؟.

وقد ذكر العلماء التفريق بين المحبة والخلة، وأن المحبة أعلى مقاماً من الخلة، لذا نالها ﷺ، فنال متبعوه محبة الله تعالى، أما مقام الخلة فهو مقام إبراهيم عليه السلام ولم يعطِ الله تعالى متبعيه هذا المقام.

قال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى[1]: وأما اتخاذ الله تعالى إبراهيم خليلاً، فإنه إنما اتخذه خليلاً على من كان في عصره من أعداء الله عزّ وجلّ، لا على غيره من النبيين، وهو: أنه هداه إلى معرفته، ووفقه لتوحيده، حين كان الكفر طبق الأرض، ولم يكن في الدنيا نسمة تعرف الله، وتعترف به غيره عليه السلام.

واتخذه خليلاً بأن جعله أهلاً لهدايته أولاً، ثم بأن أمره ونهاه فظهرت منه الطاعة ثانياً، ثم بأن ابتلاه فوجد منه الصبر ثالثاً، فكان يؤمئذٍ خليله، وأهلُ الأرض كلهم أعداؤه، لأنه كان المطيع، والناس غيره عصاة.

وقد اتخذ الله محمداً ﷺ حبيباً بدلالة الكتاب، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾.

فإذا كان اتباعه ﷺ يفيد للمتبع محبةَ الله عزّ وجلّ، فالمتبع بها يكون أولى.

---

(١) شعب الإيمان (٢: ١٨٣ - ١٨٥) وانظر المنهاج في شعب الإيمان (٢: ١٨٤).

ودرجة المحبة فوق درجة الخلة. وقد تكلم أهل العلم في الفرق بين الحبيب والخليل بكلام كثير، وهو في كتب أهل التذكير مذكور...

قال أبو عبد الرحمن السلمي: الحبيب يوجب لمتبعه اسم المحبة، لذلك لم يوقع عليه هذا الاسم. فإن حاله أجل من أن يعبر عنه بالمحبة، لأن متبعيه استحقوا هذا الاسم بمتابعته، ألا ترى الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ... ﴾.

والخليل لا يوجب اتباعه الخلة، لذلك أطلق له اسم الخلة... إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى فانظره.

فدرجة المحبة فوق درجة الخلة، فكل حبيب خليل، وليس كل خليل حبيباً، علماً أن النبي ﷺ نال درجة الخلة والمحبة كلاهما كما سبق وذكرت.

فإذا كان متبعه ﷺ ينال اسم المحبة ـ والاتباع واجب ـ فهو ﷺ حبيب، وتجب محبته، لأن باتباعه تُنال المحبة، فكيف بحبه ﷺ، والاتباع لا يكون إلا بعد حب. كما سيأتي إن شاء الله تعالى التفريق بين الاتباع والطاعة.

٦ ـ الأمر بطاعته ﷺ

لقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى وفي سنّة رسول الله ﷺ في الأمر بطاعة رسول الله ﷺ، وسيأتي ذكر بعضها في الفصل القادم إن شاء الله تعالى. لكن الذي يهمني هو محبة الله عزّ وجلّ ورضاه سبحانه وتعالى عن الذين يطيعون النبي ﷺ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ... ﴾(١).

---

(١) سورة الفتح (١٨).

وقال جلّ شأنه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ. . . ﴾[1].

والطاعة في الأصل قد تكون عن محبة ورضى، وقد تكون عن غير محبة، كمن ينفذ حكماً وهو لا يعتقده مثلاً. لكن الذي ينال محبة الله ورضاه هو ما كان عن محبة ورضى، وهذا هو الحاصل بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم.

فإذا كان المطيع للنبي ﷺ ينال الثواب الكبير، لأن الطاعة واجبة، فكيف المحب إذاً؟ وإذا كانت الطاعة واجبة ـ وقد تكون عن غير قناعة ـ فكيف لا تكون المحبة واجبة؟ علماً بأن المحبة عنوان الإيمان، بل أعلى درجاته كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولهذا فإن الله تعالى شرط لصحة الإيمان في تحكيم النبي ﷺ عدم وجود الحرج في النفس، والتسليم الكامل لحكمه ﷺ، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في الفصل القادم.

٧ ـ جعله الله تعالى أسوة حسنة

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

هذه الآية الشريفة أصل أصيل وسند كبير في وجوب التأسي برسول الله ﷺ، والاقتداء به، والسير على نهجه ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله وأخلاقه. . . . ﷺ، لهذا أمر الله تعالى بالتأسي به ﷺ، وكيف يكون التأسي إذا لم تكن محبة، فكأن النص الكريم اشترط وجودها، إذ هو متضمن لها في جوب التأسي، لأن الإنسان لا يقتدي إلا بمن يحب، ولا يتأسى إلا بمن يحب، خاصة في الأحوال والأخلاق، وهو القدوة المثلى. والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة آل عمران (٣١).

(٢) سورة الأحزاب (٢١).

٨ ـ التحذير من تقديم محبة غيره على محبته ﷺ

لقد حذر الله عزّ وجلّ المسلمين أن يقدموا محبة أي مخلوق من المخلوقات ـ ولو كان أعز شيء عند الإنسان ـ على محبة الله ورسوله ﷺ، ثم بعد التحذير جاء التوعد.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

قل يا رسول الله متوعداً من يُؤْثِرُ أهلَه وقرابتَه وعشيرته... على الله ورسوله ﷺ: إن كانت هذه الأشياء أحبَّ إليكم، فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ففي هذه الآية الكريمة أمور:

أولاً ـ التفصيل في تعداد الأشياء أكثر مما جاء في الأحاديث السابقة (حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما) حيث جاء ذكر الآباء، والأبناء، والأخوة، والأزواج، والعشيرة، والأموال المكتسبة، والتجارات، والمساكن الطيبة الواسعة الحسنة، بينما الذي جاء في الأحاديث (الوالد، والولد، والأهل، والمال، والناس أجمعون).

ففي الآية زيادة تفصيل (الأخوة، الأزواج، العشيرة) ويقابل ذلك في الحديث (الأهل، الناس) وفي الآية (الأموال، التجارة، المساكن) بينما في الحديث (المال).

فحصل من مجموع ما في الآية الكريمة والأحاديث الشريفة الثلاثة (حديث أبي هريرة وحديث أنس وحديث عبد الله بن هشام رضي الله عنهم) كالتالي: النفس، الوالد، الولد، الأخوة، الأزواج، الأهل، العشيرة، بقية الناس، الأموال، والتجارات، والمساكن، فلم يبق شيء، فإن كانت محبة هؤلاء جميعاً ـ أو

(١) سورة التوبة (٢٤).

فرادى ـ مقدمة على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فهذا دال على الخطورة، وسيناله الوعيد والتهديد، ويجب على المسلم أن يقدم محبة الله تعالى ومحبة رسوله الكريم ﷺ على محبة هؤلاء جميعاً؛ مجتمعين أو متفرقين.

ثانياً ـ التهديد الشديد والتوعد من الله تعالى لمن يقدم محبة هذه المذكورات على محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، بقوله جلّ ثنائه: ﴿... فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾ هذا تهديد ووعيد منه تعالى بإنزال العقوبة العاجلة ـ أو الآجلة ـ.

ثالثاً ـ ومن التوعد الشديد والتهديد ما ختم سبحانه وتعالى به هذه الآية بقوله جلّ ثناؤه: ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والفسق هو الخروج، وقد ورد في بيان هذه اللفظة الكريمة(1):

أ ـ هو عموم يراد به الخصوص فيمن توافى على فسقه.

ب ـ عموم مطلق، وهم القوم الفاسقون كافة، فلا هداية من حيث الفسق، ويدخل هؤلاء المذكورون الذين يقدِّمون ما ذُكر على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ دخولاً أولياً، أي لا يهديهم الله إلى ما هو خير لهم.

ج ـ إن كان المراد بذلك المؤمنين الذين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة وقدَّموا آباءهم وأبناءهم و... على الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ، فيكون الفسق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية، وهذا تهديد شديد لهم.

د ـ قال صاحب التحرير: الفسق ـ هنا ـ الكفر، ويدل عليه ما قابله من الهداية، والكفر ضلال، والضلال ضد الهداية.

ولعل القول بأن المراد هو الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته يكون شاملاً لجميع الأقوال، ذلك لأن الخروج قد يصل إلى الكفر، وقد يكون دونه، ولهذا نظائر في كتاب الله عزّ وجلّ، حيث جاء وصف الكفر والنفاق بالفسق.

---

(1) انظر تفسير البحر المحيط (٥: ٢٣) والمحرر والوجيز (٨: ١٥٣) والرازي، والقرطبي وغيرها.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ . . . إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[3].

وقال جلّ ثنائه: ﴿ . . . وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى عن المنافقين: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[5].

فالفسق في الآية ـ والله تعالى أعلم ـ ليس هو بالمعنى الفقهي، وهو ترك الواجب عمداً، بل هو أعم من ذلك، لأنه الخروج عن الطاعة، والله تعالى يقول: ﴿ . . . وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى . . . ﴾ والهداية ضد الضلال، فهو إذا أعم من ذلك، والله تعالى أعلم.

فكل من يقدِّم شيئاً مما ذُكر على محبة الله عزّ وجلّ ومحبة رسوله ﷺ يكون متوعَّداً ومهدَّداً من قبل الله عزّ وجلّ بما ذُكر في نهاية الآية المذكورة.

وهذه الآية الكريمة هي أشد آية نَعَتْ على الناس ما لا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه الله تعالى بلطفه وفضله.

قال صاحب الكشاف[6]: هذه آية شديدة، لا ترى أشد منها، كأنها تنعي

---

(١) سورة البقرة (٩٩).
(٢) سورة التوبة (٦٧).
(٣) سورة التوبة (٨٤).
(٤) سورة النور (٥٥).
(٥) سورة المنافقون (٦).
(٦) تفسير الكشاف (٢: ١٤٥).

على الناس ما هم عليه من رخاوة عقدِ الدِّين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه: هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا؟ ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله تعالى عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدري أي طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجلِّ حظ من حظوظ الدِّين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيَّره؟. ا هـ.

رابعاً ـ ما هو حظ المسلم المؤمن الموقن بعد هذا التهديد والتوعد والنعي على من يقدم محبة شيء من المخلوقات على محبة الله عزّ وجلّ ومحبة رسوله ﷺ. لا شك إنما هو التسليم الكامل لأمر الله عزّوجلّ وأمر رسوله ﷺ، وتقديم محبة الله تعالى ورسوله ﷺ على كل شيء. وقد بين المولى تعالى حال المؤمنين الصادقين، وحال المشركين الكافرين.

فقال جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴾[1].

فالمؤمنون الصادقون أشد حباً لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولا يقدِّمون على محبتهما شيئاً مهما غلا وارتفع، والله تعالى أعلم.

خامساً ـ هذه الآية الكريمة من أهم الدلائل البينة على وجوب محبة النبي ﷺ وعلو قدرها، وإلزام حجيتها.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى[2]: كفى بهذا حضا وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرَّع تعالى من كان مالُه وأهله وولده أحبَّ إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿... فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

---

(١) سورة البقرة (١٦٥).

(٢) الشفا (٢ : ٥٦٣).

ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل، ولم يهده الله. ا هـ والله تعالى أعلم.

فإذا أوجب الله تعالى تقديم محبته ومحبة رسوله ﷺ على محبة جميع المخلوقات فهي دلالة أصلاً على وجوب تلك المحبة، لأنها لو لم تكن واجبة ما وجب تقديمها، والله تعالى أعلم.

٩ ـ محبته ﷺ فرع الإيمان به ﷺ

لقد نفى النبي ﷺ الإيمان عمن لم يحب في الله تعالى، وذلك لأن المرء على دين خليله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا...» الحديث رواه مسلم[(١)].

فقد نفى دخول الجنة إلا بالإيمان، ونفى الإيمان حتى تحابوا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» رواه أحمد والطيالسي وأبو داود والترمذي، وحسنه، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي، والبيهقي والقضاعي، وصححه النووي أيضاً[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، رقم (٩٣ ـ ٩٤).

(٢) مسند أحمد (٢: ٣٠٣، ٣٣٤) ومسند الطيالسي (٣٣٥ رقم ٢٥٧٣) وسنن أبي داود: كتاب الأدب: باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذي: كتاب الزهد: باب (٤٥) رقم(٢٣٧٨) والمستدرك (٤: ١٧١) وحلية الأولياء (٣: ١٦٥) وشعب الإيمان (٧: ٥٥) والآداب (١٨٦) ومسند الشهاب للقضاعي (١: ١٤١ ـ ١٤٢ رقم ١٨٧ ـ ١٨٨) ورياض الصالحين (١٧٨).

فكيف يكون مؤمناً وهو لا يحب نبيه ﷺ الذي هداه الله تعالى به وأنقذه به! فكما أن الإيمان به واجب، فمحبته ﷺ واجبة هي الأخرى، ذلك لأن محبته هي فرع الإيمان به.

بل إذا كان الله تعالى أوجب محبته للمتحابين فيه ـ كما رواه مالك وأحمد، في آخرين ـ.

بل إذا كان قد جعل محبة الأنصار رضي الله عنهم من الإيمان، وجعل علامة الإيمان حب الأنصار، كما في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه[1]. فكيف بمحبته ﷺ.

بل كما قال ﷺ عنهم: «من أحبهم أحبه الله» كما في حديث البراء رضي الله عنه المتفق عليه[2]، وهم ما نالوا هذا الشرف إلا بالإيمان به وبمحبته ونصرته وإيوائه واتباعه... ﷺ.

فإذا جعل حبهم علامة الإيمان، وبغضهم علامة النفاق، فحبهم واجب على الأمة، وإذا جعل من أحبهم أحبه الله تعالى، فحبهم واجب أيضاً، فكيف بحب المصطفى ﷺ، وهم ـ كما قلت ـ: ما نالوا ذلك إلا به ﷺ.

١٠ ـ تحقق حلاوة الإيمان

لقد قسم العلماء رحمهم الله تعالى الإيمان إلى مراتب، أدناها هي إيمان العوام، ثم إيمان التقليد، ثم إيمان العقل، وأعلاها الإيمان الذوقي، وهذا الإيمان لا يناله إلا محب الله تعالى ورسوله ﷺ المحبة التامة الكاملة.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب علامة الإيمان حب الأنصار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان، رقم (١٢٨).

(٢) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب حب الأنصار من الإيمان. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان، رقم (١٢٩). وانظر أوائل فضائل المدينة المنورة، حيث ذكرت عدداً من النصوص.

وكيف لا يكون المؤمن الصادق في محبته ﷺ في الدرجة العليا ـ وقد جعلت هذه التي لا يقدم عليها محبة أي مخلوق ـ علامة الإيمان الحقيقي، الذي يستشعره المؤمن في ذاته، فيتذوق حلاوته، ويعيش فيه ليله ونهاره، طالما للإيمان حلاوة، وله طعم، يشعر به كامل الإيمان.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يقذف في النار» متفق عليه[1].

ومحبة النبي ﷺ التي يشعر صاحبها بتذوق حلاوة الإيمان، لا تكون إلا بعد الرضى التام والتسليم الكامل بنبوته ورسالته ﷺ واتخاذه نبياً ورسولاً، والذي من شأنه الامتثال والطاعة التامة في كل ما يأتي من قِبله وعنه ﷺ، وإلا ما صدق الإنسان في هذا الرضى.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد [ﷺ] رسولاً» رواه مسلم[2].

فأولى الصفات التي من أراد أن يتذوق حلاوة الإيمان وطعمه أن يكون الله تعالى ورسولُه ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما. وإذا كان الإيمان واجباً فما يوصل إليه فهو واجب أيضاً.

ومما يلفت النظر أن النبي ﷺ جمع المحبتين في ضمير واحد فقال: «أحب إليه مما سواهما» وأيضاً فقد قال: «مما سواهما» ولم يقل: ممن سواهما، مع أن «ما»

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب حلاوة الإيمان. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٦٧، ٦٨).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن، رقم (٥٦).

لغير العاقل وتشمل العاقل، بخلاف «من»، فذلك ليعم من يعقل ومن لا يعقل. وقد سبق ذكر المحبوبات، فمنهم عاقلون: «كالوالدين، والأبناء، والأخوة، والأزواج، والأهل، والعشيرة» ومنهم ما لا يعقل «كالمال، والتجارة، والمساكن» فهذا اللفظ يشملهم جميعاً. والله تعالى أعلم.

وأما قوله ﷺ: «مما سواهما» حيث أتى بضمير التثنية الراجع على لفظ الجلالة ولفظ الرسول ﷺ.

وقد أجيب على هذا بعدة أجوبة، ومن محاسن تلك الأجوبة: أن تثنية الضمير هنا للإيحاء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية، إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله تعالى مثلاً ولا يحب رسوله ﷺ لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ..﴾[1] فأوقع متابعته مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد.

وأما أمر الخطيب [الذي قال: ومن يعصهما، فقال له ﷺ: «بئس الخطيب أنت»] بالإفراد: فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[2]، فأعاد ﴿أَطِيعُوا﴾ في الرسول. ولم يعده في أولي الأمر، لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول. اهـ من الفتح ملخصاً من البيضاوي والطيبي[3].

قلت: ولما ساقهما مساقاً واحداً فقال: «مما سواهما» دل ذلك على أنهما بحكم واحد، فكلاهما واجب. ولا يصح أن يكون أحدهما واجباً، والآخر ليس بواجب، وهذا مما يدل على أنهما فرض. والله تعالى أعلم.

(١) سورة آل عمران (٣١).
(٢) سورة النساء (٥٩).
(٣) فتح الباري (١ : ٦١ ـ ٦٢).

وقد نقل الحافظ رحمه الله تعالى عن بعض العلماء في تقسيم المحبة، فقال[1]: محبة الله على قسمين، فرض وندب.

فالفرض: المحبة التي تبعث على امتثال أوامره، والانتهاء عن معاصيه، والرضى بما يقدره.

فمن وقع في معصية ـ مِن فعل محرم، أو ترك واجب ـ فلتقصيره في محبة الله، حيث قدَّم هوى نفسه.

والتقصير: تارة يكون مع الاسترسال في المباحات، والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء، فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع...

والندب: أن يواظب على النوافل، ويتجنب الوقوع في الشبهات، والمتصف عموماً بذلك نادر.

وكذلك محبة الرسول ﷺ على قسمين، كما تقدم [أي فرض وندب] ويزاد أن لا يتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته، ولا يسلك إلا طريقته، ويرضى بما شرعه، حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع... وغيرها. فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك. ا هـ.

هذا هو الحكم، أما الحقيقة فلا يعبر عنها إلا بالذوق، والذوق لا يعبر عنه، ولا تنقل ماهيته، إنما هو الذوق لا غير. ومهما وصف فإنما هو تقريب، لا تذوق، وليس له دون الذوق إفشاء.

فمن أراد أن يتذوق حلاوة الإيمان فعليه بمحبة النبي عليه وآله الصلاة والسلام. والله تعالى المستعان.

١١ ـ ثواب المصلي عليه ﷺ

لقد أوجب الله تعالى على المسلمين الصلاة على نبيه وصفيه ﷺ، بعد أن أعلمهم بأنه تعالى وملائكته يصلون عليه، كما قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) فتح الباري (١: ٦١).

﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(١) .

وفوائد الصلاة على النبي ﷺ التي ينالها المصلي والمسَلِّم عليه ﷺ كثيرة، بينت كثيراً منها في «فضائل المدينة المنورة» لكن الذي يهمني هنا أربعة أمور:

١ ـ صلاة الله تعالى على المصلي على نبيه وصفيه ﷺ، كما في حديثي أبي هريرة وابن عَمرو رضي الله عنهم عند مسلم(٢).

٢ ـ قرب المصلي من النبي ﷺ يوم القيامة، وهو أولى الناس به، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عند البخاري في تاريخه، والترمذي وحسنه، وابن أبي شيبة، وأبي يعلى والبزار وابن حبان والطبراني والبيهقي والخطيب والبغوي(٣).

٣، ٤ ـ كفاية المصلي على النبي ﷺ همه في الدنيا، وغفران الذنوب في الآخرة، كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، عند أحمد، والترمذي والحاكم وصححاه، وأقره الذهبي، وإسماعيل القاضي، وابن أبي عاصم، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة، والبيهقي، في آخرين(٤). والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الأحزاب (٥٦).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصلاة: باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ. وباب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (١١، ٧٠).

(٣) التاريخ الكبير (٥: ١٧٧) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٥٠٥) وسنن الترمذي: كتاب الصلاة: باب في فضل الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٨٤) ومسند أبي يعلى (٨: ٤٢٧ ـ ٤٢٨) وصحيح ابن حبان (٢: ١٣٣) والمعجم الكبير (١٠: ٢١) والجامع (٢: ١٠٣) وشرح السنة (٣: ١٩٦ ـ ١٩٧) وشرف أصحاب الحديث (٣٥) وشعب الإيمان (٢: ٢١٢) وفتح الباري (١١: ١٦٧) وجلاء الأفهام (٢٢) والصلات والبشر (٣٢).

(٤) مسند أحمد (٥: ١٣٦) وسنن الترمذي: كتاب صفة القيامة: باب (٢٣) رقم (٢٤٥٧) والمستدرك (٢: ٤٢١، ٥١٣) وفضل الصلاة على النبي ﷺ (٢٨ ـ ٢٩، ٢٩ ـ ٣٠) ومصنف ابن أبي شيبة (١١: ٥٠٤) (٢: ٥١٧) والزهد لابن أبي عاصم (١٢٩) ومسند عبد بن حميد (١: ١٩٤ ـ ١٩٥) والحلية (١: ٢٥٦) وشعب الإيمان (٢: ١٨٧، ٢١٧) (١: ٣٩٤ رقم ٥١٧) وانظر الصلات والبشر ٣٧ ـ ٣٨) والقول البديع (١٢٥ ـ ١٢٦) لطرق الحديث.

فإذا كانت الصلاة على النبي ﷺ هكذا ثوابها ونوالها فكيف بمحبته ﷺ، وما نال المصلي عليه ﷺ ذلك الثواب والفضل إلا بالصلاة عليه ﷺ.

وإذا كانت الصلاة عليه ﷺ واجبة مأموراً بها، فكيف محبته هو ﷺ؟ فهي أوجب، لأن الصلاة عليه ﷺ والإكثار منها هي مظهر من مظاهر محبته ﷺ، فإذا وجب المظهر كان الأصل أوجب. والله تعالى أعلم.

١٢ ـ الدين النصيحة

لقد أوجب الله تعالى النصيحة لرسوله ﷺ، كما أوجبها له تعالى ولكتابه... وأسقط عن أهل الأعذار وجوب الجهاد شريطة النصح لله تعالى ولرسوله ﷺ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

جاء في تفسير هذه الآية ما قال ابن عباس رضي الله عنهما[٢]: إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون، فعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته ومحبة رسوله ﷺ، أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وعن تميم الداري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» رواه

---

(١) سورة التوبة (٩١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٨١).

مسلم[1].

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الشفا[2]: قال أئمتنا: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، واجبة. ا هـ.

وقال: قال أبو بكر الآجري وغيره: النصح له - ﷺ - يقتضي نصحين، نصحاً في حياته، ونصحاً بعد مماته.

ففي حياته: نصحُ أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه، كما قال الله تعالى: ﴿. . . رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿. . . وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ. . .﴾.

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته: فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنّته، والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته، وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنّته، وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك.

قال القاضي: فعلى ما ذكره تكون النصيحة احدى ثمرات المحبة، وعلامةً من علاماتها كما قدمنا. ا هـ.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: من مفروضات القلوب، اعتقاد النصيحة لرسول الله ﷺ. ا هـ من الشفا.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى[3]: قال العلماء: . . . . والنصيحة لرسوله ﷺ، التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٩٥، ٩٦).
(٢) الشفا (٢: ٥٨٢ ـ ٥٨٥).
(٣) تفسير القرطبي (٨: ٢٢٧) وانظر شرح صحيح مسلم للإمام النووي (٢: ٣٨) ففيه بعض الزيادة، وفتح القدير (٢: ٣٩٢) حيث لخصه، وانظر الشفا لقول الزجاج والخفاف والخطابي وغيرهم.

ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته، ومحبة آل بيته، وتعظيمه، وتعظيم سنّته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها، والذب عنها، ونشرها، والدعاء لها، والتخلق بإخلاقه الكريمة ﷺ. ا هـ.

والنصيحة في اللغة: الإخلاص، من قولهم: نصحتُ العسل؛ إذا خلّصته من شمعه. وقيل: النصح هو فعل الشيء الذي به الصلاح والملاءمة، مأخوذ من النِّصاح، وهو الخيط الذي يخاط به الثوب. فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسدُّه من خلل الثوب[1].

فإذا كانت النصيحة واجبة لرسول الله ﷺ، ومعناها: الإيمان به، وطاعته.... ومحبته ﷺ... كما سبق بيان ذلك، دلَّ على وجوب محبته ﷺ وجوباً عينياً. والله تعالى أعلم.

١٣ ـ فعل الصحابة وحالهم وتصرفهم رضي الله عنهم

لقد ضرب الصحابة الكرام رضي الله عنهم أروع الأمثلة في محبتهم للنبي ﷺ، وتوقيره، واحترامه، وتبجيله، وطاعته، وامتثال أمره، والنصح له، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه حتى لو كان أحبَّ وأعزَّ الناس إليهم، ثم تعظيم سنّته ﷺ، والذب عنها، والتخلق بأخلاقه، والاتصاف بما جاء به ﷺ.

ولا يسعني ذكر أدلة ذلك، فقد توسعت في بيان ذلك في «الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان» وفي «نشأة علم المصطلح» لكني سأذكر بعض النصوص في التدليل على محبة الصحابة رضي الله عنهم وتوقيرهم وفدائهم... لحبيبهم ومصطفاهم ﷺ.

فعن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان ـ يُصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه ـ قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحُدَيْبِيَةِ... الحديث

---

(١) انظر: الشفا (٢: ٥٨٣) وشرح النووي (٢: ٣٧).

بطوله، فقال عروة بن مسعود: أي محمد، أرأيت إن استأصلتَ أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني ـ والله ـ لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصُص بَظْرَ اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المِغفَر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غُدَر، ألست أسعى في غدرتك؟ . . . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيتُ مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ ـ ﷺ ـ محمداً. . . ثم ذكر ما رآه. رواه البخاري[1].

ففي هذا الحديث بيان تعظيم الصحابة رضي الله عنهم لرسولهم ﷺ وإجلالهم له، حيث رد أبو بكر رضي الله عنه على عروة دعواه انهزام الصحابة رضي الله عنهم، وما درى أن مودة الإسلام أقوى من مودة القرابة، وضرب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يَدَ عَمِّه عروة بن مسعود ـ مع أنه عمه ـ إذا مدها إلى لحية رسول الله ﷺ، مع أنها كانت عادة موجودة، ثم ما لاحظه عروة من تعظيم

(١) صحيح البخاري: كتاب الشروط: باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط.

الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ وتبركهم به، وإجلالهم له ﷺ. وهذا كله محبة وتعظيم لا يدانى ـ والله أعلـم ـ مثل التبرك بنخامته، والاقتتال على وَضوئه، وخفض الصوت بحضرته ﷺ، وعدم حد النظر إليه ﷺ تعظيماً له.

وقد جاءت نصوص كثيرة في كل ذلك.

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في قبة حمراء من أدم، ورأيت بلالاً أخذ وَضوء رسول الله ﷺ، ورأيت الناس يبتدرون ذاك الوَضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بَلَل يد صاحبه... الحديث متفق عليه[1]، وله طرق وروايات متعددة.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: .... وما كان أحدٌ أحبَّ إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عينَيَّ منه إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عينَيَّ منه... الحديث رواه مسلم[2].

وليس هذا شأن عمرو رضي الله عنه، بل هو شأن عامة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ... الحديث رواه أحمد، والترمذي وصححه، والبخاري في الأدب المفرد في آخرين[3].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب الصلاة في الثوب الأحمر ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الصلاة: باب سترة المصلي، رقم (٢٤٩ ـ ٢٥١).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج، رقم (١٩٢).

(٣) سنن الترمذي: كتاب الأدب: باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، رقم (٢٧٥٤) والأدب المفرد (٣١٦) ومسند أحمد (٣: ١٣٢، ٢٥٠ ـ ٢٥١) وشرح السنة (١٢: ٢٩٤ رقم ٣٣٢٩) والشمائل للبغوي (١: ٣٠٢) والشمائل للترمذي (٢٧٦ رقم ٣٣٦) ومسند أبي يعلى (٦: ٤١٧ ـ ٤١٨) وأخلاق النبي ﷺ (٦٣).

وفي حديث جابر رضي الله عنه ـ الطويل، في قصة وفاء دين أبيه ـ وفيه: والله إن مجلس بني سلمة لينظرون إليه، هو أحب إليهم من عيونهم، ما يقربونه مخافة أن يؤذوه. الحديث، رواه الدارمي وأحمد برجال الصحيح وحسنه الحافظ(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل. رواه مسلم(٢).

ومن مظاهر محبتهم له ﷺ، فداؤهم له، ودفاعهم عنه، والحيلولة دون وصول الأذى إليه ﷺ، وكانوا يستهينون بكل غال في سبيل إسعاده وهناءته ﷺ... وهذا باب واسع ذكرت منه كثيراً في «الشوق إلى رسول الله ﷺ...».

فمن ذلك: قول أبي طلحة رضي الله عنه للنبي ﷺ يوم أُحد: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف، لا يصبك سهم من سهام القوم، نَحْري دون نَحْرِك. كما في حديث أنس المتفق عليه(٣).

وتترس أبي دجانة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ يوم أُحد، حتى صار ظهره كالقنفذ من السهام، وتقدم الكوكبة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم في القتال دونه يوم أُحد حتى قتلوا جميعاً، وهم من الأنصار...

ومن مظاهر محبتهم وتعظيمهم رضي الله عنهم للنبي المصطفى ﷺ عدم ابتدائهم بالأكل قبله ﷺ، كما في حديث جابر رضي الله عنه عند أحمد والحاكم وصححه وأقره الذهبي(٤).

---

(١) سنن الدارمي (١: ٢٨ ـ ٢٩) ومسند أحمد (٣: ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ومجمع الزوائد (٤: ١٣٥ ـ ١٣٧) برجال الصحيح خلا نبيح العنزي، وهو ثقة، وفتح الباري (٧: ٣٩٨) وحسنه.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به، رقم (٧٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وفي غيرهما. وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة النساء مع الرجال، رقم (١٣٦).

(٤) مسند أحمد (٣: ٣٥١) والمستدرك (٤: ١٠٩) وأخلاق النبي ﷺ (٢٠٨) والشمائل=

ومن مظاهر محبتهم وتعظيمهم رضي الله عنهم له ﷺ أن يكرموا ما مس يده ﷺ. فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما تغنيت ولا تمنيت، ولا مسست ذَكَري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ. رواه ابن ماجه وغيره، ونحوه عن عمران بن حصين رضي الله عنه عند أحمد، والحاكم وصححه وأقره الذهبي[1].

ومن مظاهر محبتهم وتعظيمهم رضي الله عنهم له ﷺ فداؤهم له بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم، كقول أحدهم: جعلني الله فداءك، أو فداك أبي وأمي، أو بأبي أنت وأمي... وهذا باب واسع جاء في الصحيحين وغيرهما من ذلك كثير.

ومن مظاهر محبتهم رضي الله عنهم وتوقيرهم وتعظيمهم له ﷺ أن إذا قدموا من سفر بدؤوا به ﷺ، فنظروا إليه، وسلَّموا عليه، قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم. كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عند الترمذي وحسنه والحاكم وصححه[2].

ومن مظاهر محبتهم رضي الله عنهم وتعظيمهم له ﷺ تكريمهم لوجه نبيهم ﷺ، كقول سلمة رضي الله عنه: والذي كرَّم وجهَ محمد ﷺ. كما في صحيح مسلم[3].

ومن مظاهر محبتهم رضي الله عنهم وتعظيمهم له ﷺ أن أبا أيوب رضي الله عنه عندما قدم ﷺ يوم الهجرة ونزل عنده، لم يرض أن يبقى ﷺ في الدور الأرضي ـ وهو في الأعلى ـ فأمضى ليله كله في زاوية من البيت مع زوجه خشية أن

= للبغوي (٢: ٦١٠).

(١) مسند أحمد (٤: ٤٣٩) وسنن ابن ماجه: كتاب الطهارة: باب كراهة مس الذكر باليمين، ... رقم (٣١١) والمستدرك (٣: ٤٧٢) والمجمع (٩: ٣٨١) وكنز العمال (١٣ رقم ٣٦١٦٤).

(٢) سنن الترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٣٧١٢) والمستدرك (٣: ١١٠ ـ ١١١).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة ذي قرد، رقم (١٣٢).

يتحركوا فيؤذوا رسول الله ﷺ، حتى قال رضي الله عنه: لا أعلو سقيفةً أنت تحتها، حتى تَحَوَّل ﷺ. كما في صحيح مسلم(١).

ومن محبتهم له ﷺ أن النسوة إذا أبطأ أولادهن عن رؤية رسول الله ﷺ يعاتبونهن ويؤنبونهن، كما حصل لأم حذيفة رضي الله عنهما عندما نالت منه، لأنه لم يرَ رسول الله ﷺ عدة أيام، كما في حديثه رضي الله عنه عند الترمذي وحسنه، وأحمد والنسائي في الكبرى(٢).

ومن ذلك اختيار أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، الله ورسوله والدار الآخرة، عندما خيرهن رسول الله ﷺ.

ومن ذلك أيضاً إرسال أبي بكر الصديق رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ورفض حلَّ لواءٍ عقدَه رسولُ الله ﷺ.

بل من تعظيمهم له ﷺ تعظيم أدواته حتى لا يمسها مشرك. كما فعلت أم حبيبة رضي الله عنها مع أبيها أبي سفيان عندما دخل عليها قبل الفتح، فطوت فراش رسول الله ﷺ حتى لا يجلس عليه. وكما فعل أبو دجانة رضي الله عنه بسيف رسول الله ﷺ؛ فلم يقتل به هنداً زوج أبي سفيان عندما ولولت وعرف أنها امرأة، إكراماً لسيف رسول الله ﷺ....

ومن ذلك إبقاء بعض الصحابة رضي الله عنهم ناصيته، لأن رسول الله ﷺ مسَّها.

ومن محبتهم له ﷺ أنه إذا دخل عليهم رضي الله عنهم لم يرفعوا إليه رؤوسهم إعظاماً له ﷺ - كما في حديث بريدة رضي الله عنه، عند الحاكم(٣). وإذا جلسوا معه ﷺ كأن على رؤوسهم الطير، كما في حديث أبي سعيد عند البخاري. وحديث البراء عند أحمد والنسائي وابن ماجه، والحاكم وصححه وأقره

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الأشربة، باب إباحة أكل الثوم...، رقم (١٧١).

(٢) سنن الترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، رقم (٣٧٨١) ومسند أحمد (٥: ٣٩١ - ٣٩٢) والسنن الكبرى للنسائي (٥: ٩٥ رقم ٨٣٦٥).

(٣) المستدرك (١: ١٢٠ - ١٢١) وصححه وأقره الذهبي.

الذهبي، وحديث أسامة بن شريك عند أحمد وأبي داود والطيالسي، والحاكم وابن حبان ـ وصححاه ـ والطبراني والبيهقي وغيرهم[(١)] .

وكانوا لا يرفعون أصواتهم رضي الله عنهم عنده ﷺ، وإذا رفع أحدٌ عنده صوته، زجروه، وأمروه بخفض صوته، كما في حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه عند أحمد، والترمذي وابن حبان وصححاه، وعبد الرزاق والحميدي والطيالسي[(٢)] .

ومن محبتهم رضي الله عنهم للنبي ﷺ فرحهم بإسلام عمه أكثر من فرحهم بإسلام آبائهم، كما في حديث أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[(٣)]، وسيأتي ذكر ذلك في فقرة قادمة إن شاء الله تعالى.

ولا يخفى قولهم رضي الله عنهم عند الاحتضار[(٤)]: غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

بل بلغ بهم رضي الله عنهم التعظيم والمحبة له ﷺ أن أحدهم يتمنى أن يُقَطَّع أوصالاً بيد الأعداء، ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة، وهو بين أهله وأصحابه، حتى قال أبو سفيان: والله ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب فضل النفقة في سبيل الله. ومسند أحمد (٤ : ٢٧٨، ٢٨٧، ٢٩٥) وسنن أبي داود: كتاب الطب: باب في الرجل يتداوى، رقم (٣٨٥٥) وسنن النسائي: كتاب الجنائز: (٤ : ٧٨) وسنن ابن ماجه: كتاب الجنائز: رقم (١٥٤٩) ومسند الطيالسي (١٧١ رقم ١٢٣٢) والمستدرك (١: ١٢٠، ١٢١) (٤: ٣٩٩ ـ ٤٠٠) وصحيح ابن حبان (١: ٣٥٢ ـ ٣٥٣) والموارد (٤٧٥) والمعجم الكبير (١: ١٤٤ ـ ١٤٥، ١٤٧، ١٥٢) والسنن الكبرى (٩: ٣٤٣) والآداب (٤٥٠ رقم ٩٩٨) وشعب الإيمان (٢: ٢٢٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٨: ١ : ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٨٨) (١٠ : ٣١٠) وغيرها.

(٢) مسند أحمد (٤ : ٢٤٠) وسنن الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٣٥، ٣٥٣٦) وصحيح ابن حبان (١: ٣٨٦) (٢: ٣٠٨) ومسند الطيالسي (١٦٠) ومسند الحميدي (٢: ٣٨٨ ـ ٣٩٠) ومصنف عبد الرزاق (١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٣) انظر الشفا (٢: ٥٦٨) فالأول في البخاري، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

(٤) انظر الشفا (٢: ٥٦٩).

أصحاب محمدٍ محمداً ـ ﷺ ـ[1].

بل فاق الأمر كل تصور مِنْ قَتل أحدهم أباه أو أخاه أو زوجه... إذا كان عدوا لله تعالى ولرسوله ﷺ، كما حصل مع أبي عبيدة رضي الله عنه من قتل أبيه، ومحاولة أبي بكر رضي الله عنه من قتل ولده يوم بدر... وطلب عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول قتل أبيه... وغيرهم رضي الله عنهم...

وأقتصر على فقرة واحدة ـ وإلا فإن هذا الباب واسع جداً في الحديث عنهم رضي الله عنهم في محبتهم لرسولهم ﷺ ـ ألا وهو تعظيم سنّة النبي ﷺ وشدة اتباعهم له، وهذا أمرٌ بلغ الذروة، وسيأتي ذكر بعض النصوص إن شاء الله تعالى في آثار المحبة.

كما يتضح من شدة تمسكهم وطاعتهم له ﷺ، سواء كان حاضراً أم غائباً، حياً أم ميتاً: ذلك التطبيق العملي للسنّة، وسيأتي ذكر بعض النصوص أيضاً إن شاء الله تعالى.

ومن محبتهم لرسولهم ﷺ امتناع عثمان رضي الله عنه عن الطواف بالبيت ـ عندما طلب منه كفار قريش ذلك ـ لأن النبي ﷺ لم يطف به، فقال لهم رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ[2]، وقد حبسوه، فكان سبب بيعة الرضوان.

ومن محبتهم رضي الله عنهم وتوقيرهم له ﷺ أن كبارهم، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، إذا حدَّثوه ﷺ، حدثوه كأخي السرار، ولم يُسمعوه حتى يستفهمهم[3].

---

(١) انظر الشفا (٢ : ٥٧٠) وانظر دلائل النبوة للبيهقي (٣: ٣٢٦ ـ ٣٢٧) ففيها قصة خبيب بن عدي رضي الله عنه بنحوها أيضاً.

(٢) انظر مسند أحمد (٤ : ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٣) انظر صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الحجرات، باب قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام، والمستدرك (٢ : ٤٦٢).

ومن مظاهر محبتهم رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ ما حصل لهم يوم وفاته ﷺ، فمنهم من صُعق، ومنهم من أُقعد، ومنهم من ذهل... بل منهم من مات، رضي الله عنهم، حتى قام الصديق رضي الله عنه ذلك المقام الذي حمده عليه الأولون والآخرون.

إلى آخر ذلك مما يطول ذكره جداً في بيان محبتهم وتوقيرهم واحترامهم.... رضي الله عنهم له ﷺ، وسيأتي ذكر بعض الأمور في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

آثار المحبة ونتائجها

إن آثار المحبة لرسول الله ﷺ على محبيه ـ سواء من الصحابة رضي الله عنهم أو من بعدهم من الأمة ـ كثيرة، لكني سأقتصر على ذكر ثلاثة عشر أثراً أو ثلاث عشرة نتيجة، يتضح لنا منها الصادق في محبته من المدعي. أسأل الله تعالى ألا يجعل كلامي حجة عليّ وعلى المؤمنين، بل يحققنا جميعاً فيما نقول، إنه جواد كريم.

١ ـ استمرار المحبة بعده ﷺ

فمحبة الصحابة رضي الله عنهم له ﷺ ثابتة لا يتطرق إليها شك، وهم في أعلى الدرجات وإن كانوا يتفاوتون كبشر، وقد ظهرت تلك المحبة في مواقف متعددة ومظاهر مختلفة، من تعظيم، إلى تبجيل، إلى فداء، إلى تبرك.. وقد سبق ذكر محبتهم رضي الله عنهم له ﷺ، ومظاهر تلك المحبة. وهكذا يجب أن يكون مَن بعدهم من هذه الأمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أشد أمتي لي حباً، ناسٌ يكونون بعدي، يود أحدُهم لو رآني بأهله وماله» رواه مسلم(١).

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله، رقم (١٢).

فالمحب للنبي ﷺ يود لو يرى رسول الله ﷺ مرة ويدفع مقابل ذلك أهلَه ومالَه، فكيف يكون حبه إذا؟ وإذا كان هذا من أشدهم حباً، فكيف إذا كان أشدَّهم حباً؟ ذلك حال الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وعلى رأسهم الصديق الأكبر رضي الله عنه، كما سيأتي في آخر هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

٢ ـ الطاعة

إن الباعث على الطاعة أمران: المحبة، والخوف.

فإذا كان الباعث عليها هو الخوف من العقاب فإن ذلك لا يجدي نفعاً، ولا يثاب عليه، كما أن المطيع يتحين الفرصة للتخلص من الفعل المأمور به، فإذا مات الآمِر، أو عُزل، أو غاب... فإن المطيع يترك الفعل تخلُّصاً منه، لأنه يشعر بعبء ثقيل عليه زال عنه.

وأما إذا كان الباعث هو المحبة والرغبة، فإن هذا لا يتأثر بغياب الآمِر أو حضوره، لأن الأمر ينبثق من نفسية المطيع وامتثاله ورجاء الثواب عليه.

وهكذا شأن المحب، لا بدّ أن يكون مطيعاً، إذ لا يُتصور وجود محب غير مطيع، كما قال الإمام الشافعي(١) رحمه الله تعالى فيما ينسب إليه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة ... منه وأنت لشكر ذاك مضيع

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الشفا(٢): اعلم أن من أحب شيئاً آثره، وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه، وكان مدَّعياً، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه.

---

(١) ديوان الإمام الشافعي (٥٨).
(٢) الشفا (٢: ٥٧١ ـ ٥٧٢).

وأولها: الاقتداء به، واستعمال سنّته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهِدُ هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾(١).

وإيثار ما شرعه، وحضَّ عليه على هوى نفسه، وموافقة شهوته، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ﴾(٢) - ثم ذكر حديث أنس رضي الله عنه في اتباع سنّته ﷺ - ثم قال: فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله - ﷺ - ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها.. إلخ.

وسيأتي في الفصل القادم وجوب طاعته ﷺ وأدلتها وموجبها وثمراتها... لكن أحب أن أنبه هنا إلى أمر، وهو أنه ليس كل من عصى سلبت منه المحبة، وإن كان من المفروض أن المحب مطيع غير عاصٍ، ولكن قد يقع من المحب معصية، كما في قصة ذلك الصحابي الذي كان يشرب الخمر، ويؤتى به ويجلد، وتكرر ذلك منه عدة مرات، وفي المرة الأخيرة لعنه عمر رضي الله عنه وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله» كما عند البخاري(٣).

فقد أثبت ﷺ لهذا الرجل أنه صادق في حبه، لكنه مقصر في طاعته.

ولذا يلزم المؤمن الصادق أن يكره الفعل المخالف، لا أن يكره نفس المؤمن العاصي.

كما قال تعالى على لسان نبيه ورسوله لوط عليه السلام وقومه: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ

---

(١) سورة آل عمران (٣١).

(٢) سورة الحشر (٩).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الحدود: باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة. وانظر الفتح (١٢ : ٧٧) لبيان اسم اللاعن.

تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1] فقد أخبر عليه السلام أنه قال لعملهم، ولم يذكر هجرانه لهم بأنفسهم، وإلا كيف يدعوهم. وهكذا شأن المؤمن المحب المطيع إذا رأى مؤمناً عاصياً فإنه يكره فعله، ويدعو له بالهداية والتوفيق. والله تعالى أعلم.

٣ ـ الاقتداء به والتخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته ﷺ

ومن مظاهر المحبة وآثارها ونتائجها أن يتصف المحب بصفات حبيبه، ويتخلق بأخلاقه، ويقتدي بأفعاله وأحواله، ويجتهد في تحقيق رغباته... وإلا لما كان محباً صادقاً.

إذا كان هذا في المحبة العامة فكيف بمن يحب رسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى أسوة حسنة، وأمر باتباعه وطاعته، وحذر من مخالفته ومعصيته.

فالمحب للنبي ﷺ يلزمه أن يتصف بكل صفاته، ويتخلق بأخلاقه، ويتبعه في أفعاله وأحواله... ﷺ، لأن ذلك هو لازم الأسوة والاتباع والطاعة، وكل ذلك على قدر الطاقة، وإلا ما كان صادقاً في حبه.

يلزمه أن يتبعه في علاقته مع ربه عزّ وجلّ؛ فيزداد خشية وخشوعاً وورعاً وحياءً...، وفي عبادته فيكون متبعاً في عبادته من فرائض ونوافل؛ من صيام وصلاة... وبكاء...، وفي أخلاقه من حلم وتواضع ومحبة ورحمة وصون للسان، وكرم وشجاعة... وصدق في الحديث، وبعدٍ عن الآثام...، وفي صفاته من وقار ورقة قلبٍ وصبرٍ وعطف وحنان وشفقة على الصغار وتوقير للكبار وصفاء نفس ونقاء سريرةٍ...، وفي دعوته من إخلاص، وحرص على هداية الخلق، وتألم على المؤمنين... كل ذلك وغيره كثير.

---

(١) سورة الشعراء (١٦٧ ـ ١٧١).

فكل من يدعي محبة النبي ﷺ ولم يتخلق بأخلاقه ويتصف بصفاته، من طعام، وشراب، ولباس، وهيئة، وجلوس، وكلام. . . واعتقاد، وعبادة. . . فليس بصادق، إذ أن شرط المحبة الموافقة ـ على قدر الطاقة ـ وعدم التكلف، بل يصبح ذلك سجية له.

ويكون ذلك كله على وفق ما جاء به ﷺ، لأن شرط القبول أن يكون على وفق ما جاء به ﷺ ـ فلا يخترع من عند نفسه ـ وأن يكون الإخلاص والصدق في النية. والله تعالى أعلم.

٤ ـ تعظيم ذكره ﷺ إذا ورد

إن حرمة النبي ﷺ وتوقيره وتعظيمه ـ بعد موته ـ لازم كما كان في حال حياته ﷺ، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنّته، وسماع اسمه وسيرته. . . ﷺ.

كان الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاته ﷺ ـ كما سيأتي ذكر بعضه ـ إذا ذكره بعضهم بكى، ومنهم من إذا مر بداره أشاح بوجهه، ومنهم من إذا ذكر سنّته أخذه ما قرب وما بعد.

فقد جاء من طرق متعددة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قام على المنبر ـ وفي رواية جبير بن نفير قام إلى جانب منبر رسول الله ﷺ، فذكر رسول الله ﷺ وبكى ـ وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر فقال: قد علمتم ما قام به رسول الله ﷺ وبكى، ثم أعادها ثم بكى، ثم أعادها ثم بكى، ثم قال: «إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئاً أفضل من العفو والعافية، فسلوهما الله عزّ وجلّ. . .». الحديث برواياته، رواه أحمد والحميدي والنسائي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه وابن حبان في آخرين[١].

---

(١) مسند أحمد (١: ٣ ـ ١١) ومسند الحميدي (١: ٥ ـ ٦) ومسند الطيالسي (٣ رقم =

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. رواه مسلم(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان لا يذكر النبي ﷺ إلا بكى. رواه ابن سعد والدارمي(٢).

وعن عمرو بن ميمون رحمه الله تعالى قال: كنت لا تفوتني عشية خميس إلا آتي فيها عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فما سمعته يقول لشيء قط قال رسول الله ﷺ، حتى كانت ذات عشية فقال: قال رسول الله ﷺ، قال: فاغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه، فأنا رأيته محلولة أزراره... رواه أحمد والدارمي وابن ماجه بإسناد صحيح، والطيالسي، وصححه الحاكم على شرطهما(٣). ورواه آخرون.

= ٥) ومصنف ابن أبي شيبة (١٠: ٢٠٥) وسنن الترمذي: كتاب الدعوات: باب (١٠٦) رقم (٣٥٥٨) وسنن ابن ماجه: كتاب الدعاء: رقم (٣٨٤٩) والأدب المفرد (٢٤٤ رقم ٧٢٥) وعمل اليوم والليلة للنسائي بأرقام (٨٧٩ ـ ٨٨٨) ومسند أبي بكر للمروزي (٩٢ ـ ٩٥) ومسند أبي يعلى (١: ٤٩، ٧٥ ـ ٧٧، ٨٦ ـ ٨٨، ١١٢، ١١٣) والمستدرك (١: ٥٢٩) وصحيح ابن حبان (٧: ٤٩٤) وشرح السنة (٥: ١٧٨) ومجمع الزوائد (١٠: ١٧٣).

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها، رقم (١٠٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٤: ١٦٨) وسنن الدارمي (١: ٤٠) وسير أعلام النبلاء (٣: ٢١٤).

(٣) سنن ابن ماجه: المقدمة: باب التوقي في حديث رسول الله ﷺ، رقم (٢٣) ومسند الطيالسي (٤٣) وسنن الدارمي (١: ٧٢) ومسند أحمد: (١: ٤٥٢) والمستدرك (٣: ٣١٤) والمحدث الفاصل (٥٤٩ ـ ٥٥٠) والشفا (٢: ٥٩٩ ـ ٦٠٠) وانظر شرحه لملا علي القاري، والإلماع (١٧٦ ـ ١٧٧) وجامع بيان العلم (١: ٧٩) والجامع (٢: ٨ ـ ٩) ومصباح الزجاجة (١: ٧).

وأما تعظيم التابعين لرسول الله ﷺ وكذا أتباع التابعين فكثير جداً، أقتصر منه على بعض النصوص.

فعن الإمام مالك رحمه الله ـ وقد سئل عن أيوب السختياني [وهو ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العُبّاد] ـ قال: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه.

وقال: وحج حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذُكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه. فلما رأيت منه ما رأيتُ، وإجلالَه للنبي ﷺ كتبت عنه[1].

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك ـ رحمه الله ـ إذا ذُكر النبي ﷺ يتغير لونه، وينتحب حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم علَيَّ ما ترون.

قال: لقد كنت أرى محمد بن المنكدر [وهو ثقة من أفاضل التابعين في المدينة] وكان سيد القراء، لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا بكى حتى نرحمه.

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق ـ وكان كثير الدعابة والتبسم ـ فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ، اصفر، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا عن طهارة...

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم [بن محمد بن أبي بكر الصديق وهو ثقة جليل ورع، قال عنه ابن عيينة: كان أفضل أهل زمانه] يذكر النبيَّ ﷺ، فيُنظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه، هيبةً لرسول الله ﷺ.

ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير [الثقة العابد الكبير القدر] فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع.

ولقد رأيت الزهري [محمد بن مسلم بن شهاب القرشي، الفقيه الحافظ، المتفق على جلالته وإتقانه، وهو إمام أهل الحجاز والشام] ـ وكان من أهنأ الناس

---

(١) الشفا (٢: ٥٩٦ ـ ٥٩٧) وشعب الإيمان (٢: ٢٠٦) وحلية الأولياء (٣: ٤) وسير أعلام النبلاء (٦: ١٧).

وأقربهم - فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ فكأنه ماعرفك ولا عرفتَه.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم [ثقة مفت] وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذُكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه...

وروي عن قتادة رحمه الله أنه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل اهـ[1].

وهذا كله من توقير النبي ﷺ وتعظيمه وإجلاله إذا ذكر... ومظاهر ذلك مختلفة.... والله تعالى المعين والموفق. **وسيأتي ذكر تعظيمهم لحديثه ﷺ بعد قليل إن شاء الله تعالى.**

٥ - تعظيم سنّته ﷺ

لقد توسعت في «نشأة علم المصطلح» في بيان السنة النبوية في عصر الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله تعالى في الفصلين الثالث والرابع، وذكرت مدى تعظيمهم لها، ومحافظتهم عليها، وإنكارهم على من خالفها، واحتجاجهم بكتاب الله تعالى على حجيتها، وحثهم على احترامها وتوقيرها.. وأقتصر هنا على ذكر بعض النصوص القليلة من باب التذكير.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها».

قال: فقال بلال بن عبد الله [بن عمر]: والله لنمنعهن، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبّاً سيئاً، ما سمعته سبَّه مثلَه قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن!. متفق عليه، واللفظ لمسلم[2].

(١) الشفا (٢: ٥٩٧ - ٥٩٨) وانظر تراجم هؤلاء الأعلام في سير أعلام النبلاء (٥: ٢١٩، ٣٢٦، ٣٥٣، ٣٦٤) (٦: ٥، ٢٥٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأذان: باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس - وفي غيرهما - وصحيح مسلم: كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، رقم (١٣٤ - ١٤٠).

فلم يسكت رضي الله عنه على ابنه عندما أعلن مخالفة السنّة، مع أن الذي حمله على ذلك الغيرة، لتغير بعض النساء، وقد جاء هذا واضحاً في بعض الروايات[1].

وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يخذف، فقال له: لا تخذف، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف ـ أو كان يكره الخذف ـ وقال: «إنه لا يُصاد به صيدٌ، ولا يُنكأ به عدوٌ، ولكنها قد تكسر السنَّ، وتفقأ العينَ».

ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخذف ـ أو كره الخذف ـ وأنت تخذف؟ لا أكلمك كذا وكذا.

وفي رواية لمسلم: لا أكلمك أبداً. متفق عليه[2].

وعن عبد الله بن عُكَيْم قال: كنا مع حذيفة ـ رضي الله عنه ـ بالمدائن، فاستسقى حذيفة، فجاءه دهقان بشراب في إناء من فضة. فرماه به وقال: إني أخبركم أني قد أمرته أن لا يسقيني فيه، فإن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسوا الديباج والحرير، فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة» متفق عليه[3]. ورواية البخاري عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن حذيفة.

فلم يسكت على زعيم فلّاحي العجم، أو زعيم القرية ورئيسها، لأنه كان قد نهاه عن ذلك عدة مرات، مما اضطره إلى حذفه بالإناء، ثم قال معتذراً عن سبب ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر فتح الباري (٢: ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصيد والذبائح: باب الخذف والبندقية، وكتاب الأدب: باب النهي عن الخذف. وصحيح مسلم: كتاب الصيد والذبائح: باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو. . .، رقم (٥٤ ـ ٥٦).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأطعمة: باب الأكل في إناء مفضض ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة: باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، رقم (٤).

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة في إنكارهم على من خالف السنّة النبوية، بل فيها ما لو أدى ذلك إلى الضيق، والخوف على المتكلم، وقد ذكرت كثيراً من ذلك في الكتاب المذكور، فانظره إن شئت.

ومن أدبهم مع السنّة النبوية عدم التحدث بها إلا على طهارة:

قال ضرار بن مرة الشيباني الكوفي الثقة الثبت: كانوا يكرهون أن يحدثوا بحديث على غير وضوء.

وجاء نحو ذلك عن قتادة(١). وضرار رحمه الله تعالى توفي سنة (١٣٢ هـ) وقتادة توفي سنة مائة وبضعة عشر، وهم ينقلون عمن سبقهم من أئمة السلف أنهم كانوا يكرهون التحديث على غير وضوء.

وكان الأعمش رحمه الله إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم(٢).

وكان قتادة رحمه الله يستحب ألا تُقرأ أحاديث النبي ﷺ إلا على وضوء، ولا يحدث إلا على طهارة(٢). وحكى ذلك عن جعفر بن محمد.

وقال عبد الله بن صالح: كان مالك والليث ـ رحمهما الله تعالى ـ لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران(٣).

ولهذا عقد الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» من كَرِه التحديث على غير طهارة. ومن كان إذا أراد التحديث على غير طهر تيمم(٤).

كما عقد فصلا عن الأحوال التي يكره التحديث فيها، وقال: **يكره التحديث في حالتي المشي والقيام حتى يجلس الراوي والسامع معاً.**

---

(١) انظر الشفا (٢: ٦٠٢).
(٢) انظر الشفا (٢: ٦٠١، ٦٠٤).
(٣) الشفا (٢: ٦٠٤). قلت: وقد أكرمني المولى سبحانه وتعالى بذلك. فما أذكر أني كتبت حرفاً واحداً في كل مؤلفاتي إلا وأنا على وضوء، ولله الحمد والمنة.
(٤) الجامع لأخلاق الراوي (١: ٤١٠).

وأذكر بعض النصوص من ذلك وبعضها من القاضي عياض[1]:

* مر مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث، فجازه فقال: إني لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

* قيل لمالك: لم لم تكتب عن عمرو بن دينار؟ قال: أتيته والناس يكتبون عنه قياماً، فأجللت حديث رسول الله ﷺ أن أكتبه وأنا قائم.

* عن مالك أن رجلاً جاء إلى سعيد بن المسيب ـ وهو مريض ـ فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس، فحدثه، فقال له الرجل: وددت أنك لم تتعنَّ، فقال: كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

وفي روايتين أخريين: فإني أعظم أن أحدث بحديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

* وقال عبد الرحمن بن مهدي: مشيت يوماً مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديث، فانتهرني، وقال لي: كنتَ في عيني أجلَّ من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

* وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقيل له: إنه قاض، قال: القاضي أحق من أُدِّبَ.

* وقال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك، وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة، وهو يتغير لونه ويصفر، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس، وتفرق الناس عنه، قلت له: يا أبا عبد الله، لقد رأيت اليوم منك عجباً، قال: نعم، لدغتني عقرب ست عشرة مرة، وأنا صابر في جميع ذلك، وإنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ. اهـ.

ومن توقيرهم عدم رفع الصوت عند التحديث.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١: ٤٠٧ ـ ٤٠٩) والشفا (٢: ٦٠٠ ـ ٦٠٣) وجامع بيان العلم (٢: ١٩٩) والالماع (٥٠).

فقد كان محمد بن سيرين يتحدث فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع[1].

وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت، وقال: ﴿... لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ...﴾[2] ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله ﷺ[3].

وجاء نحوه عن الإمام مالك رحمه الله وفيه: فمن رفع صوته عند حديث رسول الله ﷺ، فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ. اهـ من الخطيب[4].

وعن حماد بن زيد قال: كنا عند أيوب [السختياني] فسمع لغطاً، فقال: ما هذا اللغط؟ أما بلغكم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ، كرفع الصوت عليه في حياته[5].

وعن حماد رحمه الله نحوه أيضاً[6].

ومن ذلك ما قاله الإمام البيهقي رحمه الله تعالى[7]: ومن تعظيم الله عزّ وجلّ وتعظيم رسوله ﷺ، أن لا يُحْمل على مصحف القرآن، ولا على جوامع السنن: كتابٌ ولا شيءٌ من متاع البيت، وأن ينفض الغبار عنه إذا أصابه، وألا يمسح أحدٌ يدَه من طعام ولا غيره بورقة فيها ذِكرُ الله تعالى أو ذكر رسول الله ﷺ، ولا يمزقها تمزيقاً، ولكن إن أراد به تعطيلها فليغسلها بالماء حتى تذهب الكتابة منها، وإن أحرقها بالنار فلا بأس...

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١: ٤١٢) والشفا (٢: ٥٩٩، ٦٠١).
(٢) سورة الحجرات (٢).
(٣) الشفا (٢: ٥٩٩).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي (١: ٤٠٦).
(٥) الجامع لأخلاق الراوي (١: ١٩٥).
(٦) الجامع لأخلاق الراوي (١: ١٩٦) وانظر فيه (١: ١٩٢ ـ ١٩٣) لتوقير مجلس الحديث.
(٧) شعب الإيمان (٢: ٢٢٦ ـ ٢٢٧) والمنهاج (٢: ١٤٩ ـ ١٥٠).

قلت: إن غسلها كان فيما مضى باعتبار المخطوطات، أما في زماننا فالحبر لا يزول بالماء، والطباعة لا تزول بالماء، لذا يتعين الحرق أو الدفن، فإن كان في أرض طاهرة، وبعيدة عن طرق الناس فهو أفضل، أو كان في نهر جار فلا بأس أيضاً. والله تعالى أعلم.

وما ذكرته من كراهة التحديث في الأحوال المذكورة من المشي والقيام والاضطجاع وعلى غير طهارة... إنما هي على سبيل التوقير لحديث النبي ﷺ وتعظيمه وتنزيهه.

ولو حَدَّثَ مُحَدِّثٌ في هذه الأحوال لم يكن آثماً - كما قال الخطيب رحمه الله[1] - ولا فعل أمراً محظوراً، وذلك لأن أجلَّ الكتب كتاب الله عزّ وجلّ، وقراءته في هذه الأحوال جائزة، فكذلك قراءة الحديث الشريف. والله تعالى أعلم.

٦ - كثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ

وذلك لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ولهذا وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بكثرة ذكره تعالى.

فقال الله عز وجل: ﴿... وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[3].

بينما وصف المنافقين بقلة ذكره سبحانه وتعالى، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١: ٤١٠).
(٢) سورة الأحزاب (٣٥).
(٣) سورة الأحزاب (٤١).

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وكذلك محب النبي ﷺ فهو كثير الذكر له، وكثرة ذكره ﷺ إنما هو بكثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ.

علماً بأنا مأمورون من قِبَل الله تعالى بالصلاة والسلام على نبيه ﷺ، حيث قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[2].

ونَفْعُ صلاتنا وسلامنا على رسول الله ﷺ إنما هو لنا نحن معشر المصلِّين والمسَلِّمين، وقد بينت في فضائل المدينة المنورة ـ نقلاً عن ابن القيم والسخاوي والفيروز أبادي[3] ـ أربعين فائدة ينالها المصلي والمسَلِّم، ومن تلك الفوائد:

١ ـ هي امتثال لأمر الله عز وجل في أمره تعالى بالصلاة والسلام على نبيه وصفيِّه ﷺ.

٢ ـ موافقته تعالى في الصلاة عليه ﷺ، وإن اختلفت الصلاتان، وكذا موافقة الملائكة في ذلك.

٣ ـ هي سبب لغفران الذنوب، كما في حديث أبـيّ رضي الله عنه السابق.

٤ ـ هي سبب لكفاية الله تعالى العبد ما أهمه، كما في الحديث السابق أيضاً.

٥ ـ هي سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٦ ـ هي سبب لصلاة الله تعالى وسلامِه على المصلِّ، وكذا صلاة الملائكة عليه.

---

(١) سورة النساء (١٤٢).

(٢) سورة الأحزاب (٥٦).

(٣) انظر أيضاً جلاء الأفهام (٢٦٢ ـ ٢٧١) والقول البديع (١٠٩ وما بعد).

٧ ـ هي سبب لرد النبـي ﷺ على المصليّ والمسَلِّم.

٨ ـ إنها تنفي عن العبد البخل، وتنجيه من الدعاء عليه برغم الأنف، وتخرجه من صفة الجفاء. . . إذا صلى عليه ﷺ إذا ذُكر عنده.

٩ ـ هي سبب لدوام محبته له ﷺ وزيادتها ومضاعفتها، كما أنها سبب لمحبة النبـي ﷺ للعبد المصلي والمسلِّم.

١٠ ـ هي سبب لعرض اسمه على النبـي ﷺ كلما صلى وسلَّم عليه ﷺ.

١١ ـ ثم هي أداء لأقل القليل من حقه ﷺ، وشكر له على نعمته التي أنعم الله تعالى بها علينا، مع أن الذي يستحقه ﷺ من ذلك لا يحصى. . . ولكن الله تعالى لكرمه، رضي من عباده باليسير من شكره وأداء حقه.

١٢ ـ ثم إن المصلّي والمسلِّم يؤثر محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ على محابِّه ورغباته، لأن الله تعالى ورسوله ﷺ يحب أن يصلَّى على نبيه وصفيه ﷺ، فمن آثر ما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ، فقد آثر الله تعالى ومحابَّه على ما سواه، وآثر رسولَه ﷺ ومحابَّه على ما سواه. . . ولو لم يكن من فوائد الصلاة عليه ﷺ إلا هذا وحده لكفى المؤمن به شرفاً. اهـ. مختصراً من جلاء الأفهام.

كما على المصلي والمسلِّم على النبـي ﷺ أن يعلم مكانته، حيث يكون بعد الله تعالى وبعد ملائكته في الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

كما أن الله تعالى أخبرنا بأن الملائكة يصلون على النبـي ﷺ لينبه الله تعالى عباده بذلك على ما في الصلاة على النبـي ﷺ من الفضل، حيث إن الملائكة ـ مع انفكاكهم من شريعته ﷺ، عند جمع من العلماء ـ ومع هذا فإنها تتقرب إلى الله تعالى بالصلاة والسلام على رسوله ﷺ، فالمسلِمُ أحق وأولى أن يصلي ويسلِّم على نبيه وصفيه ﷺ(١).

---

(١) انظر شعب الإيمان (٢ : ٢٠٧).

ثم إذا علمنا أن صلاة العبد على النبي ﷺ هي في الحقيقة طلب من الله تعالى أن يصلي على النبـي ﷺ، لأنه يقول: اللهم صل على سيدنا محمد. اللهم صل على رسول الله... والله تعالى يصلي وملائكته باستمرار، لأنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ...﴾ والجملة الأولى: شبه اسمية، والثانية: ـ وهي خبرها ـ فعلية، وهما يقتضيان التجدد والاستمرار، ثم إن العبد يطلب من الله تعالى أن يصلي، فهو تحصيل حاصل، فهو يطلب من الله تعالى ـ واكتفى الله تعالى بذلك القدر منه ـ ويكافئه عليه، ويثيبه عليه أيضاً، والله تعالى يصلي باستمرار، وذلك لأن مقام النبـي ﷺ أعلى وأرفع من أن يناله العبد، لهذا هو يطلب من الله تعالى أن يصلي عليه ﷺ، ثم لتكون المنة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وليست للعبد. والله تعالى أعلم.

٧ ـ تعظيم أهل بيته وصحابته رضي الله عنهم ومحبتهم

ومن محبة النبـي ﷺ وتوقيره... محبة آل بيته وأقاربه، وتوقيرهم وتبجيلهم... وقد جاءت نصوص كثيرة في الحث على ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١).

قال الله عز وجل: ﴿... قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ...﴾(٢).

وعن أبـي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. رواه البخاري(٣).

قال الحافظ رحمه الله تعالى(٤): المراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول:

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣).

(٢) سورة الشورى (٢٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ـ وفي غيرهما.

(٤) فتح الباري (٧: ٧٩).

احفظوه فيهم فلا تؤذوهم، ولا تسيئوا إليهم.

وقال أبو بكر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده، لَقَرَابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ أن أصلَ من قرابتي[1]. رواه البخاري.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله؛ فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي» رواه مسلم[2].

ولهذا قدَّم سيدنا عمر رضي الله عنه، أسامة بن زيد رضي الله عنهما على ولده عبد الله رضي الله عنه في العطاء، لأنه ـ أي أسامة ـ الحِبُّ ابن الحِبِّ.

ومن ذلك: **تقديم وتقدير ومحبة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن**، لأنهن زوجات النبي ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ..﴾[3].

ولهذا لما قيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ بعد صلاة الصبح ـ: ماتت فلانة، لبعض أزواج النبي ﷺ، فسجد، فقيل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا» فأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ؟ رواه أبو داود، والترمذي والبغوي وحسناه، وسماها

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، وهو جزء من حديث طويل.

(٢) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٣٦).

(٣) سورة الأحزاب (٦).

البغوي: صفية بنت حيي رضي الله عنها[١].

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ . . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ . . . إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[٢].

فنساء النبي ﷺ من آل البيت، كما في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ـ عند مسلم ـ وقد ذكرت أوله قبل قليل.

كما ذكرت قبل قليل زيارة الصديق والفاروق رضي الله عنهما لأم أيمن رضي الله عنها، مولاة رسول الله ﷺ، وقد هيجتهما على البكاء.

ومن توقيره ﷺ ومحبته: توقير صحابته رضي الله عنهم من مهاجرين وأنصار، والأمر بالاستغفار لهم، وعدم الحمل عليهم والغل والبغض لهم.

قال الله عز وجل: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة: باب السجود عند الآيات، رقم (١١٨٥). وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٩١). وشرح السنة (٤: ٣٩٧).

(٢) سورة الأحزاب (٣٢، ٣٣).

(٣) سورة الحشر (٨ ـ ١٠).

نصيفه» متفق عليه[1].

فإذا كان هذا الخطاب موجهاً لمتأخري الصحابة كخالد بن الوليد رضي الله عنه في النهي عن سبِّ متقدمي الصحابة كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأمثاله، فما بال من لم ينل شرف الصحبة، أو بَعُدَ عهدُه عنهم رضوان الله تعالى عنهم جميعاً.

والصحابة رضي الله عنهم خير قرنٍ على سطح الأرض، منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة. وهم شهداؤنا العدول، لذا حكم أكثر من إمام بزندقة وكفرِ من يحقد أو يطعن في الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وإذا حرَّم بغضَهم والطعنَ فيهم فإنه أوجب ـ بالمقابل ـ محبَّتهم وتوقيرهم حتى يحشر معهم.

وقال الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

فمن أراد رضاء الله تعالى والجنات، والخلود فيها، والفوز العظيم فعليه بالاتباع لهم بإحسان، والاتباع أعم من المحبة والتوقير والاحترام... وسيأتي ذكره في الفصل القادم إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم.

وما ذكرته لا يعني إيجاب العصمة لهم واعتقاد ذلك لهم، فهذا محال، بل هم بشر قد يخطىء بعضهم، بل قد يعصي، فيكون ـ كما قلت ـ صادقاً في حبه، مقصراً في طاعته، ولكن سمة الصحبة والمحبة ثابتة لهم. والله تعالى أعلم.

ولا أزيد في بيان فضل الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وقد ذكرت مختصراً

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب تحريم سب الصحابة، رقم (٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) سورة التوبة (١٠٠).

عن فضائل الأنصار رضي الله عنهم في مقدمة «فضائل المدينة المنورة» كما كتبتُ مختصراً عن فضائل المهاجرين رضي الله عنهم في «فضائل مكة المكرمة». ثم كتبت كتاباً متوسطاً عن «فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم» ذكرت فيه ما جاء في فضل الصحابة رضي الله عنهم، في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، وقد طبع في مجلد ضخم.

٨ ـ تعظيم حَرَمِه ومسجدِه وبلدِه ﷺ

لقد توسعت في «فضائل المدينة المنورة» في بيان ما في المدينة من فضائل، في حرمها... ومساجدها... وجبالها... وثمارها... كما بينت في «مكانة الحرمين» ما يلتقيان فيه. فينظر فيهما من أراد معرفة فضل مدينته ﷺ.

فعلى المحب أن يعظِّم حَرَمَ النبـي ﷺ الذي حرمه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، وادخر تحريمه له، فلا يُنفِّرُ فيه صيدا، ولا يصيد فيه حيواناً أو طيراً، ولا يقطع شجرة، ولا يقلع حشيشاً، ولا يلتقط لقطة، ولا يحمل فيه سلاحاً، ولا يقاتل، فيه، ولا يُـحْدِثُ فيه حدثاً، ولا يؤوي في بيته محدِثاً، ويسعى إلى العيش السعيد فيها، والموت فيها، ويصبر على لأوائها وشدتها، ولا يُؤْثِر غيرَها عليها، ولا يَخرج منها تفضيلاً لغيرها عليها، ولا يخيف أو يعتدي على أحد من أهلها، ويجاهد نفسه أن يكون مثالاً صادقاً للمؤمن المحب المتحقق بالإيمان الكامل، فيؤثر غيرَه على نفسه، ويتحمل ما يناله من غيره...

ويعظِّم مسجدَه ﷺ، فيكثر الصلاة فيه، ويحافظ على الجماعة فيه ـ قدر المستطاع ـ ويخلص النية في المجيء إليه، فيأتيه معلِّماً أو متعلماً، ولا يرفع صوته فيه، وإذا قدم من سفر بدأ فيه، وكذا المساجد الأخرى كقباء مثلاً.

وخلاصة الأمر أن يكون على قدر المسؤولية التي نِيطت به، حيث اختصه الله تعالى للعيش فيه... أو وصوله إليه، فلا يكون خَبَثاً فتنفيه المدنية، ويعلِّم أولادَه حرمةَ هذا الحرم وما يستحقه من تعظيم، ويقدِّمها في الحب على غيرها،

فيسرع إذا رآها وهو قادم من سفر... إلخ والله تعالى أعلم.

٩ ـ أن يحب ما يحبه ويكره ما يكرهه ﷺ

ومن علامة المحب لرسول الله ﷺ أن يحب كل ما يحبه رسول الله ﷺ، من محبة للقرآن الكريم، ومحبة للسنة، ومحبة لهداية الأمة، ونصح لها، وسعي في مصالحها، إلى محبةٍ لمن يحبهم ﷺ... إلى ما كان يحبه من طعام، أو شراب، أو لباس... وأعلى ذلك كله هو محبة الله عز وجل، لأنه لا انفصال بين المحبتين، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

كما يكره ما يكرهه ﷺ، ويبغض ما كان يبغضه ﷺ، ولو كان أقرب المقربين لديه، وهكذا كان شأن الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

قال الله عز وجل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾[١].

وقال الله عز وجل عن تبرىء إبراهيم عليه السلام من أبيه عندما علم عداوته لله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٢] وهكذا شأن المؤمن المحب.

بل قد ضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً أعلى في ذلك، حيث يأمر ملائكته بمحبة من يحبه سبحانه وتعالى وبكراهية من يكرهه سبحانه وتعالى.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريلَ فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه، قال: فيحبه جبريلُ، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهلُ السماء، قال: ثم يوضع له

---

(١) سورة المجادلة (٢٢)

(٢) سورة التوبة (١١٤).

القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريلَ فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض» متفق عليه[1].

فلما صار الأول محبوباً لله تعالى أحبه جبريل عليه السلام وأهلُ السماء، والثاني بالعكس لما صار مبغوضاً من قبل الله تعالى بغضه جبريل عليه السلام وأهلُ السماء، ويوضع لكل منهما في الأرض ما يستحقه من حب أو بغض أيضاً.

وقال ﷺ عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: «اللهم إني أُحبُّه، فأحبَّه، وأَحبب من يُحبُّه» متفق عليه من حديث أبـي هريرة، ورويناه أيضاً من حديث البراء من غير الكلمة الأخيرة[2].

وقال ﷺ عن الحسن بن علي وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهم: «اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما» رواه البخاري[3] من حديث أسامة رضي الله عنه.

ولهذا قال ﷺ عن زيد بن حارثة وولده أسامة رضي الله عنهما ـ عندما طعن الناسُ في إمرةِ أسامة ـ: «... وايم الله، إن كان لأحبِّ الناس إليَّ، وايم الله إنَّ هذا لها لخليق ـ يريد أسامة بن زيد ـ وايم الله إن كان لأحبَّهم إلي من بعده، فأوصيكم به فإنه من صالحكم» متفق عليه[4] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب ذكر الملائكة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، رقم (١٥٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب البيوع: باب ما ذكر في الأسواق ـ وفي غيرهما ـ وكتاب فضائل الصحابة: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما. وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما، رقم (٥٦ ـ ٥٩).

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأيمان والنذور: باب قول النبـي ﷺ: «وايم الله» وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، رقم (٦٣ ـ ٦٤).

ولهذا قال ﷺ عن أسامة رضي الله عنه ـ كما في حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ـ: «. . . من أحبني فليحب أسامة» لفظ مسلم(١).

وقد تسابق الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم رحمهم الله تعالى على محبة ما يحبه رسولُ الله ﷺ؛ سواء من الطعام أو الشراب أو اللباس. . . وغير ذلك، وأقتصر على ذكر بعض النصوص.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعامٍ صنعه، قال أنس بن مالك: فذهبتُ مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرَّب إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعير ومرقاً فيه دُبّاء وقَدِيد، قال أنس: فرأيت رسولَ الله ﷺ يتتبع الدُّبّاء من حوالي الصحفة، قال: فلم أزل أحب الدُّبّاء منذ يومئذ. متفق عليه(٢).

زاد في روايةٍ لمسلم: قال أنس رضي الله عنه: فما صُنع لي طعام بعد، أقدر على أن يُصنع فيه دبّاء إلا صُنع.

وجاء في رواية أبي الشيخ برجال ثقات، عنه رضي الله عنه قال: فأنا أحب القرعَ لحب رسول الله ﷺ إياه.

وعند الترمذي ـ لكن بسند ضعيف، وشاهده ما سبق ـ قال أنس رضي الله عنه: يا لَكِ من شجرةٍ، ما أُحبُّكِ إلا لحبِّ رسول الله ﷺ إياكِ.

لكن يكفي ما في الصحيحين. وإن كان هذا أوضح في الدلالة. والله تعالى أعلم.

فأنس رضي الله عنه أحبَّ اليقطين ـ القرع ـ منذ رأى النبي ﷺ يحبه،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن: باب حديث الجساسة، رقم (١١٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب البيوع: باب الخياط ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الأشربة: باب جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين، رقم(١٤٤ ـ ١٤٥). وسنن الترمذي: كتاب الأطعمة: رقم (١٨٤٩). وأخلاق النبي ﷺ (٢٣٠).

حتى صار لا يألو أن يُصنع له في كل طعام يستطيعه. والله تعالى أعلم.

وقد يحب الصحابيُّ ما قد رآه من النبي ﷺ، وإن لم يأمر به صراحة.

فعن معاوية بن قرة، عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مُزَيْنة، فبايعناه، وإن قميصَه لمطلقُ الأزرار، قال: فبايعتُه، ثم أدخلت يدي في جيب قميصه، فمسست الخاتم.

قال عروة [بن عبد الله، الراوي عن معاوية]: فما رأيت معاوية ولا ابنَه قط إلا مطلقي أزرارهما في شتاء ولا حر، ولا يزرّران أزرارهما أبداً. رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والطيالسي وابن أبي شيبة وابن الجعد وابن حبان في آخرين بسند صحيح(١).

ولما سأل عبيدُ بن جريج رحمه الله عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهما عن مس الركنين اليمانيين، ولبس النعال السبتية، والصبغ بالصفرة، والإهلال يوم التروية؟ أجابه عبد الله رضي الله عنهما بقوله: أما الأركان فإني لم أر رسول الله ﷺ يمس إلا اليمانيين، وأما النعال السبتية فإني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعل التي ليس فيها شَعَر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة فإني رأيت رسول الله ﷺ يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها... الحديث متفق عليه(٢).

وعن كريمة بنت همام أن امرأة أتت عائشة رضي الله عنها فسألتها عن

---

(١) مسند أحمد (٣: ٤٣٤) (٤: ١٩). ومسند ابن الجعد (٣٩٢ ـ ٣٩٣) ومسند الطيالسي (١٤٤ رقم ١٠٧٢) ومصنف ابن أبي شيبة (٨: ٣٨٥ ـ ٣٨٦) وسنن أبي داود: كتاب اللباس: باب حل الأزرار، رقم (٤٠٨٢) وسنن ابن ماجه: كتاب اللباس: باب حل الأزرار، رقم (٣٥٧٨) وشرح السنة (١٢: ١٥) وصحيح ابن حبان (٧: ٤٠١) والمعجم الكبير (١٩: ٢١ ـ ٢٢) وأخلاق النبي ﷺ (١٠٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الوضوء: باب غسل الرجلين في النعلين ولا يمسح على النعلين ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الحج: باب الإهلال من حيث تنبعث الراحلة، رقم (٢٥).

خضاب الحناء، فقالت: لا بأس به، ولكني أكرهه، كان حبيبي رسولُ الله ﷺ يكره ريحه. رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي[1] وسكت عنه أبو داود والمنذري رحمها الله تعالى.

فهي تعلم أن الخضاب بالحناء جائز، ولكن لما كره رسول الله ﷺ رائحته، كرهته هي رضي الله عنها. وهكذا شأن المحب، يحب ما يُحبه حبيبه، ويكره ما يكرهه حبيبه. والله تعالى أعلم.

قال الحَلِيمي رحمه الله تعالى[2]: ومما يدخل في تعظيم النبي ﷺ، أن لا يُقابَل قولٌ حُكي عنه، أو فِعْلٌ له يُوصف، أو حالٌ له يُذكر، بما يكون إبقاؤه.

ولا يُسمَّى [أي النبي ﷺ] بشيء من الأسماء التي هي في متعارف الناس من أسماء الضَّعَةِ، فلا يقال: كان النبي ﷺ فقيراً، ولا يُقالُ له إذا ذُكرت مجاعته، أو شدةٌ لقيها: مسكينٌ، كما يقال ـ في مثل هذه الحالة ـ لغيره ترحماً وتعطفاً عليه.

وإذا قيل: كان النبي ﷺ يحب هذه، ألا يقابله أحد بأن يقول: أما أنا فلا أحبه.

ولا إذا قيل: قال النبي ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئاً» لم يقابله أحد بأن يقول: أما أنا فلا آكل متكئاً، ثم يتكىء فيأكل. فإن هذه وما يشبهها تشرع أبوابها إلى الكفر اهـ، والعياذ بالله تعالى.

فالمحب يفعل ما يفعله محبوبه، ويقتدي به في كل أحواله ـ قدر طاقته ـ ويجتنب كل ما يكرهه وما ينهى عنه، وإلا ما كان محباً صادقاً في محبته وموالاته. والله تعالى أعلم.

---

(١) مسند أحمد (٦: ٢١٠) وسنن أبي داود: كتاب الترجل: باب في الخضاب للنساء، رقم (٤١٦٤) وسنن النسائي: كتاب الزينة: باب كراهية ريح الحناء (٨: ١٤٢) والآداب (٣٨٠) ومختصر سنن أبي داود (٦: ٨٦) وفي سندهم: كريمة بنت همام. قال عنها الحافظ في التقريب: مقبول.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (٢: ١٤٩).

١٠ ـ أن يشتاق لرؤيته ﷺ

إن من شأن محب النبي ﷺ أن يشتاق دوماً لرؤيته ﷺ، وإذا حال بينه وبين رؤيته ﷺ حائل بذل قصارى جهده، ودفع كل ما يملك حتى يتمكن من ذلك، حتى لو كان يملك الأهل والمال، فهو يدفع كل ذلك في سبيل أن يراه ﷺ ولو مرة، فكيف بمن يرغب بملازمة رؤيته ﷺ.

وهكذا أخبرنا ﷺ عن محبيه، وكيف يود أحدهم أن يدفع أهله وماله في سبيل رؤيته ﷺ مرةً واحدة، ثم لا يراه بعدها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أشدِّ أُمتي لي حبّاً، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله» رواه مسلم(١).

فهؤلاء لم يروه ﷺ ـ لأنهم وُجدوا بعده ـ ولهذا قال عنهم ﷺ: «مِنْ أشد أمتي لي حباً» فمطلقُ النظر من هؤلاء المؤمنين المحبين له ﷺ أحبُّ إلى أحدهم من أهله وماله والناس أجمعين، فكيف بما هو أكثر من النظر، من محادثةٍ ومجالسةٍ وانتفاع. . .؟

أما من سبق له رؤيته ﷺ، ومخالطته، ومعاشرته. . . فهؤلاء أشدُّ شوقاً إلى رؤياه ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليأتين على أحدكم يومٌ ولا يراني، ثم لأن يراني أحبُّ إليه من أهله وماله معهم» رواه مسلم(٢).

فهذا النص إنما هو بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم، حيث إنه سيأتي على أحدهم يومٌ ولا يرى فيه رسول الله ﷺ، وذلك لانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولذا كان رؤية أحدهم له مرةً واحدةً أحظى عند أحدهم من أهله وماله معهم،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة: باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله، رقم (١٢).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضل النظر إليه ﷺ، رقم (١٤٢).

أي يتمنى لو رآه مرة، ثم لا يراه بعدها، لهو أحبُّ إليه من أهله وماله جميعاً.

كما فيه حثٌّ على عدم التفريط في مشاهدته ومجالسته وملازمته... ﷺ، لمن كان حاضراً في زمانه.

أما النص الأول؛ فهو لمن لم يكن حاضراً في زمانه ﷺ، لأنهم وُلدوا بعده، أو أسلموا بعده، فالذين هم من أشد الناس محبة له ﷺ يتمنى أحدهم أن يراه ويدفع مقابل ذلك أهله وماله إن قدر.

وهكذا شأن المحب الصادق، دائم الشوق إلى رؤية محبوبه.

ولهذا كانت النسوة من الصحابيات رضي الله عنهن ينكرن أشد الإنكار على أولادهن إذا أبطؤوا عن رؤية رسول الله ﷺ.

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: سألتني أمي: متى عهدك ـتعني بالنبي ﷺ؟ ـ فقلت: ما لي به عهد منذ كذا وكذا، فنالت مني [وسبّتني] فقلت لها: دعيني آتي رسولَ الله ﷺ فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي ولكِ... الحديث، ورواه أحمد والترمذي ـوحسنهـ والنسائي في الكبرى[1].

واشتياق الصحابة رضي الله عنهم لرؤيته ﷺ، وعدم صبرهم عن بعده ﷺ عنهم طويلاً: شائعٌ ومعروف، وسأقتصر على ذكر حالة واحدة إن شاء الله تعالى في آخر هذا الفصل. كيف وقد كانوا إذا قدموا من سفر بدؤوا به ﷺ، فسلّموا عليه، ونظروا إليه ﷺ قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم وأهليهم وأولادهم، رضي الله عنهم وأرضاهم، كما سبقت الإشارة إليه من حديث عمران بن حُصين رضي الله عنه.

---

(١) مسند أحمد (٥: ٣٩١ ـ ٣٩٢) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، رقم (٣٧٨١) والسنن الكبرى (٥: ٩٥ رقم ٨٣٦٥) وفضائل الصحابة له (١٧٢، ٢٠٠)

١١ ـ تمني حضور عصره والتحسر على فقدانه وما فاته من مجالسته ﷺ

إن من شأن المحب دوام مجالسة المحبوب، وعدم الابتعاد عنه كثيراً، والغيبة عنه طويلاً... وهكذا كان شأن الصحابة الكرام ـ خاصة الكبار منهم ـ رضي الله عنهم جميعاً، قلما يفوتهم مجلس أو يوم لا يرون فيه محبوبهم وسيدَّهم رسولَ الله ﷺ.

لذا نرى المحب يتأسف على فوت مجلس محبوبه، أو غيابه عنه، أو بعده عنه، أو عدم تمكنه من حضور مجلسه ومشاهدته....

فعلى محب رسول الله ﷺ أن يتمنى حضور عصره ﷺ، والمثول بين يديه، وإسلامه بين يديه، أو ولادته في عصره ﷺ، والتبرك بالجثو في مجلسه، ومناولته، ومحادثته، ومشاهدته... وإسعاده في النظر إلى طلعته البهية ﷺ، وسماع حديثه وقراءته... ووعظه وإرشاده... ﷺ، ونصر دينه والدعوة إليه، والحفظ عنه، ودفع الأذى عنه... والقتال معه، وفداءه بنفسه وماله عنه... والاستشهاد بين يديه ﷺ...

كما على محب رسول الله ﷺ التحسر على ما فاته من ذلك الفضل، وما فاته من مجالسته ومشاهدته، والتمتع برؤياه ﷺ، والتألم على فقده ﷺ، والاستماع إليه، والاستفادة منه مباشرة ﷺ...

كما على محب رسول الله ﷺ أن يُعظِّم فقدَه ﷺ، وأن مصيبةَ فقده ﷺ أعظمُ المصائب لديه، لا يدانيها ولا يقاربها مصيبة، فضلاً أن تكون مصيبةٌ أكبر منها. كيف وقد انقطعت النبوة، وانقطع الوحي، وزال الأمان... فالمصيبة بوفاته ﷺ أعظم المصائب لدى المسلم عموماً ولدى محبه ﷺ خصوصاً.

ولهذا قال ﷺ: «إذا أصيب أحدكم بمصيبة، فليذكر مصيبتَه بي، فإنها من أعظم المصائب» وقد ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم. فقد رواه ابن ماجه والبيهقي والطبراني وابن عبد البر عن السيدة عائشة رضي الله عنها. ورواه ابن سعد وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وابن عبد البر وابن عدي عن

سهل بن سعد رضي الله عنهما، وإسناد بعضهم حسن. ورواه بقي بن مخلد والباوردي وابن شاهين وابن قانع وأبو نعيم والطبراني والبيهقي عن سابط الجهني رضي الله عنه، وإسناده حسن. ورواه ابن عبد البر عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه. ورواه مالك عن عبد الرحمن بن القاسم ـ وزاد ابن سعد وآخرون: عن أبيه مرسلاً ـ ورواه عبد الرزاق وابن عبد البر بسند صحيح عن عبد الرحمن بن سابط ـ مرسلاً ـ ورواه ابن سعد والدارمي وابن عبد البر عن عطاء ـ مرسلاً ـ ورواه الدارمي عن مكحول.

فالحديث بطرقه صحيح[1]. والله تعالى أعلم.

١٢ ـ الرضى بما شرعه ﷺ

إن المحب الصادق يحب كل ما جاء به محبوبه، بل يحب كل ما يتصل بمحبوبه، حتى لو كان جماداً أو حيواناً، . . . فكيف إذا كان فكراً، بل كيف لو كان معتقداً، بل كيف لو كان ديناً. فإنه كله محبوب لديه، متمسك به، عاض عليه، غير مفرط. فكيف وقد أمر الله سبحانه وتعالى به أيضاً، ورضيه لهذا المؤمن المحب.

إن ما جاء به رسول الله ﷺ، قد أتمه الله تعالى ورضيه لنا معشر المسلمين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿. . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

---

(١) الموطأ (١: ٢٣٦) وسنن ابن ماجه: كتاب الجنائز: باب ما جاء في الصبر على المصيبة، رقم (١٥٩٩، ١٦٠٠) وسنن الدارمي (١: ٤٠) والطبقات الكبرى (٢: ٢٧٤ ـ ٢٧٥) ومسند أبي يعلى (١٣: ٥٤١ ـ ٥٤٢) والمعجم الكبير (٦: ١٦٦) (٧: ١٩٩) ومصنف عبد الرزاق (٣: ٥٦٤) وعمل اليوم والليلة (٥٣٤) والمقصد العلي (٤٣٩) ومجمع البحرين (٢: ٣٨٤ ـ ٣٨٥) والكامل لابن عدي (٥: ١٨٢١) (٦: ٢٠٥٦، ٢٣٤٢، ٢٦٢٥) وأخبار أصبهان (١: ١٥٨) ومعرفة الصحابة (٣: ١٧١) وشعب الإيمان (٧: ٢٣٨ ـ ٢٣٩) والتمهيد (١٩: ٣٢٢ ـ ٣٢٥) ومجمع الزوائد (٣: ٢) (٩: ٣٧، ٣٨) وكنز العمال (٣: ٣٠١).

﴿... ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ...﴾[1].

فالمؤمن يرضى لنفسه ما رضيه الله تعالى له ورسولُه ﷺ، كيف وقد أحبه الله تعالى ورضيه له وجعله دينه، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ ...﴾[2] وأن من ابتغى غيره فإنه مردود وغير مقبول عند الله عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3].

والمؤمن المحب يرضى ويسلِّم تسليماً كاملاً بكل ما جاء به محبوبه، ولو من غير عِوَضٍ. فكيف وقد جاء الأمر بذلك، كما قال جل شأنه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[4].

فالإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكَّم الله تعالى ورسولَه ﷺ على نفسه قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، ورضاً وسخطاً... وأن حقيقة الإيمان لا تحصل إلا بتحقق أمرين، الامتثال لأمره، والاستسلام والرضا لقهره، ولهذا من تحقق بذلك ذاق حلاوة الإيمان، كما قال ﷺ ـ كما في حديث العباس رضي الله عنه ـ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ـ ﷺ ـ رسولاً» رواه مسلم[5].

ومن آثار الرضى بما شرع المحبوب أن يدعو إليه، ويعمل على نشره وتبليغه... كما يحرص على فهمه وتطبيقه. والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة المائدة (٣).

(٢) سورة آل عمران (١٩).

(٣) سورة آل عمران (٨٥).

(٤) سورة النساء (٦٥).

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن، رقم (٥٦).

١٣ ـ محبة الله عز وجل

إن أعلى آثار المحبة لرسول الله ﷺ ونتائجها هي محبة الله عز وجل، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي امتن علينا به، وأرسله إلينا، وجعله رحمة مهداة، وسراجاً منيراً، وهادياً إلى طريقه المستقيم، ومخرجَنا من الظلمات إلى النور، ودالَّنا على الطريق القويم، ومعرِّفَنا به سبحانه وتعالى، ومُرْسِلَه بالشرع السمح، والدِّين القويم... جعله بنا رحيماً رؤوفاً، وشافعاً وشاهداً وشهيداً... وفَرَطاً لنا على الحوض والصراط، وقائدَنا إلى جنات النعيم، وفضَّلنا الله تعالى به على جميع الأنام... فمن أحب رسول الله ﷺ يلزمه ـ قطعاً ـ محبة الله عز وجل، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أرسله، كما أن مَن أحب الله تعالى يلزمه محبة رسوله ﷺ، لأنه رسوله، والدالُّ عليه، والمخبر عنه.

ولا انفصال بين المحبتين، لأن محبة الله تعالى هي الأصل، ومحبة رسوله ﷺ إنما هي لمحبة الله تعالى، حيث جعل الله تعالى اتباعَ نبيه ﷺ موجباً محبته تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فما نال محبةَ الله تعالى إلا باتباعِ رسوله ﷺ، والاتباع محبة وطاعة، وقد أثبت الله تعالى المحبةَ لمن يتبعَ رسوله ﷺ، وقد قال ﷺ ـ كما سبق في المتفق عليه ـ: «أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما» فهي محبة واحدة وليستا منفصلتين. فمن أخل بواحدة لم يكن من المحبين، ولم يكن صادقاً في دعواه، بل هو ناقص الإيمان. والله تعالى أعلم.

ثمرات المحبة

إن الثمرات التي يجنيها محبُّ النبي ﷺ لقاء محبته كثيرةٌ، لكني سأقتصر على ذكر عشر ثمرات، ليقيس المحبُّ نفسَه، فإن تحققت فيه كان محبّاً صادقاً، وإن لم تتحقق فيه، راجع نفسَه ليرى النقصَ الموجود حتى يتفاداه، وأسأل الله تعالى أن يكرمنا جميعاً بذلك، عملاً وتحققاً، إنه القادر على ذلك والمعين عليه.

١ ـ تذوق حلاوة الإيمان

إن للإيمان الحقيقي الكامل حلاوةً وطعماً، بيَّنها الشارعُ الحكيم، لكي يتذوقها، ويعيشَ بها المسلمُ ليلَه ونهارَه، طالما أن للإيمان مراتب، أدناها: إيمان العوام، وأعلاها هذا النوع من الإيمان، لكن لا يستشعر بها إلا من اتصف بصفاتٍ بيَّنَها الشارعُ الحكيم. وأولى تلك الصفات: تقديمُ محبة الله تعالى ومحبةِ رسوله ﷺ على محبة أيِّ مخلوقٍ، فمن لم يتحقق بذلك لم يكن في الدرجة العليا من الإيمان.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يَكره أن يُقذف في النار» متفق عليه[١].

ومحبةُ النبي ﷺ ـ التي يشعر صاحبُها بتذوق حلاوة الإيمان ـ لا تكون إلا بعد الرضا التام بنبوته ورسالته ﷺ، واتخاذِه نبيّاً ورسولاً.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ـ ﷺ ـ رسولاً» رواه مسلم[٢].

فمن كانت هذه صفته في رضاه برسوله محمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً له، وقدَّم محبتَه ﷺ على محبةِ الوالد والولد والأهل والمال والناس ـ بل على النفس أيضاً ـ بحيث يكون عنده ﷺ أغلى من كل غال ـ مع اتصافه بالصفات الأخرى المذكورة في الحديثين ـ فإنه يكون من أعلى أهل الإيمان درجة، وممن يتذوقون معانيَ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب حلاوة الإيمان. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٦٧، ٦٨).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن، رقم (٥٦).

الإيمان في نفوسهم، في ليلهم ونهارهم.

ومن لم يكن كذلك، كان إيمانه ناقصاً، لأن الإحسانَ هو الركنُ الثالث من أركان الدين، والذي يتحقق في مقام الإحسان لا شك يكون إما في حال مشاهدةٍ أو مراقبةٍ لله تعالى.

ففي حديث أبـي هريرة رضي الله عنه ـ المتفق عليه ـ وحديث عمر رضي الله عنه ـ عند مسلم[1] ـ في قصة سؤال جبريل عليه السلام النبـيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وفيه قال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

وقد جاء في روايةٍ لمسلم من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه: «أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك».

قال الحافظ رحمه الله في الفتح[2]: الإحسان هو مصدر، تقول: أحسن يحسنُ إحساناً، ويتعدى بنفسه وبغيره، تقول: أحسنت كذا، إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان، إذا أوصلت إليه النفع. والأول هو المراد، لأن المقصود إتقان العبادة، وقد يلحظ الثاني، بأن المخلص مثلاً محسن بإخلاصه إلى نفسه.

وإحسان العبادة: الإخلاص فيها، والخشوع، وفراغ البال حالَ التلبس بها، ومراقبة المعبود.

وأشار في الجواب إلى حالتين: أرفعُهُما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه، وهو قوله: «كأنك تراه» أي وهو يراك. والثانية، أن يستحضر أن الحق مطلع عليه، يرى كل ما يعمل، وهو قوله: «فإنه يراك».

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب سؤال جبريل النبـيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... رقم (١ ـ ٧).

(٢) فتح الباري (١ : ١٢٠).

وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته، وقد عبَّر في رواية القعقاع [وهي رواية مسلم الأخيرة من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه] بقوله: «أن تخشى الله كأنك تراه» وكذا في حديث أنس [كما عند البزار والبخاري في خلق أفعال العباد، وحسَّنَهُ الحافظُ في الفتح].

وقال الإمامُ النووي رحمه الله تعالى[1]: هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، لأنا لو قدَّرنا أن أحدنا قام في عبادة ـ وهو يعاين ربَّه سبحانه وتعالى ـ لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به. فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان. فإن التتميمَ المذكورَ في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبدُ على تقصيرٍ في هذا الحال للإطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أنَّ يعمل بمقتضاه.

فمقصود الكلام: الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبةِ العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع، وغير ذلك.

وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة ا لصالحين، ليكون ذلك مانعاً من تلبسه بشيء من النقائص؛ احتراماً لهم واستحياء منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه في سرِّه وعلانيته. اهـ.

فعلى العبد أن يعبد ربه سبحانه وتعالى عبادةَ من يراه بعينه، وهو يراه. فكيف يكون في هذه الحالة. فإن لم يستطع ذلك فعليه أن يعبده عبادةَ من يعتقد أن ربه سبحانه وتعالى يراه وإن كان هو لا يراه بعينه.

وهذه الرؤيةُ هي من باب التمثيل، لأن الرؤيةَ بالعين في الدنيا غيرُ ممكنة:

وإذا كان يجالس رجلاً عالماً صالحاً... فإنه يبتعد عن فعل كل نقيصة

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١ : ١٥٧ ـ ١٥٨) وانظر الفتح أيضاً (١ : ١٢٠).

ـ طالما هو عنده ـ احتراماً له وتقديراً واستحياءً، فكيف بمن يعلم أن الله تعالى يراه ومطلع عليه. . . ؟

ولما كانت العبادة في مفهوم الإسلام ليست محصورةً بزمان أو مكان أو هيئة، بل هي الزمن كله، في ليل الإنسان ونهاره، وفراغه وشغله، ونومه ويقظته، وحضره وسفره، وصيفه وشتائه، وعلمه وعمله، ومجالسته ضيفه، ومداعبته أهله، وملاعبته أولاده، وتربيته خادمه. . . فعليه أن يكون في كل أحواله مخلصاً خاشعاً خاضعاً مطيعاً مراقباً لربه تعالى، مشاهداً لعظمته. . . سبحانه وتعالى.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فمن كان هذه حاله، فإنه يتذوق حلاوةَ الإيمان، ويجدُ طعمَه، وكان الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ أحبَّ إليه من كل مخلوق.

٢ ـ محبة الله عز وجل لذلك المحب

إن مرجع محبة الله عز وجل لمحبِّ النبـيِّ ﷺ راجع لثلاثة أمور، سبق وأن ذكرت منها اثنين:

الأول منها: أن محبة الله سبحانه وتعالى ثابتة لمتَّبِـعِ النبـيِّ ﷺ.

كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

فالمتَّبِـعُ هو حبيبٌ ومحبوبٌ لله عز وجل، وإذا كان اتباعُه ﷺ يعطي مُتَّبِعَه محبةَ الله تعالى ـ التي هي ثمرة الاتباع ـ فالمتَّبِـعُ يكون بها أولى. فكيف بمحبته.

---

(١) سورة الذاريات (٥٦).

(٢) سورة آل عمران (٣١).

والمؤمن أشدُّ حبًّا لله تعالى ولرسوله ﷺ: ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾[1].

والثاني منها: هو دعوته ﷺ بمحبة الله عز وجل لمن يحبهم، وقد تكررت نصوص كثيرة في ذلك[2].

والثالث منها: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أوجب محبتَه للمتحابين فيه، ـ كما في حديث معاذ بن جبل وغيره رضي الله عنهم ـ. فكيف لا يكون محبُّ الله تعالى ورسولِه ﷺ ممن تجب له محبة الله تعالى.

وأما ما جاء في النصوص القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾... فإن ذلك كله يرجع إلى الاتباع أيضاً، لأن من كان متَّبِعاً كان متصفاً بهذه الصفات وبغيرها من صفات الكمال قدر طاقته، والله تعالى أعلم.

إضافة إلى كون محبة الله تعالى ومحبةِ النبيِّ ﷺ لا تنفصلان، فمن أحب الله تعالى لا بد أن يحب رسولَه ﷺ، وكذا العكس. ومن أحب الله تعالى أحبه سبحانه وتعالى، وكذا من أحب رسولَه ﷺ أحبه الله تعالى، لعدم الفصل بينهما ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ و ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وكل ذلك شرط الإيمان. والله تعالى أعلم.

---

(1) سورة البقرة (١٦٥).

(2) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب ذكر أسامة بن زيد، وباب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهم. وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، رقم (٥٦ ـ ٥٩).

٣ ـ معيته ﷺ في الآخرة

لقد تواتر[١] عن النبي ﷺ قولُه: «أنت مع من أحببت» بألفاظه المتقاربة، حيث رواه نحوٌ من عشرين صحابياً، حيث يحشر الإنسان مع من يحب، فمن كان يحبُّ رسولَ الله ﷺ والأخيارَ من أُمتِه فإنه يحشر معهم، والعكس كذلك. وقد جاء التنصيص في عدد من الروايات على ذكر الله تعالى ورسولِه ﷺ، وأذكر بعض النصوص في ذلك:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «وما أعددت للساعة؟ قال: حُبَّ الله ورسوله، قال: «فإنك مع من أحببت».

قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: «فإنك مع من أحببتَ».

قال أنس: فأنا أحب الله ورسولَه، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم. متفق عليه، واللفظ لمسلم[٢].

وفي رواية لهما[٣] قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صومٍ ولا صدقةٍ، ولكني أحبُّ اللَّهَ ورسولَه. قال: «أنت مع من أحببت».

قلتُ: وأنا أقول، ما قاله أنسٌ رضي الله عنه: فأنا أحب الله ورسوله ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما، . . . وأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم.

---

(١) انظر لقط اللآلىء (٨٥) ونظم المتناثر (١٢٩) والأزهار المتناثرة (٢٦) وقطف الأزهار (١٦٨ ـ ١٧٠) وفتح الباري (١٠ : ٥٦٠).

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب عمر بن الخطاب. . . رضي الله عنه. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب المرء مع من أحب، رقم (١٦١ ـ ١٦٤).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب علامة الحب في الله. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب المرء من أحب، رقم (١٦٤).

وهذا الحديث فيه السؤال عن الساعة، وقد جاء السؤال عن العمل.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحبَّ قوماً ولما يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» متفق عليه[1].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ [وعند مسلم: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال:] الرجل يحب القومَ ولما يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحب» متفق عليه[2].

وقد جاء هذا المعنى عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

٤ ـ اشتياق الرسول ﷺ إلى رؤيتهم

إن الحبَّ إذا كان من الطرفين كان غايةً في الكمال، ومنتهى الطلب. وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر عن أصحابه رضي الله عنهم بأن الواحد منهم ـ ممن سيبقى بعده ﷺ ـ يود لو رأى رسولَ الله ﷺ مرة ثم لا يراه بعدها أبداً، ويدفع مقابل ذلك أهلَه ومالَه، وأخبر ﷺ أن من أشد أمته حبّاً له قوماً يكونون بعده ﷺ، يود أحدُهم لو رآه ﷺ، ويدفع مقابل ذلك أهلَه ومالَه... فإن مقابل هذا الشوق من هؤلاء المحبين، قابله ﷺ بشوقٍ مثله، ورغبةٍ في رؤية هؤلاء المحبين، الذين سماهم ﷺ: «إخواناً له».

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنا قد

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب علامة الحب في الله. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب المرء مع من أحب، رقم (١٦٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب علامة الحب في الله. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب المرء مع من أحب.

رأينا إخواننا» قالوا: أوَلَسْنا إخوانَك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعد» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟ فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بين ظهرَي خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرف خيلَه؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غُرّاً مُحَجَّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض» الحديث رواه مسلم[١].

فيعرف النبي ﷺ أمتَه من بين الأمم يوم القيامة، كما يعرف الرجلُ خيلَه ممن كان عنده خيل غُرٌّ في وجوهها، محجَّلةٌ في أيديها، وهي موجودة بين خيلٍ سودٍ لم يخالط لونَها لونٌ آخر.

فقوله ﷺ: «وددت أنا قد رأينا إخواننا» هو اشتياق منه ﷺ ورغبة في رؤيته إخوانه ومحبيه ومتبعيه ومطيعيه والمؤمنين به، لذا حصل الاشتياق من الطرفين. والله تعالى أعلم.

وقوله ﷺ: «بل أنتم أصحابي» يوهم نفي الأخوة عنهم، وهذا القول وهم، بل فيه مزية لهم.

قال الإمام الباجي رحمه الله[٢]: قوله ﷺ: «بل أنتم أصحابي» ليس نفياً لأُخُوتهم، ولكن ذكر مرتبتهم الزائدة بالصحبة، فهؤلاء أخوة صحابة، والذين لم يأتوا، أخوة ليسوا بصحابة. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ..﴾[٣]. اهـ.

فالصحابة رضي الله عنهم أفضل ممن جاء بعدهم، وهم أفضل الأمة، وأن من صحب النبي ﷺ، ورآه مرة من عمره، وحصلت له مزية الصحبة أفضلُ من كل من يأتي بعده ﷺ، لأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، وذلك كله فضل الله

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الطهارة: باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٣٩).

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (٣: ١٣٨).

(٣) سورة الحجرات (١٠).

يؤتيه من يشاء، وهذا هو مذهب معظم العلماء[1]. والله تعالى أعلم.

٥ ـ حصول السعادة في الدارين

إن أحب شيء عند الإنسان العاقل السَّوِيِّ ألا يكون عنده هَمٌّ يشغله؛ سواء كان من هموم الدنيا: من مال وزوجة وبيت ونفس وولد. . .، أم من هموم الآخرة، لأن الله تعالى كفاه ذلك، إما بإنجازها أو زوالها أو عدم وقوعها أو التكفل بها. . .

كما أن مِن أحب الأشياء عند المؤمن الموقن أن يُبعث يوم القيامة ولا ذنب عليه، وذلك إما لعصمة الله تعالى له وحفظه له في دنياه، أو لغفرانه تعالى لتلك الذنوب.

فمن كان هذا حاله في دنياه وأخراه كان غاية السعادة ومنتهى الطلب.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطي ذلك كله ـ وغيره معه ـ لمن يُكثر الصلاة على النبي ﷺ، كما جاء في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ والذي مر ذكره ـ وفيه: «إذاً تُكفى هَمَّك، ويغفر ذنبُك» فكيف بمن يحبه ﷺ الحب الكامل، الذي يكون عنده أحب إليه من والده وولده ونفسه وماله وأهله والناس أجمعين؟

ولا أعني بالحب مجرد الدعوى التي يدعيها الكثير من الناس، وهم في حالهم يخالفون ما جاء عنه ﷺ، وأفعالهم تناقض دعواهم. بل أريد به الحب الذي يدفع صاحبه إلى التطبيق والطاعة والاتباع والامتثال قدر الطاقة، في الحال والقال والفعل والخُلُقُ والسلوك. . .

إن محبة الله تعالى لا تنفصل عن محبة رسول الله ﷺ، وكذا محبة النبي ﷺ لا تنفصل عن محبة الله عز وجل: «أن يكون اللَّهُ ورسولُه ﷺ أَحَبَّ إليه مما

---

(١) انظر شرح صحيح مسلم للإمام النووي (٣: ١٣٨ ـ ١٣٩).

سواهما» فمن أحب رسول الله ﷺ كان كثيرَ النوافل، كثيرَ الذكر لله تعالى، كثيرَ الطاعة، كثير التقوى. . . وهو مولى لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ومن كان كثير النوافل كان محبوباً لله تعالى، كما في حديث أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضتُه عليه، وما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصَرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءتَه» رواه البخاري[1].

فمن داوم على الفرائض ثم زاد بعد ذلك في أداء النوافل، فقد أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى.

كما أن من كان كثير الذكر لله تعالى كان مذكوراً أيضاً من قِبَل الله عز وجل، كما قال جل شأنه: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ. . .﴾[2] فإذا كان كثير الذكر لله تعالى فهو مؤمن محبوب مذكور.

فمن كان مذكوراً ومحبوباً فكيف لا يكون سعيداً، قد كفيَ همَّه، وغُفر ذنبُه. والنبـي ﷺ أخبرنا أن من أحبه الله تعالى فقد وُضع له القبولُ في الأرض، كما مر في الحديث المتفق عليه.

ثم إن محب النبـي ﷺ ـ الصادق في حبه ـ هو مؤمن كامل الإيمان «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه. . .» والله تعالى هو ولي المؤمنين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[3] ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب التواضع.

(٢) سورة البقرة (١٥٢).

(٣) سورة البقرة (٢٥٧).

﴿الْغَالِبُونَ﴾[1].

فمن كان الله تعالى وليَّه، ويحبه ويذكره... وهو محبٌّ لرسوله ﷺ مطيعٌ له، ومتبع إياه، وسائرٌ على نهجه... فكيف لا ينال السعادتين في الدنيا والآخرة؟!.

٦ ـ إعطاؤه صفة الإيمان

لقد مر معنا قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده» وهذا لفظ البخاري، وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» برواياته وهذا متفق عليه. فمن أحب رسولَ الله ﷺ الحبَّ الشرعي وقدَّمه على الوالد والولد والأهل والناس والمال... فهو مؤمن، وكلما ازداد حبُّه ازداد إيماناً، وكلما نقص حبُّه نقص إيمانُه.

ثم إذا كان الله تعالى توعَّد من يقدِّم محبةَ المخلوقات على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ بما ذكر في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]. فمفهوم ذلك أن من قدم محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ فهو ضد ما ذكر في هذه الآية، فهو المطيع المؤمن.

بل إذا كان قد جعل آية الإيمان حب الأنصار، فقال ﷺ: «آية الإيمان حُبّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» كما في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه[3]. وقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا

---

(١) سورة المائدة (٥٥ ـ ٥٦).

(٢) سورة التوبة (٢٤).

(٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب حب الأنصار من الإيمان ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان، رقم (١٢٨ ـ ١٢٩).

منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم إبغضه الله» كما في حديث البراء رضي الله عنه المتفق عليه[1] أيضاً، وما نال الأنصار رضي الله عنهم هذا الشرف إلا بصحبتهم لرسول الله ﷺ ونصرتِهم له ﷺ، فكيف بمحبة رسول الله ﷺ؟ فلا يحبه إلا مؤمن ولا يكرهه إلا كافر أو منافق.

والنصوص في هذا الباب كثيرة. والله تعالى أعلم.

٧ ـ مُحِبُّهُ ﷺ لا يخرج عن سمة الإيمان ولو ارتكب معصية

من أحب اللَّهَ سبحانه وتعالى ورسولَه ﷺ فقد ثبت له وسم الإيمان، ولا يُنزع منه طالما الحبُّ موجوداً في قلب صاحبه، ولهذا لا يوصف بالنفاق، ولا يخرج عن سمة الإيمان، حتى لو ارتكب معصيةً، وإن كانت المحبة لا توجب له العصمة، حيث لا تنافي بين المحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ وبين المعصية، إذ قد يرتكب المحبُّ معصيةً ـ وإن كانت كبيرةً ـ ولكنها لا تخرجه عن دائرة الإيمان، ولا يرتكب المؤمن المحبُّ المعصيةَ إلا إذا كان غافلاً عن الله تعالى.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً كان على عهد النبـي ﷺ، كان اسمه عبدَ الله، وكان يلقب: حماراً، وكان يُضحك رسولَ الله ﷺ، وكان النبـيُّ ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً، فأَمر به فجُلِد، فقال رجلٌ من القوم: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤتى به، فقال النبـيُّ ﷺ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله» رواه البخاري[2].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب حب الأنصار من الإيمان ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان، رقم (١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الحدود: باب ما يكره من لعن الشارب، وأنه ليس بخارج من الملة.

فقد كان هذا الرجل ـ رضي الله عنه ـ صادقاً في محبته لله تعالى ولرسوله ﷺ، حيث شهد له رسولُ الله ﷺ بذلك. وهو مقصِّرٌ في طاعته، حيث كان يشرب الخمرَ، فلو كان تامَّ الطاعةِ ما شرب، ولكنه كان مقصراً، ومع هذا فقد سماه ﷺ: محبّاً.

ومثل هذه الشهادة انقطعت بعد وفاة رسول الله ﷺ، حيث كان مؤيَّداً بالوحي، وانقطع ذلك، فلا يستطيع أحد أن يشهد بذلك مهما كان. ولهذا لما تسوَّرَ كعبُ بن مالك رضي الله عنه جدارَ حائط [بستان] أبي قتادة رضي الله عنه، وقال له: يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسولَه ـ ﷺ ـ (ثلاثاً) قال أبو قتادة رضي الله عنه: الله ورسوله أعلم. كما في حديث كعب رضي الله عنه المتفق عليه(١). لكن نحسِّن الظن، ونرجو ذلك، لأن بواطن الأمور وسرائرَها لله تعالى.

لكننا نستطيع الجزمَ بعدم وجود النفاق والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ في قلب مؤمنٍ، كما لا يوجد بغضٌ وكراهيةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ ومحبةٌ لهما في قلب عبد مؤمن أيضاً.

ولهذا إذا ثبتت المحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ في قلبٍ فقد ثبت له الإيمان، وانتفى عنه ضده، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

وعدم لعن العاصي المسلم المؤمن أمرٌ مطلوب، لأن المكروه ـ حقيقة ـ هو الفعل، وهو المعصية، لا ذات المسلم المؤمن، كما قال تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾(٣). إلا إذا انقلب كفراً لا يحتمل التأويل،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم: كتاب التوبة: باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٥٣).
(٢) سورة البقرة (١٦٥).
(٣) سورة الشعراء (١٦٨).

وهذا لا يتصور من المؤمن المسلم المحبِّ لله تعالى ولرسوله ﷺ، إلا إذا ارتد عن الإسلام، والعياذ بالله تعالى.

ولهذا نهى ﷺ عن سبِّ المسلم العاصي ولعنِه ـ أثناء عصيانه ـ لأن في ذلك إعانةً للشيطان عليه، والمطلوبُ مساعدةُ المسلم على الخروج من المعصية، لا مساعدة الشيطان عليه، لأنه في هذه الحالة يزداد نفوراً وبعداً، والمسلم رحيم شفوق، ميسِّرٌ لا معسر، مبشِّر وليس منفراً.

فعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: أُتِيَ النبـيُّ ﷺ بسكران، فأَمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف، قال رجل: ما له، أخزاه الله. فقال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم» وفي رواية: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان» رواه البخاري[1].

ففي هذا النص أمور:

١ ـ قوله ﷺ: «على أخيكم» فقد أبقاه في الأخوة ولم ينف الأخوة الإيمانية عنه.

٢ ـ نهى عن عون الشيطان على ذلك المسلم الشارب، فالشيطان يريد بتزيينه له المعصيةَ أن يحصل له الخزيُ، فإذا دعَوا عليه بالخزي فكأنهم حصلوا مقصود الشيطان، خاصة وقد حلف أنه لَيَحْتَنِكَ ذريةَ آدم، ويغويهم، فإذا دعوا عليه بالبعد عن رحمة الله تعالى فقد حصل مراد إبليس.

ولهذا أمر بالدعاء له، فقد زاد في رواية أبـي داود[2] في هذا الحديث: «ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

وخلاصة الأمر فإنه لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله تعالى

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحدود: باب الضرب بالجريد والنعال، وباب ما يكره من لعن الشارب...

(٢) سنن أبـي داود: كتاب الحدود: باب الحد في الخمر، رقم (٤٤٧٨).

ورسوله ﷺ في قلب المرتكب، لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحب الله تعالى ورسوله ﷺ، مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، لأن المذكور تكرر منه الشرب والجلد[1]، وإن كان يُفترض في المحبِّ الطاعة، ولهذا لا يعصي المحب ـ والمؤمن عموماً ـ إلا إذا كان غافلاً عن محبته وعن إيمانه، وإلا فكيف يعصي وهو يدعي المحبة، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن. . .» الحديث متفق عليه من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه[2].

وعلى هذا فمن ارتكب معصية تستحق الحد فإنه يقام عليه، ولو ادعى ما ادعى، لأن الأصل في المحب الطاعةُ لا المعصية، وهو مسؤول عن غفلته، ونقصانِ إيمانه، ويُخشى عليه إن تمادى أن يزول نهائياً، والعياذ بالله تعالى. والله أعلم.

٨ ـ حشرهم تحت العرش

لقد أخبرنا النبـي ﷺ أن من جملة السبعة الذين يحشرهم الله تعالى تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله: «. . . ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. . .» المتفق عليه[3] من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

كما أن المتحابين في جلال الله هم في ظل الله تعالى.

ففي حديث أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا

---

(١) انظر فتح الباري (١٢ : ٧٨).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الحدود: باب ما يحذر من الحدود ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم (١٠٠ ـ ١٠٥) وانظر فتح الباري (١٢ : ٦٠ ـ ٦٢) وشرح صحيح مسلم للإمام النووي (٢: ٤١ ـ ٤٢) لوجه الجمع بين الإيمان وبين صدور المعاصي.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأذان: باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الزكاة: باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (٩١).

ظلي» رواه مسلم[1].

فإذا كان هذا ثواب المتحابين في الله عز وجل، فكيف بمن يحب رسول الله ﷺ، وهو يقول: «المرء مع من أحب» المتواتر عنه ﷺ ـ وقد سبق ذكره ـ وقد وجبت له محبة الله عز وجل؟

أسأل الله تعالى أن يكرمنا والمسلمين بذلك.

٩ ـ دخول الجنة

إذا كان محب رسول الله ﷺ يحشر معه ويكون معه ﷺ حيث أجاب ﷺمن سأل عن الساعة: «ماذا أعددت لها؟» فقال: . . . لكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحبب» أو: «المرء مع من أحب». وإذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ. . . .» كما مر، فكيف لا يكون مُحِبُّه ﷺ في الجنة.

خاصة وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والذي فيه: إن الرجل ليحب القومَ ولا يستطيع أن يعملَ عملَهم ـ وفي رواية: ولمّا يَلْحق بهم ـ أي في عملهم ـ فأجابه ﷺ: «المرء مع من أحب» وفي رواية للشيخين من حديث أنس رضي الله عنه، قال ـ أي الرجل ـ: ما أعددتُ لها من كثير صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقة، ولكني أُحبُّ اللَّهَ ورسولَه، قال: «أنت مع من أحببت» وقد سبق ذكر ذلك قبل قليل.

فإذا كان المرء لا يستطيع أن يعملَ مثلَ عملِ رسولِ الله ﷺ، ولكنه يدخر حبَّ الله تعالى وحبَّ رسوله ﷺ وهو يكون معه، فكيف لا يكون معه في الجنة.

وإذا كان حديث أنس رضي الله عنه جاء بلفظ: «أنت مع من أحببت» فإن حديث ابن مسعود رضي الله عنه جاء بلفظ: «المرء مع من أحب» ليشمل كل محب يلحق بمحبوبه، وليدل على أن رواية أنس رضي الله عنه لا تدل على خصوصية

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب في فضل الحب في الله، رقم(٣٧).

ذلك الأعرابي، بل هي نصٌّ عامٌّ يشمل كل محب لله تعالى ولرسوله ﷺ. والله تعالى أعلم.

١٠ ـ رفاقه في الجنة

لقد مر معنا قوله ﷺ: «المرء مع من أحب» وقوله ﷺ: «أنت مع من أحببت» وهذا يعني أن المرء يحشر مع محبيه، وإن كان دونهم في العمل والمكانة، كما جاء ذلك مصرَّحاً به في سبب ذكر هذه الأحاديث، ويا لها من مزية عالية، ومكانة سامية، أن يحشر المرء مع رسوله ﷺ، بشرط محبته المحبة التامة الصادقة.

ويوضح هذا المعنى قصةُ ثوبان رضي الله عنه، فقد جاءت من طرق كثيرة، أذكرها باختصار من غير التزام بلفظ.

كان ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان محباً لرسول الله ﷺ، فإذا لم يره ﷺ في اليوم تضيق به الدنيا، فيخرج يبحث عن رسول الله ﷺ في بيوتاته ـ أو غيرها ـ حتى يراه. فجلس يفكر أن هذه حاله في الدنيا، فكيف الآخرة، فإذا دخل ثوبان رضي الله عنه الجنة، كان رسول الله ﷺ في أعلى عليين، وكان ثوبان رضي الله عنه في عامة المسلمين، وأما إذا دخل النار ـ لا سمح الله ـ فلن يراه أبداً.

فأخذ هذا التفكير من ثوبان رضي الله عنه كلَّ مَأْخذٍ، حتى ذبل، واصفر لونه، وكأنه مريض.

فرآه رسول الله ﷺ ـ وهو الرؤوف الرحيم ـ فقال له: «ما بك يا ثوبان؟ أبك من مرض؟» فقال رضي الله عنه: لا والله يا رسول الله، ما بي من مرض، غير أني إذا لم أرك في اليوم تضيق بي الدنيا، فأخرج أبحث عنك حتى أراك، فذكرت الآخرة، فإذا دخلتُ الجنة، كنتَ في أعلى عليين، وكنتُ مع عوام المسلمين، وإذا دخلتُ النار فلا أراك أبداً.

فلم يجبه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ

رَفِيقًا﴾[1].

فالمحب يُحْشَرُ مع من أحبه، والمطيعُ لرسول الله ﷺ يحشر معه، ورفقاؤه في الجنة هم المنعَم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أسأل الله تعالى أن يكرمنا جميعاً بذلك الفضل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[2].

خاتمة هذا الفصل

إن المحبةَ التي تنفع صاحبَها، فتدفعه إلى محبة النبي ﷺ أكثر من نفسه ووالده وولده وأهله وماله والناس أجمعين، والتي تثمر في نفس صاحبها، وتظهر آثارها على نفس المحب وقلبه وقالبه ومظهره وعبادته واتباعه وطاعته والتزامه... هي المحبة الشرعية، وليست هي المحبة العاطفية التي لا أثر لها على مدعيها.

فهي ليست كمحبة الوالد لولده، والولد لوالده، والزوج لزوجه... والعاشق لمعشوقه... فليست هذه هي المحبة، إنما هي أسمى من ذلك بكثير، إنها رباط الإيمان بين المسلم ورسوله ﷺ، إنها نتيجة الاتباع لله تعالى ولرسوله ﷺ، إنها السبب الموصل إلى رضاء الله تعالى ورسوله ﷺ، فتدفع صاحبها إلى الطاعة والامتثال التام غير المنقوص، إنها عربونُ الوفاء، وثمنٌ لأداءِ بعضِ حقِّه ﷺ على المسلم.

إن هذه المحبة تُوَرِّث الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولا يتصور وجود محب غير مطيع، والزيادة من الطاعة تورث المحبة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى

---

(1) سورة النساء (٦٩).

(2) سورة النساء (٧٠). وانظر قصة ثوبان رضي الله عنه، وأنها سبب نزول هذه الآية: تفسير ابن كثير، والدر المنثور.

﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ . . .﴾[1].

إذا نظرنا إلى واقع المسلمين نرى التباين والتناقض واضحاً، كم من مُدَّعٍ لمحبة النبيِّ ﷺ وهو مرابٍ، وكم مدَّعٍ لمحبة النبي ﷺ وهو شاربٌ للخمر، وكم مدَّعٍ لمحبة النبي ﷺ وهو آكلٌ لحقوقِ العباد، وكم مدَّعٍ لمحبة النبي ﷺ وهو آكلٌ لمال الأيتام. . . وكم مدَّعٍ لمحبة النبي ﷺ وهو منحرف عنه في عقيدته وسلوكه. . . وكم وكم. . . وإذا سئل أحدهم: أتحبُّ رسولَ الله ﷺ؟ كان الجواب على الفور: روحي فداءٌ للنبي ﷺ. . . ومثل هذا كثير.

أين هذه المحبة المثمرة للطاعة التامة والاتباع التام؟ نعم لا أعتقد العصمة في المسلمين، فلا عصمة بعد رسول الله ﷺ، وإنما البشر خطاؤون، إنما هو الحفظ والتوفيق من الله تعالى، وإذا صدرت هَفْوَةٌ فإنها تُغفر، أما التمادي فإنه يُخشى على صاحبه زوال **الإيمان، والعياذ بالله تعالى**.

وقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في محبتهم للنبي المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام، ولا يمكن أن أذكر حالهم هنا، وقد ذكرت بعضاً من ذلك فيما مضى، ومن أراد الزيادة فلينظر فيما كتبتُه في «الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان» حيث ذكرت أحوالهم معه ﷺ. وما قصة ثوبان رضي الله عنه ونزول قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[2] إلا نموذج من هذه النماذج، حيث استحق هذه المعية مع هؤلاء الكرام، ولعله هو من الصديقين أو الشهداء أو الصالحين، كيف لا، وقد تواتر قولُه ﷺ: «أنت مع من أحببت».

لكني سآخذ نموذجاً واحداً أذكر بعض أحواله، لأن أحوالَه كلها مع رسول الله ﷺ تحتاج إلى مجلدٍ بل مجلدات. أذكر بعض أحواله كنماذج لذلك الحب الكريم الصادق، ليكون لنا نموذجاً نقيس عليه أحوالنا نحن المسلمين، إنه:

---

(١) سورة آل عمران (٣١).
(٢) سورة النساء (٦٩).

أبو بكر رضي الله عنه سيد المسلمين

إن أعز شيء عند الإنسان نفسه وولده وماله، ومن هنا نلاحظ أن الله تعالى قدم النفس في الجهاد على المال، في بعض المرات، كما قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في مرات أخرى كثيرات.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ . . .﴾(١).

وقال الله عز وجل: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ . . .﴾(٢) في آيات متعددة.

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد زَوَّجَ رسول الله ﷺ ابنته عائشة رضي الله عنها؛ فصارت أُمّاً للمؤمنين.

وأما ماله رضي الله عنه فقد انخلع منه مراراً، سواء في الهجرة إلى المدينة، أو في المدينة المنورة، ومن ذلك حديث عمر رضي الله عنه حيث قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك؟» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: والله لا أسبقك إلى شيء أبداً. رواه أبو داود، والترمذي والحاكم ـ وصححاه ـ وأقره الذهبي، والدارمي والبزار والبيهقي وابن أبي عاصم، والضياء في المختارة، وعبد بن حميد(٣).

---

(١) سورة التوبة (١١١).

(٢) سورة التوبة (٨٨) وانظر الآيات التالية: النساء (٩٥) الأنفال (٧٢) التوبة (٢٠، ٤١، ٤٤، ٨١) الحجرات (١٥).

(٣) سنن أبي داود: كتاب الزكاة: باب في الرخصة في ذلك، رقم (١٦٧٨) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، رقم (٣٦٧٥) وسنن الدارمي (١: ٣٢٩ رقم ١٦٦٧) والمستدرك (١: ٤١٤) والسنة (٢: ٥٧٩) والسنن =

وروى ابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح[1] عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: أنفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ أربعين ألفاً.

ولهذا لما قال ﷺ: «ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبـي بكر» بكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: ما أنا ومالي إلا لك. كما رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن أبـي شيبة وابن حبان بأسانيد صحيحة، وحسنه الترمذي[2].

وأما تقديمه رضي الله عنه نفسَه فداءً لرسول الله ﷺ، فقد بينه رسولُ الله ﷺ بقوله.

فقد جاء في حديث أبـي الدرداء رضي الله عنه ـ في قصة ما كان بين أبـي بكر وعمر رضي الله عنهما ـ وفي آخر الحديث: فقال النبـي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَقَ، وواساني بنفسه وماله...» الحديث رواه البخاري[3].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في خطبته ﷺ في مرض موته،

= الكبرى (٤: ١٨٠ ـ ١٨١) والبحر الزخار (١: ٢٦٣، ٣٩٤) ومسند عبد بن حميد (٣٢ رقم ١٤) وشرح السنة (٦: ١٨٠) والحلية (١: ٣٢) والمختارة (١: ١٧٢ ـ ١٧٤) وانظر كنز العمال (١٢: ٤٩١) والتلخيص الحبير (٣: ١١٥).

(١) صحيح ابن حبان (١٥: ٢٧٤ ـ ٢٧٥) ط شعيب. وفتح الباري (٧: ١٣).

(٢) مسند أحمد (٢: ٢٥٣، ٣٦٦) وفضائل الصحابة مع زيادة عبد الله والقطيعي (١: ٦٥ ـ ٦٦، ٣٩٣) ومصنف ابن أبـي شيبة (١٢: ٦ ـ ٧) وسنن الترمذي: كتاب المناقب: باب (١٥) رقم (٣٦٦١) وفضائل الصحابة للنسائي (٥٦ رقم ٩) وسنن ابن ماجه: المقدمة: باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، رقم (٩٤) والسنة (٢: ٥٧٧ رقم ١٢٢٩) وصحيح ابن حبان (٩: ٤) وكلهم من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

ورواه الحميدي (١: ١٢١) والفسوي (٢: ٧٢١) وأبو يعلى (٧: ٣٩١ ـ ٣٩٢) (٨: ٣٠٨) والمطالب العالية (٣: ٢٤٩) (٤: ٣٤) ومجمع الزوائد (٩: ٥١) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أيضاً.

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب قول النبـي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً».

قال ﷺ: «إنه ليس من الناس أَحَدٌ أمنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبـي بكر بن أبـي قحافة. . .» الحديث، لفظ البخاري[1].

وقد ظهر فداؤه رضي الله عنه لرسول الله ﷺ وتقديمُه نفسَه رخيصةً في مواطن متعددة وأماكن مختلفة، فمن ذلك:

* أثناء تعذيب كفار قريش للمسلمين، فنالوا من رسول الله ﷺ، فكان أبو بكر رضي الله عنه المدافع عن رسول الله ﷺ، وقد تعدد ذلك، ورواه عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وفي بعضها كيف نتفوا شعرَه وغدائرَه رضي الله عنه، وفي بعضها كيف ضربوه حتى لم يُعـرف له عَينٌ من أَنْفٍ من شدة الضرب على وجهه، وأغمي عليه، حتى ظن قومُه أنه ميـت. وأقتصر على ذكر رواية واحدة.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بينا النبـي ﷺ يصلي في حِجْر الكعبة، إذ أقبل عقبةُ بن أبـي مُعيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبـي ﷺ، قال: ﴿. . . أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ. . .﴾[2] رواه البخاري[3].

وجاء في رواية أسماء وأنس رضي الله عنهما، أنهم تركوا رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبـي بكر رضي الله عنه. وعن أسماء رضي الله عنها قالت: فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا رجع معه[4].

*** كما ظهرت محبته رضي الله عنه وفداؤه للمصطفى الكريم عليه وآله الصلاة** والسلام يوم الهجرة، ابتداء من حَبْسِه نفسه، وفرحه وبكائه، عندما أخبره ﷺ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب الخوخة والممر في المسجد ـ وفي غيرهما.
(٢) سورة غافر (٢٨).
(٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب ما لقي النبـي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ـ وفي غيرهما.
(٤) انظر مجمع الزوائد (٦: ١٥ ـ ١٧) وفتح الباري (٧: ١٦٩).

بصحبته ـ كما في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ـ عند البخاري[1]، ثم برفقته له ﷺ في الهجرة من أولها ـ ودخولهما الغار في جبل ثور ـ وما فعل **عبد الله بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر** رضي الله عنهم. كما في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها المذكور عند البخاري أيضاً.

* وتخوف الصديق رضي الله عنه على رسول الله ﷺ عندما وقف المشركون على فم الغار، حتى قال ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين، الله ثالثهما» كما في حديث أنس عن أبي بكر رضي الله عنهما المتفق عليه[2]. وأنزل الله سبحانه وتعالى بيان ذلك في قوله جل شأنه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

* وفي الطريق كيف صار يمشي عن يسار رسول الله ﷺ، وعن يمينه، وأمامه وخلفه، حتى لحقهما سُراقةُ بن مالك، كما في حديثه هو عند البخاري، وحديث أنس والبراء عن أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ المتفق عليهما[1]، وقد ورد عن غيرهم أيضاً.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ـ وفي غيرهما.

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب المهاجرين وفضلهم، منهم أبو بكر رضي الله عنه ـ وفي غيرهما ـ. وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (١).

(٣) سورة التوبة (٤٠).

(٤) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ـ وروى بعضها في غيرهما ـ. وصحيح مسلم: كتاب الأشربة: باب جواز شرب اللبن، رقم (٩١) وكتاب الزهد: باب في حديث الهجرة، رقم (٧٥).

*** ويوم بدر لم يدخل معه ﷺ في خيمته سواه رضي الله عنه، فإذا اقترب أحد من الخيمة وجده شاهراً سيفه. . . إلى آخر ما هنالك من نصوص وأخبار تدل على مدى محبة الصديق رضي الله عنه للنبـي ﷺ.**

وقد سبق ذكر بعض الروايات عن بكائه إذا ذكره ﷺ، حتى قيل: إنه مات بالسل، وقيل: مات كمداً وحزناً. . . رضي الله عنه.

وقد أظهر النبـي ﷺ مكانة أبـي بكر رضي الله عنه، كما أظهر أبو بكر رضي الله عنه ما في نفسه للنبـي ﷺ.

فعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر **فقال: «إن عبداً خيَّرَه اللَّهُ بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء الله؛ وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يُخبر رسولُ الله ﷺ** عن عبدٍ خيَّره اللَّهُ بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا؟ فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّرَ، وكان أبو بكر رضي الله عنه هو أعلمنا به.

وقال رسول الله ﷺ: «إن من أَمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكرَ، إلا خُلَّةَ الإسلام، لا يَبْقَيَنَّ في المسجد خَوخةٌ إلا خَوخة أبـي بكر» متفق عليه(١).

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ قال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبـي، وقد اتخذ اللَّهُ عز وجل صاحبَكم خليلاً» رواه مسلم(٢).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبـي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم: باب من فضائل أبـي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٢).

(٢) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم: باب من فضائل أبـي بكر الصديق=

ولهذا استحق لقب الصديق، والصاحب. . . وأعلن النبي ﷺ مكانتَه في مناسبات متعددة، ثم كان الخليفة بعد رسول الله ﷺ.

رضي الله تعالى عن الصديق وعن جميع الصحابة الكرام، ورزقنا حبهم، وحشرنا معهم تحت لواء سيد المرسلين عليه وآله الصلاة والسلام.

= رضي الله عنه، رقم (٣ ـ ٧).

الفصل الثاني

طاعة الإنسان للنبي ﷺ

معنى الطاعة

الطاعة في اللغة[1]: بمعنى لان وانقاد، وذلك لأن حروف الفعل: الطاء والواو والعين: أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاع يَطاع وأطاع، بمعنى لان وانقاد، وطاع له يطوع ويطاع إذا انقاد له، وطاعه يطوعه إذا انقاد معه ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له، وهو طوعه: إذا انقاد معه. وهو طوع يديك: أي منقاد لك، ويقال: فرس طوع العنان: إذا كان سلساً.

وخلاصة الأمر: أن الطاعة هي الانقياد والتسليم للأمر واللين له واصطحابه.

والطاعة: إما أن تكون بالرضا والقناعة والطواعية والمحبة؛ فيكون الدافع إليها نفسياً من قِبل المطيع نفسه من غير إكراه وضغط عليه. أو أن تكون بالإكراه والخوف من قبل الآمر، فيكون الباعث عليها خارجياً، وهو سطوة الآمر والخوف منه.

وفرق بين الحالتين والأثر الناتج عنهما، إذ الأولى نابعة من نفس المطيع،

---

(١) انظر: الصحاح (٣: ٢٥٥) ومجمل اللغة (٢: ٥٨٩) ومعجم مقاييس اللغة (٣: ٤٣١) والقاموس المحيط (٣: ٦٠) ولسان العرب (٨: ٢٤٠).

محبة وتقديراً واختياراً ورضا وقناعة بما يفعل، بينما الثانية إنما هي خوف العقوبة، وخشية البطش والانتقام.

ولهذا فإن الثانية قد تتخلف وتنقطع، وذلك إذا غاب الآمر أو ابتعد... أما الأُولى فإنها لا تتخلف ولا تنقطع، لأنها نابعة من نفس المطيع، نعم قد تضعف لعوامل متعددة، ولكنها لا تنقطع بالكلية.

والمؤمن المسلم الصادق يطيع محبةً وامتثالاً ورغبة، وهو أيضاً يطيع رهبة وخوفاً من عقوبة الله تعالى إذا قصر.

وطاعة النبي ﷺ هي طاعة لله تعالى أولاً، وذلك لأنه رسول الله ﷺ، فمن أطاعه فقد أطاع الله تعالى، ومن عصاه فقد عصى الله تعالى. ولهذا جاءت أغلب النصوص في القرآن الكريم بذكر طاعة الله ورسوله ﷺ بنص واحد، وسياق واحد، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

يضاف إلى هذا أيضاً جانب المحبة والطواعية والانقياد، فهذا له أكبر الأثر في نفس المؤمن الصادق، وإذا كنتُ قد ذكرتُ أن من شرط تذوق الإيمان الرضا بالله تعالى رباً وبمحمد ﷺ رسولاً؛ فإن ذلك لَمِن أكبر الدلالة على كون الباعث على الطاعة هو الإيمان، لأن من لازم الإيمان الطاعة.

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى نوعي الطاعة طواعية أو كراهية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1] فإذا كان هذا في الجماد، فما بال الإنسان؟ وكيف يكون في طاعته؟

علماً بأن العبادة تكون أيضاً طواعية أو كرهاً، كما هو الحال في الطاعة.

قال الله عز وجل: ﴿... وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2].

---

(١) سورة فصلت (٤١).

(٢) سورة آل عمران (٨٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا...﴾[1]. والسجود أظهر مظاهر العبادة.

وطاعة النبي ﷺ عبادة، بل من أجل العبادات، فلو لم ترد النصوص في وجوبها، والتحذير من مخالفتها: كانت واجبةً ملزِمَةً، كشرط الإيمان، فكيف وقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله عز وجل «القرآن الكريم» بالأمر بها، وقرنها مع طاعة الله عز وجل، والأمر باتباعه ﷺ، والأخذ بما جاء به ﷺ، ووجوب الردِّ إلى حكمه والتسليم له، والاستجابة لدعوته ﷺ، والتسليم الكامل لوعده ﷺ... بل جعل الله تعالى طاعةَ نبيه ومبايعتَه ﷺ طاعة ومبايعة له تعالى، كما جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى في تحريم معصية رسول الله ﷺ **والتقدمِ بين يديه، ومنازعتِه ومشاققتِه**... بل نفى الإيمان عمن لم يُسَلِّم لحكمه وأمره ﷺ، وتكفير من يعصيه ويخاصمه ويشاققه ولا يطيعه ﷺ... وسيأتي بيان ذلك كله إن شاء الله تعالى.

وسوف أجعل ذلك كله تحت عناوين فرعية، ثم أذكر النصوص الكريمة، مع ذكر تعليق بسيط حتى لا يطول البحث، سائلاً المولى جل شأنه الإعانة والتوفيق، والقبول والرضا، وألا يكون ما أكتب حجةً عليَّ، بل يكون عوناً لي، وحجةً لي يوم ألقاه، ويكرمني بشفاعة نبيه وصفيه ﷺ، والحشر معه، وصحبته في جنات النعيم، إنه تعالى القادر والمسؤول.

جعله الله تعالى مِنَّةً يمتن بها على المؤمنين

لقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين بِمِنَّتَين، امتنَّ عليهم سبحانه وتعالى بهما: فقد امتنَّ عليهم بهدايتهم للإيمان، وجعْلِ رسوله وصفيه سيدنا محمد ﷺ ـ عندما بعثه برسالته الإسلام ـ مِنَّةً أخرى امتن بها سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين أيضاً.

---

(١) سورة الرعد (١٥).

وهاتان المنتان لا بد من وجودهما عند كل مسلم موقن، فإذا تخلفت إحداهما عنه لا يصح إيمانه.

قال الله عز وجل عن منَّته بالإيمان: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى عن مِنَّته بالنبـي ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

فقد كانوا في ضلال فهداهم الله تعالى به، وهدايتهم إنما هي باتباعه وطاعته والانقياد لأمره وتنفيذ حكمه... ﷺ، لذا امتن الله سبحانه وتعالى به عليهم، لأنهم هداهم الله تعالى به.

وهاتان المنتان متلازمتان، لا تنفكان في قلب العبد المؤمن المسلم، لأنهما «لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ».

وكلاهما مِنَّةٌ من الله تعالى على عباده، والأولى كانت بواسطة وسبب الثانية، فهو ﷺ الذي يدعوهم، والله تعالى هو الهاديهم: ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللَّهِ...﴾[4] فهو الدال على الله تعالى، والله تعالى هو الخالق الهداية في نفوس عباده، لذا امتن بالداعي، وبما ينخلق من أثر الدعوة.

---

(١) سورة الحجرات (١٧).
(٢) سورة آل عمران (١٦٤).
(٣) سورة الجمعة (٢).
(٤) سورة الشورى (٥٢ ـ ٥٣).

ولهذا عرفَ الصحابةُ الكرام رضي الله عنهم تلك المِنَّة، وقَدَروها حقَّ قدرها.

فعن معاوية بن أبـي سفيان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا لدينه، ومنَّ علينا بك... الحديث، وفي آخره قال ﷺ: «إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة» رواه أحمد ومسلم والنسائي ـ واللفظ له ـ والترمذي(١) في آخرين.

وكانوا يقولون له ﷺ في كل ما يقول لهم ـ بعد إعطائه المؤلفة قلوبهم ـ: الله ورسوله أَمَن، كما في حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، المتفق عليه(٢).

فإذا كان ﷺ مِنَّةً، امتن الله سبحانه وتعالى بها على عباده المؤمنين فكيف تكون طاعته وملازمته واتباعه، وهو المنةُ التي امتن الله تعالى بها؟ وكيف تكون معصيته ﷺ ومخالفة أمره والعنودُ عنه،... وهو المنة التي امتن الله سبحانه وتعالى بها على العباد؟.

الإيمان به أنه رسول الله ﷺ

لقد توسعت في بيان هذا الموضوع في «بدعة دعوى الاعتماد على الكتاب دون السنة» وذكرت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في ذلك، لكني سأقتصر هنا على بعض النصوص، ومن أراد الزيادة فلينظر في ذلك الكتاب.

---

(١) مسند أحمد (٤: ٩٢) وصحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٤٠) وسنن النسائي: كتاب أدب القاضي: باب كيف يستحلف الحاكم (٨: ٢٤٩) وسنن الترمذي: كتاب الدعوات: باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله عز وجل ما لهم من الفضل، رقم (٣٣٧٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. وصحيح مسلم: كتاب الزكاة: باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام...، رقم (١٣٩).

إن الله عز وجل لم يجعل لأحد من الخلق ما جعله لنبيه وصفيه محمد ﷺ، فقد وضعه الله عز وجل من دينه وفرضه وكتابه الموضعَ الذي أبان الله جل ثناؤه، أنه جعل عَلَماً لدينه، بما افترض من طاعته، وحرَّم من معصيته، وأبان من فضيلته، بما قرن من الإيمان برسوله ﷺ، كما أمر الله تعالى بالإيمان به ﷺ، وأخبر تعالى أن من لم يؤمن به فهو كافر، خالد في النار.

ومن الملاحظ أن أغلب الآيات جاء فيها الأمر الإلهي بالإيمان به ﷺ مقروناً بالإيمان به تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

وقال جل شأنه: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣).

وقال الله جل شأنه في معرض رده على الكفار وأمره لهم بالإيمان برسوله ﷺ: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٤).

وقال الله عز وجل آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يعلن عمومَ دعوته لجميع الناس،

---

(١) سورة النساء (١٣٦).

(٢) سورة الحديد (٢٨).

(٣) سورة الحديد (٧ ـ ٨).

(٤) سورة التغابن (٧ ـ ٨).

فعليهم الإيمان به واتباعه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]، وكيف لا يؤمنون به وقد أخذ عليهم الميثاق بذلك، كما مر.

ولهذا كفَّر اللَّهُ تعالى من لم يؤمن برسوله محمد ﷺ، فقال جل شأنه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾[3].

ولهذا جعل الله تعالى من صفات المؤمن الحق: الإيمانَ بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فقد قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾[4].

فمن آمن بالله تعالى ولم يؤمن برسوله ﷺ فليس بمؤمن، لأن مقتضى الإيمان بالله تعالى طاعته، والثناء على الدال عليه، وامتثال أمره، ومن طاعته تعالى وامتثال أمره الإيمانُ برسوله محمدٍ ﷺ، وامتثالُ أمره وطاعتُه، وذلك لأمر الله تعالى بذلك، فمن لم يفعل لم يطع الله تعالى، ولم يمتثل أمرَه عز وجل، وكان عاقّاً للذي دَلَّه على ربه عز وجل، وجاحداً نعمة الله تعالى عليه.

ولهذا جعل الله تعالى الإيمان بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ أولى التجارات الرابحة والمنجية من عذاب الله عز وجل، كما قال جل شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ

---

(١) سورة الأعراف (١٥٨).

(٢) سورة الأعراف (١٥٧).

(٣) سورة الفتح (١٣).

(٤) سورة النور (٦٢) وسورة الحجرات (١٥).

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

ولهذا حذر الله تعالى الذين لا يؤمنون برسوله محمد ﷺ، وأنهم لو آمنوا به لكان خيراً لهم، فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٢].

ولما صرف الله تعالى إلى نبيه ﷺ نفراً من الجن، وسمعوا القرآن، رجعوا إلى قومهم منذرين ومحذرين، فقال الله تعالى على ألسنتهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

ولهذا أُمِر ﷺ من قبل ربه عز وجل أن يقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ، ويشهدوا شهادة الحق.

فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. . .» الحديث متفق عليه[٤].

وقد عبَّر في هذا الحديث بالشهادة «حتى يشهدوا» وهي أعمق من القول، لأن الشهادة بالتوحيد وبرسالة محمد ﷺ تنفي كل ما يعارضها ويخالفها، ولهذا كانت الشهادتان أول ما يدعو إليه النبي ﷺ.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن،

---

(١) سورة الصف (١٠ ـ ١٢).
(٢) سورة النساء (١٧٠).
(٣) سورة الأحقاف (٣١ ـ ٣٢).
(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. . .، رقم (٣٦).

فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله...» الحديث متفق عليه[1].

وفي رواية لهما[2]: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم...» الحديث.

فالمراد ـ والله تعالى أعلم ـ توحيده عز وجل، والإذعان لرسوله المصطفى ﷺ؛ لأنه هو المبلِّغُ عنه عز وجل، ولهذا أخبرنا ﷺ أن من سمع به ثم لم يؤمن به ﷺ أدخله الله تعالى النار، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند مسلم[3].

وكل هذه النصوص الشريفة تدل على وجوب طاعة رسول الله ﷺ، وحجية قوله، لأن الإيمان به ﷺ على أنه رسول، فرع الإيمان بالله تعالى على أنه الإله، لأنه تعالى أوجب ذلك، فكما لا يصح إيمان من يؤمن بالرسول دون الإيمان بالله تعالى، كذلك لا يصح إيمان بدون طاعة، لأن الله تعالى كما أوجب الإيمانَ بالرسول ﷺ، أوجب طاعتَه أيضاً، ثم هو الدَّالُّ على الله تعالى، وهو الداعي إليه، فلو لم تصح طاعته ما صح إيمانٌ، فلما وجب الإيمان وجبت الطاعة، والله تعالى أعلم.

جعله الله تعالى رسولاً له، فطاعته ﷺ من طاعته تعالى

ومما يدل على وجوب طاعة رسول الله ﷺ، أن الله سبحانه وتعالى جعله رسولَه، وأوحى إليه، وأَيَّدَه، وعصمه، وحفظه، وجعله الواسطةَ المبلغةَ عنه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الزكاة: باب وجوب الزكاة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم (٣٠).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الزكاة: باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم (٣١).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس...، رقم (٢٤٠).

تعالى، وأباح له أن يُشرِّع وفق ما يريده سبحانه وتعالى، ثم هو تعالى ارتضاه رسولاً له، وفرض على الناس طاعته.

وهذا هو شرط الإيمان، لذا فمن آمن بالله تعالى ولم يؤمن برسوله ﷺ فليس بمؤمن، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وكذلك من أطاع الله تعالى ولم يطع رسوله ﷺ فليس بمؤمن، وإن زعم....

وقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن الكريم فيها الشهادة لرسول الله ﷺ بالرسالة، بل في بعضها حصر مهمته ﷺ بالرسالة.

قال الله عز وجل: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ... ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ... ﴾(٢). وغير ذلك.

وقال عز شأنه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ... ﴾(٣).

فقد أرسله الله سبحانه وتعالى مبشراً ونذيراً؛ ليؤمن الناس بالله تعالى وبه ﷺ، ولكي يعظِّموه ويوقِّروه... ولا يكون ذلك إلا بطاعته ومحبته وامتثال أمره... ﷺ، فمن عصاه ﷺ ولم يطعه: لم يوقِّرْه، ولم يعزِّرْه، ولم يسمع نذارته ﷺ، لأنه من أطاع النذير سلم، ومن عصاه هلك، وما أرسله الله تعالى إلا ليطاع لا ليعصى، وإلا لما جعله نذيراً. والله تعالى أعلم.

ما أرسله الله تعالى إلا ليطاع بإذنه تعالى

لقد بين الله سبحانه وتعالى علة وجوب طاعة رسله عليهم وعلى نبينا

---

(١) سورة الأحزاب (٤٠).

(٢) سورة آل عمران (١٤٤).

(٣) سورة سورة الفتح (٨ ـ ٩).

الصلاة والسلام، بأنهم رسلُه سبحانه وتعالى، لا لكونهم بشراً أو رجالاً، أو لأنهم بأشكال حسنة، وإنما لأنهم رسل مصطَفَوْن، مختارون من قِبَلِه تعالى، صاروا واسطةً بينه وبين خلقه، يتنزل عليهم الوحي، بما جعل فيهم من استعداد وأهلية، يرشدون العباد إليه، ويهدونهم إلى صراطه المستقيم، ويدلونهم عليه سبحانه وتعالى، وينذرونهم عقابه وناره وسخطه، ويبشرون المطيع منهم بالسعادة والجنة والرضا والرضوان.

لذا وجبت طاعتهم، وامتثال أوامرهم، لأنهم رسل من قبله تعالى، فلو لم يطاعوا لم يُطَع مرسِلُهم، لأن طاعة الرسول من طاعة مرسِلِه.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١).

فقد حصر الله تعالى إرسال رسله بالطاعة، فمن لم يطع الرسول لم يطع من أرسله ـ وهو الله تعالى ـ ثم نلاحظ أن طاعة الرسول إنما هي بإذن الله تعالى وأمره وقدره ومشيئته، فإذا كان الله تعالى لم يرسل رسولاً إلا وقد فرض طاعته على أمته التي أرسله إليها... فكيف بسيد الرسل وإمامهم عليه وآله الصلاة والسلام؟ وهو أحرص عليهم من أنفسهم، وأولى بهم منهم، ولهذا علَّق اللَّهُ تعالى قبولَ توبة العصاة والمذنبين إذا استغفروا وتابوا على استغفار رسول الله ﷺ لهم، فإذا فعلوا وفعل ﷺ وجدوا الله تواباً رحيماً، والله تعالى أعلم.

تعليق الثواب والعقاب على بعثة الرسول عليهم السلام

بعد أن تحمل آدم عليه السلام الأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال، أخرج ذريته من صلبه وأصلاب أحفاده، وأخذ عليهم العهد، أن يؤمنوا به سبحانه وتعالى، ولا يشركوا به أحداً أبداً(٢).

---

(١) سورة النساء (٦٤).

(٢) انظر: «الأمانة العظمى ونبيها ﷺ» فقد فصلت ذلك فيه.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ . . .﴾[1].

وذلك في عالم الذر، ثم أظهرهم سبحانه وتعالى إلى عالم الشهادة والوجود، ويدل على ذلك الحديث القدسي:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» متفق عليه، واللفظ للبخاري[2].

وأنزل الله سبحانه وتعالى آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ إلى الأرض، لحكمة يريدها جل شأنه، ومع الإنسان نفسُه التي تأمره بالسوء، والشيطانُ الذي صار عدواً لآدم وذريته، ومع الإنسان أيضاً غرائزُه ونزواتُه وأهواؤه وشهواتُه. . . ثم هو نَسَّاء، وكل هذا يجعل عند الإنسان الغفلةَ عن العهد الذي قطعه على نفسه أمام الله تعالى: أن يؤمن به تعالى ولا يشرك، وأن يطيع فلا يعصي.

لذا لا بد لهذا الإنسان النَّسَّاء من مُذَكِّرٍ بعهده المأخوذ عليه، وبالإيمان الذي شهد به، وبالتوحيد الذي قال به، كما لا بد له من منذِرٍ ينذره الشركَ الذي رفضه، والكفرَ الذي حُذِّرَه، والبعدَ عن الله تعالى، الذي ستكون نهايته العذاب في النار، والعياذ بالله تعالى.

وذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل، لتكون له الحجة؛ في التذكير بالعهد، والتحذير من العذاب.

---

(١) سورة الأعراف (١٧٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين: باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، رقم (٥١).

قال الله عز وجل: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[2].

وكل ذلك حتى لا تكون للناس على الله سبحانه وتعالى حجة؛ بتطاول العهد، وبعد الزمن، ونسيان العهود والمواثيق، لذا أرسل الله سبحانه وتعالى الرسلَ تترى، في كل أمة وقرية، وإلا فإن الحجةَ لله تعالى على خلقه قائمةٌ، بما رَسَم من دلالات، وأظهر من علامات بيِّناتٍ، وأوجد من آياتٍ واضحات.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3].

وقال جل شأنه مبيناً عدم قيام حجة الناس على الله تعالى بعد إرسال الرسل عليهم السلام: ﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ...﴾[4].

فإرسال الرسل من قِبل الله تعالى، لتقوم بهم الحجة على الخلق، حتى الجن؛ فإن الحجةَ قائمةٌ عليهم أيضاً.

قال الله عز وجل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[5] لكن ما ينفعهم اعترافهم بعد فوات الأوان.

فلما اصطفى الله سبحانه وتعالى الرسل من البشر، ليبلِّغوا رسالاتِه للناس: أوجب سبحانه وتعالى على الناس طاعتهم، وامتثالَ أوامرهم، وحرَّم على الخلق معصيتَهم والكفرَ بهم.

---

(١) سورة الإسراء (١٥).
(٢) سورة القصص (٥٩).
(٣) سورة الأنعام (١٤٩).
(٤) سورة النساء (١٦٥).
(٥) سورة الأنعام (١٣٠).

والرسل قبل اجتبائهم واصطفائهم كمثل سائر الناس، فلما مُيِّزوا بالاصطفاء ونزول الوحي، صاروا رسلَ الله، المبلِّغين عنه شرعَه، وخُصُّوا بصفات، يحكم من يراهم من خلالها بصدقهم في دعواهم، فإن لم يصدِّقوا كان المنكِرُ عليهم كافراً، والذي يصدِّق بأقوالهم مؤمناً، والذي يمتثل أوامرَهم كان مطيعاً، والذي يخالف كان عاصياً، على حسب نوعية المخالفة.

هذا إذا كان المطيع والعاصي ينظر إلى الثواب والعقاب، أما إذا كان الدافع هو المحبة والرضا... فهذا أعلى شأناً، وأرفع مقاماً، وأجل قدراً... وهكذا شأن الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ.

وإذا كان الله تعالى قد أوجب على الأمم طاعةَ رسلهم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، فكيف الحال بالنسبة للنبي المصطفى المختار عليه وآله الصلاة والسلام؟، حيث ختم الله تعالى به الأنبياءَ والرسلَ، وختم بدينه الأديان، فأوجب على جميع الأنام الإيمانَ به وطاعتَه واتباعَه ونصرتَه... وهو أشرف المخلوقين، وأكرم الرسل والأنبياء، وسيد المرسلين والعالمين، ونبي الثقلين... عليه وعلى وآله الصلاة والسلام.

الطاعة نعمة من الله تعالى

إن الموفَّقَ من وفقه الله تعالى، والسعيدَ من أسعده الله تعالى وهو في بطن أمه، والله سبحانه وتعالى هوالهادي والموفِّقُ للخير، وإن من نعم الله عز وجل الكثيرة ـ ونعمُه سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى ـ أن يوفِّق عبادَه الصالحين لطاعته، وطاعةِ رسوله ﷺ.

لقد كان رسولُ الله ﷺ يبايع أصحابه الكرام رضي الله عنهم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، وعلى مناصرته ومؤازرته، والقيام بهذا الدين، وإبلاغِه... فذكَّرَ اللَّهُ سبحانه وتعالى عبادَه المؤمنين المبايعين بهذه النعمة ـ وهي البيعة على السمع والطاعة ـ وأن ذلك كله هو نعمة من الله تعالى،

وتوفيق منه جل شأنه.

قال الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

فيذكِّرهم الله تعالى بهذه المنة العظمى عليهم، وتلك النعمة الكبيرة، حيث هداهم للإسلام، وأرسل إليهم هذا الرسول الكريم، فأخذ عليهم من العهود والمواثيق، عندما بايعوه ﷺ على متابعته ومناصرته ومؤازرته... على السمع والطاعة، فقالوا: سمعنا ما عاهدْتَنا عليه، وأطعناك فيما أمرتنا ونهيتنا.

ويلاحظ قوله تعالى: ﴿... وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ...﴾ والرسول ﷺ هو المبايِعُ، وهو الذي يأخذ عليهم الميثاق، وذلك لأنه ﷺ لا ينطق من عند نفسه، وإنما هو الوحي الذي يوحى إليه، وهم يقولون: سمعنا وأطعنا.

ولهذا اعتبر الله عز وجل كلَّ ذلك نعمةً منه جل شأنه على عباده، وهذا دالٌّ على أن طاعته ﷺ واجبة لذاتها، فرسول الله ﷺ هو الذي يبايع، وهو الذي يأخذ الميثاق، والله تعالى يعتبر ذلك نعمة منه عز وجل على عباده المؤمنين، والله تعالى أعلم.

وسيأتي ذكر مبايعته ﷺ للصحابة الكرام رضي الله عنهم على السمع والطاعة، في موضعه إن شاء الله تعالى.

أمر الله تعالى بطاعته ﷺ

لقد وردت أيات كثيرة في كتاب الله عز وجل يأمر الله سبحانه وتعالى بها الناس ـ وعلى الأخص من آمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ ـ بطاعة رسوله وصفيه محمدٍ ﷺ.

---

(١) سورة المائدة (٧).

وقد جاءت صيغ الأمر بالطاعة بصور متعددة، يأتي بيانها في الفقرات التاليات.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[(١)].

حيث جاء في هذه الآيات عدد من الأوامر بطاعة رسول الله ﷺ، حيث جاءت الصيغة الأولى بصيغة المضارع وعطف اسم الرسول على لفظ الجلالة، وفي الثانية جاء الأمر بها مع عطف طاعة الرسول ﷺ على طاعة الله تعالى، وفي الصيغة الأخيرة جاء الأمر بطاعة الرسول ﷺ وهي الوحيدة المفردة، والله تعالى أعلم.

وقال الله عز وجل: ﴿ . . . أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ . . . ﴾ في آيات.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ . . . أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . . ﴾ في آيات. وسيأتي بيان ذلك في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

عطف طاعة الرسول ﷺ على طاعة الله تعالى

لقد جاءت آيات كثيرة فيها عطف طاعة رسول الله ﷺ على طاعة الله تعالى، ولكنها جاءت على حالتين.

---

(١) سورة النور (٥١ ـ ٥٦).

الأولى ـ عطف اسم الرسول على لفظ الجلالة:

وقد تنوعت هذه الآيات في سياقها.

(أ) عطف اسم الرسول على لفظ الجلالة، ولفظ الطاعة بصيغة الأمر:

قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢).

وقال جل شأنه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٣).

وقال جل وعز: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٤).

وقال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٥).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦).

بل وَرَدَ الخِطَابُ ـ بصيغة الأمر ـ مع عطف لفظ الرسول على لفظ الجلالة، للنساء خاصة، كما قال الله عز وجل: ﴿... وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ

---

(١) سورة آل عمران (٣٢).
(٢) سورة آل عمران (١٣٢).
(٣) سورة الأنفال (١).
(٤) سورة الأنفال (٢٠).
(٥) سورة الأنفال (٤٦).
(٦) سورة المجادلة (١٣).

﴿... وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ...﴾[1].

فالطاعة في هذه الآيات في أمور مختلفة؛ في العبادات، والمعاملات، والسلم، والحرب، والمصالح العامة للأمة، ومناجاة الرسول ﷺ، ثم في خاصية أهله من نسائه رضي الله عنهن.

(ب) ما ورد فيه لفظ الطاعة بصيغة المضارع، وهو يحمل معنى الأمر، مع عطف لفظ الرسول على لفظ الجلالة:

قال الله عز وجل: ﴿... وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[3].

وقال جل وعز: ﴿... وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[4].

وقال جل شأنه: ﴿... وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[5].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[6].

فمن صفات المؤمنين الصادقين المرحومين: الطاعةُ لله تعالى ولرسوله ﷺ، وهذا الإخبار من الله تعالى يحمل في طياته معنى الأمر بهذه الصفات.

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣).
(٢) سورة النساء (١٣).
(٣) سورة النساء (٦٩).
(٤) سورة الأحزاب (٧١).
(٥) سورة الفتح (١٧).
(٦) سورة التوبة (٧١).

(ج) ما ورد بصيغة الطلب مع عطف اسم الرسول على لفظ الجلالة:

قال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فالطاعة هنا في الإيمان، والاستجابة لأمر رسول الله ﷺ، فإن استجابوا وأطاعوا رسول الله ﷺ لطلبه الإيمانَ بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يُنقِص من أعمالهم شيئاً، بل سيفلحون في ذلك فلاحاً كبيراً، حيث يغفر لهم ربهم جل شأنه ويرحمهم، والله تعالى أعلم.

ففي جميع الآيات السابقات ـ وغيرها مما لم أذكره ـ عطَفَ اللَّهُ سبحانه وتعالى اسمَ (رسول الله) على اسمه تعالى (الله) بجامع الأمر بالطاعة، وهذا ـ وإن كان في غاية الإكرام للنبـي ﷺ، إذ لا نعلم أنه سبحانه وتعالى قرن اسمه تعالى مع اسم نبي من أنبيائه عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، سوى اسم نبيه المصطفى المختار محمد ﷺ، إلا أنه ـ يدل على أهمية العناية والحرص من الله تعالى بطاعة نبيه المصطفى ﷺ.

كما يدل على أن طاعةَ رسوله ﷺ داخلةٌ في طاعة الله تعالى، فهو الآمر بها سبحانه وتعالى.

ولما كانت السنةُ النبويةُ مع القرآن الكريم ثلاثةَ أقسام، فإن الذي يدخل منها في نطاق هذه الآيات القسمان الأولان، وهما:

١ ـ أن يأتي حكم في القرآن الكريم، فيأتي نفس الحكم وبنفس الصيغة في السنة النبوية.

٢ ـ أن يأتي النص في القرآن الكريم مجملاً مثل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾ ﴿. . . وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ . . .﴾ ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ فتأتي السنة مبينة مفسِّرةً

---

(١) سورة الحجرات (١٤).

موضِّحةً، أو تأتي مخصِّصةً لعامِّ القرآن، أو مقيّدةً لمطلقه... وهكذا، فالأخذ بالسنة أخذ بالقرآن الكريم، لأنها تابعة له، ولا تخرج عن حكمه، والله تعالى أعلم.

والثانية ـ هو عطف طاعة الرسول ﷺ على طاعة الله تعالى:

وهذا يعني عطف طاعة على طاعة، وقد جاءت نصوص متعددة أيضاً، أذكر بعضها:

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1].

فقط عطف الله تعالى طاعة الرسول ﷺ على طاعته تعالى، وأدخل طاعة أولي الأمر بطاعة رسول الله ﷺ، فليس لهم طاعة استقلالية، إنما هي فيما إذا جاءت وفق مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ، ولهذا لم يجز رد الأمر إليهم عند المنازعة، إنما يردّ إلى الله تعالى في كتابه الكريم، وإلى رسوله ﷺ ـ في حياته ـ وإلى سنته ﷺ بعد وفاته.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

وقال عز شأنه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3].

فطاعته ﷺ هداية، ومعصيته ضلال وغواية.

---

(١) سورة النساء (٥٩).

(٢) سورة المائدة (٩١ ـ ٩٢).

(٣) سورة النور (٥٤).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

وقال جل شأنه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2].

فهذا التحذير الشديد من المولى جل شأنه ﴿وَاحْذَرُوا﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يدل على خطورة الإعراض والمخالفة، وأن النبي ﷺ لن يتضرر هو نفسه بإعراض من أعرض، أو إدبار من تنكب، لأنه عليه البلاغ المبين، وقد بيَّنَ، وقد أَبْلَغَ، وأَشْهَدَ على البلاغ، وإنما الذي يتضرر هو المعرِض المخالِف العاصي.

وإذا عرف العاقل المدرِكُ أن الذي يتوعَّدُ ويُحَذِّرُ هو الله عز وجل، فكيف يكون تمسكُه بطاعة رسول الله ﷺ، وإقباله عليه، وابتعاده عن مخالفته ومعصيته؟

ولهذا عندما يدخل العصاة والكفار ـ الذين عصوا الرسول ﷺ في الدنيا ـ في نار جهنم، يتمنون لو أنهم أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ، حتى لا يروا هذا العذاب الأليم.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[3].

ففي هذه الآيات عطف طاعة على طاعة، وهذا يدل على وجود طاعة استقلالية لرسول الله ﷺ، وأعني بذلك وجوب طاعته ﷺ فيما سنَّ مما لم يرد في القرآن الكريم، بل جاء زائداً على ما في القرآن الكريم، وهذا هو سر إظهار لفظ «الطاعة» وعطف طاعة على طاعة، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة محمد (٣٣).

(٢) سورة التغابن (١٢).

(٣) سورة الأحزاب (٦٤ ـ ٦٨).

وذلك مثل «تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها» وتحريم نكاح المتعة، وتحريم أكل كلٍّ ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم أكل الحمر الأهلية، وتحريم أنواع من البيوع، وحل دمين وميتتين من سمك وجراد. . . الخ.

لذا فطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ متلازمتان لا تنفكان، فمن جحد واحداً منهما فقد جحد الآخر وكفر به، ولا يصح إيمان امرء حتى يقول بهما جميعاً، ولهذا ربط الله سبحانه وتعالى في عدد من الآيات بين الإيمان والطاعة، فيكون من لازم الإيمان الطاعة، كما أن من لازم الإيمان المحبة، لذا إذا كان الباعث على الطاعة هو المحبة كان أولى من أن يكون الباعث هو الخوف، وإن كانا لا بد من وجودهما معاً، والله تعالى أعلم.

كما يتضح من هذه الآيات الكريمة أن طاعة رسول الله ﷺ مطلوبة لذاتها، ولذا رتب عليها ـ كما سنرى إن شاء الله تعالى ـ كثيراً من الفوائد والثمرات، وعلى تركها كثيراً من العقوبات، كما سيأتي بيانه أيضاً إن شاء الله تعالى في فقرات تالية.

كما يلاحظ أن الطاعة في هذه الآيات ليست خاصة بأمة الإسلام فحسب، بل هي مطلوبة من جميع الخلق، وإلا لما لعنهم الله تعالى، وأخلدهم في النار، والعذابِ الأليم، ذلك لأنهم لم يطيعوا الله تعالى ورسولَه ﷺ ، ولكن اتبعوا كبراءهم وساداتهم. **إضافة إلى وجوب طاعته ﷺ على أمته، لكن غيرهم طولبوا بالإيمان به ثم بطاعته، وأما أمته ﷺ فباتباعه وطاعته. والله تعالى أعلم.**

أمر الجن بطاعته ﷺ

في النصوص القرآنية السابقة جاءت الأوامر الإلهية بطاعة رسول الله ﷺ عامة، وتشمل أمته بالخصوص. كما جاءت آية خاصة بالنساء ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ كذلك فإن الأمر جاء أيضاً للجن، ليشمل الأمرُ الإنسَ والجنَّ معاً.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

ففي هذه الآيات بيان ثواب وجزاء المؤمن المطيع: غفران الذنوب، والوقاية من العذاب الأليم. وأما الذي لا يجيب فليس بمعجز في الأرض، وليس له أولياء يحمونه من عذاب الله تعالى، لأنه في ضلال مبين.

وبهذا يكونون قد دعوا قومهم بالترغيب والترهيب، فأثَّر ذلك في كثير منهم، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً، كما جاء في عدد من الأحاديث. والله تعالى أعلم.

السمع له وطاعته ﷺ

إن حال المؤمن إذا دعاه رسول الله ﷺ أو ناداه أن يقول: سمعنا وأطعنا، وأما الكفار فيقولون: عصينا، ولهذا يثاب المؤمن على سماعه السماعَ الباعث على الطاعة، والناتج عن المحبة... والتقدير... والدافع له الإيمان. وقد كثرت النصوص في بيان ذلك، سواء بالأمر به، أو بالإخبار عن كون ذلك من صفات المؤمنين.

قال الله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وهكذا شأن المؤمن السماع والطاعة، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ

---

(١) سورة الأحقاف (٢٩ ـ ٣٢).
(٢) سورة التغابن (١٦).

﴿الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] بعد أن ذكر حال المنافقين الذين في قلوبهم مرض، المرتابين المشككين.

ولهذا اعتبر الله تعالى ذلك نعمةً على عباده المؤمنين من هذه الأمة، كما قال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[2].

وقد شهد الله سبحانه وتعالى لصحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم ـ بعد الإيمان ـ بالتسليم الكامل، والسماع والطاعة، فقال جل شأنه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[3].

وكل ذلك نعمة من الله تعالى على هذه الأمة، وإذا ما قارنّا ذلك بما حصل للأمم السابقة من عصيانهم لرسلهم لظهر الفارق الكبير في ذلك، فمن ذلك:

قال الله عز وجل عن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

وقال جل شأنه: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ

(١) سورة النور (٥١).
(٢) سورة المائدة (٧).
(٣) سورة البقرة (٢٨٥).
(٤) سورة البقرة (٩١ ـ ٩٣).

﴿وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

هكذا شأن الكافرين المعاندين، يستحقون اللعن والطرد من رحمة الله تعالى، أما المؤمنون فعلى العكس من ذلك، وما سُمِّيَ أصحابُ النبـي ﷺ ورضي الله عنهم ومن بعدهم من هذه الأمة بالمؤمنين إلا بكثرة إيمانهم، وكثرة تسليمهم لأمر الله تعالى، ولو كان الأمر شاقاً ـ بالنسبة لما يبدوا لهم ـ ثم يخفف الله تعالى عليهم، كما مر في آية سورة البقرة الأخيرة، والله تعالى أعلم.

ولهذا حذر الله سبحانه وتعالى هذه الأمة أن تتشبه بالكافرين والمنافقين، في تركهم لطاعة نبيهم المصطفى المختار ﷺ حيثما دعاهم ويدعوهم إلى الله تعالى، لأن هؤلاء ـ الكفار المعاندين ـ هم شر الخلق والخليقة، وعلى المؤمنين الطاعة والامتثال لأمر النبـي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[2].

ولهذا كان ﷺ يبايع الصحابة الكرام رضي الله عنهم على السمع والطاعة، ولما كان ﷺ رحمةً رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين؛ كان يلقنهم: قدرَ طاقتهم.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت النبـي ﷺ على السمع والطاعة، فلقنني: «فيما استطعت...» متفق عليه[3].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النساء (٤٦).

(٢) سورة الأنفال (٢٠ ـ ٢٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأحكام: باب كيف يبايع الإمام للناس. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٩٩).

على السمع والطاعة يقول لنا: «فيما استطعتم» رواه البخاري[1].

وقد كان ﷺ يبايع الصحابة رضي الله عنهم على السمع والطاعة في كل شيء، في العسر واليسر... الخ.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أَثَرَةٍ علينا...» الحديث متفق عليه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأَثَرَةٍ عليك» رواه مسلم[3].

وفي كل الأحوال كان الصحابة رضي الله عنه يوفون بما بايعوا، فيمتثلون ويطيعون، ويسمعون وينفذون، وإن كان ذلك يخالف ما كانوا قد اعتادوا عليه.

لما طلب الأنصار من رسول الله ﷺ أن يقسم بينهم وبين المهاجرين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ النخلَ، فقال رسول الله ﷺ: «لا» قالوا: سمعنا وأطعنا... الحديث، كما رواه البخاري[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولما طلب ﷺ من المسلمين الإحلال بعد طوافهم وسعيهم، قبل عرفة بأربعة أيام أو خمسة، قالوا: فحللنا، وسمعنا وأطعنا. كما رواه مسلم[5] من حديث جابر رضي الله عنه.

ولهذا سيرى المؤمن المتبع المطيع ثواب تلك الطاعة وذلك الامتثال ابتداء من

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأحكام: باب كيف يبايع الإمام للناس.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام: باب كيف يبايع الإمام للناس. وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية...، رقم (٤١، ٤٢).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية...، رقم(٣٥).

(٤) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ـ وفي غيرهما.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الحج: باب بيان وجوه الإحرام،... رقم (١٤١).

ساعة الموت وسؤال الملكين له في القبر، وانتهاء بالرفقة الصالحة ورضوان الله تعالى ورضاه في الجنة، وأقتصر على الأول هنا، وأرجىء الحديث عن ثمرات الطاعة إلى آخر البحث إن شاء الله تعالى.

فعن أسماء رضي الله عنها ـ في قصة صلاة خسوف الشمس، وفيه ـ قالت: فقال رسول الله ﷺ: «... وإنه قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور، قريباً ـ أو مثل ـ فتنة المسيح الدجال، فيؤتى أحدكم فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن ـ أو الموقن ـ فيقول: هو محمد، هو رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا، وأطعنا ـ ثلاث مرات ـ فيقال له: نعم، قد كنا نعلم إنك لتؤمن به، فنم صالحاً...» الحديث، رواه مسلم[1].

والمطيع للنبي ﷺ في نجاة ومأمن وحرز... في الدنيا والآخرة، حتى ينال رضا الله عز وجل ورحمتَه، وسعادته في الجنة، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

الأمر باتباعه ﷺ

إن من محبة النبي ﷺ اتباعَه، وطاعةَ أمره، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه، واتباع ما جاء به، فمن سلك سبيله، واقتفى أثره، ونهج مسلكه، وتعبَّد بطريقته، نال الفلاح، وحلت عليه محبةُ الله عز وجل، وغفر الله تعالى له ذنوبه، ونال مرافقة نبيه وصفيِّه ﷺ، ذلك أن الاتباع ناشيء عن المحبة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ

(١) صحيح مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (١١).

ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

فقد بين اللّهُ سبحانه وتعالى من ينال رحمتَه التي وسعت كل شيء، إنما هي للمتقين المؤمنين، الذين يتبعون الرسول الكريم، الموصوف في الكتب السابقة بصفات معلومة: أنه أمي، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع عنهم الشدة والضيق، بل جاء بالتيسير والسماحة... فالذين عظّموه ووقّروه ونصروه واتبعوا ما جاء به... هؤلاء هم المفلحون في الدنيا والآخرة.

ثم يأمر الله تعالى نبيه وصفيه ﷺ أن يعلن عموم رسالته، لأنه خاتم النبيين، الذي عظمه الله تعالى وشرفه... ثم يأمر الله تعالى الناس جميعاً بالإيمان به وبرسوله النبيِّ الأمي ﷺ، وباتباعه واقتفاء أثره، وسلوك طريقه ﷺ لعلهم يهتدون إلى الصراط المستقيم.

والاتباع يبدأ من الإيمان به، ثم يستمر في الاقتداء به، وسماع قوله، واعتناق فكره ورأيه، وسلوك طريقه، والإقبال عليه بالكلية، والتوغل في الاقتداء، لأن هذا هو معنى الاتباع، كما سيأتي بيانه.

وذلك لأن الله تعالى أخبرنا عن نبيه المصطفى ﷺ أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه، كما قال سبحانه وتعالى عنه: ﴿... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ...﴾[2] و ﴿... قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ..﴾[3] وليس متبعاً أهواء الناس، مهما

---

(١) سورة الأعراف (١٥٦ ـ ١٥٨).
(٢) سورة الأنعام (٥٠) وسورة يونس (١٥) وسورة الأحقاف (٩).
(٣) سورة الأعراف (٢٠٣).

كانوا، كما قال الله تعالى عنه: ﴿... قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ...﴾[1] لهذا أمر الله سبحانه وتعالى جميع الناس باتباعه ﷺ، لأن في اتباعه اتباعاً لله تعالى الذي أوحى إليه، وشهد له بذلك، فمن اتبعه ﷺ فقد اتبع ربه عز وجل، ولهذا جعل وصايته في اتباعه، وأثبت لهم الهداية والفلاح: ﴿... وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ و﴿... ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

لقد جعل الله تعالى نبيه ﷺ حادياً يحدو بأمته لاتباعه وطاعته والسلوك خلفه، لأنه دليل يسلك بهذه الأمة في الدروب الصعبة المسالك، وفي المتاهات التي لا يعلمها إلا من اتبعه وسلك سبيله، ينهج بها صراط الله المستقيم، كما قال تعالى: ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ...﴾[3] فمن مشى خلفه، واتبع سبيله، وسلك مسلكه... نجا وسعد، ومن حاد عنه، واتبع غير منهجه، وسار غير مسيره... ضل وهلك ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾[4] فوحَّد صراطَه لأنه واحد، وطريق الحق واحد، وجَمَع السُّبل لأنها متشعبة متفرقة، كالظلمات كثيرة، وأسبابها متعددة،

(١) سورة الأنعام (٥٦).
(٢) سورة الأنعام (١٥١ ـ ١٥٣).
(٣) سورة الشورى (٥٢ ـ ٥٣).
(٤) سورة الأنعام (١٥٣).

والله تعالى يُخرِجُ من الظلمات المتعددة إلى النور الواحد، بينما الطاغوتُ يُخرِج أتباعَه من النور الواحد إلى الظلمات المتعددة ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

إن صوته ﷺ ينادي في أعماق الكون دائماً ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ لتنالوا ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ﴾ وهذه سعادة لا تقابلها سعادة، في الدنيا والآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

فهذا الميزان الشرعي الدقيق ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ يزان به مُدَّعي الإيمان ومحبة الله تعالى، ولا ينجح فيه إلا المتَّبِع، كامل الاتباع له ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال والأخلاق... فمن حاد فقد طف به الميزان.

وهذا الحال الذي ظهر به ﷺ بهذا المقياس، هو الذي كان قد طبقه عملياً مع أصحابه رضي الله عنهم، فهو إمامُهم وهم مأمومه، هو قدوتُهم وهم تابعوه، هو قائدُهم وهم جنوده، هو سيدُهم وهم مرافقوه، هو أمامهم وهم وراءه... فهو القدوة والأسوة... في كل شيء... لذا كان يطلب منهم ﷺ أن يقتدوا به، ويرقبوا فعله، حتى يفعلوا مثل ما فعل.

فعن أبـي حازم [سلمة] بن دينار رحمه الله قال: سألوا سهلَ بنَ سعدٍ رضي الله عنهما: من أي شيء المنبر؟ فقال: ما بقي في الناس أعلم مني، هو من أَثْل الغابة، عمِلَه فلانٌ ـ مولى فلانة ـ لرسول الله ﷺ، وقام عليه رسول الله ﷺ ـ حين عمل ووضع ـ فاستقبل القبلة، كبَّر، وقام الناس خلفه، فقرأ، وركع، وركع الناس خلفه، ثم رفع رأسه، ثم رجع القهقرى، فسجد على الأرض، ثم عاد إلى المنبر، ثم ركع، ثم رفع رأسه، ثم رجع القهقرى، حتى سجد بالأرض،

---

(١) سورة البقرة (٢٥٧).
(٢) سورة آل عمران (٣١ ـ ٣٢).

ثم عاد، حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس إني صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بـي، ولتعلموا صلاتي» متفق عليه، واللفظ للبخاري[1] من موضعين.

وعن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . صلوا كما رأيتموني أصلي. . . » متفق عليه[2]، وهذا اللفظ للبخاري، وهو جزء من حديث طويل.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: رأيت النبـي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه» هذا لفظ مسلم[3].

وعند أهل السنن وأحمد: «خذوا عني مناسككم».

وقد نفذ الصحابة رضي الله عنهم ذلك بكل دقة، حيث علموا من أوامر الله تعالى أنه ﷺ قدوتهم وإمامُهم ومتبوعُهم. . . وأنه ﷺ المبيِّن لهم عن الله تعالى معنى ما أراد جل شأنه. . . لذا وصل بهم الأمر في الاتباع والامتثال الحد الأقصى والأكمل، الذي لا يدانيه ولا يقاربه فعلُ أتْباعِ نبـيٍّ من الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام. اتبعوه ﷺ، ولو لَم يطلب ذلك منهم بقوله ﷺ صراحة، بل يكفي عندهم للاتباع هو فعله ﷺ لا غير، فإذا رأوه فعل شيئاً فعلوه، لا لشيء، إلا لأنه ﷺ قد فعله، حتى لو لم يعرفوا علة لذلك.

فعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما كان رسول الله ﷺ يصلي

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب الصلاة على السطوح والمنبر والخشب، وكتاب الجمعة: باب الخطبة على المنبر. وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، رقم (٤٤ ـ ٤٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأذان: باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة. وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب من أحق بالإمامة، رقم (٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الحج: باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، رقم (٣١٠).

بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فخلعوا نعالهم، فلما قضى صلاته قال: «ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟» قالوا: رأيناك خلعت فخلعنا... الحديث رواه أحمد وأبو داود، والطيالسي، وابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وإسحاق بن راهويه، وابن سعد، وأبو يعلى، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، وأقره الذهبي، وغيرهم[١].

ولما سئل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر الأسود قال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويُقَبِّلُه، قال: قلت: أرأيتَ إن زُحمتُ، أرأيتَ إن غُلبتُ؟ قال: اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويُقَبِّلُه. رواه البخاري[٢] وغيره.

ولهذا كان رضي الله عنهما يستلمه، ثم يضع شفتيه عليه طويلاً ـ كما رواه الشافعي ـ وما تركه منذ رأى رسول الله ﷺ يفعله، حتى في وقت الزحام، وإن أدى ذلك إلى خروج الدم من أنفه رضي الله عنه، وكأنه كان لا يرى الزحام عذراً في تركه، رضي الله عنهما[٣].

بل قد يفعلون شيئاً ـ وإن لم تظهر حكمته ـ إنما هو الاتباع والاقتداء.

ويمثل هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما خاطب الحجر الأسود: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت

---

(١) مسند أحمد (٣: ٢٠، ٩٢) وسنن أبي داود: كتاب الصلاة: باب الصلاة في النعلين، رقم (٦٥٠) وسنن الدارمي: كتاب الصلاة: باب الصلاة في النعلين (١ : ٣٢٠) ومسند الطيالسي (٢٨٦ رقم ٢١٥٤) ومصنف ابن أبي شيبة (٢: ٤١٧) ومصنف عبد الرزاق (١ : ٣٨٨) ومسند عبد بن حميد (٢٧٨ رقم ٨٨٠) ومسند أبي يعلى (٢: ٤٠٩) والطبقات الكبرى (١ : ٤٨٠) وصحيح ابن خزيمة (٢:١٠٧) وصحيح ابن حبان (٣: ٣٠٦) والموارد، رقم (٣٦٠) والمستدرك (١ : ٢٦٠) والسنن الكبرى للبيهقي (٢: ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٣١) والعلل لابن أبي حاتم (١ : ١٢١) ونصب الراية (١ : ٢٠٨) والتلخيص الحبير (١ : ٢٧٨).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الحج: باب تقبيل الحجر، ورواه الترمذي والنسائي.

(٣) انظر فتح الباري (٣: ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

رسول الله ﷺ استلمك ما استلمتك، **فاستلمه. متفق عليه.**

وفي رواية ـ لهما ـ ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

ثم قال: ما لنا وللرَّمَل؟ إنما كنا راءينا به المشركين، وقد أهلكهم الله، ثم قال: شيء صنعه النبي ﷺ، فلا نحب أن نتركه، متفق عليه. واللفظ للبخاري[1].

بل من اتباعهم رضي الله عنهم أنهم يقولون: إنما نفعل ما فعله ﷺ، لأنهم كانوا ضُلّالاً فهداهم الله به، وجُهّالاً فعلَّمهم الله به، لذا فهم متّبعون، وليسوا مبتدعين، مقتفون وليسوا مخترعين، رضي الله عنهم، ويوضح هذا المعنى قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فعن أمية بن عبد الله بن خالد رحمه الله أنه قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر في القرآن، فقال عبد الله بن عمر: يا ابن أخي، إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً ﷺ، ولا نعلم شيئاً، وإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل. رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه، والبيهقي، ورواه مالك وأحمد[2] من طريقه بإسناد فيه انقطاع أيضاً، لكن يعضده الأول.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج: باب الرمل في الحج والعمرة، وباب تقبيل الحجر. وصحيح مسلم: كتاب الحج: باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، رقم (٢٤٨ ـ ٢٥٠).

(٢) مسند أحمد (٢: ٦٥ ـ ٦٦، ٩٤) وسنن النسائي: كتاب تقصير الصلاة: الباب الأول (٣: ١١٧) وسنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة: باب تقصير الصلاة في السفر، رقم (١٠٦٦) وصحيح ابنِ خزيمة (٢: ٧٢ رقم ٩٤٦) والمستدرك (١: ٢٥٨) وقال: رجاله مدنيون ثقات، ولم يخرجاه. وأقره الذهبي. وصحيح ابن حبان (٣: ٦) (٤: ١٧٩) والموارد (٥٦ رقم ١٠١) والموطأ (١: ١٤٥ ـ ١٤٦) والسنن الكبرى للبيهقي (٣: ١٣٦) وانظر: التقصي (١٥٠ رقم ٤٧٤).

وفي لفظ للنسائي[1] أنه قال لابن عمر رضي الله عنهما: كيف تقصر الصلاة، وإنما قال الله عز وجل: ﴿... فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ...﴾؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: يا ابن أخي، إن رسول الله ﷺ أتانا ونحن ضُلّال، فعلَّمنا، فكان فيما علمنا؛ أن الله عز وجل أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر. اهـ.

ومما يدخل في هذا المعنى رواية الأحاديث المسلسلة، والتي يرويها الصحابة رضي الله عنهم، كما صدر ذلك عن النبي ﷺ من تبسم، أو حركة، أو فعل، أو قول، أو حالة، أو قراءة... ونحو ذلك، وقد اعتنى علماء الحديث بذكر المسلسلات، وألَّفوا فيها كتباً[2] وإن كان الصحيح المسلسل قليلاً، والله تعالى أعلم.

والنصوص في هذا المعنى كثيرة، ذكرت كثيراً منها في «نشأة علم المصطلح» وذكرت حالهم رضي الله عنهم معه ﷺ في «الشوق إلى رسول الله ﷺ...» وفي «بدعة دعوى الاعتماد على الكتاب دون السنة» والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

والاتباع: من تَبِع، وهو التُّلُوّ والقَفْوُ، يقال: تبعت فلاناً إذا تلوته، واتبعته وأتبعته إذا لحقته، وقال أبو زيد: يقال: تابع الرجل عمله إذا أتقنه وأحكمه، وتتبعت الشيء تتبعاً إذا تطلبته متتبعاً له.

والاتباع[3]: التوغل والتمحض فيه والإقبال عليه بالكلية.

---

(١) سنن النسائي: كتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة (١: ٢٢٦).

(٢) انظر المناهل السلسلة في الأحاديث المسلسلة، للشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري رحمه الله فقد جمع (٢١٢) مسلسلاً.

(٣) تفسير أبي السعود (١: ٢٢٣ ـ ٢٢٤) روح البيان (١: ١٩٠) روح المعاني (١: ٣٣٧) معجم مقاييس اللغة (١: ٣٦٢ ـ ٣٦٣) مجمل اللغة (١: ١٥٣) الصحاح (٣: ١١٨٩ ـ ١١٩٠) لسان العرب (٨: ٢٧ وما بعد) غريب الحديث لأبي عبيد (٤: ١٧٢ ـ ١٧٣) كتاب الغريبين (١: ٢٤٦).

وقال أبو حيان: معنى اتَّبعوا، أي اقتدوا به إماماً، أو فضّلوا ـ لأن من اتبع شيئاً فضّله ـ أو قصدوا اهـ.

فالاتباع إذا: هو الإقبال على الشيء بالكلية، والتوغل في الاقتداء والقفو، مع تفضيل المتَّبَع.

فهو السير وراءه، وفعل أفعاله، والاقتداء بكل تصرفاته، وقُفو أثره، وإتقانُ أحواله، وعدم الخروج عنه، فيسير حيث يسير، ويقف حيث يقف، ويفعل نفس الفعل، ويتلفظ نفس اللفظ... مع إتقان ذلك وإحكامه، وعدم الخروج عنه، أو العنود عن الاتصاف بكل ما جاء به وعنه... وكل ذلك يدل على شدة الملازمة، والتوغل بالاتصاف، والإخلاص في الاقتداء، ومنح الإرادة، حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به المتبوع... وكل ذلك يكون في صغائر الأمور كما يكون في عظائمها... فمن خالف ذلك كان ناقص الاتباع.

ويوضح هذا المعنى قوله عليه وآله الصلاة والسلام ـ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتفق عليه[1]: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لسلكتموه» وعند مسلم «لاتبعتموهم».

فإنهم لشدة اقتفائهم آثارهم، واتباعهم طرائقهم، ودقة اتصافهم وتوغلهم في ملازمتهم، لو دخلوا في مثل هذا الضَّيِّق الرديء لتبعوهم ـ كما قال الحافظ رحمه الله.

والمراد بالشبر والذراع والجحر، التمثيل لشدة الموافقة لهم، كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى.

وبهذا يتضح معنى الاتباع، حتى لو دخلوا في الجحر الضيق المتعرج لتبعوهم ودخلوا فيه، بل لو نكح أحدهم زوجه على قارعة الطريق لفعلتموه ـ كما في

---

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب العلم: باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٦).

حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الحاكم وغيره بسند صحيح أيضاً.

ولذا هناك فرق **بين الاتباع والطاعة**، إذ الطاعة مرتبطةٌ بالأمر والنهي، وقد يكون الحامل عليها الخوف من العقوبة، وقد يكون المحبة، أما الاتباع فلا حامل له إلا نفس المتَّبِع محبةً ورغبةً وتقليداً... ويوضح التفريق قول الله عز وجل على لسان هرون عليه السلام: ﴿... وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾[1] حيث أمر باتباعه وطاعة أمره، والعطفُ يقتضي المغايرة، والله تعالى أعلم.

ولهذا أوجب الله سبحانه وتعالى لمتبِع النبي ﷺ محبتَه سبحانه وتعالى لذلك المتبِع، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] ولهذا أردفها الله سبحانه وتعالى بالأمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾[3] وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

فبالنسبة للمسلم المؤمن الموقن لا بد من الاثنين: الاتباع - ويكون نابعاً من نفسه: محبة ورغبة وتقليداً... والطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ - سواء كانت محبة ورغبة، أو خوفاً من العقاب الدنيوي والأخروي. والأول أولى وأنفع وأجدى. والله تعالى أعلم.

الأمر بالأخذ بما جاء به ﷺ

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى على جميع المسلمين اتباع أمر رسول الله ﷺ، والانتهاء عند نهيه ﷺ، وتوعد الله تعالى المخالفين بأنه شديد العقاب.

قال الله عز وجل: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ

(١) سورة طه (٩٠).
(٢) سورة آل عمران (٣١).
(٣) سورة آل عمران (٣٢).

﴿ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يشمل الأمر من قول أو فعل أو تقرير، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ﴾ سواء كان النهي فعلاً أو كان قولاً، فعلى المسلم الاجتناب في حال النهي، والاتباع والطاعة في حال الأمر، وإلا كان عاصياً، ومن خالف وعصى ـ في الأمر والنهي ـ فليحذر عذاب الله تعالى فإنه شديد، كما ختم الله تعالى به الآية.

كما أنه لا يشترط وجود ما يأمر به ﷺ أو ينهى عنه في القرآن الكريم، لأن ما يأتي وما ينهى عنه عام، و «ما» شاملة لكل ذلك.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كُراعَ الغَميم، فصام الناس، [فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من الماء بعد العصر] فرفعه، حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة. . .» رواه مسلم[2].

فهو ﷺ لم يأمرهم بالفطر لفظاً، لكن لما قيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام. . . أفطر، فكان فعله ﷺ أبلغ في الأمر من اللفظ، فلهذا لما لم يفطر هؤلاء ـ وقد شق عليهم الصيام ـ قال عنهم ﷺ: «أولئك العصاة. . .» لأنهم خالفوا الأمر الذي صدر بالفعل وهو فطره، حيث ما أفطر إلا لكونهم شق عليهم، فلما أفطر لم يفطروا.

وما أمر به ﷺ طلب أن نأتي منه قدر الطاقة، أما النهي فيجب اجتنابه بالكلية، وذلك لأن النهي كله مقدور، وهو محظور، فلا يصح تجزئته، أما الأمر فيؤتى منه قدر الطاقة، وهذا تخفيف.

---

(١) سورة الحشر (٧).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصيام: باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية. . .، رقم (٩٠ ـ ٩١) وما بين المعكوفتين فهو رقم (٩١).

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من قبلكم سؤالهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» متفق عليه، واللفظ للبخاري[1].

وهكذا استدل الصحابة رضي الله عنهم بهذه الآية الكريمة ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ . .﴾ على حجية السنة، فقد روى الشيخان ـ واللفظ لمسلم[2] ـ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلِّجات للحسن، المغيرات خلق الله» قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته، فقالت: ما حديث بلغني عنك؟ أنك لعنت الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلِّجاتِ للحسن، المغيرات خلق الله» فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل: ﴿. . . وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ . . .﴾[3] . . . الحديث.

إن الإنسان مهما بلغ من الكمال، فإنه لن يصل إلى مستوى يسلِّم له الناس التسليم الكامل، في أمره ونهيه، وذلك لعدم العصمة، وعدم تأييده بوحي السماء، فلما خص الله سبحانه وتعالى نبيه ومجتباه محمداً ﷺ بذلك، أوجب علينا الطاعة التامة له، والتسليم الكامل، والأخذ بكل ما جاء به ﷺ، واجتناب كل ما نهى عنه، كما أباح له أن يشرِّع ما يريده الله تعالى، ويوحيه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب توقيره ﷺ، وترك كثرة سؤاله. . .، رقم (١٣٠ ـ ١٣١).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الحشر: باب ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وصحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة: باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، . . . رقم (١٢٠).

(٣) سورة الحشر (٧).

إليه، وما على الناس إلا الاتباع والامتثال، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى رسوله المصطفى ﷺ الحَكَمَ الفَصْلَ، والميزانَ الدقيقَ، فما آتاكم به فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه، وبهذا الميزان يزين المسلِمُ نفسَه.

إن الله عز وجل حينما أمر الناس بطاعة رسوله وصفيه ﷺ والأخذ بما جاء به، لم يحدد لنا المواطن التي تقع فيها الطاعة والامتثال، والأخذ والالتزام، وإنما من سياق الآيات الكريمات يتضح لنا أن الأمر بالطاعة عام في جميع الأمور، والأحوال، والأزمان، والأماكن... فهي في صغار الأمور وجلائلها، في التصرفات والأهواء، هي في العقيدة كما في الأحكام، هي في العبادات كما في المعاملات، هي في الأخلاق كما في الرغبات، هي في السلم كما في الحرب... هي في الأمر كما في النهي، هي في الحسنة كما في السيئة، هي في الطاعة كما في المعصية... هي في أمور الدنيا والمعاش كما في أمور الآخرة والمعاد... هي في كل شيء، في الرضا والسخط، والغضب والحلم، والغنى والفقر... لأن الله سبحانه وتعالى جعله المثل الأعلى، والقدوة المثلى، والأسوة الحسنة... صلوات الله تعالى وسلامه عليه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وجوب الرد إلى حكمه ﷺ عند التنازع

ومن طاعته ﷺ الرجوع إليه ﷺ إذا حصل نزاع بين المؤمنين الذين يؤمنون به ﷺ كما يؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[١].

(١) سورة النساء (٥٩).

فقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ، وطاعتُه سبحانه وتعالى إنما هي باتباع كتابه الكريم، واتباعِ نبيه ﷺ المبلِّغ عنه، وطاعةُ رسوله ﷺ إنما هي: باتباع أمره ونهيه في حالَ حياته، ولِسُنته بعد وفاته ﷺ. وكل ذلك شرط الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ . . . إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ . . .﴾ ولا جواب إلا ذلك، ولا تأويل إلا هذا.

فإذا حصل نزاع بين المؤمنين، أو بينهم وبين ولاة أمورهم؛ فليردوا ذلك إلى كتاب الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ في حال حياته ليقضي بينهم، هذا إذا كانوا حاضرين عنده، أما إذا كانوا غائبين عنه ولم يعرفوا الحكم سألوا رسول الله ﷺ إذا رجعوا إليه، أو من وصل منهم إليه، ثم إلى سنته ﷺ في حال حياته إذا عرفوها، وكذا بعد وفاته، وذلك لأن السنة موجودة، حضر أم غاب، كما أن الرجوع إلى الله تعالى هو الرجوع إلى كتابه الكريم، وهذا هو الفرض الذي لا منازعة فيه، والذي أحكمه الله عز وجل. كما سيأتي بيانه في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

ومن الملاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى عندما تكلم عن الطاعة، أمر بطاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله ﷺ، فعطف الطاعة على الطاعة، دلالة على أن طاعة رسوله ﷺ ليست مشروطة، لأنه ﷺ مبلِّغٌ عن الله تعالى ما يريد، فقوله حجة في دين الله. ولكن لما ذكر طاعة أولي الأمر، عطفها على طاعة رسوله ﷺ، لأنها مشروطة بطاعتهم له ﷺ وعلى وفق ما يريد.

ولكن لما تكلم المولى عز وجل عن المنازعة، وأنه لا بد من رجوعٍ إلى حكم، لم يذكر «أولي الأمر» وإنما قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ بواو العطف، ولم يقل: «وإلى الرسول» لأن الذي يحكم هو رسوله ﷺ، وهو حُكْم الله تعالى الموحى به إليه، لأنه لا ينطق عن الهوى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، وجعلنا جميعاً من أتباعه وأحبابه.

لا خيار مع قضائه ﷺ

لقد جعل الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ ـ عدا عن كونه **مبلِّغاً** عنه تعالى ورسولاً له سبحانه وتعالى ـ فهو حاكم يحكم بين المسلمين، ويقضي بينهم عند التنازع، بما أراه الله عز وجل.

فقد نفى سبحانه وتعالى صفة الإيمان عمن لم يُسلِّم لأمر النبـي ﷺ، ويذعن لحكمه وقضائه، لأن معصيته ضلال مبين، وخروج ومروق من الدين.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

فليس لهم اختيارُ خلاف أمر رسول الله ﷺ، وما ذاك إلا لأنه نبـي الله ورسولُه، مؤيَّدٌ بالوحي، ومصدَّقٌ من قبل ربه عز وجل، ومسدَّد، لا يحكم عن هوى ولا رغبة، لذا لم يبح المولى جل شأنه لأحد من المؤمنين أن يخالف حكمه أو أمره ﷺ، **لأن مخالفة أمره ﷺ معصية، وهي ضلال مبين.**

وإذا كان العلماء قد اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، هل هي في قصة **خِطبة زينب بنت جحش من زيد بن حارثة رضي الله عنهما، أو تزويجه ﷺ أم كلثوم بنت عقبة بن أبـي معيط من زيد بن حارثة بعد تطليقه زينب، أو خطبة** النبـي ﷺ امرأة من الأنصار على جليبيب رضي الله عنه. فإن العبرة بعموم اللفظ **لا بخصوص السبب. ولهذا استدل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بهذه** الآية على طاووس رحمه الله تعالى عندما رآه يصلي ركعتين بعد العصر، فنهاه عنهما، فقال طاووس: إنما كُرهت أن تُتخذ سُلَّماً، فقرأ ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، ثم قال له: لا أدري تعذب عليها أم تؤجر، كما رواه الشافعي وعبد الرزاق والدارمي والبيهقي والخطيب[2].

---

(١) سورة الأحزاب (٣٦).

(٢) الرسالة (٤٤٣ رقم ١٢٢٠) مصنف عبد الرزاق (٢: ٤٣٣) سنن الدارمي (١: ٩٥) السنن الكبرى للبيهقي (٢: ٤٥٣) الفقيه والمتفقه (١: ١٤٦ ـ ١٤٧) وانظر الدر المنثور (٥: =

فإذا حكم الله تعالى ورسوله ﷺ بشيء، فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد في ذلك، ولا رأي ولا قول، بل الخيار لله ولرسوله ﷺ فيما يقضي ويحكم، وعلى المسلم التسليم الكامل، والاتباع الكامل، وإلا كان عاصياً، والعصيان ضلال مبين، والله تعالى أعلم.

وجوب التسليم لحكمه ﷺ

وكما جعل الله سبحانه وتعالى نبيه ومصطفاه ﷺ قاضياً، وألزم المسلمين بالأخذ بقضائه، وطاعته فيما قضى، وحرم معصيته... كذلك جعله سبحانه وتعالى حاكماً يحكم بين الناس فيما أراه الله عز وجل... فإنه سبحانه وتعالى نفى **صفة الإيمان عمن لم يُحَكِّم رسوله ﷺ، وإذا حَكَّمَه ﷺ فعليه أن يُسلِّم لحكمه، ولا يجد في نفسه حرجاً فيما حكم، ويسلم التسليم الكامل له.**

وذلك لأنه ﷺ نبي ورسول، مؤَيَّد بالوحي، ومسَدَّد بالأمر الإلهي، وهو معصوم من الخطأ والزلل... بينما الآخرون يخطئون ويصيبون، ويطيعون ويعصون... ويتمردون ويُحفظون... والحافظ من حفظه الله وعصمه، وسدَّده وأيده، والله غفور رحيم.

وقد جعل سبحانه وتعالى من علامات الإيمان السمع والطاعة لحكم رسوله ﷺ، بخلاف غيرهم.

قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[١].

فقد نفى صفة الإيمان عمن لم يُحَكِّم رسوله ﷺ، وقد ورد القَسَمُ على ذلك مع التأكيد عليه ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾ وليس التحكيم فحسب، بل

= ٢٠١) وتفسير ابن كثير.

(١) سورة النساء (٦٥).

رفع الحرج من النفوس عند سماع الحكم، والتسليم الكامل له ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وذلك منتهى الرضا.

وإذا قارنا هذه الآية الكريمة التي نفى الله سبحانه وتعالى فيها الإيمان عمن لم يُحَكِّم رسوله ﷺ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ...﴾(١) يتضح لنا أن الحكم لله تعالى، وأن النبي ﷺ هو الذي يحكم بينهم بما أراه الله عز وجل، حيث يجريه سبحانه وتعالى على يد رسوله ﷺ، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾(٢)، فالحكم لله تعالى، أراه رسولَه ﷺ وأجراه على يديه، يحكم به بين الناس، فمن لم يطعه فقد عصى الله تعالى، ولهذا نفى عنه صفة الإيمان، وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ولهذا جعل من صفة المؤمنين إذا دعوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم هو السمع والطاعة، بخلاف المنافقين الذين من علاماتهم الإعراض عن تحكيم رسول الله ﷺ.

قال الله عز وجل عن الفريقين في حال دعوتهما إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الشورى (١٠).
(٢) سورة النساء (١٠٥).
(٣) سورة النور (٤٧ ـ ٥٢).

فالمؤمنون مسلِّمون تسليماً مطقاً، ومطيعون طاعة معتبرة واضحة، مبنية على قواعد صحيحة سليمة، هي كون الداعي لهم أنه رسول الله، مبلِّغ عن الله، مؤيَّد بالوحي، معصوم بعصمة الله تعالى، حكمه هو حكم الله تعالى يريه إياه، فينطق به. . . صلوات الله وسلامه عليه.

ونلاحظ هنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الحالتين، والحاكم بينهم هو رسول الله، حيث أفرد الضمير ولم يثنه، والله تعالى أعلم.

بينما المنافقون والذين في قلوبهم مرض يتحاكمون إلى الطاغوت ـ وهم قد أُمروا أن يكفروا به ـ ويصدون عن رسول الله ﷺ، لذا فهم في ضلال مبين، فهؤلاء يعلم الله تعالى ما في نفوسهم من النفاق، وسيجزيهم على نفاقهم وإعراضهم.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا * فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾(١) فإذا دعوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم، فبدلاً من أن يقولوا سمعنا وأطعنا ـ كما هو حال المؤمنين المسلمين المطيعين ـ يصدون ويعرضون إعراضاً شديداً كالمستكبرين عن ذلك.

وهؤلاء حالهم كحال المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ . . .﴾(٢).

---

(١) سورة النساء (٦٠ ـ ٦٣).

(٢) سورة لقمان (٢١) وانظر سورة البقرة (١٧٠).

ولهذا أقسم الله تعالى بذاته الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّمَ الرسولَ ﷺ في جميع الأمور، وما حكم به ﷺ هو الحق الذي يجب الانقياد إليه باطناً وظاهراً، ومن حَكَّمَهُ ﷺ فليطعه في باطنه ـ فضلاً عن ظاهره ـ ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ﷺ، ويسلِّم له تسليماً كلياً، وينقاد له ظاهراً وباطناً، فإذا لم يكن كذلك بحيث مانع أو نازع أو دافع، فإيمانه ناقص بقدر تلك المنازعة والمخالفة، حتى تصل به إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

وإذا نظرنا إلى سبب نزول آية النساء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ. . . ﴾ الآية، عرفنا ذلك.

فعن عروة بن الزبير [عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما[1]] أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شِراج الحرة التي يَسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرِّح الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فغضب الأنصاري فقال: إن كان ابنَ عمتك، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْرِ» فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ. . . ﴾ متفق عليه[2].

وشراج الحرة: مفرد شَرَج، ويقال: شرجة، والمراد به مسيل الماء، وأضيفت إلى الحرة لكونها فيها. والحرة موضع معروف بالمدينة، منها شرقية ومنها غربية، وهي أرض ذات حجارة سود.

وما صدر من هذا الأنصاري، لو صدر مثلُه من أحد اليوم في حق

---

(١) انظر الاختلاف في الراوي هل هو عروة عن الزبير، أم هو عروة عن أخيه عبد الله عن أبيهما الزبير رضي الله عنهم، الفتح (٥ : ٣٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المساقاة: باب سَكر الأنهار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب وجوب اتباعه ﷺ، رقم (١٢٩).

النبي ﷺ، أو في حق الشريعة لقتل قِتْلة زنديق، كما قال القرطبي، ونقل نحوَه النووي رحمه الله عن العلماء[1]. لأنه مرتد، وتجري عليه أحكام المرتدين، فيجب قتلُه بشرطه. قالوا: وإنما تركه ﷺ لأنه كان في أول الإسلام، يتآلف الناس، ويدفع بالتي هي أحسن، ويصبر على أذى المنافقين... ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه».

ولهذا قال الداوودي رحمه الله: إن هذا الرجل كان منافقاً، وقوله في الحديث: إنه أنصاري لا يخالف هذا، لأنه كان من قبيلتهم، لا من الأنصار المسلمين، والله تعالى أعلم.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أقسم على نفي الإيمان عمن لم يحكِّم رسولَه ﷺ، ويرضى بحكمه ظاهراً وباطناً، ولا يجد حرجاً في نفسه، ويسلِّم تسليماً كاملاً... فإن هذا دال على وجوب طاعته ﷺ والامتثال لأمره، والاقتفاء بفعله... ﷺ. ومن لم يفعل فقد ضل وخسر، والله تعالى أعلم.

وجوب الاستجابة لدعوته ﷺ

لقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالاستجابة لرسوله ﷺ، وعدم العنود عنه، لأن في الاستجابة له ﷺ حياةً للمستجيب.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2].

فالمنادي هو رسول الله ﷺ، والمجاب هو الله تعالى، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ حيث أفرد الضمير، ولم يثنه، ليعلم أن المراد هو الاستجابة الواحدة، فمن استجاب لرسول الله ﷺ كان مجيباً لله تعالى قبلاً وحقيقة، لأنه ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى، فمن أطاعه ﷺ كان مطيعاً لمن أرسله، ومن استجاب له ﷺ كان مجيباً لمن أرسله...

---

(١) انظر شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١٥ : ١٠٨) وفتح الباري (٥ : ٤٠).
(٢) سورة الأنفال (٢٤).

ولهـذا كـان ﷺ ينبـه أصحـابـه رضي الله عنهـم إذا أبطـؤوا بـالإجـابـة لدعوته ﷺ بأنه ما كان لهم الإبطاء، وعليهم الإسراع، حتى لو كانوا في الصلاة، لأن طاعته واستجابة أمره... ﷺ واجبة على الفور، أما الصلاة مثلاً فوقتها موسع، وهي خاضعة لطاعته وامتثال أمره ﷺ.

فعن أبـي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي [في المسجد] فمر بـي رسول الله ﷺ، فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقال: «ما منعك أن تأتي؟» [فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال]: «ألم يقل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ... ﴾» ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺليخرج، فذكرت له، فقال: «الحمد لله رب العالمين، السبع المثاني» رواه البخاري(١).

وفي رواية ثانية له: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورةٍ في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أُبـيٍّ بن كعب وهو يصلي، فقال: «يا أُبـي» فالتفت، فلم يجبه، ثم صلى أُبـيٌّ فخفَّفَ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أي رسول الله، قال: «وعليك السلام» قال: «ما منعك أي أُبـيّ إذ دعوتك أن تجيبني؟» قال: أي رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أَفلست تجد فيما أَوْحى اللّهُ إليَّ أن ﴿... ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» قال: قلت: بلى أي رسول الله، لا أعود، قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب ما جاء في فاتحة الكتاب. وسورة الأنفال: باب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... ﴾، وسورة الحجر، باب ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾، وفي غيرها أيضاً.

الفرقان مثلها؟» قال: قلت: نعم أي رسول الله... ثم ذكر نحو الحديث السابق. رواه أحمد والترمذي ـ وصححه ـ والنسائي في التفسير، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي، وأبو يعلى، والبيهقي[1].

ورواه بعضهم مختصراً، كما رواه آخرون وجعلوه من مسند أبي بن كعب رضي الله عنه، لا من مسند أبي هريرة رضي الله عنه. والله تعالى أعلم.

فيتضح من هذين النصين، والله تعالى أعلم[2]:

١ ـ أن إجابة النبي ﷺ ممن كان قد دعاه، يجب أن تكون على الفور، إذ لو لم تكن على الفور لما عاتب هذين الصحابيين رضي الله عنهما على تأخير إجابته ﷺ.

٢ ـ كما يتضح أن إجابة النبي ﷺ لمن كان في الصلاة فرض أيضاً، يعصي المرء بتركه، وإلا لما قرأ عليهم النبي ﷺ الآية عندما أبطؤوا أو تأخروا عن الاستجابة فوراً. نعم هذا الحكم خاص به ﷺ، ويلحق به ﷺ وجوب إجابة الأم إذا دعت ولدها وهو في صلاة النافلة، كما في قصة جريج العابد عندما دعته أمه في ثلاثة أيام، وتوافقه في الصلاة، فيختار صلاته على إجابة أمه، حتى دعت عليه: «اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات» كما في صحيح مسلم، وقد بينت ذلك بشكل مفصل في «حقوق الوالدين» أما هل يلحقها الوالد أم لا، ففيه خلاف.

٣ ـ لقد صرح عدد من العلماء من الشافعية وغيرهم من مختلف المذاهب، أن إجابة النبي ﷺ ممن هو في الصلاة لا تبطلها، وإن كان يؤخذ من غير هذين النصين.

---

(١) مسند أحمد (٢: ٤١٢ ـ ٤١٣) وسنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الحجر، رقم (٢٨٧٥) والسنن الكبرى للنسائي (٦: ٣٥١) وكتاب التفسير (١: ٥٢٣ ـ ٥٢٤) والمستدرك (١: ٥٥٨) والسنن الكبرى للبيهقي (٢: ٣٧٥ ـ ٣٧٦) ومسند أبي يعلى (١١: ٣٦٧ ـ ٣٦٨) بنحوه.

(٢) انظر فتح الباري (٨: ١٥٧ ـ ١٥٨).

٤ ـ إذا كانت الإجابة واجبة ممن هو في الصلاة ـ وهي عبادة قائمة برأسها ـ فكيف بمن هو في غير الصلاة؟ وكيف بمن يُطلب منه الطاعة عموماً؟ فهذا النص ـ سواء الآية القرآنية أو الأحاديث الشريفة ـ تدل على مدى وجوب طاعة النبي ﷺ، وأنه لا يجوز أن يُقدم عليها غيرها ـ حتى لو كانت عبادة أخرى ـ لأن طاعته ﷺ مقدمة، والاستجابة لأمره ﷺ مقدمة، وأن طاعته ﷺ والاستجابة لأمره عبادة، وأيما عبادة، هي أعلى درجات العبادة. كما أن عدم الاستجابة له ﷺ معصية، وأيما معصية. ولهذا عاتب رسول الله ﷺ هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم حتى لا يقعوا في المعصية، والله تعالى أعلم.

جعل طاعته ﷺ عبادة محضة

لما جعل الله سبحانه وتعالى استجابة نبيه وصفيه محمد ﷺ، سببَ الحياة الأبدية في الدنيا والآخرة، لأنها أمر الله تعالى، الذي يحول بين المرء وقلبه... كذلك جعل الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم الحق فيما يُصدر بما يوحيه تعالى إليه، وألزم الناس طاعته في الحلال والحرام، في السلم والحرب، في العقيدة والعبادة، في الأخلاق والمعاملات... حتى صارت الهجرة تُشَدُّ إليه، ومن هاجر إليه ﷺ فقد وقع أجره على الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

فلو لم تكن طاعته ﷺ عبادةً محضةً يؤجر عليها المهاجر لما جازت الهجرة إليه. وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾ لاتضح لنا المعنى، حيث أوجب الله سبحانه وتعالى أجر المهاجر ـ فيما إذا مات في الطريق، قبل وصوله إلى نبيه ﷺ ـ على الله جل شأنه.

---

(١) سورة النساء (١٠٠).

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ـ بالنية ـ وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه(١).

فالأمر مرتبط بالنية، فمن كانت هجرته خالصة لله تعالى، وإلى رسول الله ﷺ صدقاً، فقد وقع أجره على الله تعالى، وغفر الله تعالى ذنوبه مقابل هجرته، ولهذا كان يبايع ﷺ الناسَ عليها. وأما إذا كانت هجرته لدنيا ـ وليست للدين ـ فليس له أجر ولا ثواب، حتى لو شاركت الأولى في الظاهر.

فعن جابر رضي الله عنه، أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومَنَعَة [قال: حصن كان لدوس في الجاهلية] فأبى ذلك النبي ﷺ، للذي ادخر الله للأنصار، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه، فاجتووا المدينة، فمرض، فجزع، فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه، فشخبت يداه، حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه، وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه، فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ، فقال: ما لي أراك مغطياً يديك؟ قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت. فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم وليَدَيْه فاغفر» رواه مسلم(٢).

فقد غفر الله تعالى لهذا الرجل بهجرته إلى رسوله وصفيه ﷺ، فما عِظَم مكانة الهجرة حتى تكون سبباً لغفران الذنوب، كما تدل على أنها من أعلى

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وباب ما جاء أن الأعمال بالنية...، ورواه في كتاب العتق، ومناقب الأنصار، والنكاح والأيمان...، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»...، رقم (١٥٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر، رقم (١٨٤).

درجات وحالات العبادة حتى كانت سبباً في غفران ذنب ذلك الرجل رضي الله عنه.

وقد توسعت في بيان الهجرة ومكانتها . . . في «فضائل المدينة المنورة» فلا داعي لإعادة ذلك هنا، فمن أحب الإطلاع عليها فليرجع إليه.

ومن المعلوم أن الناس في أثناء الفتن ينشغلون عن أنفسهم، ويتلهون بحوادث الفتن، فيعرضون عن العبادة، ويقبلون على الدنيا، فتذهل عقولُهم عن مولاهم، وقلوبُهم عما يقرِّبهم إلى ربهم. . . لما يكون من حروب، وقتل. . . ونهب وسلب. . . فمن تفرغ في تلك الحالة إلى عبادة الله عز وجل، وأقبل عليه سبحانه وتعالى، وتعلق بحباله، ولم تشغله الفتن، ولم تُنَهْنِهْهُ الحوادث المقلقات، ولا المصائب المزعجات. . . فهؤلاء مع قلتهم في تلك الحالة إلا أن فعلهم يدل على مدى تعلقهم بالله عز وجل، وكم لهم من الأجر والثواب. . . من الله تعالى؟ إن فعلهم هذا وعبادتهم لا يعدلها شيء إلا كمن هاجر إلى النبـي ﷺ.

فعن معقل بن يسار رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «العبادةُ في الهرج كهجرةٍ إليَّ» رواه مسلم[1].

ففي هذا الحديث الشريف حث على العبادة في أثناء الفتن إذا أقبلت وأدركها المسلم، فإن فضْلَها وثوابَها كمثل هجرةٍ إلى النبـي ﷺ.

وفي هذا النص الكريم أيضاً توضيح مدى فضل الهجرة من ناحية، وفضل وثواب العبادة في الفتن، إذا وقعت.

وإذا علمنا أن الهجرة إلى النبـي ﷺ ـ كانت قبل الفتح واجبة ـ حتى إن الله سبحانه وتعالى نهى عن اتخاذ من لم يهاجر ولياً حتى يهاجر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن: باب فضل العبادة في الهرج، رقم (١٣٠).

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

فإذا كانت الهجرة بهذه المكانة، علمنا مكانة الهجرة إلى رسول الله ﷺ، وأنها من أعظم القربات، ومن أحسن العبادات... ثم علمنا عظم طاعة النبي ﷺ، وأنها مطلوبة لذاتها، والله تعالى أعلم.

جعله الله تعالى مُشَرِّعاً

لقد جعل الله سبحانه وتعالى من جملة صفات رسوله وصفيه محمد ﷺ ومن مهامه الكبار، أنه يحلِّل ويحرِّم، وهكذا جاء وصفُه ﷺ في الكتب السماوية السابقة، وهو عليه وآله الصلاة والسلام لا يشرِّعُ من عند نفسه، إنما يُشرِّعُ حسب ما يريه الله تعالى ويوحيه إليه، لأنه لا ينطق عن الهوى، ولهذا وَكَلَ سبحانه وتعالى إليه بيان ما أُنزل في كتابه مجملاً، مع أنه تعالى تكفل ببيان ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[2].

وأما بيان إيكال الله تعالى البيان لنبيِّه وصفيِّه ﷺ.

فقد قال الله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ...﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال (٧٢).

(٢) سورة القيامة (١٦ ـ ١٩).

(٣) سورة النحل (٤٤).

(٤) سورة النحل (٦٤).

وهو ﷺ لا يبين ولا يحكم إلا بما أراه الله تعالى وأوحاه إليه.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ... ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿... قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى... ﴾(٢) و ﴿... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ... ﴾(٣).

فالله تعالى هو المتكفل بالبيان، والنبي ﷺ هو المبيِّن عنه، حسب ما يوحيه إليه، وما يريه جل شأنه، ولم يجعله ينطق عن الهوى من عند نفسه ـ حاشاه ﷺ.

ومن ذلك فهو ﷺ يحلُّ الطيباتِ، ويحرِّم الخبائث، ويخفِّف عن أمته مما كان عليه أهل الديانات السابقة من الإصر والأغلال، فدينه دين السماحة واليسر.

قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٤).

والسنة النبوية مع القرآن الكريم ـ كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ـ ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأتي حكم القرآن، فتأتي السنة بنفس الحكم.

الثاني: أن يأتي القرآن الكريم مجملاً، أو عاماً، أو مطلقاً، فتأتي السنة

---

(١) سورة النساء (١٠٥).

(٢) سورة الأعراف (٢٠٣).

(٣) سورة الأنعام (٥٠) وسورة يونس (١٥) وسورة الأحقاف (٩).

(٤) سورة الأعراف (١٥٧).

النبوية مبينة لمجمل القرآن، أو مفصِّلة، أو مخصِّصة، أو مقيِّدة...

الثالث: أن تأتي السنة بحكم زائد ليس في القرآن الكريم.

ومن هذا القسم مثلاً، تحريم لحوم الحمر الأهلية، وتحريم نكاح المتعة، وتحريم المفترِّ، وتحريم أنواع كثيرة من البيوع، وتحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها... في أشياء كثيرة.

كما أباح أكلَ السمك والجراد، والكبد والطحال، وأكل المُحْرِم لحمَ صيد الحلال فيما لو صاده لنفسه، وأحل ميتة البحر، وأباح أنواعاً من البيوع، وحث على النوافل من العبادات، من صلاة وصيام... ومتابعة بين الحج والعمرة... إضافة إلى الأخلاق والمعاملات، والعلاقات الدولية... والشخصية...

كما خففت السنة النبوية الأحكام القاسية التي كانت موجودة في الديانات السابقة كغسل الثوب أو البدن إذا أصابته نجاسة، بخلاف ما كان عليه عند اليهود مثلاً، حيث لا بد من قرضه بالمقراض.

وإذا كانت السنة النبوية بينت مجمل القرآن في أحكامه، مثل: أحكام الصلاة في هيئتها وفرائضها وواجباتها وأوقاتها وركعاتها... بينما في القرآن الكريم ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ومثل: أحكام الزكاة من بيان الأموال التي تزكى، والأنصبة والحول،... بينما في القرآن الكريم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهكذا يقال في سائر العبادات.

فإن السنة النبوية أيضاً تحدِّد وتقيِّد ما كان مطلقاً أو عاماً. فمثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا...﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ...﴾[٢] فجاءت السنة النبوية مبينة من

---

(١) سورة المائدة (٣٨).

(٢) سورة النور (٢).

أين تقطع اليد، وفي أي شيء تقطع... وكذا جاءت لتبين أن العقوبة التي في آية النور إنما هي لمن زنى وهو غير محصن، أما المحصن فله الرجم... وهكذا.

فالله تعالى جعل نبيه ﷺ مبيِّناً عنه تعالى، ومشرِّعاً في دينه، حسب ما يوحيه إليه، ويريه إياه، فلا ينطق عن الهوى، ولهذا فقد أوجب الله تعالى طاعته، فمن لم يطعه ماذا يعمل بهذه النصوص المجملة أو العامة في القرآن؟ كيف يصلي، وكيف يصوم، وكيف يزكي، وكيف يحج... وكيف يتعامل مع نفسه ومع الآخرين... فعلى رسول الله ﷺ البيان، وعلينا التسليم والطاعة والامتثال، والله تعالى هو المعين.

وقد قال الله تعالى في آية الأعراف: ﴿يُحِل، يُحرم، يضع﴾ وهذه من خصائص المشرِّع الحقيقي، ولكنه ﷺ لا يفعل من عند نفسه ـ كما قلت ـ إنما يوحي الله تعالى إليه. فأطايب اللحم كان محرماً على بني إسرائيل ﴿... إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ...﴾[1] فقد أباحه النبـي ﷺ، وليس شيء من ذلك في القرآن إلا قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إضافة إلى ما ذكرت من أن التوبة كانت عندهم ـ حتى تُقْبل ـ هي قتل النفس، بينما في ديننا هو الاستغفار والندم، وغسل النجاسة بالماء، بينما كانت أن تقرض بالمقراض... فهذا كله تخفيف من الله تعالى ورحمة، أوحى بها إلى نبيه ﷺ، وعلينا السمع والطاعة والامتثال.

جعله الله تعالى هادياً إلى صراطه المستقيم

إن الطرق كثيرة، والسبل متشعبة، وكلها تأخذ بسالكيها إلى الهاوية، إلا طريقاً واحداً، يأخذ بسالكه إلى الجنة، وإلى رضوان الله تعالى، أولُه أنت يا أيها المسلم، وآخره عند الله تعالى، وأقرب الطرق وأقصرها هو الخط المستقيم، وهو الصراط المستقيم، وقد أغلق الله سبحانه وتعالى جميع الأبواب كلها، إلا باب رسول الله ﷺ حيث جعله الله تعالى هادياً، يأخذ بيد من اتبعه، فيوصله إلى باب

---

(١) سورة آل عمران (٩٣).

الله تعالى، هو باب الهداية، فمن أراد الهداية أطاع رسول الله ﷺ، ومن أعرض عنه وتنكب، ضل وغوى، وأخذت به المسالك المعوجة إلى سبل الضلال، وألقته في الهاوية.

قال الله عز وجل ـ في وصية نبيه ﷺ ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ يوماً خطّاً، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾. رواه أحمد والنسائي والطيالسي والدارمي، والحاكم وابن حبان ـ وصححاه ـ وأقره الذهبي، والبغوي والبزار وابن أبي عاصم[٢]، من ثلاث طرق: الأعمش عن عبد الله، وأبي وائل عن عبد الله، والمنذر الثوري عن الربيع عن عبد الله. فالحديث صحيح.

كما رَوى هذا الحديث كل من أحمد وابن ماجه وعبد بن حميد والبزار من حديث جابر رضي الله عنه[٣]، وفي إسنادهم: مجالد بن سعيد، وهو حسن الحديث في الشواهد، وشاهده ما سبق، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الأنعام (١٥٣).

(٢) مسند أحمد (١: ٤٣٥، ٤٦٥) والتفسير للنسائي (١: ٤٨٥ ـ ٤٨٧) رقم (١٩٤ ـ ١٩٥) وسنن الدارمي: المقدمة، رقم (٢٠٨) ومسند الطيالسي (٣٣ رقم ٢٤٤) والمستدرك (٢: ٢٣٩، ٣١٨) وصحيح ابن حبان (١: ١٠٥ رقم ٦ ـ ٧) والموارد (٤٣٠ ـ ٤٣١) وكشف الأستار (٣: ٤٩ رقم ٢٢١٠ ـ ٢٢١٢ من ثلاث طرق) وشرح السنة (١: ١٩٦ ـ ١٩٧) والسنة لابن أبي عاصم (١: ١٣ رقم ١٧) وتحفة الأشراف (٧: ٢٥) ومجمع الزوائد (٧: ٢٢) وعزاه لأحمد والبزار، وقال البزار: وقد روي عن عبد الله نحوه أو قريباً منه من وجوه. اهـ بعد ذكره له من ثلاث طرق.

(٣) مسند أحمد (٣: ٣٩٧) وسنن ابن ماجه: المقدمة: باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، رقم (١١) ومسند عبد بن حميد (٣٤٥ ـ ٣٤٦)، رقم (١١٤١) والسنة (١: ١٣ رقم ١٦) وتفسير ابن كثير (٢: ١٩٠).

وقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ هادياً إلى هذا الصراط المستقيم، صراط الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٢).

وقد شهد الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بأنه على هذا الصراط المستقيم الذي يدعو إليه، وكلما كان الداعية متحققاً بما يدعو إليه كان أنفع في دعوته، وأكثر استجابة من الآخرين.

قال الله عز وجل: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

لهذا أغلق الله سبحانه وتعالى جميع الأبواب، إلا باب رسول الله ﷺ، حيث جعله تعالى باب هدايته، وأغلق جميع السبل إلا سبيل رسوله ﷺ، فمن أراد الهداية فليطع رسول الله ﷺ، يهده الله تعالى سبيل المُنْعَم عليهم، ومن أراد الوصول إلى سبيل الله، فليستجب لرسول الله ﷺ، يدخله الله تعالى دينه، ثم جنته، ومن سلك غير سبيله وولج غير بابه ضل وغوى، وتاه وهلك.

---

(١) سورة الشورى (٥٢ ـ ٥٣).
(٢) سورة إبراهيم (١ ـ ٢).
(٣) سورة يس (١ ـ ٤).
(٤) سورة المؤمنون (٧٣).

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

وقد بين النبـي ﷺ ذلك بقوله، وأنه الداعي، فمن استجاب له، دخل الدار ـ الجنة ـ ومن عصاه فقد عصى الله تعالى، ومن عصاه تعالى فقد هلك.

فعن جابر رضي الله عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبـي ﷺ ـ وهو نائم ـ فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: مثلُه كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدُبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدُبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أَوِّلوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ ـ فَرْقٌ بين الناس. رواه البخاري[2].

وفي رواية الحاكم والترمذي[3]: «فالله هو الملِك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسولٌ، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «... أما السيد فهو رب العالمين، وأما البنيان فهو الإسلام، والطعام الجنة، ومحمد ـ ﷺ ـ

---

(١) سورة النور (٥٤).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٣) سنن الترمذي: كتاب الأمثال: باب ما جاء في مثل الله لعباده، رقم (٢٨٦٠) وقال: روي هذا الحديث من غير وجه عن النبـي ﷺ بإسناد أصح من هذا، هذا حديث مرسل. سعيد بن هلال لم يدرك جابر بن عبد الله. اهـ قلت: ورواه الحاكم في المستدرك (٤: ٣٩٣) وأدخل بين سعيدٍ وجابرٍ: عطاءَ بنَ أبـي رباح، وصححه وأقره الذهبـي.

الداعي، فمن اتبعه كان في الجنة، ومن لم يتبعه عُذِّب» رواه أحمد، والترمذي وابن خزيمة وصححاه[1].

وقد جاء نحو ذلك من حديث ربيعة الجرشي وابن عباس رضي الله عنهم[2].

فمن أطاعه ﷺ واستجاب له دخل الجنة، ومن عصاه وأعرض عنه دخل النار، وهذا هو الذي شَرَدَ شُرود الجَمَل على أهله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري[3].

وهؤلاء الذين يأبون هم الذين يتقحّمون النار، ويعصون أمر رسول الله ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي [ومثل أمتي] كمَثَل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ماحولها، جعل الفراش وهذه الدواب التي [تقع] في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحّمْن فيها» قال: «فذلكم مَثَلي ومثلكم، أنا آخذٌ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تقحّمون فيها» متفق عليه، واللفظ لمسلم[4].

---

(١) مسند أحمد (١: ٣٩٩) وسنن الترمذي: كتاب الأمثال: باب ما جاء في مثل الله لعباده، رقم (٢٨٦١) وسنن الدارمي: **المقدمة**، رقم (١٢) وفتح الباري (١٣: ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) انظر مسند أحمد (١: ٢٦٧) ونسخة أحمد شاكر (٤: ١٢٩) وسنن الدارمي: المقدمة، رقم(١١) والمعجم الكبير (١٢: ٢١٩) وكشف الأستار (٣: ١٣١ ـ ١٣٢) ومجمع الزوائد (٨: ٢٦٠ ـ ٢٦١) وفتح الباري (١٣: ٢٥٦).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب الانتهاء عن المعاصي ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب شفقته ﷺ على أمته...، رقم (١٧، ١٨).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخذٌ بحُجَزكم عن النار، وأنتم تَفَلَّتون من يدي». رواه مسلم[1].

فهذا الذي يتفلت، إما عاص فلا يدخل مع أول الداخلين، وإما هالك فيهلك مع الهالكين، والعياذ بالله تعالى، وذلك على قدر عصيانه ومخالفته. وأما المستجيب فهو الناجي، والله تعالى أعلم. وسيأتي مزيد بيان في الفقرة التالية.

جعله الله تعالى بشيراً ونذيراً

لقد جاءت عشرات النصوص في كتاب الله عز وجل تبين مهمة رسول الله ﷺ، وأنه منذر للبشرية، ومُخوِّفها من سوء عاقبتها إذا هي عصت، وبقيت متنكبة عن الصراط السوي، ومبتعدة عن ربها عز وجل، وبعيدة عن الإيمان به تعالى... وتُخوِّف هذه الأمةَ إذا عصت، وتُنذِرُها العذابَ الأليم... إذا كفرت بربها تعالى ونبيِّه ﷺ ولم تطعه... كما تُبين بأي وسيلة ينذر ﷺ، ومراحل إنذاره ﷺ.

كما تبشر المؤمنين، المتقين، المخبتين، الصادقين، الصابرين، الصالحين... بالنعيم المقيم، والجنات الكريمات التي تجري من تحتها الأنهار، وما لهم من أجر وثواب.

كما تبشر المنافقين والكافرين... بالعذاب الأليم الشديد يوم القيامة.

ولا أستطيع أن أستعرض كل الآيات الكريمات في هذا الباب، لذا سأذكر بعض الآيات الكريمات في هذا الباب للتنبيه على مهمته ﷺ.

قال الله عز وجل ـ في أول سورة في بدء الرسالة ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب شفقته ﷺ على أمته...، رقم (١٩).
(٢) سورة المدثر (١، ٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1].

وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[2].

بل حصر الله تعالى مهمة نبيه وصفيه ﷺ في رسالته لجميع الناس بالبشارة والنذارة والشهادة عليهم.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقال عز شأنه: ﴿ . . . وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[4].

وقال جل وعز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[6].

ولهذا يبين ﷺ أنه بشير ونذير مبين، لينذر من عصى، ويبشر من أطاع، كما أمره الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة (١١٩).

(٢) سورة فاطر (٢٤).

(٣) سورة سبأ (٢٨).

(٤) سورة الإسراء (١٠٥) وسورة الفرقان (٥٦).

(٥) سورة الأحزاب (٤٥ ـ ٤٧).

(٦) سورة الفتح (٨ ـ ٩).

(٧) سورة الأعراف (١٢٨).

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى الوحي على رسوله وصفيه ﷺ لينذر به، ومن يَبْلُغه ذلك ممن يأتي بعده أو بَعُدَ عنه ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ. . .﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾(٢).

وقد كثرت النصوص النبوية الشريفة عن النبي ﷺ في بيان كونه نذيراً ينذر الناس، وأنه ﷺ النذير العريان الصادق مع قومه، لأنه الرائد لهم فلا يَكْذِبهم، لذا فعليهم طاعته، وعدم مخالفته، فمن أطاعه نجا وسعد في الدنيا والآخرة، ومن عصاه وخالفه فقد هلك.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٣) صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ» حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدِّقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾(٤). متفق عليه، واللفظ للبخاري(٥).

---

(١) سورة الأنعام (١٩).

(٢) سورة الأنبياء (٤٥).

(٣) سورة الشعراء (٢١٤).

(٤) سورة المسد (١ ـ ٢).

(٥) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الشعراء: باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ـ وفي غيرهما ـ. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ رقم (٣٥٥، ٣٥٦).

وعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، [يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنكِ من الله شيئاً] يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبُلُّها بِبَلالِها» متفق عليه واللفظ لمسلم[1].

وعن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو رضي الله عنهما قالا: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ انطلق نبـي الله ﷺ إلى رَضْمَةٍ من جبل، فَعَلا أعلاها حجراً، ثم نادى: «يا بني عبد مَنافاه! إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يَرْبَأُ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف يا صباحاه» رواه مسلم[2].

قوله: رَضْمَة، حجارة مجتمعة ليست بثابتة في الأرض.

وقوله: يَرْبَأُ، يحفظ ويتطلع لهم، والفاعل منه ربيئة، وهو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو، ويسمى اليوم «الخفير» ولا يكون في الغالب إلا على مكان مرتفع من جبل ونحوه، لينظر من بعد.

وعن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً [وعند مسلم: قومه] فقال: يا قوم إني

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الشعراء: باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ رقم (٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ رقم (٣٥٣، ٣٥٤).

رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مَهَلِهم فنجوا، وكذَّبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم، فذلك مَثَلُ من أطاعني، فاتَّبع ما جئتُ به، ومَثَلُ من عصاني وكذَّب بما جئت به من الحق». متفق عليه، واللفظ للبخاري(١).

فقد عبَّر في الفرقة الأولى بالطاعة وفي الثانية بالتكذيب، ليؤذن بأن الطاعة مسبوقة بالتصديق، ويشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان، كما قال الإمام الطيبي رحمه الله.

وقال رحمه الله: شبَّه ﷺ نفسه بالرجل، وإنذاره بالعذاب القريب، بإنذار الرجل لقومه بالجيش المصبِّح، وشبَّه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذَّب الرجل في إنذاره ومن صدَّقه. اهـ من الفتح(٢).

فمن أراد السلامة والتخلص من العدو - الظاهري والباطني، المعلَن والمخفي - فليطع النذير، فإذا أطاعه سلم وسعد السعادتين. وهكذا رسول الله ﷺ، وهو أصدق نذير لأمته، إذ لا يوجد أشفق منه ﷺ على أمته. بل لا يوجد له نظير في ذلك، لهذا حذَّر أمته من كل معصية، ورغَّبهم في كل طاعة، صلوات الله وسلامه عليه، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

التسليم الكامل لوعده ﷺ

لقد ضرب الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه مثل المؤمنين والمنافقين بالنسبة لوعد رسول الله ﷺ، فبقدر ما كان عليه المنافقون من التكذيب، وأن ما وعد به ﷺ محض غرور... وأنهم يودون الفرار هرباً، مع أنهم عاهدوا الله سبحانه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ - وفي غيرهما - وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب شفقته ﷺ على أمته...، رقم (١٦).
وانظر فتح الباري (١١ : ٣١٦ - ٣١٧) لبيان معنى «النذير العريان».
(٢) فتح الباري (١١ : ٣١٧).

وتعالى على خلاف ذلك. . . كان المؤمنون على نقيض ذلك، حيث زادهم ما وعدهم به رسول الله ﷺ إيماناً بالله تعالى، وتسليماً وانقياداً لأوامره، وطاعةً لرسوله ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا * (٢٣) لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

فيكرم الله تعالى الصادقين بما وفوا ما عاهدوا عليه، ويعذب المنافقين الناكثين إن شاء سبحانه وتعالى.

فإذا كان التسليم بما وعد به ﷺ من صفات المؤمنين، وأنهم إذا رأوا ما يوعدون به ازدادوا إيماناً وتسليماً، فإن ذلك من مظاهر طاعته ﷺ والإيمان به ومحبته ﷺ، إذ لا يصدِّق بالوعد ـ خاصة في مثل تلك الأحوال ـ إلا كامل الإيمان، كامل الطاعة، تام المحبة، المستسلِم الصادق، والله تعالى أعلم.

وهكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنه حيث كانوا يصدِّقون بكل ما يخبرهم به ﷺ، ومن جملة ما يخبرهم به ما يعدهم به، فيسلِّمون ويطيعون، فعندما أخبرهم ووعدهم بفتح فارس والشام والعراق واليمن وغزو الهند. . . كل ذلك أخذوه مأخذ الجد والتسليم، ولم يتطرق إليهم الشك، بل أخذوا بذلك مأخذ الجد واليقين.

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ، إذ أتاه

---

(١) سورة الأحزاب (١١ ـ ٢٤).

رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال لي: «يا عديُّ، هل رأيت الحِيرَةَ؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله» قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّارُ طيءٍ الذين قد سَعَّروا البلاد؟ ـ «ولئن طالت بك حياة لتُفتَحَنَّ كنوز كسرى» ـ قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الرجل يُخرج ملءَ كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه...» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروُن ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يُخرج ملء كفه. رواه البخاري(١).

هكذا جزم رضي الله عنه بالخبر الثالث أنه سيقع كما أخبر ﷺ.

ولما وعدهم وأخبرهم ﷺ بدخول مكة ـ وهي رؤيا رآها ﷺ في المنام ـ لم يشُكُّوا في دخولها، ولم يدخلهم شك في صحة الخبر، فلما وصلوا إلى الحُدَيْبِيَةِ، وصار الصلح، وفيه أن يرجع ﷺ عن مكة هذا العام، ويعود في العام المقبل، وظن بعضهم أن الدخول سيكون في ذلك العام، ولم يتنبهوا إلى مطلق الوعد من غير تقييد بزمن، صعُب عليهم تخلف الوعد والخبر، حتى قال لهم ﷺ: «هل قلت لكم: إنكم ستدخلونها هذا العام؟» قالوا: لا، فرجعوا إلى أنفسهم، وقد قال لهم ﷺ: «إنكم ستدخلونها» فأنزل الله سبحانه وتعالى تصديق الرؤيا، وكان الدخول، وفيه البشارات والوعود الأخرى، وكلها تحققت.

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

فدخلوا مكة آمنين، لا يخافون، محلقين رؤوسهم أو مقصرين، وقد جعل قبل هذا الدخول: الصلح الذي هو فتح قريب عظيم، ثم كان الوعد والبشارة بالظهور على الدين كله، وشهادة الله تعالى على ذلك.

وقد وعدنا ﷺ الحوض، ونرجو أن نكون من أهل هذا الوعد فنلقاه.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أُحُد بعث ثماني سنين، كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع على المنبر فقال: «إني بين أيديكم فَرَط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدَكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي...» متفق عليه، واللفظ للبخاري[2].

فقد وعدنا ﷺ أنه فَرَطٌ، فرحل قبلنا ﷺ، وإن الموعد هو الحوض، وكلنا أمل أن يلقاه ﷺ، فيسقيه من يده الشريفة شربةً هنيئةً، لا نظمأ بعدها أبداً. اللهم حقق لنا ذلك وجميع المسلمين، اللهم آمين.

جعله الله تعالى أسوة حسنة

لقد أكمل الله تعالى نبيه وصفيه محمداً ﷺ، وجَمَّله، وخصَّه بخصائص لا توجد عند غيره من البشر جميعهم بما فيهم الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأَدَّبه مولاه فأحسن تأديبه، وجعله بالمرتبة العليا التي يكون الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تحت لوائه يوم القيامة، وهو المحفوظ بحفظ الله تعالى، والمعصوم بعصمته تعالى... لذا رضيه الله تعالى أن يكون المثال الأعلى لجميع الناس، وجعله الأسوة الحسنة، فأوجب اتباعه وطاعته، وعليهم أن يتخذوه القدوة العليا، والمثل الأعلى في كل شيء، لأنه كامل في كل شيء.

والإنسان مجبول على التقليد، والاتباع، ومن محبة الله سبحانه وتعالى لهذه

---

(١) سورة الفتح (٢٧ ـ ٢٨).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة أحد ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، رقم (٣٠ ـ ٣١).

الأمة ورحمته بها، ومن رأفته تعالى بها، جعل لها أسوةً تقتدي بها، وقدوةً تأتسي بها، حتى لا تضل، ولا تتيه، في غياهب البحث، لتجد لنفسها من تقتدي به، فأراحها تعالى، ودلَّها على من تقتدي به.

قال الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

فهذا النص الكريم يعتبر أساساً كبيراً، وأصلاً عظيماً في وجوب التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأحواله وأفعاله وأخلاقه... ﷺ، لكن الله سبحانه وتعالى قيد من يتأسى برسوله ﷺ بأوصاف، فمن تحقق بها كانت عنده الصلاحية للتأسي، وهي لمن كان يرجو الله تعالى واليوم الآخر وذكر الله تعالى ذكراً كثيراً، وأما الذي لا يؤمن بربه تعالى، ولا يخاف اليوم الآخر، واتصف بصفات المنافقين ـ وهي قلة الذكر ـ فليس له قدوة، ولا له أسوة.

فإذا كان الله عز وجل قد اختار لنا نبيه وصفيه ﷺ قدوة وأُسوة... فما على عَبيدِ الله ومدعي محبته وطاعته إلا الامتثال، والاقتداء، والتأسي،... بهذا الرسول الكريم ﷺ الذي اختاره الله تعالى لنا. والذي لا يقتدي به ولا يتأسى... ولا يتمثل فقد عصى الله تعالى، وخالف أمره. والله تعالى أعلم.

وهذه الأسوة تكون، في البيت، في السوق، في المسجد، في الشارع، في السلم، في الحرب، في الإقبال والإدبار، في الفعل والترك، في المنشط والمكره، في الخُلُق، في الصلة بالله تعالى، في اللباس... بل في كل شيء هو ﷺ أسوة، لكن لمن اتصف بما ذكر.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية، ما لفظه[2] ـ: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) سورة الأحزاب (٢١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣: ٤٧٤).

دائماً إلى يوم الدين. اهـ.

وقد طبق الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم هذا المنهج، وساروا على هذا المنوال، والتزموا هذا الميزان... أدق ما يمكن أن يكون.

لبسوا خواتيم الذهب حين لبس ﷺ، وخلعوها عندما خلع ﷺ.

خلعوا نعالهم في الصلاة عندما خلع ﷺ نعليه في الصلاة، فقالوا: رأيناك خلعت فخلعنا.

واصلوا في الصيام حين رأوه ﷺ يواصل، حتى أخبرهم ﷺ وجه اختصاصه بالمواصلة، وأنه ﷺ ليس كهيئتهم، يبيت عند ربه عز وجل يطعمه ويسقيه.

صاموا في السفر لما رأوه ﷺ صائماً ـ وقد شق عليهم ـ فلما أفطر ﷺ أفطروا. لذا لما أُخبر عن بعضهم بأنهم ما زالوا صائمين وقد تعبوا قال: «أولئك العصاة» كما مر.

رآه بعضهم محلول أزرار القميص، فما زال قميصه محلول الأزرار صيفاً وشتاءً.

كما رآه بعضهم لا يلمس إلا الركنين، فلا يلمس سواهما. ورآه يلبس النعال السبتية، فلا يلبس غيرها....

والأمثلة على ذلك كثيرة، لكني سأذكر مثالين، تأخر الصحابة رضي الله عنهم عن الإجابة عندما أمرهم ﷺ، فلما فعل ما أمرهم به أو بين العذرَ، بادروا ولم يتخلف أحدٌ منهم رضي الله عنهم.

المثال الأول: ففي قصة الحُدَيْبِيَةِ، وقد فرغ من كتاب الصلح، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد

بعضهم يقتل بعضاً غماً. لفظ البخاري[1] من حديث المِسْوَر ومروان.

وتوقُّفُ الصحابة رضي الله عنهم في بادىء الأمر يحتمل أموراً[2]:

- احتمال أن يكونوا فهموا أن الأمر للندب.

- أو لرجاء نزول الوحي بإبطال الصلح المذكور، أو تخصيصه بالإذن بدخولهم مكة ذلك العام لإتمام النسك.

- أو أبْهتَهُم صورة الحال، فاستغرقوا في الفكر عما أصابهم فيما يظنون من ذل عند أنفسهم مع وجود القوة عندهم.

- أو أخروا الامتثال لاعتقادهم أن الأمر المطلق لا يقتضي الفور.

- أو أن الصحابة رضي الله عنهم احتمل عندهم أن النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذاً بالرخصة في حقهم، وأنه هو يستمر على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حق نفسه ﷺ.

فلما رأى الصحابة رضي الله عنهم فعله ﷺ بادروا إلى فعل ما أمرهم به، إذ لم يبق بعد ذلك غاية تنتظر، فكان الفعل المنضم إلى القول أبلغَ من القول المجرد.

المثال الثاني: ما حصل من الأمر بالتحلل في حجة الوداع:

كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور - كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتفق عليه[3].

وهذه الحجة - حجة الوداع - هي آخر حجة يحجها ﷺ، فأراد أن يقضي على كل آثار الجاهلية، فكما نهى عن الطواف عراة، وعن الوقوف في مزدلفة، وأمر بالوقوف في عرفة... كذلك أراد أن يقضي على ما أحدثه الشيطان في نفوس

(١) صحيح البخاري: كتاب الشروط: باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب...
(٢) انظر فتح الباري (٥: ٣٤٧) وسبل الهدى (٥: ١٢٦).
(٣) صحيح البخاري: كتاب الحج: باب التمتع والقران والإفراد بالحج...، وصحيح مسلم: كتاب الحج: باب جواز العمرة في أشهر الحج، رقم (١٩٨).

أهل الجاهلية من أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور. لذا لما قدم الصحابة رضي الله عنهم محرمين بالحج، أمر ﷺ من طاف وسعى ولم يسق معه الهدي أن يتحلل ويجعلها عمرة، فتردد الناس ـ كما في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها[1] ـ وقالوا: أي الحل؟ قال ﷺ: «الحل كله» كما في حديث جابر رضي الله عنه المتفق عليه، فقالوا: ننطلق إلى منى وذَكَرُ أحدنا يقطر؟ فبيَّن لهم النبـي ﷺ سبب عدم تحلُّلِه هو، فقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديتُ، ولولا أن معي الهدي لأحللت».

وفي لفظ لمسلم: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحلَلتُ كما تحلون، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت فلم أسق الهدي، فحِلُّوا» فحللنا وسمعنا وأطعنا.

وفي رواية عنه عندهما: فقال: «افعلوا ما أمرتكم، فلولا أني سُقت **الهديَ لفعلت مثل الذي أمرتكم به، ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله»، ففعلوا.**

وهكذا فعل من ساق الهدي معه من الصحابة رضي الله عنهم، كما أمرهم ﷺ، كما هو الحال مع أبـي بكر وعمر وعلي والزبير وأبـي موسى وطلحة وغيرهم رضي الله عنهم، من ذوي اليسار، أو ممن علَّقَ إحرامَه على إحرامِ رسول الله ﷺ. حيث قال ﷺ: «من لم يكن معه هدي فليحلل» كما في حديث جابر رضي الله عنه[2].

فقد أمر ﷺ من لم يسق الهدي أن يفسخ حجه إلى عمرة، ليزيل ما بقي

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الحج: باب بيان وجوه الإحرام، . . . رقم (١٣٠).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الحج: باب التمتع والقران والإفراد بالحج. . .، وباب ما يلبس المحرم من الثياب، وباب التحميد والتسبيح والتكبير قبل الإهلال، وباب كيف تهل الحائض والنفساء، وعدد من أبواب الحج غيرها، وكتاب العمرة: باب عمرة التنعيم. وفي كتاب التمني، وكتاب الاعتصام، وغيرها. وصحيح مسلم: في عدد من أبواب الحج، بأرقام (١١١ ـ ١٤٤، ١٤٧، ١٥٤ ـ ١٥٧، ١٧٤، ١٧٦ ـ ١٧٩، ١٩١، ١٩٤ ـ ٢٠٣).

عالقاً في أذهانهم من أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فلما ترددوا ـ لأنهم لم يروه ﷺ تحلل، وهم اعتادوا فعله قبلهم ـ بيَّن لهم ﷺ العذر، وهو سَوق الهدي، وأخبرهم أنه لو لم يسق الهدي لفعل مثل ما أمرهم به، فلما عرفوا ذلك تحللوا، وسمعوا وأطاعوا، ولهذا قالوا له مستغربين: أي الحل؟ فلما أعلمهم ﷺ أنه الحل كله، من لباس وطيب ونساء، ازداد عجبهم، فلما أعلمهم بالعذر بادروا إلى التطبيق والتنفيذ رضي الله عنهم.

وقد لخص ﷺ وجوب اتباعه، والسير على منواله، والعمل على وفق ما جاء به، رادّاً كلَّ عمل ليس على سنته ومنهجه، سواء كان العامل هو المخترع والمبتدع لذلك الفعل، أو كان من ابتداع غيره وهو يعمله.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه(١).

وفي رواية لمسلم(٢) عنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

فإذا كان النص الأول يخص من يبتدعُ المحدَث، فإن الثاني يشمل من يعمل به، وعليهم جميعاً أن يكونوا على وفق ما جاء به المصطفى ﷺ، وإلا فهو مردود غير مقبول، والله تعالى أعلم.

جعل الله تعالى طاعة رسوله ﷺ طاعة له تعالى

لقد بلغ الأمر ذروته، والمقام أعلاه، عندما أعلن الله سبحانه وتعالى أن طاعة رسوله وصفيه محمدٍ ﷺ هي طاعة لله تعالى، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله، وأمر بطاعته، وامتثال أوامره، وحرَّم معصيتَه ومخالفةَ أوامره،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. وصحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٨).

وهو ﷺ المبلِّغ عن الله تعالى معنى ما أراد، وهو الواسطةُ بين الله تعالى وبين خلقه، ينقل للناس شرع الله تعالى، ويشرحه ويفصله، وهو الهادي إلى الله تعالى، المبشِّرُ والمنذِرُ عن الله تعالى، لذا فمن أطاعه فهو مطيع لمن أرسله، ومن يعصيه فهو عاص لمن أرسله.

قال الله عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾(1).

فقد عبر بالمضارع (يطع) وهو الذي يقتضي الحال والمستقبل، وعبر بالماضي (أطاع) الذي يدل على الوقوع والتحقق. فمن أطاع رسوله ﷺ حالاً، فقد وقعت طاعته قبل ذلك طاعةً لله تعالى، لأن الله تعالى هو الذي أرسله، وأمر بطاعته، لذا فمن أطاعه ﷺ كان ـ في الحقيقة ـ مطيعاً لمرسِلِه قبل أن يطيعه ﷺ، ومن عصاه ﷺ كان ـ في الحقيقة ـ عاصياً لمرسِلِه قبل أن يعصيه ﷺ، لأنه مرسِلُه، وأوجب طاعته، وحرَّم معصيته.

علماً بأن الناقل لأمر الطاعة لله تعالى هو رسول الله ﷺ، والله تعالى هو الآمر بطاعة رسوله ﷺ، فالذي لا يطيع رسول الله ﷺ في نقله لأمر الله تعالى طاعةَ رسوله ﷺ كالذي لا يطيع رسول الله ﷺ في نقله لطاعة الله تعالى، فمن لم يطع رسول الله ﷺ، فهو لم يطع الله تعالى أيضاً.

ذلك أن الله تعالى جعله المبلِّغَ عنه ما يريد، ولم يكن الله تعالى ليرسل إلى كل مخلوق رسولاً ـ مع أنه تعالى قادر على ذلك ـ بل أرسل رسولاً واحداً ﷺ لكل الخليقة بعده، وأمرهم بطاعته وامتثال أمره.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى(2): هذا إعذار من الله تعالى إلى خلقه في نبيه محمدٍ ﷺ، يقول الله تعالى ذكره لهم: ﴿مَّن يُطِعِ﴾ منكم أيها الناس محمداً ﷺ فقد أطاعني، بطاعته أياه، فاسمعوا قوله، وأطيعوا أمره، فإنه مهما

(1) سورة النساء (٨٠).

(2) تفسير الطبري (٨: ٥٦١ ـ ٥٦٢).

يأمركم به من شيء فمن أمري يأمركم، وما نهاكم عنه من شيء فمن نهيي، فلا يقولن أحدكم: إنما محمد بشر مثلنا، يريد أن يتفضل علينا.

ثم قال جل ثناؤه لنبيه: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعتك يا محمد، فأعرض عنك، فإنا لم نرسلك عليهم ﴿حَفِيظًا﴾ يعني: حافظاً لما يعملون، محاسباً، إنما أرسلناك لتبين لهم ما نزل إليهم، وكفى بنا حافظين لأعمالهم، ولهم عليها محاسبين. اهـ.

وقد جاءت عدة نصوص عن النبي ﷺ تصرح بنفس المعنى.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله...» متفق عليه(١).

وقد مر قبل قليل حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وفي آخره: «... فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فَرْقٌ بين الناس» رواه البخاري(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ فقال: «يا هؤلاء ألستم تعلمون أني رسول الله ﷺ إليكم؟» قالوا: بلى، نشهد أنك رسول الله. قال: «ألستم تعلمون أن الله أنزل في كتابه: من أطاعني فقد أطاع الله؟» قالوا: بلى، نشهد أنه من أطاعك فقد أطاع الله، وأن مِن طاعة الله طاعتَك، قال: «فإن من طاعة الله أن تطيعوني، وإنَّ مِن طاعتي أن تطيعوا أئمتكم، أطيعوا أئمتكم، فإن صلُّوا قعوداً فصلوا قعوداً». رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير والطحاوي وابن حبان برجال ثقات(٣).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (٣٢ ـ ٣٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٣) مسند أحمد (٢: ٩٣) والمعجم الكبير (١٢: ٣٢١ رقم ١٣٢٣٨) ومسند أبي يعلى (٩: =

قال الحافظ رحمه الله[1] في تعليقه على حديث أبـي هريرة رضي الله عنه: قوله: «من أطاعني فقد أطاع الله» هذه الجملة منتزعة من قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ . . .﴾ أي لأني لا آمر إلا بما أمر الله به، فمن فعل ما آمره به؛ فإنما أطاع من أمرني أن آمره.

ويحتمل أن يكون المعنى: لأن الله تعالى أمر بطاعتي، فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله له بطاعتي، وفي المعصية كذلك.

والطاعة، هي الإتيان بالمأمور به، والانتهاء عن المنهي عنه، والعصيان بخلافه. اهـ.

فمن يطيع رسول الله ﷺ فهو مطيع لله تعالى، ومن يطيع الله تعالى يلزمه أن يطيع رسوله ﷺ لأنه المبلِّغ عنه، والهادي إلى سبيله، فالذي لا يطيعه لا يطيع ربه تعالى، كما أن من أطاعه ولم يطع ربه فهو لم يطعه، والله تعالى أعلم.

جعل الله تعالى مبايعة رسوله ﷺ مبايعة له تعالى

وكما جعل الله تعالى طاعة رسوله ﷺ طاعته تعالى، كذلك جعل تعالى مبايعة رسوله ﷺ مبايعة له تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

فالذي يباشر المبايعة هو رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويقول ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ مع أن المبايع هو رسول الله ﷺ، وفي

= ٣٤٠) وشرح معاني الآثار (١: ٤٠٤) وصحيح ابن حبان (٣: ٢٧٢) ومجمع الزوائد (٢: ٦٧) و (٥: ٢٢٢) وفتح الباري (١٣: ١١٢).

(١) فتح الباري (١٣: ١١٢).

(٢) سورة الفتح (١٠).

كل ذلك من الحكم والأسرار، والمكانة العالية للمصطفى ﷺ ما لا يخفى على المؤمن العاقل، صاحب القلب الواعي، والفهم الثاقب، والعقل النَّيِّر، فيقف بإجلال واحترام وتسليم.

وقد كان رسول الله ﷺ يبايع المسلمين، وقد تنوعت الصيغ التي كان يبايع عليها، وقد ثبت في الصحيحين أو أحدهما أحوال كثيرة كان يبايع عليها رسول الله ﷺ.

فقد كان ﷺ يبايع على الإسلام، وعلى عدم الشرك بالله تعالى، وعلى الإيمان، وعلى الهجرة، وبايع الأنصار رضي الله عنهم بيعة العقبة، وبايع على فروع الإسلام؛ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، وعلى عدم السرقة والزنا... وبايع ﷺ على الصبر، وعلى السمع والطاعة، وعلى شهادة أن لا إله إلا الله... وبايع على الإسلام والجهاد، وعلى الجهاد، وعلى عدم الفرار، وعلى الموت... وكما بايع الرجال فقد بايع النساء أيضاً... الخ.

وكل ذلك ينطبق عليه المبايعة، ويلزمه الوفاء، وعدم النكث. ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان في الحديبية، ورضي الله تعالى عنهم، وأخبر ﷺ أن كل من بايع تلك البيعة في ذلك الوقت كان من أهل الجنة، وهو داخلها بإذن الله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١).

فقد أكرمهم الله تعالى بالرضا، وأنزل عليهم السكينة، وأثابهم الفتح القريب ـ خيبر أو مكة، أو ما فتح ويفتح ـ وأثابهم مغانم كثيرة مع العز والنصر والرفعة، مع ما وعدهم عليه من المغانم الكثيرة التي ستكون، وكف أيدي الكفار

---

(١) سورة الفتح (١٨ ـ ١٩).

عنهم، مع ما أخبر الله تعالى ما في قلوب هؤلاء المؤمنين من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.

وكل ذلك ناله هؤلاء الكرام رضي الله عنهم لأنهم استجابوا لرسوله ﷺ عندما دعاهم للبيعة ، فسمعوا وأطاعوا . وهكذا شأن السامع المطيع الصادق الوفي أن يكرمه الله تعالى ، ولن تتخلف سنة الله تعالى في خلقه ، والله تعالى أعلم.

تحريم التقديم بين يديه ﷺ

لقد أدب الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في تعاملهم مع رسوله وصفيه ﷺ، وقد تنوعت هذه الآداب الربانية، وكانت سورة الحجرات كلها آداب، أدب الله تعالى بها عباده.

ومن ذلك ألا يتقدموا بين يديه، فلا يقولوا قولاً قبل أن يصدر منه ﷺ، بل يكونون تبعاً له في جميع الأمور، ولا يفتاتوا عليه ﷺ بشيء، حتى يقضي الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ما يشاء.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(1).

فقد خاطب المؤمنين محذِّراً أن يتكلموا بين يدي كلامه، أو يتسرعوا بإصدار الفتوى قبله ﷺ . . . فكل ذلك إيذاء، وإيذاؤه حرام، وذلك لأن المتَّبَعَ يكون وراء متبعه، ولا يكون أمامه، ونحن مأمورون باتباعه ﷺ، والسير على منهاجه، **والاتباعُ يقتضي أن نكون وراءه، ونمشي خلفه، ونسعى وراءه.** والتقدُّمُ بين يديه يكون أمامه، وهذا معارض للاتباع. وسيأتي مزيد بحث في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

---

(1) سورة الحجرات (1).

وإذا كان االتقدم بين يديه ﷺ حراماً، فعدمُ طاعته ومخالفتُه من باب أولى، والله تعالى أعلم.

التحذير من رفع الصوت فوق صوته ﷺ

وكما أدّب الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعدم التقدم بين يديه ﷺ، فإنه تعالى أدَّبهم أيضاً بعدم رفع الصوت فوق صوته ﷺ.

ولهذا حذَّر الله تعالى قوماً من رفع الصوت، كما شنَّع على قوم رفعَهُم الصوت فوق صوته، وعابه، ثم أثنى على آخرين غضَّهُم أصواتهم عنده ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)

ففي الآية الأولى: النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ، وعن الجهر له بالقول كما يجهر بعضنا لبعض، ومن يفعل ذلك يحبط عمله وهو لا يشعر.

وفي الآية الثانية: ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده ﷺ، وحثَّ عليه، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، وهؤلاء الذين يغضون أصواتهم عنده ﷺ أخلصهم الله تعالى للتقوى، وجعلهم أهلاً ومحلاً لها، وغفر لهم، وأعطاهم الأجر العظيم.

وفي الآية الثالثة: يذم الله تعالى هؤلاء الذين قدموا إلى المدينة، فوافقوا رسول الله ﷺ في بيته، فصاروا ينادونه بأعلى أصواتهم، فذمهم الله تعالى، وأخبر أن أكثرهم لا يعقلون.

وأرشد في الآية الرابعة: أن هؤلاء لو صبروا حتى يخرج النبي ﷺ من

---

(١) سورة الحجرات (٢ ـ ٥).

بيته، ثم يكلمونه بما يريدون، لكان خيراً لهم، ولكنهم من الأعراب الجفاة.

وقد جاءت عدة أحاديث عن حال الصحابة رضي الله عنهم سواء في سبب نزول الآية الأولى، أو حالهم بعد نزولها.

فعن ابن أبي مُليكة رحمه الله قال: كاد الخيِّران أن يهلكا - أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما، لما قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم؛ أشار أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي الحنظلي أخي بني مجاشع، وأشار الآخر بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردتَ خلافي. قال عمر: ما أردتُ خلافَك، فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ. فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ عَظِيمٌ ﴾.

قال ابن أبي مُليكة: قال ابن الزبير: فكان عمر بعدُ - ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعني أبا بكر - إذا حدَّثَ النبي ﷺ بحديث حدَّثه كأخي السِّرار، لم يُسمعه حتى يستفهمه. رواه البخاري(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ . . . ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلا كأخي السِّرار، حتى ألقى الله عز وجل. رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي(٢).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، أنه قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بنَ مَعْبَد، وقال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلى - أو إلا - خلافي؟ فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ حتى انقضت الآية. رواه البخاري(٣).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع.

(٢) المستدرك (٢: ٤٦٢).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة عيينة بن حصن، وكتاب التفسير: سورة =

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه، فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا.

فقال موسى [بن أنس]: فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكن من أهل الجنة».

وفي رواية مسلم: وزاد ـ يعني أنس ـ: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة.

وفي رواية أخرى له: فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة» متفق عليه(١).

وقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم عظمة مكانة نبيهم ﷺ عند ربه عز وجل، وما يلزمهم، ويجب عليهم من التوقير والتبجيل والاحترام والإعظام... تجاهه ﷺ، ومن ذلك عدم رفع الصوت عنده، بل حتى في مسجده ﷺ، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأعطوه حقه من الأدب والإعظام، لأن المتَّبِع لا يعلو صوتُه فوق صوت متَّبِعِه، بل يكون أخفض منه.

فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: كنت قائماً في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما ـ أو من أين أنتما ـ؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

= الحجرات، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب دلائل النبوة في الإسلام. وكتاب التفسير: سورة الحجرات: باب ﴿... لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ...﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١٨٧ ـ ١٨٨).

رواه البخاري[1].

وقد توسعت في بيان حكم رفع الصوت في مسجد رسول الله ﷺ في «فضائل المدينة المنورة» وكيف رفع الله تعالى تعيين ليلة القدر لتلاحي صحابيين رضي الله عنهما فيه، كما هو في الصحيحين، فانظره إن شئت.

فإذا كان رفع الصوت فوق صوته ﷺ كله حرام، يحبط العمل، ويكون صاحبه من أهل النار. فكيف بوجوب طاعته وامتثال أمره ﷺ، وتحريم معصيته وإيذائه ﷺ؟

تحريم مخالفته ﷺ

إن الطاعة تقتضي عدم المخالفة، ولما أمر الله تعالى بطاعة رسوله ﷺ فإن ذلك يقتضي عدم مخالفته، ولهذا حذر الله عز وجل من مخالفته، وتوعَّد مخالفَه بإصابته بفتنة أو عذاب أليم.

قال الله عز وجل: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

فبعد ما ذكر الله تعالى حال المؤمنين إذا كانوا معه ﷺ لم يذهبوا حتى يستأذنوه، وإذا استأذنوه أذن لمن شاء منهم ويستغفر لهم... حذَّر الله تعالى المؤمنين وغيرهم ألا يخاطبوه بما يخاطبون به أنفسهم، فلا يقولوا: يا محمد، يا ابن عبد الله، بل عليهم تبجيله وتعظيمه وتسويده، فيقولون له: يا نبي الله، يا رسول الله، وهكذا... وهذا كله أدب، علَّم الله تعالى المؤمنين كيف يعاملون رسوله الكريم عليه وآله الصلاة والسلام.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب رفع الصوت في المسجد.
(٢) سورة النور (٦٣).

ثم تحدثت الآية الكريمة عن حال المنافقين الذين يثقل عليهم الحديث، فيلوذون بغيرهم حتى يخرجوا من مجلسه ﷺ ففضحهم الله تعالى.

ثم حذَّر الله تعالى هؤلاء الذين يخالفون عن أمر رسول الله ﷺ ومنهجه وطريقه وسبيله، أن تصيبهم فتنة من جراء ذلك، أو يصيبهم العذاب الأليم في الدنيا، كالقتل أو الحد أو الحبس. . . أو في الآخرة في نار جهنم.

وقد مر قبل قليل قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وهذا لفظ مسلم.

وفي رواية لهما: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».

لذا فليحذر وليخش من يخالف أمر رسول الله ﷺ ونهجه وشرعَه ظاهراً أو باطناً أن يصاب بفتنة في قلبه في الدنيا، أو بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وقد مر حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه، قال ﷺ: «مثلي ـ [ومثلكم] ـ كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب التي [تقع] في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فَيَتَقَحَّمْن فيها، قال: فذلكم مَثَلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تقحَّمون فيها» ونحوه من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم أيضاً ـ.

لذا فليحذر هؤلاء المخالفون أن يصابوا بهذا البلاء، لأن من عاش على شيء مات عليه، ثم بُعث عليه. والله تعالى الموفق لطاعته وعبادته، وطاعة رسوله واتباعه ﷺ.

تحريم منازعته ومشاقته ﷺ

إن الطاعةَ تقتضي التسليم للمطاع، وعدم مخالفته، والاتباعَ يقتضي أن يكون المتَّبِعُ وراء متبوعه، والسمعَ يقتضي التسليم، والقدوة تقتضي عدم المنازعة، لذا

يحرم منازعة الرسول ﷺ فيما يقضي به، أو يأمر، أو ينهى... ويحرم سلوك غير طريقه إذا كان عن عمد وتصميم، ومخالفتُه عن قصد، ومشاقته والصدود عنه، فإن ذلك حرام، يحبط العمل، والعياذ بالله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾[1].

فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله تعالى، وخالفوا رسول الله ﷺ، وشاقّوه، وارتدوا عن الإيمان بعد الهداية، فإنهم لن يضروا الله تعالى شيئاً، وإنما يضرون أنفسهم ويخسرونها يوم القيامة، وسيحبط الله تعالى أعمالهم، ولن يثيبهم على سالف ما عملوه، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، لذا عليكم يا معشر المؤمنين بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وكونوا على حذر أن يبطل الله أعمالكم، كما فعل مع من شاقّ الرسول ﷺ وخالفه.

وهؤلاء الذين يشاقون الرسول ﷺ ويسلكون غير مسلكه، وينهجون غير منهجه، ويتبعون غير سبيله الذي جاء به من ربه عز وجل، ويخرجون عن عامة الذين سلكوا منهج الرسول ﷺ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين الصادقين ـ سواء فيما اجتمعوا عليه، أو خالف نص الشرع ـ... فإن هؤلاء يولِّيهم الله تعالى ما تولوا، ويصليهم جهنم وساءت مصيراً.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[2].

وقال الله عز وجل ـ بعد ذكره لغزوة بدر وحال الكفار، وأمر الله تعالى الملائكة بتثبيت المؤمنين ـ: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝

---

(١) سورة محمد (٣٢ ـ ٣٣).

(٢) سورة النساء (١١٥).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

وقال الله عز وجل ـ عن قصة جلاء يهود بني النضير ـ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢).

فعقوبة المخالف المشاقق لأمر رسول الله ﷺ جهنم، يصلاها مذموماً مدحوراً، مع إحباط العمل، والعذاب الأليم في الآخرة، ذلك لأن المشاقق الحقيقي هم الكفار واليهود، لذا نالوا جزاءهم في الدنيا، وسينالونه أيضاً في الآخرة، فعلى المسلم ألاّ يقلدَهم، ويكون مثلهم، حتى لا ينال العقوبة التي نزلت وتنزل بهم، والله تعالى أعلم.

تحريم محادَّته ﷺ

ومما يدخل في هذا الموضوع تحريم محادّته ﷺ، والمحادة: المشاقة والمحاربة والمخالفة والمجانبة للحق... وهذا كله من صفات الكفار والمنافقين، وليس من صفات المؤمنين المسلمين.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٣).

فهم أهينوا ولعنوا وأخزوا كما حصل لمن سبقهم ممن كان على شاكلتهم.

وقال الله عز وجل ـ مبيناً حال المحادّ، وأنه ذليل حقير مبعَدٌ في الدنيا والآخرة، شقيٌّ، لأنه عاند الله ورسوله ﷺ عندما صار من المحادّين لله

---

(١) سورة الأنفال (١٢ ـ ١٤).
(٢) سورة الحشر (٣ ـ ٤).
(٣) سورة المجادلة (٥).

ولرسوله ﷺ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾[1].

كما بين الله تعالى عقوبة هذا المحادد في الآخرة ـ وهي الخلود في النار، إضافة إلى الخزي والشقاء ـ فقال الله عز وجل عن المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

ويلاحظ كيف أفرد الله تعالى الضمير، بعد ذكره للفظ الجلالة واسم الرسول ﷺ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ولم يقل: (يرضوهما)، ثم ذكر عقوبة المحادد؛ وهي الخلود في نار جهنم، وذلك هو الخزي العظيم. مع أن الآيات السابقة تتعلق بإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ. لذا رد عليهم الله تعالى بأن محمداً ﷺ رسولُه، وهو أحق أن يرضوه لو كانوا صادقين، وأن مخالفتهم ومخاصمتهم له، ترديهم في نار جهنم، والخلود فيها مع الخزي العظيم، والله تعالى أعلم.

لهذا حذر الله تعالى المؤمنين أن يوادّوا من حاد الله تعالى ورسوله ﷺ ولو كانوا أقرب المقربين إليهم.

قال الله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

فقد قَتل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه والدَه المشركَ يوم بدر كافراً.

وهمَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه قتْلَ ولده عبد الرحمن يوم بدر أيضاً.

---

(١) سورة المجادلة (٢٠).

(٢) سورة التوبة (٦٢ ـ ٦٣).

(٣) سورة المجادلة (٢٢).

وقتل مصعب بن عمير رضي الله عنه أخاه عُبيدَ بنَ عُمير يوم بدر كافراً أيضاً.

وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قريباً له يوم بدر. كما قتل علي وحمزة وعُبيدةُ بنُ الحارث رضي الله عنهم: عتبةَ وشيبةَ ابْنَيْ ربيعة والوليدَ بنَ عتبة يوم بدر مبارزة أيضاً.

فهذا شأن المؤمنين الصادقين الذين أيّدهم الله تعالى، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، مع إحلال رضوانه عليهم، فأفلحوا لأنهم حزب الله تعالى، بينما الذين قُتِلوا كفاراً كانوا حزب الشيطان.

فإذا كان المحادون في الأصل هم من الكفار والمنافقين، فلا يجوز أن يَتَّصِف بصفاتهم المؤمنون، والله تعالى أعلم.

تحريم إيذائه ﷺ

إن معصية المطاع إيذاء له، وكما حرَّم الله تعالى إيذاءَ نبيه وصفيه ﷺ بكل أنواع الإيذاء، من قول أو فعل أو إشارة... كذلك حرَّم معصيتَه ﷺ، لأن في ذلك إيذاء له، وما كان للمؤمنين أن يؤذوا رسولهم ﷺ، لأن مؤذيه ﷺ ملعون مطرودٌ من رحمة الله تعالى. والواجب على المسلم المتبع توقيره ﷺ واحترامه وتبجيله... لا إيذاءه.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[1].

(١) سورة الأحزاب (٥٣).

فقد حظر الله تعالى على المؤمنين دخولَ بيوت النبـي ﷺ، إلا إذا أذن لهم، وإذا طعمتم فخففوا عن أهل البيت، ولا تجلسوا يتمادى بكم الحديث، فإن هذا مما يؤذي رسول الله ﷺ، ولا ينهاكم عن ذلك لشدة حيائه ﷺ. ولا يجوز لكم أن تؤذوه ﷺ، ولا تتزوجوا نساءه ﷺ من بعده أبداً، لأنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين، وعلى ذلك انعقد الإجماع. ولهذا شدد الله تعالى فيه وتوعد عليه فقال: ﴿. . . إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وقد أخبر الله تعالى عما يفعله المنافقون من إيذائهم لرسوله ﷺ، ثم عمَّم الله تعالى الحكمَ، ليشملهم وغيرَهم، فكل من يؤذي رسول الله ﷺ فله عذاب أليم.

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

ولهذا هدَّد الله تعالى وتوعَّد من آذاه وآذى رسوله ﷺ ـ سواء بمخالفة أمره أو ارتكاب ما زجر عنه، أو عاب رسول الله ﷺ بنقص أو عيب، أو طعن فيه. . . أو أي شيء فيه إيذاء ـ بأن عليه لعنة الله تعالى في الدنيا والآخرة، وله العذاب المهين، لأن إيذاء رسول الله ﷺ إيذاء لله تعالى، كما أن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى، ومبايعته مبايعة لله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٢)

ولهذا حذر ﷺ من إيذاء أحد من أهل بيته، أو أصحابه رضي الله عنهم جميعاً، لأن في ذلك إيذاء له، وإيذاؤه ﷺ إيذاء لله تعالى، ومن آذى الله تعالى أو

---

(١) سورة التوبة (٦١).

(٢) سورة الأحزاب (٥٧).

رسوله ﷺ، فهو ملعون، وله العذاب المهين يوم القيامة.

توعد المتثاقلين عن إجابته ﷺ

لقد عاتب الله سبحانه وتعالى المتثاقلين عن إجابة رسوله وصفيه ﷺ، والمتخلفين عنه ﷺ، بحيث إنهم لو سمعوا قوله ﷺ وأطاعوه واتبعوه لكان خيراً لهم، وأنفع لهم، وأكثر لهم أجراً.

قال الله عز وجل ـ في توعد المتثاقلين والمتخلفين عنه ﷺ ـ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

فهو سبحانه وتعالى يعاتب هؤلاء المتخلفين عن رسوله ﷺ والمتثاقلين عنه وعن طاعته ﷺ يوم غزوة تبوك، فكم فاتهم من الأجر، حيث إنهم لا يصيبهم عطش ولا تعب ولا مجاعة، ولا ينزلون منزلاً يرهبون به العدو، ولا يظفرون بهم إلا كتب لهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، بل لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ـ قليلاً أو كثيراً ـ ولا يقطعون في سيرهم وادياً ليصلوا إلى عدو إلا كتب الله تعالى لهم أحسن ما كانوا يعملون، وكلما ابتعدوا عن أهلهم اقتربوا من ربهم، فكم فوّت هؤلاء المتخلّفون من أجرٍ وثوابٍ...؟ ولو أطاعوا رسول الله ﷺ، وساروا معه حين ندبهم؛ لنالوا كل هذه الأجور، وحصل لهم كل ذلك الثواب، وكتب لهم كل تلك الأعمال.

قال عز وجل: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة التوبة (١٢٠ ـ ١٢١).

﴿... سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا...﴾[1] الآية.

فإذا أنتم لم تنصروا رسوله ﷺ فإن الله تعالى ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الهجرة والدخول في الغار مع الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

فإذا عاتب الله تعالى المتثاقلين عن إجابته ﷺ، وأنهم ما كان لهم التخلف، فكيف بالذي يعصي جهاراً، ويخالف عناداً، ولا يطيع عمداً...؟ والعياذ بالله تعالى.

وجوب استئذانه ﷺ عند الانصراف

لقد جعل الله سبحانه وتعالى من لوازم الإيمان: ألا يذهب من كان مع رسوله ﷺ حتى يستأذنه، وجعل ذلك من صفات المؤمن الصادق مع الله تعالى ورسوله ﷺ، إذا كانوا معه ألا يذهبوا لبعض شأنهم حتى يستأذنوه.

فإذا كان الاستئذان منه ﷺ واجباً ومطلوباً ممن يريد أن يذهب لبعض شأنه، فأولى أن يكون ذلك من لوازم طاعته ﷺ، وألا يخالف قوله، وألا ينتحل رأيَ غيره... حتى يستأذنه ﷺ، وهيهات ذلك، إذ لا يوجد رأي ولا مذهب ولا اعتقاد... أفضل من رأيه ﷺ ومذهبه ومعتقده.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[3]: فإذا جعل الله تعالى من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه ﷺ إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه ألا

---

(١) سورة التوبة (٤٠).

(٢) سورة النور (٦٢).

(٣) إعلام الموقعين (١ : ٥٨).

يذهبوا إلى قولٍ، ولا مذهبٍ علميٍّ إلا بعد استئذانه، وإذنُهُ ﷺ يعرف بدلالة ما جاء به، على أنه إذنٌ منه. اهـ.

فإذا كان من لوازم الإيمان: الاستئذان بالذهاب لمن أراد منهم قضاءَ حاجة في شيء من شؤونه، فكيف لا يكون من باب أولى من لوازم الإيمان: الطاعة والامتثال والتسليم الكامل؟ والله تعالى أثبت لهؤلاء الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، ثم علّق الإجابة من رسول الله ﷺ على إرادته ﴿لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ثم طلب من رسوله ﷺ أن يستغفر لهؤلاء المستأذِنين الذين وافق وأن أذن لهم لما يفوتهم من الخير، ولتقديمهم محابّهم على **محابِّ** الله تعالى ورسوله ﷺ وقربه. إن الله غفور رحيم، والله تعالى أعلم.

تحريم التولي عن طاعته ﷺ

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله ومجتباه ﷺ، وحرَّم عليهم أن يتركوا طاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ، كما حرّم عليهم التولي عنه وتركه ﷺ، لأن التولي عن رسول الله ﷺ ليس من صفات المؤمنين، بل هو من صفات الكفار والملحدين، ولهذا اعتبر المولى جل شأنه التولي عن رسول الله ﷺ كفراً، علماً بأن الناس لو تولوا عن رسول الله ﷺ فإن توليهم عنه ليس بضاره شيئاً، لأنه عليه وآله الصلاة والسلام إنما عليه البلاغ وقد بلّغ. والذي يتضرر هو المتولي والمعانِد والمخالِف.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۞ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[1].

فيزجر الله تعالى عباده المؤمنين ـ بعد أمره لهم بالطاعة له تعالى

---

(١) سورة الأنفال (٢٠ ـ ٢٣).

ولرسوله ﷺ ـ عن مخالفته، والتشبه بالكافرين المعاندين، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي لا تتركوا طاعتَه وامتثالَ أوامره، وترك زواجره، ولا تتشبهوا بالكافرين المشركين أو المنافقين، فهم شر لا يعقلون.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾(١).

فهؤلاء المنافقون الذين يزعمون أنهم آمنوا، ولكن يخالفون أقوالَهم بأعمالهم، يقولون بألسنتهم: آمنا، ثم يخالفون بأفعالهم تلك الأقوال، ويتولون ويعرضون، لهذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإذا طلب إليهم اتباع النبي ﷺ فيما أنزل الله تعالى عليه أعرضوا وتنكبوا واستكبروا، وما ذلك إلا لكفرهم وعنادهم.

ثم بين الله تعالى عقوبة المتولي عن رسوله ﷺ ويقبل على الدنيا، ويترك ما يأمر به رسول الله ﷺ، فقال تعالى في معرض الأعذار عن الجهاد: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٢).

فانظر إلى المطابقة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ ﴾ ... و ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ويكون ذلك في الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم.

وقال جل شأنه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٣).

فمن خالف أمره ﷺ فإن الله تعالى لا يحبه، وهذا دال على أن مخالفته ﷺ في طريقته ومذهبه كفر ـ والعياذ بالله تعالى ـ وأن الله تعالى لا يحب من اتصف

---

(١) سورة النور (٤٧ ـ ٤٨).

(٢) سورة الفتح (١٧).

(٣) سورة آل عمران (٣١ ـ ٣٢).

بذلك، وإن ادعى المحبة، وزعم التقرب، حتى يتابع الرسول ﷺ، ولا يسعه إلا ذلك، والله تعالى أعلم.

ومن تولى فإنما يضر نفسه ويهلكها، لا أنه يضر برسول الله ﷺ، لأن على رسول الله ﷺ البلاغ، وقد بلَّغ.

قال الله عز وجل بعد ذكره لتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢).

فمِن الله تعالى الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم والطاعة، فمن تولى ونكل عن الطاعة والعمل، فعليه ما حُمِّل، وهو المسؤول أمام الله عز وجل أن يعذبه بما يشاء، لأن رسول الله ﷺ قد بلَّغ، والله تعالى أعلم.

تحريم معصيته ﷺ

كما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعة رسوله وصفيه ﷺ واتباعه والاقتداء به... فإنه سبحانه وتعالى حرَّم معصيتَه ﷺ وجعلها ضلالاً مبيناً، وأعد للعاصي العذابَ الشديد، والخلودَ في النار إذا كانت المعصية في العقيدة... وهذا يدل على عظم ذنب العاصي، حيث أوجب الله تعالى له الخلودَ في النار مع العذاب الشديد.

ولهذا حرَّم الله تعالى على المؤمنين المناجاةَ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، لأن ذلك من صفات الكفار والمنافقين.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا

---

(١) سورة المائدة (٩٢).

(٢) سورة التغابن (١٢).

﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]

فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن من صفات اليهود والكفار: المناجاةَ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، لذا حسبهم عذاب جهنم وبئس المصير. ولهذا حذر المؤمنين عن هذه المناجاة وعليهم المناجاة بالبر والتقوى، ولا يكونوا كالكفار والمنافقين.

ولما كان: لا أعظم ـ على المؤمن ـ نعمةً من نعمةِ الإيمان: ﴿. . . بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ. . .﴾[2]، ومن نعمةِ الرسول ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ. . .﴾[3] لذا حرم على المؤمنين معصيته ﷺ. كما فعل فرعون مع رسوله موسى عليه السلام، فاستحق فرعون العذاب الشديد، وكذا يستحق كل من عصى رسول الله وصفيَّه محمداً ﷺ العذاب الشديد.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[4]، فاحذروا ـ إن كذَّبتم رسوله وصفيه ﷺ ـ أن يصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

ومعصية الرسول ﷺ لا يختص بها الرجال، بل تشمل النساء، وتقع منهن كما تقع من الرجال، ولهذا أمر الله تعالى رسوله ومصطفاه ﷺ، إذا بايع النساء أن يشترط عليهن عدم معصيته ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا

(١) سورة المجادلة (٨ ـ ٩).
(٢) سورة الحجرات (١٧).
(٣) سورة آل عمران (١٦٤).
(٤) سورة المزمل (١٥ ـ ١٧).

﴿يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

وهكذا كان النبي ﷺ يبايع النساء على هذه الشروط.

فعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية، بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قالت: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مست يدُه يدَ امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك» متفق عليه واللفظ للبخاري[2].

وعن أُمَيْمة بنت رُقَيْقة رضي الله عنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة يُبايعنه، فقلن: نبايعك يا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولانسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ: «فيما استطعتن وأطقتن».

قالت: فقلت: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة ـ أو مثل قولي لامرأة واحدة» رواه مالك والطيالسي والحميدي وأحمد والترمذي ـ وصححه ـ والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبان وغيرهم[3].

---

(١) سورة الممتحنة (١٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الممتحنة: باب ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب كيفية بيعة النساء، رقم (٨٨ ـ ٨٩).

(٣) الموطأ: كتاب البيعة: باب ما جاء في البيعة (٢: ٩٨٢ ـ ٩٨٣ رقم ٢) ومسند أحمد (٦: ٣٥٧، ٤٥٤، ٤٥٩) وسنن الترمذي: كتاب السير: باب ما جاء في بيعة النساء، رقم (١٥٩٧) وسنن النسائي: كتاب البيعة: باب بيعة النساء (٧: ١٤٩) والسنن الكبرى له: كتاب السير: باب بيعة النساء (٥: ٢١٨) والتفسير له (٢: ٤٢١ ـ ٤٢٢) وعشرة النساء=

والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

وقد كان ﷺ يتعهد هذا المعنى الوارد في هذه البيعة، ويكرر ما جاء فيها في كل مناسبة يجتمع فيها عدد كبير من النساء، وبقي هذا الأمر حتى السنوات الأخيرة من حياته ﷺ.

فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبـي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فكلهم كان يُصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل النبـي ﷺ، فكأني أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجالَ بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساء مع بلال، فقال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ . . .﴾» حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» وقالت امرأة واحدة ـ لم يجبه غيرها ـ: نعم يا رسول الله، قال: «فتصدقن» فبسط بلالٌ ثوبَه، فجعلن يلقين الفَتْخَ والخواتيمَ في ثوب بلال. لفظ البخاري[1].

وهذا الحديث إنما وقع في آخر حياته ﷺ، لأن ابن عباس رضي الله عنهما كان قدومه المدينةَ المنورةَ بعد الهجرة كما هو معلوم وهو يقول: شهدتُ الصلاةَ. . . مع رسول الله ﷺ.

وقد بايع النبـي ﷺ بعض الصحابة الكبار ـ ممن شهد بدراً، بل إن منهم نقباء ـ هذه البيعة أيضاً.

= له ـ مختصراً ـ (٣٠٥) وسنن ابن ماجه: كتاب الجهاد: باب بيعة النساء، رقم (٢٨٧٤) ومسند الطيالسي (٢٢٥ رقم ١٦٢١) ومسند الحميدي (١: ١٦٢ رقم ٣٤١) والمستدرك (٤: ٧١) وصحيح ابن حبان (٧: ٤١) والسنن الكبرى للبيهقي (٨: ١٤٦) والمعجم الكبير (٢٤: ١٨٦ ـ ١٨٩ رقم ٤٧٠ ـ ٤٧٦).

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الممتحنة: باب ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ـ وفي غيرهما.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا [في رواية الإسماعيلي: ولا تعصوني] في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك. متفق عليه واللفظ للبخاري(١).

ومعصية الرسول ﷺ ضلال مبينٌ، لأن الأصل بالمسلم الطاعة والتسليم.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(٢).

وقد تكون عقوبة معصية رسول الله ﷺ ـ إذا كانت كفراً ـ هي خلود العاصي في نار جهنم.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۞ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾(٣).

فإذا ما دخلوا النار ووجدوا فيها ما وُعِدوا من العذاب، علموا ضعف ناصرهم، وقلة عددهم، بخلاف المؤمنين الصادقين المطيعين، ولهذا ذكر الله تعالى حال الفريقين: المؤمنين الصادقين المخلصين المطيعين ـ فلهم جنات تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها ـ والعصاة المخالفين الكافرين ـ فلهم العذاب المهين، والخلود في نار الجحيم ـ.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب (١٨) بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الحدود: باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (٤١ ـ ٤٤).
(٢) سورة الأحزاب (٣٦).
(٣) سورة الجن (٢٢ ـ ٢٤).

قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

فمكافأة المطيع الخلود في الجنة، والفوز العظيم، وعقوبة العاصي الخلود في النار والعذاب المهين.

فلو لم تكن طاعته ﷺ واجبة مفروضة ومعصيتُه محرمةً كبيرة؛ لما استحق المطيعُ الخلودَ في الجنة والفوز العظيم، ولما استحق العاصي الخلودَ في النار والعذاب المهين، والله تعالى أعلم.

ولهذا إذا ما حشر الناس يوم القيامة، ويرى العاصي عقوبته وسببها، ويرى ثواب المؤمنين الطائعين... فإنه يندم على ما كان قد فَرَط منه، ويتمنى لو فعل خلاف المعصية، ولكن هيهات.

قال الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[2].

فقد قرن الله تعالى بين الكفر ومعصية الرسول، في ذلك الموقف الرهيب، يوم يغفر الله تعالى للمذنبين من المؤمنين، ويحل الخزي والفضيحة على الكفار المعاندين، يومئذ يتمنون أن لو كانوا قد سويت بهم الأرض، فينكرون، ولكن جوارحهم تنطق بما فعلوا، ولا يكتمون الله تعالى شيئاً، ولهذا يقولون:

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ

---

(١) سورة النساء (١٣ ـ ١٤).

(٢) سورة النساء (٤١ ـ ٤٢).

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[1].

ولكن هل ينفع الندم آنذاك؟ لا.

ولهذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتبرأ من عمل من يعصيه.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

ويلاحظ قوله تعالى: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ حيث تبرأ من أعمالهم.

ولهذا لا يسمع أحد بالنبي ﷺ من يهودي أو نصراني أو غيرهم ثم لم يؤمن بالنبي ﷺ وبما جاء به... ولم يتبعه، إلا دخل النار، لأنه كافر يستحقها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم[3].

ولهذا أمر ﷺ أمته أن تفعل ما أمرها به ـ حسب الطاقة ـ وأن تجتنب ما نهاها عنه، لأنه بمقدورها، ولا يأمر إلا بما هو مستطاع، وقد سبق بيان ذلك.

ولا يشترط بالمعصية أن تكون مخالفة لقوله ﷺ، بل قد تكون للفعل أيضاً، وقد يكون الفعل الذي فعله ﷺ أبلغ من القول في النهي، لذا يستحق مخالفه وصف العاصي.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كُراعَ الغميم، فصام الناس، [فقيل له: إن

---

(١) سورة الفرقان (٢٧ ـ ٢٩).

(٢) سورة الشعراء (٢١٤ ـ ٢١٦).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم (٢٤٠).

الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلتَ، فدعا بقدح من ماء بعد العصر] فرفعه، حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، فقيل له: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة» رواه مسلم(١).

فالفطر والصوم في السفر جائزان، لكن لما قيل له ﷺ: إن الناس قد شق عليهم الصيام. **أَفْطَرَ، فكان فعلُه ﷺ ـ وهو الفطرُ ـ أبلغَ من أمره لو أمرهم** بالفطر، فلما لم يفطر هؤلاء كانوا عصاة، لأنه ما أفطر إلا لما شق عليهم، فاستحقوا هذا الوصف.

وقد عاقب الله تعالى من يعصي رسولَه ﷺ بدخول النار، كما أثاب الله تعالى من أطاع رسوله ﷺ بدخول الجنة.

فعن هريرة رضي الله عنه قال؛ قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري(٢).

وقد جاء نحو هذا من حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، عند ابن حبان والطبراني في الأوسط برجال ثقات، وبنحوه من حديث أبـي أمامة رضي الله عنه، عند أحمد والحاكم والطبراني أيضاً(٣)، وسيأتي مزيد بيان في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

وذلك لأن من عصى رسول الله ﷺ فهو عاص لله تعالى الذي أرسله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله تعالى الذي أرسله.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصيام: باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، رقم (٩٠ ـ ٩١) وما بين المعكوفتين فهو من رقم (٩١).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٣) مسند أحمد (٥: ٢٥٨) والمستدرك (١: ٥٥ ـ ٥٦) (٤: ٢٤٧) وصحيح ابن حبان (١: ١١١ رقم ١٧) وموارد الظمآن، رقم (٢٣٠٦) ومجمع الزوائد (١٠: ٧٠، ٧١) وفتح الباري (١٣: ٢٥٤).

وقد سبق ذكر حديث جابر رضي الله عنه ـ في قصة رؤياه ﷺ للملائكة في المنام، وضربهم المثل له ـ وفي آخره: «فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فَرَّقٌ بين الناس». لفظ البخاري[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، . . .» متفق عليه[٢].

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنه في طاعتهم لرسولهم وحبيبهم ﷺ، وعدم معصيتهم له، ولو كان الأمر فوق طاقتهم، حتى يخفف الله تعالى عنهم رحمةً بهم، وشفقة بهذه الأمة، وإذا قارنا بين هذه الأمة، وبين من سبقها لوضح لنا الفارق الكبير.

فقد قال الله تعالى عن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقال الله تعالى عنهم أيضاً: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (٣٢ ـ ٣٣).

(٣) سورة البقرة (٩١ ـ ٩٣).

قَلِيلًا﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات.

فأي إيمان يأمرهم بعدم الطاعة والامتثال؟ وهم قد عصوا، وعبدوا العجل، وقتلوا الأنبياء، وحرّفوا الكتاب المنزل عليهم، وكفروا بماجاءهم من الحق... وعصوا أمر ربهم وأمر رسولهم عليه السلام... لهذا لعنهم الله تعالى بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً.

بينما صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم على النقيض تماماً، والحمد لله، حيث ضربوا المثل الأعلى في الطاعة والامتثال، والسمع والتسليم، وقد شهد الله سبحانه وتعالى لهم بذلك.

لما نزل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله تعالى لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وذلك كله من شدة إيمانهم، وصدق يقينهم، وحسن توجههم رضي الله عنهم، فجثوا على الركب وخافوا... ويتضح هذا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حتى نسخها الله تعالى، لما علم صدق نيتهم وصدق توجههم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتَوْا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاةَ والصيامَ، والجهادَ، والصدقةَ، وقد أُنزلت عليك هذه الآيةُ، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن

---

(١) سورة النساء (٤٦).

(٢) سورة البقرة (٢٨٤).

تقولوا كما قال أهل الكتابَيْن من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(1) فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ قال: نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ قال: نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ ﴾ قال: نعم ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(2) قال: نعم» رواه مسلم(3).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ ... وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ... ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم مِنْ شيء، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلَّمْنا» قال: فألقى الله الإيمانَ في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ قال: قد فعلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ قال: قد فعلت ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ قال: قد فعلتُ». رواه مسلم(4).

ولهذا تجاوز الله تعالى عن حديث النفس رحمة بهذه الأمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز

---

(1) سورة البقرة (٢٨٥).

(2) سورة البقرة (٢٨٦).

(3) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان أن الله سبحانه وتعالى لم يكلِّف إلا ما يطاق، رقم (١٩٩).

(4) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب بيان أن الله سبحانه وتعالى لم يكلِّف إلا ما يطاق، رقم (٢٠٠).

لأمتي ما حدَّثَت به أنفسها، ما لم يتكلموا أو يعملوا به» متفق عليه[1]، والنصوص كثيرة في ذلك[2].

فلما سلَّموا وسمعوا وأطاعوا، تجاوز الله تعالى لهم عما حدَّثوا به أنفسَهم، رحمةً بهم، وشفقة عليهم، بخلاف ما كان في الأمم السابقة حيث عصوا وتنكبوا وخالفوا.

ولهذا حث ﷺ على قراءة هاتين الآيتين، ومن قرأهما في ليلة كفتاه.

فعن أبـي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبـي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» متفق عليه[3].

فيبقى المؤمن ـ في تكراره لهذه الآيات ـ متذكراً ما حصل للمُسَلِّم المطيع، لينال ثوابَ الله تعالى وعفوَه ومغفرَته، وهو الغفور الرحيم، والله تعالى أعلم.

أخذ الله تعالى الميثاق له من جميع الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام

ومما يدل على وجوب طاعته ﷺ من قِبَلِ أمته وغيرها حتى إلى زماننا وما بعد: أخذُ الله تعالى الميثاق له ﷺ من جميع الأنبياء والمرسلين السابقين، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهذا الميثاق هو الإيمانُ به ﷺ ونصرتُه وتأييدُه واتباعُه، كما أمر الله تعالى هؤلاء الرسل أن يأمروا أقوامهم ـ ممن يدرك منهم رسولَه وصفيَّه ﷺ ـ أن يؤمن به وينصره ويتبعه ويطيعه. . . ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الطلاق: باب الطلاق في الإغلاق والمكره والسكران. . . ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، رقم (٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٢) انظر فضائل الرسول ﷺ، فقد توسعت في ذكر النصوص.

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن: باب فضل سورة البقرة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم (٢٥٥ ـ ٢٥٦).

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم، وقتادة والسدي ـ وقريب منه قول الحسن وطاووس ـ كما ذكر ذلك الطبري وابن كثير والسيوطي وغيرهم من أهل التفسير بالمأثور، عند تفسير هذه الآية: **ما بعث الله نبياً من الأنبياء ـ من لدن نوح ـ إلا أخذ ميثاقه، ليؤمنن بمحمد ﷺ، ولينصرنه إن خرج وهم أحياء، . . . اهـ.**

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ ليشمل كل نبي ورسول، باعتبار أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، لأن النبي: ما نزل عليه الوحي ولم يُؤمر بتبليغه، أما الرسول: فهو من نزل عليه الوحي وأُمر بتبليغه، فالنبي أعم من الرسول، ولهذا ختم الله تعالى برسوله محمد ﷺ النبوة، فقال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ ليكون خاتماً للأنبياء والرسل، فإنه إذا كان خاتماً للأنبياء، يكون خاتماً للرسل أيضاً، وهذا هو سر قوله تعالى عن نبيه وصفيه محمد ﷺ بأنه خاتم النبيين.

قال الله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ . . .﴾[2] فهو ﷺ رسول الله، وهو خاتمٌ لجميع الأنبياء، وكذا لجميع المرسلين أيضاً، فلو كان خاتم المرسلين لاحتمل وجود نبي بعده، فلما ختم الأنبياء كان خاتماً لهم وللمرسلين أيضاً، والله تعالى أعلم.

فالله سبحانه وتعالى أخذ هذا العهد والميثاق على الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وقرَّرهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق أن يؤمنوا بالنبي

---

(١) سورة آل عمران (٨١).

(٢) سورة الأحزاب (٤٠).

المصطفى ﷺ وينصروه، فلما أقروا بذلك أشهدهم عليه، والله تعالى خير الشاهدين.

وهذا العهد الذي أخذه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، لم يكن إلا له، وذلك ـ والله تعالى أعلم ـ لعموم رسالته، بخلاف غيره من الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى عند جميع الأنبياء السابقين العلم التام به ﷺ، وبمبعثه وزمانه ومهاجَرِه... وعلاماته وأوصافه ﷺ وبلَّغوا ذلك أُممهم.

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام» رواه أحمد وابن حبان والحاكم ـ وصححاه ـ وأقره الذهبي، والبزار والطبراني وابن سعد والبيهقي والبخاري في التاريخ، والبغوي(1).

فدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ... ﴾(2).

وبشارة عيسى عليه السلام: ﴿... وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ... ﴾(3).

وقد حدثنا الله سبحانه وتعالى عن وصفه ﷺ في كتب أهل الكتاب، وعن

---

(1) سورة مسند أحمد (٤: ١٢٧، ١٢٨) والتاريخ الكبير (٦: ٦٨ ـ ٦٩) والطبقات الكبرى (١: ١٤٨ ـ ١٤٩) وصحيح ابن حبان (٨: ١٠٦) والموارد، رقم (٢٠٩٣) والمستدرك (٢: ٤١٨، ٦٠٠) وكشف الأستار (٣: ١١٢ ـ ١١٣) وقال: لا نعلم يُروى بإسناد أحسن من هذا...، ودلائل النبوة للبيهقي (١: ٨٠) ومجمع الزوائد (٨: ٢٢٣) ورواه آخرون مختصراً، وعزاه السيوطي في الدر للطبري، وابن أبـي حاتم وابن مردويه.

(2) سورة البقرة (١٢٩).

(3) سورة الصف (٦).

علمهم به، كما ذكر كثير من الأحبار والرهبان ذلك بشكل موسع، وقد توسعت في بيان ذلك في «فضائل النبي ﷺ...» و «الخصائص...» وغيرهما.

وقد اتضح هذا الميثاق في سلام الأنبياء والرسل عليهم السلام يوم الإسراء والمعراج، حيث قالوا: مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح. إلا ما كان من آدم وإبراهيم عليهما السلام حيث قالا: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح - اعترافاً منهم به وتقريراً لما أخذ عليهم - كما في حديث مالك بن صعصعة وأبي ذر رضي الله عنهما[1] وغيرهما.

ولعل أوضح الأمور على هذا صلاته ﷺ إماماً بالأنبياء عليهم السلام في بيت المقدس ليلة الإسراء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْر، وقريش تسألني عن مسراي...» الحديث وفيه: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء... فحانت الصلاة فأممتُهم...» الحديث. رواه مسلم[2].

وجاء في حديث أنس رضي الله عنه - واللفظ للنسائي[3] - قوله ﷺ: «... ثم دخلت بيت المقدس، فجُمع لي الأنبياءُ عليهم السلام، فقدَّمني جبريلُ حتى أممتُهم...» الحديث.

وإذا علمنا مدى التزام المأموم بأوامر الإمام، إذ لا يركع المأموم حتى يركع الإمام، ولا يسجد حتى يسجد الإمام... إذ «إنما جعل الإمام ليُؤْتَمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا... وإذا ركع فاركعوا... وإذا سجد فاسجدوا...» عرفنا متابعة

---

(١) انظر صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وكتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (٢٦٣ - ٢٦٤).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام والمسيح الدجال، رقم (٢٧٨).

(٣) سنن النسائي: كتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة (١: ٢٢١ - ٢٢٣).

الأنبياء عليهم السلام له ﷺ، إضافة إلى أن الذي يتقدم في الإمامة ـ وخاصة في مثل هذا الموطن ـ إنما هو الأَخْير والأفضلُ والأكمل والأعلم. . . ولهذا قدَّمه جبريل عليهما الصلاة والسلام.

ولو قُدِّر لواحد من هؤلاء الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام الحياة، وبُعث المصطفى المختار صلوات الله تعالى وسلامه عليه، لما وسعه إلا اتباعه، كما هو واضح من العهد والميثاق في الآية الكريمة، ولهذا قال ﷺ: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»[1].

وفي بعض الروايات إضافة «عيسى عليه السلام» وفي بعضها أيضاً «يوسف عليه السلام».

وإذا كان الله تعالى قد أخذ له العهد والميثاق على جميع الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومن ثم أخذه الأنبياء عليهم السلام على أممهم، أن يؤمنوا به وينصروه ويتبعوه، فلزوم ذلك هو الطاعة والامتثال والاتباع، وإلا فلا إيمان ولا نصرة، بغض النظر عن وقوع ذلك من أهل الكتاب، لأن صدهم كان عناداً وكفراً ومكابرة، لا نفياً للحقيقة التي يعرفونها، ويوقنون بها، لأنهم يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، كما أخبرنا الله عز وجل.

فإذا كان هذا في الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهذا هو الواجب فيهم، فكيف لا يكون في أمته وأتباعه ومن يدعي محبته. . . ﷺ؟ لا شك يجب أن يكونوا أشد له طاعة وامتثالاً واتباعاً ومحبة. . . والله تعالى أعلم.

---

(١) جاء عدد من الصحابة، منهم جابر، وعبدالله بن ثابت، وعمر، وابن عباس، وعقبة بن عامر، وأبو الدرداء، رضي الله عنهم. انظر مسند أحمد (٣: ٣٣٨، ٣٨٧، ٤٧٠ ـ ٤٧١) (٤: ٢٦٥ ـ ٢٦٦) ومصنف عبد الرزاق (٦: ١١٣) (١٠: ٣١٣) ومسند أبي يعلى (٤: ١٠٢) وسنن الدارمي (١: ٩٥) وكشف الأستار (١: ٧٨ ـ ٧٩) وشعب الإيمان (١: ٢٠٠) والسنن الكبرى (٢: ١١) ودلائل النبوة لأبي نعيم (١: ٥٠) ومجمع الزوائد (١: ١٧٣ ـ ١٧٤) (٨: ٢٦٢) وكنز العمال (١: ١٨٣، ٢٠٠ ـ ٢٠١، ٢٠١) وفتح الباري (١٣: ٣٣٤) وتفسير ابن كثير (١: ٣٧٨) (٢: ٤٦٧).

الحامل على المعصية

لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام ـ في الجنة ـ وأمر الملائكة الكرام بالسجود سجدوا، وامتنع إبليس من السجود ـ تكبراً واحتقاراً ـ فاستحق اللعن والطرد لمعصيته، فقرر إغواءَ آدم الذي كان سبب إخراجه من الجنة، فدله على أكل الشجرة، وأقسم له أنه ناصح، فأخرج الله تعالى الثلاثة (آدم وحواء وإبليس) من الجنة، فقرر إبليس الانتقام من ذرية آدم، وحلف ألا يدع أحداً منهم مطيعاً تكون نهايته الجنة، بل سيكونون من حزبه، وطلب من الله تعالى ألا يميته، بل يُنْظِرَه إلى يوم الدين، حتى يحتنك ذرية آدم، فأَنْظره الله تعالى، وحذَّر الله تعالى بني آدم من عدوهم اللدود، الذي قرَّر الانتقام منهم نكاية في أبيهم آدم... وخَوَّفهم الله تعالى متابعته، وبيّن تعالى في كتابه وعلى لسان رسله عليهم السلام، أساليبَه ومنهاجَه ووسائلَه... في إضلالهم، كما حذَّرهم النتيجةَ النهائيةَ التي تنتظر إبليسَ وأعوانه؛ وهي العذاب في نار جهنم.

لذا فمن أطاع إبليس واتبع سبيله، وسار على نهجه ومشى وراءه، كان عاصياً لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ومن أهم وسائل إبليس في إضلال الخلق، الشهوات، واتباع الهوى

اتباع الرسل وطاعة الشيطان لا يلتقيان في قلب عبد أبداً، بل لا بد من وجود واحد ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ... ﴾[١] وقد توسعت في بيان العداوة بين الإنسان والشيطان في «العداوة بين الإنسان والشيطان وأثر ذلك على الجريمة» فلا حاجة إلى إعادة ذلك هنا، لكني أذكر ـ هنا ـ بعض النصوص القرآنية الكريمة من غير تعليق لبيان العداوة بين الإنسان والشيطان، وتحذيرات الله تعالى لبني آدم، وتزيين الشيطان للإنسان أعماله الباطلة ليضله بها.

---

(١) سورة البقرة (٢٥٦).

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(١).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وقال جل شأنه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

وقال عز شأنه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٤).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٥).

وقال جل وعز: ﴿... زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ...﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء (٦١ ـ ٦٥).

(٢) سورة الأعراف (٢٧).

(٣) سورة الحشر (١٦ ـ ١٧).

(٤) سورة فاطر (٦).

(٥) سورة المائدة (٩١).

(٦) سورة الأنفال (٤٨) النحل (٦٣) النمل (٢٤) العنكبوت (٣٨) وانظر سورة الأنعام (٤٣).

ولهذا اعتبر عز وجل اتباعَ الشيطان عبادةً له، وكيف يعبدُ الإنسانُ الشيطانَ وهو له عدو مبين، كما قال الله عز وجل: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وللشيطان على الإنسان مداخل يدخل منها عليه، ويخضعه لرغباته، ويجعله يبتعد عن طاعة مولاه، ويرتكب المخالفات والمعاصي والمنكرات، كل ذلك من أجل أن يكونوا من حزبه؛ الذين سيكونون من أصحاب السعير، كما قال جل شأنه: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

وقال جل وعز: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

ومداخل الشيطان الرئيسية على الإنسان ثلاثة: النفس، والشهوات، والهوى. ولهذا حذر الله تعالى من هذه الأمور الثلاثة.

فالنفس أمارة بالسوء، كما قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿. . . ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ . . .﴾[4].

ثم تكون ملهمة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[5].

ثم تكون لوامة، تلوم صاحبها على خطئه وتقصيره وعصيانه، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[6].

---

(١) سورة يس (٦٠).
(٢) سورة المجادلة (١٩).
(٣) سورة فاطر (٦).
(٤) سورة يوسف (٥٣).
(٥) سورة الشمس (٧ ـ ١٠).
(٦) سورة القيامة (٢).

ثم تكون مطمئنة، ثم راضية، ثم مرضية. . . كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1].

فإذا صارت النفس في هذه المرتبة الكاملة، ودخلت في هذه الإضافة التامة ﴿عِبَٰدِى﴾ لن يكون للشيطان عليها سبيل، وليس له عليها سلطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ. . . ﴾[2] وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3].

وقال جل شأنه على لسان إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى على لسانه أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

فأصحاب النفوس الثلاثة الأولى للشيطان عليهم سبيل، وله عليهم تسلط، أما إذا صارت النفس مرضية كاملة فليس له عليها سبيل، ولن يُسَلَّط عليها؛ إلا إذا غفلت عن ربها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[6].

ولهذا فإن كل نفس تحاسب بما تكسبه وبما تسعى به: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ

---

(١) سورة الفجر (٢٧ ـ ٣٠).
(٢) سورة الإسراء (٦٥) الحجر (٤٢).
(٣) سورة النحل (٩٩).
(٤) سورة ص (٨٢ ـ ٨٣).
(٥) سورة الحجر (٣٦ ـ ٤٣).
(٦) سورة الأعراف (٢٠١).

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[2].

فإذا رأت النفسُ ثوابَ الطائعين، وعقوبتها التي تحل بها تتحسر على ما فعلت، وتندم على تصرفها السيء، وتود أن لو كانت غير مفرطة، ولكن هيهات: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[3].

ولهذا ما يصاب الإنسان من نكبات وعقوبات... فإنما هو عقوبة من الله تعالى على ما اقترفت نفسه، كما قال الله عز وجل: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...﴾[4].

ولهذا قال ﷺ ـ كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ـ: «ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همٍّ، ولا حزن، ولا أذى، ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه» متفق عليه واللفظ للبخاري[5].

ولما كانت الجنة تحتاج لِمِلْئها، والنار تطالِب بملئها، لهذا حق قوله تعالى، وإلا فإنه تعالى قادر على إلهام النفس هداها، ولكن بعض أصحاب النفوس ظالمو أنفسهم ليدخلوا النار يوم القيامة.

ولهذا من نهى نفسه عن الهوى، وخاف مقام ربه؛ فإن الجنة هي مأواه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وأما الشهوات، فقد زُين ذلك للإنسان بأصناف متاع الدنيا، فإن استعملت

---

(١) سورة إبراهيم (٥١).
(٢) سورة طه (١٥).
(٣) سورة الزمر (٥٦).
(٤) سورة النساء (٧٩).
(٥) صحيح البخاري: كتاب المرضى: باب ما جاء في كفارة المرضى. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض،... رقم (٥٢).

في طاعة الله تعالى فهي خير، وإن استعملت للخيلاء والفخر، أو للإبعاد عن الله تعالى ولمعصيته فهي شر.

قال الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(1).

وقال الله عز وجل: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(2).

واتباع الشهوات هي من أوامر الشيطان، لأنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، ولا يأمر بطاعةٍ؛ إلا ليضيع على المسلم طاعةً أكبر منها، فيُضَيِّع عليه الطاعَتَين.

قال الله عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ . . .﴾(3).

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(4).

والنصوص كثيرة في بيان أمر الشيطان الإنسان بالفواحش والمنكرات، وأن الله تعالى لا يأمر بذلك.

وأما الأهواء، فالنصوص فيها كثيرة جداً، أقتصر على ذكر بعضها.

قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟

---

(1) سورة آل عمران (١٤ ـ ١٥).
(2) سورة مريم (٥٩).
(3) سورة النور (٢١).
(4) سورة البقرة (١٦٨ ـ ١٦٩).

أَهْوَآءَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[1].

فاتّباع الهوى إنما من قبل ظالمي أنفسهم الضالين... ولهذا حذّر الله تعالى من اتباع الهوى، وأشد شيء من يتخذ هواه إلهه فيتبعه ولا يخالف هواه، لهذا لا يصح اتباعهم ولا اقتداء فعلهم، كما بين تعالى أن سبب عدم اتباعهم إنما هو الهوى.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ...﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[3].

وقال جل شأنه عن المشركين: ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ...﴾[4].

ولهذا نهى جل شأنه عن اتباع الهوى، فقال جل شأنه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[5].

وقال جل شأنه مبيناً أن اتباع الهوى يُضل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[6].

---

(١) سورة محمد (١٤، ١٦).
(٢) سورة الأعراف (١٧٥ ـ ١٧٦).
(٣) سورة الروم (٢٩).
(٤) سورة النجم (٢٣).
(٥) سورة النساء (١٣٥).
(٦) سورة ص (٢٦).

وأقبح شيء أن يتخذ الإنسان إلهه هواه، فلا يسمع إلا له، ولا يطيع إلا إياه، لهذا أضله هواه.

قال الله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

فإذا وصل اتباع الهوى أن يكون هو المعبود: فمن يهدي من هذا شأنه من بعد الله؟ لا أحد.

ولهذا حذر الله تعالى من اتباع أصحاب الأهواء الذين ذهبت بهم مذاهب شتى، وشتّتهم حتى صاروا في كل واد يهيمون، فقال جل شأنه: ﴿.. وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[3].

وقال تعالى على لسان نبيه وصفيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا...﴾[5] في آيات كثيرات[6].

ولهذا بيّن المولى جل شأنه أن عدم اتباع الكفار للنبي ﷺ إنما هو لاتباعهم أهواءهم، ولهذا ضلوا باتباعهم لها.

قال الله عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ

---

(١) سورة الفرقان (٤٣).

(٢) سورة الجاثية (٢٣).

(٣) سورة المائدة (٧٧).

(٤) سورة الأنعام (٥٦).

(٥) سورة الأنعام (١٥٠).

(٦) انظر سورة البقرة (١٢٠، ١٤٥) المائدة (٤٨، ٤٩) الرعد (٣٧) المؤمنون (٧١) الشورى (١٥) الجاثية (١٨) سورة القمر (٣).

﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقال جل شأنه عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

وهكذا نرى سبب عدم الطاعة، وارتكاب المعصية، حيث الشيطان يمني النفوس؛ فتركب هواها، فتضل، وتمتنع عن الطاعة، وترتكب المعصية، حقداً منه على الإنسان، وانتقاماً منه، لأن أبا البشر كان سبب خروجه من الجنة. فهل يعي المسلمون عدوهم الأول، وما يجلبه لهم من شرور بالشهوات والأهواء، ويدفع به النفوس التي لم تتزكّ، فتدخل في حظيرة ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ وفي حصن ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فيسلمون من شروره، ويأمنون من مكره، فينالون رضى الله تعالى وسعادة الدارين، في طاعتهم له جل شأنه وطاعة رسوله ﷺ؟.

وقبل الانتهاء من هذا الفصل أحب أن أذكر جزاءَ المعصية التي ينالها العاصي، وثوابَ الطاعة التي يُكْرَم بها المطيع لتكون خاتمة لهذا الفصل، أحسن الله تعالى ختامنا جميعاً بفضله وكرمه.

جزاء المعصية

ولا أعني به الجزاء الأخروي فحسب، بل كل ما يذم المعصية، ويتصف بها العاصي، وما يناله من سلبيات في الدنيا والآخرة، والعقوبات التي ينالها العاصي كثيرة منها الدنيوية، ومنها الأخروية، ومنها العقائدية، ومنها المادية... لكني سأقتصر على ذكر بعضها دون الاستقصاء، كما أني سأقتصر في بيانها، وأشير إلى موطن الشاهد وذكر الدليل من غير تطويل ولا إسهاب للاختصار في ذلك.

لكني أحب أن أنبه ـ هنا ـ إلى أن المعصية منها المكفِّرة، ومنها غير المكفِّرة،

---

(١) سورة القصص (٥٠).

(٢) سورة القصص (٥٧).

وليس الذي أذكره هو خاص بأحدهما دون الأخرى، وإنما أذكر من جهة العموم، وكذا يجب أن يعلم وجودُ فارق كبير بين جزاء العاصي من هذه الأمة، وجزاء الكافر المعاند، وكذا المرتد من هذه الأمة، فتنبه، والله تعالى هو المعين.

١ ـ هو عاص لله تعالى

إن العاصي للنبي ﷺ هو عاص لله عز وجل، كما أن المطيع للنبي المصطفى ﷺ هو مطيع لله تعالى، لأن النبي المصطفى ﷺ هو رسول الله، وقد أمر الله تعالى بطاعته، وحرَّم معصيتَه، فمن عصاه فقد عصى مرسِلَه، كما أن من أطاعه قد أطاع مرسِلَه.

وقد سبق بيان ذلك، حيث مر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله»... متفق عليه.

وسبق ذكر حديث جابر رضي الله عنه، والذي فيه: «... فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فَرَّقٌ بين الناس» رواه البخاري.

والنصوص في هذا المعنى كثيرة، والله تعالى أعلم.

٢ ـ هو من حزب الشيطان

لقد بين الله سبحانه وتعالى أن الناس في كتابه الكريم حزبان، حزب الله تعالى، وهم: المؤمنون المتقون المطيعون...، وحزب الشيطان، وهم: الكفار والعصاة والمنافقون... والفسقة، فكل عاص هو من حزب الشيطان، وانتماؤه إليه بقدر ضخامة وعظم معصيته، فالفاسق ليس كالكافر والمنافق، وحزب الشيطان خاسر، من أهل النار.

قال الله عز وجل عن حزب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(١).

بينما قال جل شأنه عن حزب الشيطان: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٢).

وقال جل شأنه في بيان عذاب ومصير حزب الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٣)، والله تعالى أعلم.

٣ ـ العاصي غير موفق

إذا أراد الله سبحانه وتعالى بعبد من عباده خيراً ألهمه رشده، ووفقه للطاعة والعمل الصالح، وجعله من عباده الصالحين. . .، وإذا لم يرد به خيراً، لم يوفقه للطاعة، ولم يلهمه رشده، ولم يوجهه للعمل الصالح. . .، حيث فقد توفيق الله تعالى. والمؤمن المطيع يعرف أن توفيقه إنما هو من الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٤) فالعاصي غير موفق، لأن الله تعالى نزع عونه عن العاصي، فلم يصب الحق، بينما المطيع على العكس من ذلك.

ويكفي العاصي مذلةً وإهانةً وبعداً، نزع الله تعالى العون عنه، وعدم توفيقه. أعاذنا الله تعالى من ذلك.

٤ ـ لا يحبه الله عز وجل

إن الله عز وجل كما يكره الكفر لعباده، فإنه تعالى يكره الفسق والعصيان،

---

(١) سورة المائدة (٥٥ ـ ٥٦). وانظر سورة المجادلة (٢٢).

(٢) سورة المجادلة (١٩).

(٣) سورة فاطر (٦).

(٤) سورة هود (٨٨).

وإذا كان الفسق الذنوب الكبار، فإن العصيان جميع المعاصي. ولهذا جاءت آيات كثيرة في كتاب الله عز وجل فيها كراهية الله تعالى لكثير من المعاصي، كما فيها كراهية الله تعالى الكفر والفسوق.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1].

فقد جعل الله تعالى العصيان مع الفسق والكفر في الكراهية.

وعلى المؤمنين أن يعظموا رسول الله ﷺ ويوقروه، ويتأدبوا معه، وينقادوا لأمره، فإنه ﷺ أعلم بمصالحهم، وأشفق عليهم منهم، ورأيه فيهم أتم من رأيهم لأنفسهم. ولهذا بغَّض الله عز وجل إلى المؤمنين الكفر والفسوق والعصيان - وهو شامل لجميع المعاصي - كما زيَّن في قلوبهم الإيمان، وحبَّبه إلى نفوسهم، وحسَّنه في قلوبهم.

وإذا كان الله عز وجل لا يحب المعاصي، وكرَّهها وبغَّضها لعباده المؤمنين، فهو تعالى لا يحب العصاة الذين يرتكبون هذه المعاصي، ولهذا كثرت الآيات في عدم محبته سبحانه وتعالى لأنواع العصاة، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾... إلى غير ذلك.

---

(١) سورة الحجرات (٧).

٥ ـ وكل أمره إلى الله عز وجل

من ارتكب معصية من المعاصي، فلا تخلو إما أن يكون لها عقوبة دنيوية ـ مادية أو جسدية. . . ـ أو لا، ولكنها تحتاج إلى توبة خاصة بها، لعظم تلك المعصية، أو تدخل تحت الاستغفار العام والتوبة العامة وفعل الخيرات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

فمن ارتكب معصية وتحتاج إلى عقوبة دنيوية لتكفرها، فعوقب على ذلك فهي كفارة لتلك المعصية، أما إذا لم يعاقب عليها، فهذا أمره إلى الله عز وجل، إن شاء عذبه يوم القيامة وإن شاء عفا عنه، وكذا من عصى معصية تحتاج إلى توبة خاصة بها، فهذا أيضاً تحت مشيئة الله تعالى وحكمه، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه. وإن كنا نحسن الظن بالله تعالى أن يغفر الذنوب جميعاً.

قال الله تعالى عن آكل الربا: ﴿. . . فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾(١). فأمْر آكل الربا إلى الله عز وجل، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه.

وقد سبق ذكر حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، والذي فيه: «. . . ومن أصاب من ذلك شيئاً؛ فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه». متفق عليه

والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

٦ ـ هو ضال من الضالين

إذا كان تركُ سنةِ النبـيِّ ﷺ ـ عمداً وقصداً. . . ـ ضلالاً، فكيف لا تكون معصيته ﷺ ضلالاً أيضاً؟ بل هي ضلال بيِّنٌ، وغواية واضحة. وقد جاءت نصوص كثيرة تبين أن ترك السنة ضلال، وأن المنجاة من الضلال التمسك

(١) سورة البقرة (٢٧٥).

بالسنة، وأن معصيته ﷺ ضلال وغواية. وأقتصر على ذكر بعض النصوص.

قال الله عز وجل: ﴿. . . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(١).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصمهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله. . .» رواه مسلم(٢).

لأن معصية الله تعالى كافية لإضلاله، وكذا معصية رسوله ﷺ كافية لإضلاله أيضاً.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات، حيث يُنادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. . . الحديث. رواه مسلم(٣).

وفي حديث أنس رضي الله عنه ـ في قصة سؤال النفر الثلاثة عن عبادته ﷺ ـ قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه(٤).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ـ في صفة خُطَبه ﷺ ـ وفيه: ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهَدْيِ هَدْيُ محمد ﷺ وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» رواه مسلم(٥).

ولهذا حذَّر ﷺ أُمتَه أن يرجعوا بعده ضُلاّلاً، فقال ﷺ في خطبة حجة

---

(١) سورة الأحزاب (٣٦).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٤٨).
(٣) صحيح مسلم: كتاب المساجد: باب صلاة الجماعة من سنن الهدى، رقم (٢٥٧).
(٤) صحيح البخاري: كتاب النكاح: باب الترغيب في النكاح. وصحيح مسلم: كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. . .، رقم (٥).
(٥) صحيح مسلم: كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٤٣).

الوداع ـ كما في حديث أبـي بكر رضي الله عنه، المتفق عليه[1] ـ: «ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاّلاً، يضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائبَ. . . الحديث».

ولقد بيّن ﷺ لأمته الأمانَ من الضلال، وهو التمسك بالكتاب والسنة. ففي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ» رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبـي، ورواه من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه أيضاً[2].

وكيف لا يكون التمسك بالكتاب والسنة ـ اللذيـن جاء بهما ﷺ ـ الأمانَ من الضلال، وقد هدى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة به ﷺ من الضلال.

ففي حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ للأنصار يوم حنين: «ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بـي. . .» متفق عليه[3].

فإذا كان الله تعالى قد هدى الخلق به ﷺ من الضلال ابتداء، فكيف لا يكون التمسك بسنته ﷺ أماناً من الضلال حالاً وانتهاء، والخروجُ عنه ﷺ وعدمُ طاعته وهجرُ سنته ضلالاً؟ بل هو الضلال المبين، والله تعالى أعلم.

٧ ـ المعصية من النفاق

لقد دعا الله عز وجل الناس أن يأتوا إلى نبيه وصفيه ﷺ كما يأتوا إلى كتابه الكريم، ولكن المنافقين يصـدون ويعرضون، فإذا أصابهم مصيبة نتيجة فعلهم، جاءوا يحلفون كذباً وزوراً على أنهم صالحون محسنون.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأضاحي: باب من قال: الأضحى يوم النحر ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب القسامة: باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (٢٩).

(٢) المستدرك (١: ٩٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. وصحيح مسلم: كتاب الزكاة: باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبّر من قوي إيمانه، رقم (١٣٩).

﴿أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[1].

بين الله سبحانه وتعالى حال هؤلاء بعد ذكره جل شأنه للأمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، حيث قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2].

فالمؤمنون مطيعون لله تعالى ولرسوله ﷺ . . . وإن حصل بينهم نزاع أو خصام ردوا أمره إلى الله تعالى ـ في كتابه ـ وإلى رسوله ﷺ في حياته ـ وإلى سنته بعد وفاته ﷺ. هذا هو شأن المؤمنين. أما المنافقون فلا يطيعون، وإذا دُعوا أن هلمّوا إلى ما أنزل الله تعالى من كتابه على رسوله ﷺ، وإلى حكم رسول الله ﷺ . . . أعرضوا، ومنعوا غيرهم من المجيء إليه ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ثم ذكر تعالى حال المؤمنين فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

وحال هؤلاء المنافقين نظير حال الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[4] حيث اشتركوا في الإعراض، واكتفائهم بما عندهم، ولو كان باطلاً.

---

(١) سورة النساء (٦٠ ـ ٦١).

(٢) سورة النساء (٥٩).

(٣) سورة النور (٤٧ ـ ٥١).

(٤) سورة المائدة (١٠٤).

لذا فليحذر المسلم من معصية رسول الله ﷺ وعدم الاستجابة لأمره... حتى لا يصل به الأمر إلى حال أهل النفاق، والعياذ بالله تعالى.

٨ ـ كفر مخالفه ﷺ

لقد بلغ الأمر ذروته عندما أعلن الله سبحانه وتعالى أن من يعصي رسوله ﷺ، ومن يخالفه في طريقته ومذهبه ومنهجه وسلوكه... فهو كافر، والعياذ بالله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى(٢): دل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله، ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء، بل المرسلون، بل أولو العزم منهم في زمانه، ما وسعهم إلا اتباعُه، والدخولُ في طاعته، واتباعُ شريعته ﷺ اهـ.

فمن زعم أنه محب لله تعالى، لزمه طاعة ومتابعة رسوله وصفيه ﷺ، فإن أصر ورفض بقي كافراً، فإن الله تعالى لا يحب الكافرين.

وقد سبق ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قوله ﷺ: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه والذي فيه: «...فمن اتبعه كان في الجنة، ومن لم يتبعه عُذِّب» رواه أحمد، والترمذي وابن خزيمة وصححاه. والنصوص في هذا الباب كثيرة، مر ذكر بعضها.

---

(١) سورة آل عمران (٣١ ـ ٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ٣٥٨).

٩ ـ مقاتلة العاصي

إن المعصية إذا كانت تقضي على شعيرة من شعائر الإسلام، كمثل اتفاق أهل بلد على ترك الأذان، أو الامتناع عن دفع الزكاة مثلاً، فإنهم يقاتَلون، ولو أدى ذلك إلى قتلهم. وهذا ما أجمع الصحابة الكرام رضي الله عنهم عليه بعد تردد، حتى أقنعهم الصديق رضي الله عنه، وما قتال مانعي الزكاة إلا جزء من قتال أهل الردة.

فعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر رضي الله عنه بعده، وكَفَرَ من كَفَر من العرب، قال عمر لأبـي بكر ـ رضي الله عنهما ـ: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابُه على الله»؟ فقال: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً [وفي رواية. عَناقاً] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبـي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. متفق عليه[1].

فالزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي فرض واجب على من ملك النصاب من الرجال والنساء من المسلمين، وقد استباح أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه قتالَ من تركها، وامتنع عن دفعها، ولما اعترض عليه بعضُ الصحابة رضي الله عنهم، واحتجوا بالحديث، حَجَّهم فخصمهم، فعرفوا ـ من إصراره على قتالهم ـ أنه الحق. وتركُ الزكاة معصيةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ لأمرهما بها، والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ... ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله،... رقم(٣٢).

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى[1]: الأذان شعار الإسلام، وأنه لا يجوز تركه، ولو أن أهل بلد اجتمعوا على تركه كان للسلطان قتالهم عليه. اهـ من الفتح.

١٠ ـ بطلان عمل العاصي

إن العاصي لله تعالى ولرسوله ﷺ معرَّضٌ لغضب الله تعالى، وعقوبته في الدنيا والآخرة، ومن ذلك أن يُبطل الله تعالى جميعَ أعماله، ولا يقبل له عملاً، خاصة إذا كانت المعصية كبيرة في حقه تعالى أو في حق رسوله ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[2].

لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وألا يبطلوا أعمالهم؛ كحال من ارتد، وصد عن سبيل الله، وخالف رسول الله ﷺ وشاقه، فأحبط الله سبحانه وتعالى عمله السابق، ولم يقبل منه شيئاً مما كان قد عمل، وهو لم يضر إلا نفسه، في مخالفته وصده وردته. والعياذ بالله تعالى.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[3].

فقد حذر الله تعالى هذه الأمة أن ترفع صوتها فوق صوت نبيه وصفيه ﷺ، فإن رَفْع الصوت بين يديه وفوق صوته ﷺ معصيةٌ كبيرةٌ، وكذا حذَّر من الجهر له ﷺ كما يجهر بعضنا لبعض، فإنه هو أيضاً معصية كبيرة، وكلاهما مدعاة

---

(١) فتح الباري (٢: ٩٠).

(٢) سورة محمد (٣٢ ـ ٣٣).

(٣) سورة الحجرات (٢).

لإحباط عمل الإنسان وهو لا يشعر. وقد سبق ذكر الأحاديث في هذا الموضوع، فأغنى عن تكرارها هنا.

١١ ـ استحقاق العاصي اللعن

اللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، فمن عصى الله تعالى وعصى رسوله ﷺ معصيةً كبيرة يترتب عليها عقاب، فقد أبعد نفسه عن رحمة الله تعالى، واستحق الطرد منها.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[١].

فمن خالف الله تعالى، وارتكب زواجره، وترك أوامره، وآذى رسوله ﷺ بعيب أو نقص... أو في أي شيء ـ وكل ذلك معصية كبيرة ـ استحق اللعن في الدنيا والآخرة، وله العذاب المهين يوم القيامة أيضاً، والعياذ بالله تعالى.

ولهذا لعن النبي ﷺ عُصَيَّة، لأنهم عصوا الله تعالى ورسوله ﷺ، كما في الحديث المتفق عليه[٢]، حيث عاهدوا فغدروا، وعاقدوا فأخلفوا، ولعن رِعْلاً وذَكْوان وبني لِحْيان... أيضاً، والله تعالى أعلم.

١٢ ـ تحسرهم يوم القيامة

إذا قامت الساعة، وجاء الكفار ـ ومن على شاكلتهم ـ الذين كانوا في الدنيا معاندين، وعاصين مخالفين، لأمر رسول الله ﷺ، ولم يكن قد حصلت منهم

---

(١) سورة الأحزاب (٥٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الرجيع. وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨) وكتاب فضائل الصحابة: باب دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم، رقم (١٨٦).

الطاعة له، جاؤوا نادمين على معصيتهم.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1].

فإذا دخل الكفار النار تمنوا أن لو كانوا أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ في الدنيا حتى لا يدخلوا النار، فلما عصوا دخلوها، ولا ينفعهم تحسرهم وتمنيهم، والله تعالى أعلم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[2].

يخبر الله تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق رسول الله ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى من الحق المبين، وسلك طريقاً غير سبيل رسول الله ﷺ، فإنه يوم القيامة يندم؛ حيث لا ينفعه الندم، ويعض يديه حسرة وأسفاً، ولهذا لم يذكر الله تعالى لتحسر هذا الظالم سوى عدم اتخاذه سبيل رسول الله ﷺ، مع سلوك من أضلَّه وحرَّفه.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[3].

فعندما يرون أهوال الموقف، وما يحل بالكفار والعصاة من الخزي والفضيحة والتوبيخ والعار؛ يتمنى هؤلاء الكفار الذين عصوا رسول الله ﷺ ولم

---

(١) سورة الأحزاب (٦٤ ـ ٦٨).

(٢) سورة الفرقان (٢٧ ـ ٢٩).

(٣) سورة النساء (٤١ ـ ٤٢).

يطيعوه ويتبعوه لو انشقت الأرض وبلعتهم، ولكن هيهات.

والنفس الإنسانية غير الصالحة فإنها عند موتها ومعاينتها ما ينالها: تندم وتدعو على نفسها بالويل، وتتمنى ألا تقبر، فضلاً عن شهودها يوم القيامة.

فعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وُضِعت الجنازةُ، واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدِّموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟ يسمع صوتَها كلُّ شيء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق» رواه البخاري[1].

وندمُ الفاسق والفاجر والكافر غير ندم الصالح، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد يموت إلا ندم» قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع» رواه الترمذي والبغوي وغيرهما بسند ضعيف، وصححه السيوطي في الجامع الصغير. وله شاهد من حديث معاذ رضي الله عنه عند ابن السني والأصبهاني والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب ورجال أغلبهم ثقات وحسنه السيوطي والمناوي وجوَّد المنذري إسناد البيهقي. كما له شاهد من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عند أبـي نعيم في حلية الأولياء والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وابن أبـي الدنيا. بسند ضعيف[2]. والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز: باب حمل الرجال الجنازة دون النساء ـ وفي غيره أيضاً.

(٢) سنن الترمذي: كتاب الزهد: باب (٥٨)، رقم (٢٤٠٣) وشرح السنة (١٥: ١١٧ ـ ١١٨) والزهد لابن المبارك، رقم (٣٣) وحلية الأولياء (٨: ١٧٨) (٥: ٣٦١ ـ ٣٦٢) وعمل اليوم والليلة، رقم (٣) والمعجم الكبير (٢٠: ٩٣ ـ ٩٤) وشعب الإيمان (١: ٣٩٢) والترغيب والترهيب للأصبهاني (٢: ١٧٧) والمعرفة والتأريخ (٢: ٣١٢ ـ ٣١٣) والترغيب والترهيب للمنذري (٣: ٢٠٨، ٢٠٩) ومجمع البحرين (٧: ٣٢٠) ومجمع الزوائد (١٠: ٧٤، ٨٠) وينظر الجامع الصغير (٢: ٤٦٨، ٥٠٦) وفيض القدير (٥: ٣٩٠، ٤٦٨).

ومن أسماء يوم القيامة، يوم الحسرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾[١] حيث يتحسر الكفار في نار جهنم، ولكن لا ينفع تحسرهم.

وعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئِبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئِبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت» ثم قرأ [رسول الله ﷺ] ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ ـ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ـ ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾» متفق عليه[٢].

زاد في رواية ابن عمر رضي الله عنهما ـ المتفق عليه أيضاً[٣]: «فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم».

أما هذا الحديث فإنما هو للكفار الذين يخلدون في النار، لا عصاة هذه الأمة، لأن العصاة من هذه الأمة بعد تعذيبهم في النار؛ يخرجون منها إلى الجنة، أما الذين يخلدون في النار: فهم الكفار والمشركون، ولهذا يزدادون حزناً على حزنهم، وهؤلاء الكفار الذين كانوا في زمان النبـي ﷺ وما بعده، فهم عصاةٌ لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يؤمنوا به ولم يطيعوه، لهذا استحقوا الخلود في النار، وهذا ما يأتي في الفقرة التالية، إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة مريم، (٣٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة مريم: باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾. وصحيح مسلم: كتاب الجنة: باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٤٠).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار. وصحيح مسلم: كتاب الجنة: باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٤٣).

١٣ ـ لا يدخل العاصي الجنة مع أول الداخلين

إن المعصية قسمان: مُكَفِّرة وغير مُكَفِّرة، فإذا كانت المعصية مكفِّرة فإنها توجب لصاحبها النار، والخلود فيها ـ وهذا ما سأذكره في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى ـ وأما المعصية غير المكفِّرة فإنها تدخل صاحبها النار ثم يخرج منها بعد الحساب اليسير أو بعد شفاعة المصطفى ﷺ أو أحد من هذه الأمة، أو تشمله رحمة الله تعالى، بأن يأمر بجعلها على اليهود والنصارى، وقد ذكرت ذلك مطولاً في «الخصائص التي انفرد بها ﷺ. . .» وفي «عظيم قدره ﷺ. . .» لكن بشكل مختصر، وكلا الفريقين لا يدخلون الجنة، أما الأول فلكفرهم، فلا يدخلونها البتة، وأما الفريق الثاني فلا يدخلون الجنة مع أول داخل، بل يدخلون النار، ويعذبون فيها على قدر معاصيهم، ثم تدركهم الشفاعات ورحمة الله تعالى. . . فيخرجون منها فيدخلون الجنة، حسب وعد الله تعالى لرسوله ﷺ، فقد قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة، إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد مر ذكره مرتين.

كما مر قوله ﷺ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ: «أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تَقَحَّمُون فيها» متفق عليه، ورواه مسلم بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1].

والصراط مضروب على متن جهنم، ولا بد للخلق من العبور عليه، فيمرون: سرعتُهم بقدر أعمالهم الصالحة، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ثم

---

(١) سورة مريم (٧١ ـ ٧٢).

كالريح المرسلة، ثم كالجواد المضمر. . . وهكذا، ثم المَكَرْدَس في النار على حسب ذنوبه وآثامه، والطبقة العليا من نار جهنم هي لعصاة هذه الأمة، ثم يشفع النبي ﷺ والصالحون والمتقون والشهداء ... في عصاة هذه الأمة . . . وهكذا.

فهؤلاء العصاة لا يدخلون الجنة في أوائل من يدخلها، بل يدخلون النار حتى يتطهروا من ذنوبهم، ثم يُنقلون إلى الجنة، ولهذا كثر قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة عاق لوالديه»: «. . . مدمن خمر»: «. . . منّان»: «. . . قاطع رحم»: «. . . قتات».

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في مسير له: «إنا مدلجون، فلا يدلجن مصعب ولا مضعف» فأدلج رجل على ناقة له صعبة، فسقط، فاندقت فخذه فمات، فأمر رسول الله ﷺ بالصلاة، ثم أمر منادياً ينادي في الناس: «إن الجنة لا تحل لعاص» ثلاث مرات. رواه أحمد والطبراني في الكبير والحاكم ـ وصححه ـ وإسناد أحمد حسن. ورواه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي إسناده: ليث بن أبي سليم، وهو مدلس لكنه ثقة(١).

وقد مر قوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» الحديث رواه البخاري. وجاء نحوه من حديث أبي سعيد وأبي أمامة رضي الله عنهما أيضاً.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشر هذه الأمة على ثلاثة أصناف: صنف يدخلون الجنة بغير حساب، وصنف يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وصنف يجيئون على ظهورهم أمثال الجبال الراسيات ذنوباً، فيسأل الله عنهم ـ وهو أعلم بهم ـ فيقول: ما هؤلاء؟ فيقولون: هؤلاء عبيد من عبادك، فيقول: حطوها عنهم، واجعلوها على اليهود والنصارى، وأدخلوهم برحمتي الجنة». رواه الحاكم وصححه على شرطهما،

---

(١) مسند أحمد (٥: ٣٧٥) والمعجم الكبير (٢: ٩٥ ـ ٩٦) (٨: ٢٢٧ ـ ٢٢٨) والمستدرك (٢: ١٤٥) ومجمع الزوائد (٣: ٤١) (٤: ٤٠).

وأقره الذهبي[1].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى» رواه مسلم[2].

وإزاحة هذه الجبال من الذنوب عن المسلمين... إنما يكون بالشفاعة، وسأذكر بعض الأحاديث الموجودة في الصحيحين أو أحدهما للتذكير.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يخرج قومٌ من النار بعدما مسَّهم منها سَفْعٌ، فيدخلون الجنة، فيُسمِّيهم أهلُ الجنة: الجهنميين» رواه البخاري[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمماً، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حَميل السيل ـ أو قال حَمِية السيل ـ» متفق عليه[4].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، يُسمَّوْن: الجهنميين» رواه البخاري[5].

---

(١) المستدرك (١ : ٥٨).

(٢) صحيح مسلم: كتاب التوبة: باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٤٩ ـ ٥١) وانظر العاقبة للإشبيلي (٣٢٦ وما بعد) والتذكرة للقرطبي (٤٠٩ وما بعده) لبيان الشفاعة للمذنبين.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم (٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٥) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ في حديث الشفاعة ـ وفيه قال ﷺ: «. . . ثم يقال لي: ارفع رأسك، وسل تُعطه، وقل يُسمع، واشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يُعلِّمني، ثم أشفع فيحدُّ لي حداً، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً مثله في الثالثة أو الرابعة، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن» متفق عليه[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخرَ أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة. . .» متفق عليه[2].

والنصوص في هذا الموضوع كثيرة جداً ذكرت كثيراً منها في «الخصائص».

والشفاعات التي أعطيها ﷺ وجاءت في الأحاديثِ كثيرةٌ، ذكرتها في «الخصائص» وذكرت أدلتها، وأذكر هنا إشارة إليها[3]: .

١ ـ الشفاعة في إراحة الخلق من هول الموقف.

٢ ـ الشفاعة في إدخال قوم من أمته ﷺ الجنة بغير حساب.

٣ ـ الشفاعة في إدخال قوم من هذه الأمة حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا.

٤ ـ إخراج من أُدخل النار من عصاة هذه الأمة.

٥ ـ شفاعته ﷺ في رفع الدرجات في الجنة.

٦ ـ شفاعته ﷺ لأهل المدينة المنورة خاصة.

٧ ـ شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (٣٢٢ ـ ٣٢٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب آخر أهل النار خروجاً، رقم (٣٠٨ ـ ٣٠٩).

(٣) انظر أيضاً فتح الباري (١١: ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

٨ ـ شفاعته ﷺ فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، وهم أهل الأعراف في أرجح الأقوال.

٩ ـ شفاعته ﷺ في إدخال أمته الجنة قبل سائر الناس.

١٠ ـ شفاعته ﷺ في عمه أبـي طالب.

١١ ـ شفاعته ﷺ فيمن قال: لا إله إلا الله، ولم يعمل خيراً قط.

١٢ ـ شفاعته ﷺ لأهل القبرين عندما غرز في كل قبر سعفة نخل.

١٣ ـ شفاعة أمته ﷺ في بعضهم بعضاً.

وقوله ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «إلا من حبسه القرآن» أي وجب عليه الخلود، كما هو موضح في الحديث عندهما.

وقوله ﷺ: «فيُحد لي حداً ثم أخرجهم من النار» تفسره الروايات الأخرى عندهما ـ وعند غيرهما من حديث أنس وغيره رضي الله عنهم ـ: «فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من بُرَّةٍ أو شعيرةٍ من إيمان فأخرجه منها... فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها... فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبةٍ من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فانطلق فأفعل» متفق عليه[1].

وهناك روايات كثيرة في هذا الباب.

وليس النبـي ﷺ هو الذي يشفع في أمته، بل حتى الصالحون المتقون يشفعون ـ بعد نجاتهم ـ لإخوانهم الذين سقطوا في النار، وقد جاءت نصوص كثيرة في ذلك، أقتصر على ذكر حديثين فقط.

ففي حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ في الرؤية والعرض والحساب ـ وفي آخره يقول ﷺ: «... ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم» قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد: باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم (٣٢٦).

«دحضٌ مَزَلَّةٌ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك ـ تكون بنَجْدٍ فيها شُويكة ـ يقال له: السعدان. فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناج مسَلَّم، ومخدوش مرسَل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ـ فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدَّ مناشدة لله في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويُصلّون، ويحجون، فيقال لهم: أَخرجوا من عرفتم، فتُحَرَّم صورُهم على النار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير [وعند البخاري: إيمان] فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير [وعند البخاري: إيمان] فأَخرِجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً. . .» الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم(١).

فهذا الحديث يبين حال هذه الأمة، وأنها أقسام ثلاثة: سالم لا يناله شيء أصلاً، ومخدوش يخلص بعد الخدش من الكلاليب والخطاطيب. . .، والثالث ساقط في نار جهنم، فيشفع فيهم الأولون بعد تيقنهم نجاتهم، فيُشَفِّعُهم الله تعالى فيهم، ثم تكون رحمة أرحم الراحمين ـ كما هي في نهاية الحديث عندهما. حيث يقبض قبضة من النار، فيُخرج من قال: لا إله إلا الله، ولم يعمل خيراً قط في حياته، ويلقيهم في نهر الحياة، فإذا خرجوا وخُتم في رقابهم؛ يُعرفون بعتقاء الله تعالى.

وعن عبد الله بن أبي الجدعاء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، رقم (٣٠٢).

يقول: «يدخل الجنةَ بشفاعةِ رجل من أمتي أكثرُ من بني تميم» قلنا: سواك يا رسول الله؟ قال: «نعم، سواي» رواه أحمد، والترمذي والحاكم وابن حبان ـ وصححوه ـ وابن ماجه وأبو يعلى والدارمي[1].

ففي هذه النصوص أمران:

١ ـ إن هؤلاء الذين يدخلون النار هم من أمة النبي المصطفى ﷺ، بدلالة كونهم يصلون ويصومون... ويؤمنون... والله تعالى لا يغفر لمن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

٢ ـ هؤلاء لا يدخلون الجنة مع أول داخل، بل يدخلون النار، فيعذَّبون، ثم تدركهم الشفاعات، فيُخرَجون منها، ثم يدخلون الجنة.

وإذا قيل: كيف يدخلون النار وقد عملوا أعمالاً صالحة، من صيام، وصلاة... مع وجود الإيمان عندهم؟ والجواب على ذلك حديث المفلس.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» رواه مسلم[2].

فهؤلاء الذين يدخلون النار من هذه الأمة إما لم يعملوا من الصالحات ما

---

(١) مسند أحمد (٣: ٤٦٩، ٤٧٠) (٥: ٣٦٦) وسنن الترمذي: كتاب صفة القيامة: باب يدخل من هذه الأمة سبعون ألفاً دون حساب، رقم (٢٤٤٠) وسنن ابن ماجه: كتاب الزهد: باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣١٦) وسنن الدارمي (٢: ٣٢٨) والمستدرك (١: ٧٠، ٧١) (٣: ٤٠٨) وأقره الذهبي، وصحيح ابن حبان (٩: ٢٣٣ ـ ٢٣٤) ومسند أبي يعلى (١٢: ٢٨٠) والتاريخ الكبير (٥: ٢٦) وكتاب التوحيد (٣١٣).
(٢) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم، رقم (٥٩).

يكون سبباً في دخولهم الجنة، أو عملوا لكنهم عملوا فاسداً، فأُخذت حسناتهم، فلم يبق عندهم ما يزيد على سيئاتهم، فأدخلوا النار، حتى تلحقهم الشفاعات، والله تعالى أعلم.

وعلى أي حال فإن هؤلاء الذين يدخلون النار ثم يخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ، أو بشفاعة أحد من هذه الأمة، فيدخلون الجنة، لا يدخلونها مع الفوج الأول ـ السالم والمتخلص ـ بل يتأخرون عنها حتى يشفع لهم، وكم ينالهم من العذاب حتى يخرجوا منها؟ أسأل الله تعالى السلامة والتوفيق.

١٤ ـ الخلود في النار

لقد ذكرت أن المعصية قسمان، قسم: غير مُكَفِّر، وصاحبها يدخل النار، ويعذَّب على قدرها، ثم يخرج منها إلى الجنة، والقسم الثاني: مُكفِّر، وهذه نوعان، الأول: لم يُسلم ولم يؤمن أصلاً، بل بقوا على كفرهم وضلالهم، فهم عصوا رسول الله ﷺ، فاستحقوا الخلود في النار، والثاني: كانوا مسلمين ثم ارتدوا، والعياذ بالله تعالى، بارتكاب احدى المحظورات المكفرة، فهم مخلدون في النار أيضاً.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

فمن يعصي الله تعالى ورسوله ﷺ، ويتعد حدوده، ويشاقق الرسول ﷺ، ويحاربه، ويخالفه، فله الخلود في نار جهنم، مع الخزي العظيم، والشقاء الكبير، والإهانة العظمى.

(١) سورة النساء (١٤).
(٢) سورة التوبة (٦٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ . . . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾[1].

فالكافرون المعاندون ـ إذا رأوا ما يوعدون يوم القيامة ـ يرون أنه لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عدداً من جنود الله تعالى؛ الذين لا يعلم عدَدَهم إلا الله عز وجل.

إلى غير ذلك من العقوبات والجزاءات التي ينالها العاصي، سواء كانت معصيته غير مُكفِّرة، أم كانت مُكفِّرة، وعقوبة المعصية غير المكفِّرة ليست كعقوبة المعصية المكفِّرة، فالأولى تقع من المسلمين المؤمنين، أما الثانية المكفِّرة فهي صفات الكفار المعاندين، أو الذين يرتدون، والعياذ بالله تعالى، وكلاهما خطر على المؤمن، لعدم علمه بالغيب، ولا يدري ما هو مكتوب، لذا فليكن وجلاً خائفاً، غير مغتر بعمل، أو اعتقاد، حتى لا يُمكَر به وهو لا يدري، والله تعالى أعلم.

ثواب المطيع

بعد ذكري لعقوبات العاصي، وما يناله ويتصف به، أذكر بعضاً مما يناله المطيع من الثواب والمكرمات، وما يفوز به في الدنيا والآخرة، ليكون خاتماً لهذا الفصل إن شاء الله تعالى.

١ ـ هو مطيع لله تعالى

لقد أخبرنا الله عز وجل أن من أطاع رسول الله ﷺ فهو مطيع لله تعالى، وذلك لأن طاعة الرسول هي طاعةٌ لمرسِلِه، لأن الله تعالى أمر بطاعة رسوله ﷺ، وهكذا أخبرنا رسول الله ﷺ أيضاً، وقد سبق بيان ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة الجن (٢٣ ـ ٢٤).

﴿حَفِيظًا﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله» متفق عليه.

وفي حديث جابر رضي الله عنه ـ في رؤية الملائكة، وفي آخره ـ: «... فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله...» الحديث، رواه البخاري. وقد سبق ذكرهما. والله أعلم.

٢ ـ الطاعة توفيق من الله تعالى

لقد أمر الله تعالى ورسولُهُ ﷺ بطاعة رسولِه وصفيِّه محمدٍ ﷺ في نصوص كثيرة، فمن أطاع رسول الله ﷺ في اتباع أوامره ونواهيه... ـ فعلاً وانزجاراً ـ يكون قد نفذ أوامر الله تعالى في طاعة رسوله ﷺ، ومحققاً أوامر الله تعالى، وهذا توفيق من الله عز وجل، وعلامةُ هذا التوفيق الامتثال والطاعة، حيث ألهمه الله تعالى رشدَه، ووجهه للعمل الصالح، وكل ذلك توفيق من الله عز وجل: ﴿... وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[2].

قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3].

فالطاعة نعمة من الله تعالى تحتاج إلى شكر، وتحتاج إلى تقوى، لأنها ميثاقٌ أخذه الله تعالى على الإنسان عند بدء خلقه.

ويكفي المطيع توفيقاً أنه ينفذ أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ في طاعة رسوله ﷺ واتباعه واقتفاء أثره، في حين يوجد كثيرون لا يعرفون شيئاً من

---

(١) سورة النساء (٨٠).
(٢) سورة هود (٨٨).
(٣) سورة المائدة (٧).

ذلك، وقد تسلط عليهم الشيطان، وأغوتهم الأهواء، وجرفتهم النزوات، وأخذتهم الشهوات، فضلوا عن سواء السبيل، والعياذ بالله عز وجل.

٣ ـ الطاعة من صفات المؤمنين

لقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله عز وجل، فضلاً عن السنة النبوية الشريفة، تبين أن من صفات المؤمنين الطاعةَ لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولهذا فمن أطاع رسول الله ﷺ حق الطاعة فهو مؤمن بإذن الله عز وجل.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وقال جل شأنه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال عز شأنه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٤).

فالمؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ مطيع، وكلما قوي الإيمان في نفس صاحبه ازداد طاعة، حتى يكون الشكر، ولهذا كان ﷺ يكثر من العبادة حتى

---

(١) سورة التوبة (٧١).

(٢) سورة البقرة (٢٨٥).

(٣) سورة الأنفال (١).

(٤) سورة النور (٥١).

تتورم قدماه الشريفتان، وإذا سئل ـ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ يقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» حيث جاء في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

وقد سبق ذكر المقارنة بين مؤمني هذه الأمة حيث قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وبين اليهود حيث قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ لهذا استحقوا اللعن بكفرهم، بينما مؤمنو هذه الأمة استحقوا الخلود في الجنة والنعيم المقيم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في آخر هذا المبحث عند رقم (١٧، ١٨).

وكما جعل الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ من علامات المؤمن المستقيم، جعل أيضاً من علامات المؤمن إرضاء الله تعالى وإرضاء رسوله ﷺ.

قال الله عز وجل عن المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١] فانظر كيف أفرد الضمير في قوله: ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ ولم يقل (يرضوهما) ففي ذلك سر لطيف، والله تعالى أعلم.

٤ ـ المطيع يحبه الله عز وجل

لقد أكرم الله عز وجل متَّبِعَ النبي ﷺ بإكرامات كثيرة، وأهم إكرام هو محبة الله عز وجل لذلك المطيع، الذي آثر محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ على محبة أي مخلوق، فقدَّم طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ على طاعة أي مخلوق، لذا استحق محبة الله عز وجل.

فقال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

لهذا لم يقبل الله تعالى من عباده أن يتعبَّدوا إلا على نهج رسوله ﷺ

---

(١) سورة التوبة (٦٢).

(٢) سورة آل عمران (٣١).

وطريقته وخطته وسنته... ﷺ.

ولهذا كثرت الآيات التي خُتمت بمحبة الله عز وجل لمطيعيه ومطيعي رسوله ﷺ، وإن كانت قد تنوعت مظاهر تلك الطاعة.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾... الخ.

وكل هذه مظاهر للطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وكما أحب الله تعالى من عباده أن يطيعوه ويطيعوا رسوله ﷺ، فإنه جل شأنه حبّب الإيمان به وبرسوله ﷺ، وزيّن الله تعالى ذلك الإيمان في قلوب عباده الصالحين، فمن تحقق بذلك كان محبوباً إلى الله عز وجل.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾(١).

٥ ـ هو من حزب الله

لقد جعل الله عز وجل الخلق حزبين، حزب الله تعالى، وحزب الشيطان، وجعل حزبه تعالى هم: من آمن به وبرسوله ﷺ وأطاعه وأطاع رسوله ﷺ وامتثل أمره وأمر رسوله ﷺ، وتولاه وتولى رسوله ﷺ، فمن كان كذلك كان من حزبه تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) سورة الحجرات (٧).

ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ* كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ* لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فالمؤمنون لا يتولون أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ ومن يخالف أمره تعالى وأمر رسوله ﷺ... ولو كانوا أقرب المقربين إليهم، ذلك أن الله تعالى كتب في قلوبهم الإيمان ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وجعلهم من حزبه المفلحين، لذا فإن مصيرهم إلى الجنة والخلود فيها، والله تعالى أعلم.

٦ ـ عدم نقصان العمل

إن من فضل الله تعالى على مطيعيه ومطيعي رسوله ﷺ، أن لا ينقص سبحانه وتعالى من أجورهم شيئاً إذا ما أطاعوا واتبعوا وصدقوا.

قال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

فبعد أن رد عليهم دعواهم تمام الإيمان، وأنهم لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، أخبرهم أنهم إذا أطاعوا الله تعالى ورسوله ﷺ فإنه لن ينقص من أجورهم شيئاً، بل سينالونها كاملة تامة.

---

(١) سورة المائدة (٥٥ ـ ٥٦).

(٢) سورة المجادلة (٢٠ ـ ٢٢).

(٣) سورة الحجرات (١٤).

٧ ـ إعطاؤهم الأجر الحسن

فكما أن الله عز وجل لا ينقص من مطيعيه ومطيعي رسوله ﷺ شيئاً من أجورهم، فإنه سبحانه وتعالى يعطيهم الأجر الحسن، بل أحسن مما كانوا يعملون، بل يضاعف لهم الأجور والحسنات.

قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١].

وأما مضاعفة الحسنات فالنصوص في القرآن الكريم وفي السنة النبوية كثيرة، أذكر بعضاً منها، حيث ذكرت في «فضائل النبي ﷺ...» وفي «الخصائص» كثيراً من ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا...﴾[٢].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣].

وأما مقدار المضاعفة، فقد قال الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

ففي هذا النص الشريف تكون الحسنةُ مضاعفةً إلى سبع، ثم إلى سبعمائة، ثم يضاعف فوق ذلك لمن يشاء.

وأما الأحاديث فكثيرة هي الأخرى، فمن ذلك:

---

(١) سورة الفتح (١٦).

(٢) سورة القصص (٨٤) وسورة النمل (٨٩).

(٣) سورة النساء (٤٠).

(٤) سورة البقرة (٢٦١).

قوله ﷺ: «إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف...» متفق عليه[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء من حديث غيره أيضاً.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ المتفق عليه[2] أيضاً ـ، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات» الحديث، وفيه **«وإن هَمَّ بها [أي الحسنة] فعملها، كتبها الله عز وجل له عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة...»** الحديث.

وكل ذلك فضل الله تعالى يعطيه لمن أطاعه وأطاع رسوله ﷺ وعمل صالحاً...، والله تعالى أعلم.

٨ ـ الهداية

لما حلف المنافقون بأغلظ الأيمان وأشدها وأوثقها، أنهم إذا أمرهم رسول الله ﷺ بالخروج إلى جهاد الأعداء فإنهم سيخرجون، ولن يتأخروا... رد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن الجهاد طاعة ـ ولكنهم قوم يكذبون ـ وطلب الله سبحانه وتعالى من رسوله وصفيه ﷺ أن يعلمهم بأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله ﷺ، وأنهم إن أطاعوا رسوله فيما يأمرهم به وينهاهم عنه: يهتدوا، فيصيبوا الحق ويرشدوا.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب حسن إسلام المرء. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب إذا هم العبد بحسنة كتبت...، رقم (٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب من همّ بحسنة أو بسيئة. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب إذا هم العبد بحسنة كتبت...، رقم (٢٠٧، ٢٠٨).

﴿مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

فالمؤمن المتبع على نور وهداية وبصيرة، وإذا دعا أو عَبد ربَّه، أو عمل طاعة، فهو على يقين وبرهان.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

فهو غير متخبط في عمله ودعوته... بل هو على يقين وهداية، لأن الله تعالى هو الذي يسدده، وهو على منوال رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم..

٩ ـ الفلاح والظفر

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الإيمان بنبيه وصفيه محمد ﷺ وطاعتَه ونصرتَه واتباعَه... سبباً لفلاح العبد المؤمن وشمولِ رحمة الله عز وجل له، كيف لا، وهو الذي وضع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على من سبقهم من الأمم، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث. فما من خير إلا ودلهم عليه وأمرهم به، وما من شر وخبث، إلا وحذرهم منه ونهاهم عنه، كل ذلك من حرصه ﷺ عليهم.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ

(١) سورة النور (٥٣ ـ ٥٤).

(٢) سورة يوسف (١٠٨).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2].

فمن أطاع الله تعالى وأطاع رسوله ﷺ فقد سعد وظفر وأفلح... وهكذا شأن الصحابة رضي الله عنهم.

ففي حديث رافع بن خديج رضي الله عنه ـ في قصة المحاقلة، وكيف كانوا يتعاملون بها ـ قال رضي الله عنه: فنهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان لنا نافعاً، وطواعيةُ الله ورسوله ﷺ أنفع لنا... الحديث. لفظ مسلم[3].

وفي حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ـ في قصة طلاقها، ثم خطبتها من معاوية وأبـي جهم رضي الله عنهما، وعَرْضِ رسول الله ﷺ عليها أسامة بن زيد رضي الله عنهما، فكرهت ذلك ـ قالت: فقال لها ﷺ: «طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ خير لك» قالت: فتزوجته، فاغتبطت. لفظ مسلم[4].

وهذا الظفر والسعادة... في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ـ مع كونه هو الواقع ـ يعلمه غير المسلمين أيضاً.

ففي قصة حديث الجساسة، عندما سأل الدجّالُ تميماً الداريَّ ومن معه رضي الله عنهم عن النبـي ﷺ حيث قال: فأخبروني عن نبـي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب، وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه. الحديث

---

(١) سورة الأعراف (١٥٦ ـ ١٥٧).
(٢) سورة النور (٥١ ـ ٥٢).
(٣) صحيح مسلم: كتاب البيوع: باب كراء الأرض بالطعام، رقم (١١٣).
(٤) صحيح مسلم: كتاب الطلاق: باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم (٤٧).

رواه مسلم[1]، والله تعالى أعلم.

١٠ ـ المطيع مخلص لله تعالى

بعدما أخبر الله سبحانه وتعالى عن اختلاف أهل الكتاب الأول بعدما جاءتهم الرسل، ونزلت عليهم الكتب، وقامت عليهم الحجة... وما ذاك إلا ببغيهم وتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم... أخبر جل شأنه أن هؤلاء إن حاجوا رسول الله ﷺ فيما يعتقده، فليخبرهم أنه ﷺ ومن تبعه من أمته ـ ممن يقول بمقالته، ويعتقد بمذهبه، ويسير على سنته، ويتبعه في كل أموره... ـ أنهم جميعاً مخلصون لله تعالى في عبادتهم، ولا يشركون به شيئاً، لذا عليه ﷺ أن يدعوَ أهل الكتاب والعربَ إلى شرعه ودينه وطريقه، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا عن ذلك فلم يُسْلِموا فلن يضروه، لأنه إنما عليه البلاغ، وقد بلَّغ.

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ اهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ﴾[2].

وقال جل شأنه مبيناً حال المؤمنين المتبعين من حال أهل الكتاب المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾[3].

ولهذا كان ﷺ يعلم أصحابه أن يكرروا ويتذكروا هذا التسليم لله عز وجل.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذتَ

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن: باب قصة الجساسة، رقم (١١٩).
(٢) سورة آل عمران (٢٠).
(٣) سورة البقرة (١٣٩).

مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمتُ وجهي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلتَ، وبنبيك الذي أرسلتَ، واجعلهن من آخر كلامك، فإن متَّ من ليلتك متَّ وأنت على الفطرة» متفق عليه(١).

وقد كان رسول الله ﷺ يعلن عقب كل صلاة مفروضة بإخلاص العمل لله تعالى، فكان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك.

فعن أبي الزبير رحمه الله قال: كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء** قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» وقال: كان رسول الله ﷺ يهلِّل بهن دبر كل صلاة. رواه مسلم(٢).

فالمسلم المطيع مستسلم لله تعالى، نفسه منقادة له، طائعة لحكمه، خاضعة لجنابه، وليست للشيطان أو الهوى، مُخلِصٌ دينَه لربه عز وجل، مفوِّض أمورَه كلها لله تعالى، رغبة ورهبة... وهكذا شأن المؤمن المطيع، فهو منقاد مستسلم لله عز وجل.

١١ ـ نجاة مطيعه ﷺ

لقد جعل الله سبحانه وتعالى نبيه وصفيه محمداً ﷺ نذيراً وبشيراً، فمن أطاع النذير سلم ونجا من المهالك، ومن عصى النذير هلك، وقد سبق ذكر هذا الموضوع، لكني سأشير إلى بعض النصوص الحديثية هنا.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الدعوات: باب إذا بات طاهراً ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء: باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٥٦، ٥٧).

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد: باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (١٣٩ ـ ١٤١).

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً [وعند مسلم: قومه] فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينيّ، وإني أنا النذير العُرْيان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم، فذلك مَثَل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومَثَل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق» متفق عليه، واللفظ للبخاري(١).

وفي حديث جابر رضي الله عنه ـ في قصة مجيء الملائكة، وضرب المثل له ﷺ ـ «فقالوا: مَثَلُه كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة... فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ...». الحديث رواه البخاري(٢) وقد سبق ذكره كاملاً مع ذكر بعض الروايات الأخرى.

فمن أطاع رسول الله ﷺ نجا من النار، ومن لم يطعه ﷺ هلك ووقع في النار؛ كوقوع الفراش والجنادب في النار، وهو ﷺ يحذر أمته: «هلم عن النار»، والله تعالى أعلم.

١٢ ـ أمان المطيع في القبر

إن أهوال القبور تقطع الرقاب، وتخيف الصادقين المخلصين، ولكن الله سبحانه وتعالى يكرم الطائعين المخلصين أن يكونوا في أمان من عذاب القبر ووحشته وجحيمه، وكل ذلك فضل من الله عز وجل.

ففي حديث أسماء رضي الله عنها ـ في قصة صلاة خسوف الشمس ـ قالت: فقال رسول الله ﷺ: «... وإنه قد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور قريباً ـ أو

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ـ وفي غيرهما. وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب شفقته ﷺ على أمته...، رقم (١٦).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

مثل ـ فتنة المسيح الدجال، فيُؤتى أحدُكم فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن ـ أو الموقن ـ فيقول: هو محمد، هو رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وأطعنا ـ ثلاث مرات ـ فيقال له: نعم، قد كنا نعلم إنك لتؤمن به، فنم صالحاً. . .» الحديث رواه مسلم[1].

فالمؤمن المتبع المطيع يرى ثواب تلك الطاعة وذلك الامتثال ابتداء من ساعة الموت وسؤال الملكين له في القبر، وانتهاء بالرفقة الصالحة في الجنة، ورضوان الله عز وجل، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

١٣ ـ توبة الله تعالى على المطيع المتبع

إن من سعادة المسلم أن يتوب الله تعالى عليه، وأن يقبل الله عز وجل توبته إذا تاب، وهكذا شأن المتبع المطيع.

قال الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

فقد تاب الله سبحانه وتعالى: على المهاجرين والأنصار بسبب اتباعهم رسوله ﷺ في غزوة تبوك، مع وجود الضيق في النفقة والظهر والزاد والماء، وهذا كله فضل من الله سبحانه وتعالى. والله تعالى أعلم.

١٤ ـ فوز المطيع

إن توبة الله تعالى على المطيع، وعدم نقصانه الأجر، والثواب، ونجاته في

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة الكسوف: باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (١١).
(٢) سورة التوبة (١١٧).

الدنيا والآخرة... كل ذلك فوز عظيم للمطيع، فكيف إذا أضيف إلى ذلك دخول الجنة والخلود فيها، وغفران الذنوب، ورحمة الله عز وجل...

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2].

فمن أطاع رسول الله ﷺ فيما أمر ونهى فقد فاز بكل خير، وأمن من كل شر في الدنيا والآخرة.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3]. إلى غير ذلك...

١٥ ـ غفران ذنب المطيع

لقد أخبرنا الله عز وجل أنه لا يغفر الشرك بالله تعالى فقط، وأنه جل شأنه يغفر الذنوب جميعاً بعد ذلك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[5].

---

(١) سورة الأحزاب (٧٠ ـ ٧١).

(٢) سورة النور (٥١ ـ ٥٢).

(٣) سورة النساء (١٣).

(٤) سورة النساء (٤٨).

(٥) سورة الزمر (٥٣).

فالمؤمن المطيع يغفر له سبحانه وتعالى كل ذنب ارتكبه إذا تاب واستغفر، وقد يمتحنه الله تعالى فيصبر فيغفر له، وقد يغفر سيئاته لفعله الحسنات... ولهذا جاءت الآيات القرآنية في غفران الذنوب لمتبع هذا النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، ولمطيعه، بخلاف غيره ممن أشرك بالله تعالى، وعاند رسوله ﷺ، بل إن الله سبحانه وتعالى سيضع ذنوب المطيعين من هذه الأمة على اليهود والنصارى، ويجعلهم فكاكاً لهذه الأمة من النار.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فثواب الاتباع وثمرته: محبةُ الله تعالى للمتَّبِع، وغفرانُ ذنوبه، ورحمتُه، لأن الله تعالى غفور رحيم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، فالمطيع لا ينقص من عمله، ويغفر الله تعالى ذنبه، ويرحمه.

ولما علمت الجن ذلك، بأن مطيع النبي ﷺ ومجيبه إلى دعوته يغفر الله تعالى له ذنوبه، رجعوا منذرين، مبشرين بذلك.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

ولهذا يخبر المولى جل شأنه عن المؤمنين الذين استجابوا لرسوله ﷺ فآمنوا به واتبعوه، وسألوه المغفرة وتكفير السيئات... أن الله تعالى قد استجاب لهم،

---

(١) سورة آل عمران (٣١).

(٢) سورة الحجرات (١٤).

(٣) سورة الأحقاف (٢٩ ـ ٣١).

فأعطاهم أكثر مما أملوا.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ۞ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۞ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ . . . ﴾[1] إلى آخر الآيات في هذا الموضوع.

وأما إذا جاء يوم القيامة فإن الله سبحانه وتعالى يضع ما كان على المسلمين من ذنوب على اليهود والنصارى؛ الذين كفروا برسله وأنبيائه وعصوهم، فاستحقوا العقوبة في النار، ويغفر لهذه الأمة الذين أطاعوا رسوله ﷺ، فآمنوا به واتبعوه، ولكنهم قد غفلوا فعصوا.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يجيء يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين، بذنوبٍ أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعُها على اليهود والنصارى» رواه مسلم[2].

وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله عز وجل إلى كل مسلم: يهودياً أو نصرانياً، فيقول هذا فكاكك من النار» رواه مسلم[2].

في رواية عنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً» رواه مسلم[2]، والله تعالى أعلم.

١٦ ـ رحمة الله تعالى المطيع

إن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين المتبعين لرسوله وصفيه محمد ﷺ أنه سبحانه سيرحمهم في الدنيا والآخرة، والنصوص في هذا كثيرة.

---

(١) سورة آل عمران (١٩٣ ـ ١٩٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب التوبة: باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٤٩ ـ ٥١).

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١)، فأطيعوا الله تعالى ورسوله ﷺ في ترك الربا، حتى يرحمكم الله عز وجل.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢).

فالله سبحانه وتعالى سيرحم من اتصف بهذه الصفات من: إيمان، وتولية للمؤمنين، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وإقامة للصلاة، وإيتاء للزكاة، وطاعة لله تعالى، وطاعة لرسوله ﷺ، والله تعالى يعز من أطاعه، لأن العزة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، بعزة الله تعالى لهم.

ولما وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين العاملين الصالحين بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين لهم، وحصول الأمن، طلب منهم جل شأنه أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويطيعوا رسوله ﷺ، فإذا فعلوا ذلك فإن الله تعالى يرحمهم.

فقال جل شأنه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٣).

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة ـ خصوصاً ـ أن جعل نبيها ﷺ رحمة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران (١٣٠ ـ ١٣٢).

(٢) سورة التوبة (٧١).

(٣) سورة النور (٥٥ ـ ٥٦).

(٤) سورة الأنبياء (١٠٧).

وقال ﷺ ـ كما في حديث أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه ـ: «أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشر، ونبـي التوبة، ونبـي الرحمة» رواه مسلم(١).

وقال ﷺ ـ كما في حديث أبـي هريرة رضي الله عنه ـ: «إني لم أُبعث لعّاناً، وإنما بعثت رحمة» رواه مسلم(٢).

وإن من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن قبض نبيها ﷺ قبلها، ليكون لهم فرطاً وسلفاً بين يديها(٣).

ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى هذه الأمة أمةً مرحومةً، لم يجعل عذابها في آخرتها، وإنما جعل عذابها في الدنيا.

فعن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمتي أمة مرحومة، ليس عليها في الآخرة عذاب، إنما عذابها في الدنيا القتل والفتن والزلازل» رواه أحمد وأبو داود، والحاكم ـ وصححه ـ وأقره الذهبـي، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى في مسنده، والشهاب القضاعي في مسنده، والبيهقي في الشعب، والطبراني في المعجم الصغير. وأسانيد بعضهم صحيحة والأخرى حسنة. وحسَّن الحافظُ سند أبـي داود، وقال عن رجال الطبراني ثقات، وله شاهد بلفظه، من حديث أبـي هريرة عند أبـي يعلى، وصححه الحافظ أيضاً(٤)، كما له شواهد أخرى.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب في أسماء النبـي ﷺ، رقم (١٢٦).
(٢) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٨٧).
(٣) انظر: صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها، رقم (٢٤).
(٤) مسند أحمد (٤: ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٨) وسنن أبـي داود: كتاب الفتن: باب ما يرجى في القتل، رقم (٤٢٧٨) والمستدرك (٤: ٤٤٤) ومسند أبـي يعلى (١٣: ٢٦١) (١١: ٦٧) ومسند الشهاب (٢: ١٠٠، ١٠١) والروض الداني (١: ٢٥ ـ ٢٦) والتاريخ الكبير (١: ٣٨ ـ ٤٠) وشعب الإيمان (٧: ١٤٨ ـ ١٤٩) والمطالب العالية (٤: ٣١٢، ١٥٥) ومجمع الزوائد (٧: ٢٢٤) وبذل الماعون (٢١٣، ٢١٤).

لكن هذا الحديث محمول على معظم هذه الأمة، لثبوت الأحاديث الكثيرة في الشفاعة ـ كما مر ذكر بعضها ـ والله تعالى أعلم.

١٧ ـ رضاه تعالى عن المطيعين

لقد بلغ الأمر ذروته عندما أعلن الله سبحانه وتعالى رضاه عن عباده الذين أطاعوا رسوله ﷺ، واستجابوا لدعوته، يوم دعاهم ﷺ إلى البيعة يوم الحديبية، وكذا رضاه عن المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد رضي عن السابقين من المهاجرين والأنصار، فما عقوبة من يبغضهم أو يسبهم ـ أو بعضهم ـ لا سيما أوائلهم رضي الله عنهم جميعاً، سوى الويل والثبور، والعار والشنار.

إذا كان الله سبحانه وتعالى أكرم متبعي سابقي الصحابة رضي الله عنهم بإحسانٍ: بالرضا والجنات مع الخلود فيها، وقد يكونون بعدهم بمئات السنين أو أكثر، فإن اتباعهم للنبـي ﷺ من باب أولى، لأن الصحابة الكرام رضي الله عنهم ما نالوا هذا الفضل وهذه الدرجة إلا لاتباعهم رسول الله ﷺ، والله تعالى أعلم.

ولهذا لما أرسَل رسول الله ﷺ القراء ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ رضي الله عنهم وأرضاهم وقد فعل، وغدر بهم رِعْل وذكوان وعصية، فقتلوهم عن آخرهم،

---

(١) سورة الفتح (١٨).

(٢) سورة التوبة (١٠٠).

أنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قرآناً على رسوله ﷺ ـ كما في حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما ـ ولفظه «بلغوا عنا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» ثم نسخ ذلك، كما في الصحيحين[1].

فإذا كان يوم القيامة، أحل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة رضوانه، بعد إكرامه تعالى لهم بالجنة ونعيمها.

فعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبـي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب؟ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» متفق عليه[2].

فأهل الجنة هم المطيعون؛ لقوله ﷺ: «من أطاعني دخل الجنة» كما سيأتي، وقد مر أيضاً، لذا نالوا هذا الفضل، وهذا الثواب، وهذا التكريم، لأن الجنة دار تكريم وجزاء وثواب، والله تعالى أعلم.

١٨ ـ دخول الجنة

لقد جعل الله سبحانه وتعالى ثواب المطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ والعاملين الصالحات، جنات تجري من تحتها الأنهار، وهذه نعمة كبرى، إذا عرفنا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب فضل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا... ﴾ وباب العون بالمدد. وكتاب المغازي: باب غزوة الرجيع، ورعل، وذكوان، وبئر معونة. وصحيح مسلم: كتاب المساجد: باب استحباب القنوت في جميع الصلاة...، رقم (٢٩٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الجنة: باب إحلال الرضوان على أهل الجنة...، رقم (٩).

بالمقابل عذاب العصاة ـ والعياذ بالله تعالى ـ في نار جهنم.

قال الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

وأما بذكر العمل الصالح من غير لفظ الطاعة فكثير، أذكر بعضها من غير تعليق.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[2].

وقال جل شأنه: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

وقال جل وعز: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۞ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿. . . وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾[6].

---

(١) سورة الفتح (١٧).

(٢) سورة النساء (١٢٤).

(٣) سورة النحل (٣٠ ـ ٣١).

(٤) سورة مريم (٥٩ ـ ٦١).

(٥) سورة غافر (٤٠).

(٦) سورة آل عمران (١٩٣ ـ ١٩٥).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ. . . ﴾(١).

إلى غير ذلك من الآيات، وكلها تنص على العمل الصالح، ولا يكون عمل صالح إلا بشرعه ﷺ، وحسب ما سنه ورسمه وبيَّنه، فهو طاعة له، إضافة إلى كونه طاعة لله عز وجل، مع وجود الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، إذ هما متلازمان، والله تعالى أعلم.

أما الأحاديث الشريفة، فقد مر حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ عند البخاري ـ قوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

كما مر حديث جابر رضي الله عنه ـ في قصة رؤية الملائكة ـ وهو عند البخاري ـ ولفظ الحاكم والترمذي: «. . فالله هو الملِك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول الله، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة» الحديث.

كما مر حديث ابن مسعود رضي الله عنه والذي فيه: «. . . أما السيد فهو رب العالمين، وأما البنيان فهو الإسلام، والطعام الجنة، ومحمد ﷺ الداعي، فمن اتبعه كان في الجنة، ومن لم يتبعه عُذِّب» رواه أحمد، والترمذي وابن خزيمة وصححاه، وقد سبق ذكر هذه الروايات.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتدخلن الجنة كلكم، إلا من أبى وشرد على الله شرود البعير» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ فقال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه ابن حبان ـ واللفظ له ـ والطبراني برجال الصحيح. وللحديث شاهد أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد ـ برجال الصحيح ـ والحاكم، ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه، عند الحاكم

(١) سورة الحج (١٤/٧ ٢٣، وسورة محمد (١٢).

والطبراني، وأحمد برجال الصحيح، وصححهما الحاكم، وسند الطبراني حسن أيضاً[1]، والله تعالى أعلم.

١٩ ـ الخلود في الجنة

إن من تمام فضل الله عز وجل على من أدخله الجنة أن لا يخرجه منها، ولهذا أكرم الله عز وجل هذه الأمة المطيعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ بالخلود في الجنة، سواء الذين يدخلونها بدون حساب، أو الذين يحاسبون حساباً يسيراً، أو الذين يخرجون من النار بالشفاعات، فنهاية الأمر الدخول في الجنة، والخلود فيها، بخلاف غيرها من الأمم، كما مر بيانه في فقرة سابقة.

قال الله عز وجل: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

وأما ما جاء في الإيمان والعمل الصالح فكثير، فالإيمان إنما هو بالله تعالى وبرسوله ﷺ، والعمل الصالح على وفق ما جاء به رسول الله ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ... فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ

---

(١) صحيح ابن حبان (١: ١١١) وموارد الظمآن (رقم ٢٣٠٦) ومسند أحمد (٥: ٢٥٨) والمستدرك (١: ٥٥ ـ ٥٦) (٤: ٢٤٧) ومجمع الزوائد (١٠: ٧٠، ٧١) وفتح الباري (١٣: ٢٥٤) حيث صحح حديث أبي هريرة، وجوّد حديث أبي أمامة، رضي الله عنهما.

(٢) سورة النساء (١٣).

(٣) سورة إبراهيم (٢٣).

رِزْقًا﴾(١).

فمن مهامه ﷺ تلاوة الآيات الواضحات البينات لإخراج المؤمنين الصالحين من الظلمات إلى النور، فإن آمنوا وأطاعوا وعملوا صالحاً أدخلهم الله تعالى جنات خالدين فيها، والله تعالى أعلم.

وقال جل شأنه: ﴿. . . وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى مبيناً حال الفريقين، المعاندين المحادّين لله تعالى ولرسوله ﷺ، والمؤمنين الصادقين الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ * لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

فالمؤمن الصادق لا يوادد أحداً من الكفار ممن غضب الله عليه، ويسألون الله تعالى ألا يجعل لكافر ولا فاجر ولا فاسق نعمة عليهم ولا يداً عندهم، حتى لا يدخلوا في هذا الوصف المذموم. وهكذا كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم قد تخلوا عن أقاربهم وعشائرهم في الله تعالى، فعوضهم الله تعالى رضاه، وأرضاهم بدخول الجنة والخلود فيها والفلاح العميم، والفضل المقيم، أسأله تعالى أن يكرمنا معهم بفضله وكرمه، وألا يجعل لكافر أو فاسق أو فاجر له علينا يداً أو نعمة، وألا تميل قلوبنا إلى هؤلاء طرفة عين أو أقل من ذلك.

---

(١) سورة الطلاق (١٠ ـ ١١).

(٢) سورة التغابن (٩).

(٣) سورة المجادلة (٢٠ ـ ٢٢).

٢٠ ـ رفقاؤهم في الجنة

من فطرة الله تعالى التي فطر عليها خلقه محبتهم للجليس والأنيس، وكلما كان الجليس محبوباً إلى النفس كان المجلس أحب إلى النفس ـ والعكس كذلك ـ وكلما كان الجليس عظيماً في نفسه، مفخماً في ذاته، رفيعاً في درجته، صالحاً في عمله، رفيعاً في أخلاقه، كاملاً في صفاته... كان المجلس أحلى وأغلى، فكيف إذا كان عُمّار المجلس من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؟ هؤلاء هم رفقاء المطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ في الجنة، مع خلودهم في ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۞ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾(١).

من أطاع الله عز وجل، وأطاع رسوله ﷺ، فعمل بما أمره الله تعالى ورسوله ﷺ، واجتنب ما نهى عنه، فإن الله سبحانه وتعالى يسكنه في دار كرامته، ويجعله مرافقاً لمن أنعم الله تعالى عليهم ـ حسب مراتبهم ـ الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ثم الصديقين، ثم الشهداء، ثم الصالحين من هذه الأمة، ثم أثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ وهل أحسن من هؤلاء؟ لا. وذلك كله فضل من الله تعالى.

ولهذا كان النبي ﷺ عندما خُيِّر في آخر حياته، اختار الرفيق الأعلى.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة» وكان ﷺ في شكواه الذي قُبض فيه أخذته بُحَّة شديدة، فسمعتُه يقول: «﴿... مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ...﴾» فعلمت أنه خُيِّر. متفق عليه، واللفظ

---

(١) سورة النساء (٦٩ ـ ٧٠).

للبخاري[1].

وعنها رضي الله عنها قالت: كان النبـي ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يُقبض نبـيٌّ حتى يَرى مقعدَه من الجنة، ثم يخَيَّر» فلما نزل به، ورأسه على فخذي، غُشي عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» فقلت: إذاً لا يختارُنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح. قالت: فكانت آخر كلمة تكلم بها: «اللهم الرفيق الأعلى». متفق عليه واللفظ للبخاري[2].

وما فهمته السيدة عائشة رضي الله عنها من أن رسول الله ﷺ هو المُخَيّر، هو نفس الفهم الذي فهمه أبوها الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه.

فعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر، فقال: «عبدٌ خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرةَ الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّرُ، وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلَمَنا به. . . متفق عليه[3].

ولهذا إذا حشرج الصدر، وشخص البصر، واقشعر الجلد، ودمعت العين، وتشنجت الأصابع، وبُشِّر المؤمنُ برحمة الله تعالى وجنته ورضوانه: أحب لقاءَ الله

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة النساء: باب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضل عائشة رضي الله عنها، رقم (٨٦).

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب آخر ما تكلم به النبـي ﷺ ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضل عائشة رضي الله عنها، رقم (٨٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبـي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبـي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٢).

تعالى، فأحب الله لقاءه، وأما الكافر فإنه يبشر بعذاب الله تعالى وسخطه وناره، فيكره لقاء الله عز وجل.

قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، ورواه مسلم من حديث عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما، ورواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، عن ربه عز وجل، فهو حديث قدسي(١)، والله تعالى أعلم.

فالمؤمن المطيع مصيره الجنة، خالداً فيها، يتنعم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أسأل الله تعالى أن يكرمنا جميعاً بذلك، إنه جواد كريم.

خاتمة الفصل

من خلال النصوص التي ذكرتها في هذا الفصل يتضح أنها لا تخرج عن أمرين:

وجوب طاعته ﷺ، وتحريم معصيته ﷺ، مع ثواب وثمرات ومكافآت... المطيع للرسول ﷺ، وأنها هي طاعة لله تعالى، لأن طاعة الرسول من طاعة مرسِلِه، لأنه هو الذي أرسله وأمر بطاعته، كما فيها جزاء وعقوبة... العاصي للرسول ﷺ، وأنها معصية لله تعالى، لأن معصية الرسول هي معصية لمن أرسله، لأنه هو الذي أرسله وحرَّم معصيتَه.

والطاعة والمعصية تكونان في الأمور البسيطة الجزئية، كما تكونان في الأمور الكلية الأساسية، وكلها طاعة أو معصية، وإن كان الحكم يختلف باعتبار كل

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. وكتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء: باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه...، رقم (١٤ ـ ١٨).

منهما، ولهذا جاءت الآيات مشددة في الطاعة، ومحذرة في المعصية، ولم تخصص أو تقيد في جزئية أو كلية.

ولهذا كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم على غاية الاتباع والامتثال في طاعتهم وعدم معصيتهم، ومن عرف حالَهم رضي الله عنهم قبل إسلامهم، وكيف كانوا، هاله ما صاروا عليه من اتباع وامتثال وطاعة بعد إسلامهم رضي الله عنهم. وقد استوعبت ذلك في «الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان» فلا داعي إلى ذكرها هنا.

كما نلاحظ أن الباعث على الطاعة إما رغبة وإما رهبة.

فإذا كان الباعث رغبة ورضا وقناعة وإيماناً كانت الطاعة مؤثرةً في نفس صاحبها، نافعة له في الدنيا والآخرة، ذلك لما فيها من إخلاص، وصدق توجهٍ، وإتقان في العمل... ذلك لأن غاية المطيع المخلص رضا محبوبه، كما قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿... وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وقال جل شأنه ـ عن الإنسان عموماً ـ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[2].

والمؤمن المطيع يجب أن يكون مبتغاه في عمله الصالح وجه الله تعالى، وأن يكون على وفق ما جاء به النبي الكريم ﷺ وشرعه.

قال الله عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن

---

(١) سورة النمل (١٩).

(٢) سورة الأحقاف (١٥ ـ ١٦).

﴿يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[1].

وقال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» لفظ مسلم.

وفي رواية لهما[2]: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».

ولهذا إذا رجع المطيع يوم القيامة ولقي ربه عز وجل، أحل عليه رضوانه، لأنه كان في الدنيا يبتغي بعمله وجه الله تعالى ورضوانه.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[3].

وأما إذا كان الباعث رهبة وخوفاً... فلن تكون الطاعة مؤثرةً في نفس صاحبها، ولن تكون نافعة له، لعدم وجود الإخلاص، وصدق التوجه... فقد يكون الباعث الرياء، وقد يكون الخوف مع عدم الرغبة في الفعل... وإن كان قد يسقط عنه الفعل في الدنيا.

لذا إذا نظرنا إلى ثواب المطيع عند الله تعالى، وماله عند الله تعالى، وما حذَّر تعالى من المعصية... ونظرنا إلى حال المسلمين، عرفنا الفارق. فهل المسلمون في واقعهم على حسب ما أراد الله تعالى من طاعته وطاعة رسوله ﷺ لينالوا الثواب الذي رتَّبه عليها، أم هم في معصية وعليهم أن يتهيؤوا للجزاء والعقوبة...؟

أسأل الله تعالى التوفيق وحسن القبول.

---

(١) سورة التوبة (٦٢).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. وصحيح مسلم: كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧، ١٨).
(٣) سورة الفجر (٢٧ ـ ٣٠).

خاتمة الكتاب
أحسن الله تعالى ختامنا جميعاً

بعد ذكري محبة الجمادات للنبي ﷺ وطاعتها له، وذكري لمظاهر تلك المحبة وتلك الطاعة، وحصول ذلك منها من غير أمر نعلمه ظاهراً، بل ظهر ذلك منها وجوداً، وبعد ذكري للنصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة في وجوب محبة النبي ﷺ من قبل الإنسان، ودوافع المحبة التي تدفع الإنسان إليها، وبيان آثارها ونتائجها، ثم ذكري لأدلة وجوب طاعة النبي ﷺ، وتحريم معصيته، ثم بيان جزاء وعقوبة العاصي، وثواب وثمرات المطيع للنبي ﷺ . . . بعد بيان ذلك كله، ومقارنة لما بين الجماد والإنسان، أخلص لما يلي:

١ ـ إما أن يستوي الإنسان العاقل المكلَّف المأمور بمحبة رسوله ﷺ وطاعته مع الجماد في محبة رسول الله ﷺ وطاعته، فيكونان سواء.

٢ ـ وإما أن يسبق الجماد ـ وهو غير مدرك ولا مكلف ولا مأمور من حيث الظاهر ـ الإنسان ـ المكلف المدرك المأمور ـ في محبة النبي ﷺ وطاعته.

٣ ـ وإما أن يسبق الإنسانُ الجمادَ في محبة النبي ﷺ وطاعته.

وفي هذا أمران:

الأول: أن يسبق الجماد الإنسانَ في المحبة والطاعة، أو يستوي معه فيهما

ففي هاتين الحالتين يكون الجماد فيهما خيراً من الإنسان، ذلك لأن الإنسان عاقل ومكلف، وهو مأمور بالمحبة والطاعة، أما الجماد فهو ـ من حيث الظاهر ـ

غير عاقل ولا مكلف ولا مأمور، ومع هذا فقد سبق العاقلَ المدركَ المكلَّفَ المأمورَ أو ساواه.

وهذا الأمر لا يتصور وجوده إلا من كافر جاحدٍ معاند، أو عاصٍ مكابر معاند عامدٍ، وإذا حصل من المؤمن المسلم عصيان فهو ـ في الغالب ـ من غير مكابرة ولا معاندة ولا عن قصد وسابق تصميم، إنما لغلبة الشهوة والنزوة والطيش، أو سيطرة الشيطان والهوى. ولكن المسلم المؤمن سرعان ما يرجع ويندم ويتوب، فإن أصر على المعصية وعدم المحبة كان ملحقاً بما سبق، والعياذ بالله تعالى، وقد لا يلحقه بالكفر، ولكن حسب حاله.

وقد بين الله سبحانه وتعالى حال هؤلاء الغافلين المكابرين المعاندين، فقال جل شأنه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وأخرج ذريته من صلبه، وأشهدهم على أنفسهم أنه تعالى ربهم؛ شهدوا بذلك حالاً وقالاً، حتى لا ينكروا يوم القيامة ما فُطروا عليه، من التوحيد والإيمان، ويزعمون غفلتهم عن هذا التوحيد.

ولكن المشركين والكافرين... لا ينتفعون بجوارحهم التي جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً في هدايتهم، فصار حالهم كحال الأنعام بل هم أضل.

قال الله عز وجل: ﴿... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

(١) سورة الأعراف (١٧٢ ـ ١٧٩).

(٢) سورة الفرقان (٤٣ ـ ٤٤).

﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

نعم لهم سمع وأبصار، ولكنهم لا يبصرون الحقيقة، ولا يرون ما يهتدون به، ولا يسمعون الهدى، وهؤلاء إما أن يكونوا كفاراً لا يؤمنون، أو منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وقد أخبرنا تعالى عن الفريقين.

فقال سبحانه وتعالى عن المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[2].

وقال جل شأنه عن الكفار ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

وهؤلاء جميعاً لم يكونوا صماً وعمياً... - حقيقة - إنما كانوا كذلك عن الهدى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[4].

فهؤلاء هم شر بني آدم، بل شر الخليقة والخلق، ولهذا قال ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهم شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله تعالى فيما خلقها، بينما هؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، فهم كالأنعام بل أضل، ولو أن الله تعالى علم أن فيهم خيراً لأسمعهم، ولكن لا خير فيهم، لذا لم يُفَهِّمْهُم، لأنه لو أفهمهم لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً، لذا كان حالهم كحال الأنعام، التي لا تنتفع بحواسها، إلا في الذي تعيش به في ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) سورة الأحقاف (٢٦).

(٢) سورة البقرة (١٨).

(٣) سورة البقرة (١٧١).

(٤) سورة الأنفال (٢٠ - ٢٣).

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً . . .﴾[1]، فالدواب لا تفهم ما يقوله الراعي إذا نعق بها، إنما تسمع صوتاً ونداء لا غير، وهكذا حال هؤلاء المعاندين الكفار، بل هم أضل من الأنعام، لأن الأنعام قد تستجيب لراعيها إذا دعاها، ولأنها تفعل ما خلقت له؛ سواء كان ذلك بطبعها أم بتسخيرها، بخلاف الكافر، حيث خُلق للعبادة والطاعة والإيمان، ولكنه كفر وعصى وعاند، علماً بأن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الجوارح في الإنسان ليستعين بها على طاعة مولاه، ويؤدي شكره تعالى، كما قال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] في آيات.

لكن هؤلاء طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فلا ينتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3].

وهؤلاء كما هم في الدنيا قد طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فإنهم يحشرون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً، كما قال تعالى: ﴿. . . وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۞ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ . . .﴾[4].

ومما يلفت النظر في الآية السابقة قد ختمت بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ وهذا نظير قوله تعالى في آخر آيات الأعراف ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ ومثله في الآية الأولى منها: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

ولما وقعت المقارنة بين الإنسان الكافر . . . والأنعام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ

---

(١) سورة البقرة (١٧١).

(٢) سورة النحل (٧٨).

(٣) سورة النحل (١٠٨، ١٠٩).

(٤) سورة الإسراء (٩٧ ـ ٩٨).

﴿أَضَلُّ﴾ اتضح أن من كفر بالله تعالى من البشر، ولم يطعه تعالى، ولم يؤمن بنبيه وصفيه ﷺ ولم يطعه، كانت الدواب أحسن منه وأنفع، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ بينما إذا أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ. . . كان أكمل من مثله من الملائكة أيضاً، وسيأتي في آخر البحث المقارنة بين المؤمن والكافر، إن شاء الله تعالى.

وبهذا يتضح أن من لم يطع الله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يقع في قلبه المحبة، كان دون الجماد والحيوان والنبات، لأنها كلها مطيعة مستسلمة. . . بينما هو غافل ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ غير عاقل ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ وأضل من الأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لذا كانوا خاسرين ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ و ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ والله تعالى أعلم.

الثاني: أن يسبق الإنسان الجماد في المحبة والطاعة

فهذا وإن كان هو الأصل وهو الواجب الذي يجب أن يكون، إلا أنه يدل على أنَّ الإنسان خير من الجماد، وهذا ما دلت عليه النصوص.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١).

فهذا دال على تفضيل الإنسان على تلك المخلوقات، وتكريمه عند الله عز وجل، ويتضح هذا التكريم والتفضيل بما يلي.

مظاهر التكريم والتفضيل للإنسان

إن مظاهر التكريم والتفضيل للإنسان على الجمادات وغيرها كثيرة ـ وكلها دالة على تفضيله ـ أقتصر على ذكر بعضها، معدداً من غير شرح ولا تفصيل.

١ ـ خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه.

---

(١) سورة الإسراء (٧٠).

قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ. . .﴾(1).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(2).

٢ ـ لما خلق الله تعالى الإنسان أمر الملائكة بالسجود له، وسجودُ الملائكة ليس على سبيل العبادة، فإن هذا السجود لا يكون إلا لله تعالى، وإنما هو ـ والله أعلم ـ سجود تحية وتعظيم، أو أن يكون بمثابة القبلة لهم، كما هو الحال في سجودنا تجاه القبلة المشرفة، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾(3) والملائكة أفضل من الجمادات بلا خلاف. وأمْرُ الملائكة بالسجود تكرر في آيات كثيرة، ومنها:

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ. . .﴾(4).

وسجود الملائكة إنما كان بعد خلق آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾(5).

٣ ـ لقد أحسن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وجعله في أحسن تقويم، وجعل فيه العقل والإدراك.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(6).

حيث جعله منتصب القامة، يمشي على قدمين، ولم يجعله يزحف، أو يمشي

---

(١) سورة ص (٧١ ـ ٧٥).
(٢) سورة الحجر (٢٩).
(٣) سورة قريش (٣).
(٤) سورة البقرة (٣٤) وسورة الإسراء (٦١) وسورة الكهف (٥٠) وسورة طه (١١٦).
(٥) سورة الأعراف (١١).
(٦) سورة التين (٤).

على أربع. . . جعله سوي الأعضاء حسنها. . . وجعل فيه العقل، وعلق على وجوده التكليف، وربطه به، فإذا زال العقل بطل التكليف.

كما جعل خلقه أتم الخلق، حيث خلق الملائكة من نور، والشياطين من نار، والإنسان من مادة وروح، ففيه شبه من كل منهما، فالغرائز والشهوات. . . والروح والنور في القلب، لذا كان يشترك فيه العالَمان العلوي والسفلي.

٤ ـ ومن مظاهر تكريم الإنسان أن سخر الله سبحانه وتعالى له هذه الجمادات، بل سخر له ما في هذا الكون. . . والنصوص في هذا المعنى كثيرة، ذكرت بعضها في المقدمة، واستوعبت ذلك في «الإدراك عند الجمادات».

قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا. . . ﴾(٣) إلى آخر ذلك.

٥ ـ لما عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال فأشفقن منها، عرضها الله تعالى على آدم عليه السلام فحملها، فكان أفضل. ولعل بدء العرض على الجمادات ـ والله أعلم ـ لأنها أقدم خلقاً منه، ثم لقوتها وصلابتها مع ضعف الإنسان. . . وكل ذلك ليتضح فضل الإنسان على هذه الجمادات وسائر المخلوقات، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة إبراهيم (٣٢ ـ ٣٣).
(٢) سورة الجاثية (١٢ ـ ١٣).
(٣) سورة البقرة (٢٩).

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

٦ ـ لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وزوجه حواء في الجنة، ثم أُخرج منها ليتم قضاء الله وقدره في كون الإنسان خليفة في الأرض، لكن سيعود المؤمنون من ذريته إلى الجنة أيضاً. وإذا علمنا غلاء الجنة ومكانتها عند الله عز وجل، عرفنا أنه تعالى لن يُسكِنها إلا أفضل خلقه وأكرمهم، وقد استفاضت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في سكنى الجنة.

قال الله عز وجل: ـ بعد أمره للملائكة بالسجود لآدم ـ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

وأما دخول الجنة فالنصوص كثيرة جداً، جعلها الله تعالى للمؤمنين. كيف والله تعالى يدعو إليها: ﴿... وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾[3].

﴿... وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ...﴾[4].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[5].

٧ ـ ومن تكريم الله تعالى وتفضيله لهذا الإنسان أن جعل منهم الأنبياء والمرسلين والعلماء والصالحين، والنصوص في هذا المعنى كثيرة جداً أيضاً.

---

(١) سورة الأحزاب (٧٢).
(٢) سورة البقرة (٣٥ ـ ٣٧) وانظر سورة الأعراف (١١ ـ ٢٥).
(٣) سورة البقرة (٢٢١).
(٤) سورة النساء (١٣).
(٥) سورة البقرة (٨٢).

قال الله عز وجل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾[2].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم...﴾[3].

فإذا كان هذا في الرسل ـ وهم أنبياء أمروا بالتبليغ ـ فما دونهم من باب أولى، وليس في الجمادات فما سواها أنبياء أو رسل... والله تعالى أعلم.

٨ ـ إن الجمادات ينتهي أجلها بقيام الساعة، وذلك بزوال الجبال، وتغيير الأرض وتبديلها، وتكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسجير البحار... بينما يبدأ الإنسان حياة ثانية هي عالم الآخرة ـ بعد عالم البرزخ والحساب... ـ فالصالح المؤمن يكون مصيره إلى الجنة، ولا يبقى في النار إلا المخلَّد فيها؛ وهو الذي سبق عليه الكتاب، وشَقي وهو في بطن أمه، فكفر بربه وأشرك ومات كذلك.

قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4].

وقال جل شأنه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۞ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[6].

---

(١) سورة إبراهيم (١١).
(٢) سورة الكهف (١١٠).
(٣) سورة يوسف (١٠٩) وسورة النحل (٤٣) وانظر سورة الأنبياء (٧).
(٤) سورة إبراهيم (٤٨).
(٥) سورة التكوير (١ ـ ١١).
(٦) سورة طه (١٠٥ ـ ١٠٧).

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾(٣).

فهذه الجمادات تزول وتتغير وتتبدل، مع أنها كانت مسخرةً للإنسان، فلما انتهت حياته في هذه الدنيا، انتهت مهمتها، فأزالها الله عز وجل، فهي تابعة له، لأنها مسخرة له، والله تعالى أعلم.

٩ ـ إذا قامت القيامة، وأدخل الله سبحانه وتعالى الصالحين من عباده الجنة، وأدخل الكافرين والمشركين والمنافقين النار، يكون كثير من الجمادات في نار جهنم، لا ليعذبها سبحانه وتعالى، بل ليعذِّب بها الكافرين والمشركين والمنافقين.

قال الله عز وجل: ﴿ ... فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(٤).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ... ﴾(٥).

فأما الناس الذين توقد بهم النار، فهم الكافرون والمشركون.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

(١) سورة الرحمن (٣٧).
(٢) سورة الحاقة (١٣ ـ ١٦).
(٣) سورة الانشقاق (١ ـ ٤).
(٤) سورة البقرة (٢٤).
(٥) سورة التحريم (٦).

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۞ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]
فالمشركون وما يعبدون من دون الله من آلهة هم وقود جهنم.

وقال سبحانه وتعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ۞ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[2].

وأما الحجارة ففي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حجارة من كبريت خلقها الله تعالى عنده، كيف شاء وكما شاء. رواه الحاكم وصححه، وأقره الذهبي، والبيهقي في البعث والنشور والطبراني في الكبير[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة». رواه البخاري[4].

زاد البزار والإسماعيلي والخطابي[5] بسند البخاري، مع الاختلاف في شيخه، حيث رووه من طريق يونس بن محمد ـ وهو ثقة ثبت ـ «في النار» أي يكون اللفظ «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة في النار».

وجاء في رواية الطحاوي ـ برجال الصحيح ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة» ورواه الطيالسي والطحاوي وأبو يعلى وأبو الشيخ وابن عدي في كامله، وابن حبان في المجروحين[6] ـ من حديث أنس رضي الله عنه ـ بنحوه، وفي أسانيدهم

---

(١) سورة الأنبياء (٩٨ ـ ٩٩).
(٢) سورة الجن (١٤ ـ ١٥).
(٣) المستدرك (٢: ٢٦١، ٤٩٤) والبعث والنشور (٢٨٦) والمعجم الكبير (٩: ٢٣٨ ـ ٢٣٩) والدر المنثور (١: ٩٠) ومجمع الزوائد (٧: ١٢٧).
(٤) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب صفة الشمس والقمر.
(٥) فتح الباري (٦: ٢٩٩).
(٦) مسند الطيالسي (٢٨١) ومنحة المعبود (٢: ٧٩) ومسند أبي يعلى (٧: ١٤٨) ومشكل الآثار (١: ٦٦ ـ ٦٧) وكتاب العظمة (٤: ١١٥٩ ـ ١١٦٠) والكامل (٣: ٩٦٩) والمجروحين (١: ٢٩٣) وتفسير ابن كثير (٤: ٤٧٥).

يزيد بن أبان الرقاشي ـ وهو ضعيف ـ لكن يشهد له حديث أبي هريرة السابق، والله تعالى أعلم.

وقال الله عز وجل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[1].

فهي في النار لتعذيب الكفار والمشركين كحال الملائكة الذين يعذبونهم أيضاً، والله تعالى أعلم.

١٠ ـ لما جعل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل من البشر، كانت معرفة البشر بربهم سبحانه وتعالى كاملة ، وهي أكمل من الجمادات بلا شك ولا خلاف.

قال الله عز وجل: ﴿... ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[2]. أي العالم به، ولا أحد أعلم بالله تعالى من رسولِهِ وصفيِّه محمد ﷺ، حيث قال: «إني أعلمكم بالله» متفق عليه[3].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4] حيث جعل أهل العلم بعد الملائكة الكرام في الشهادة بتوحيد الله تعالى ومعرفته، فكيف بالرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ...﴾[5].

(١) سورة التكوير (١).
(٢) سورة الفرقان (٥٩).
(٣) انظر صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب من لم يواجه الناس بالعتاب. وكذا جاء في كتابي الإيمان، والاعتصام. وصحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، رقم (١٢٧، ١٢٨).
(٤) سورة آل عمران (١٨).
(٥) سورة فاطر (٢٨).

وقال الله عز وجل: ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

ولهذا كثرت النصوص في تفضيل العالم والمتعلم، وأن العلماء ورثة الأنبياء، ومن يستغفر للعالم من حيتان ووحوش... وفضل العالم على العابد، وأن الله تعالى يرفع العلماء يوم القيامة، وأن من علامات قيام الساعة فقدان العلماء.

كما وردت نصوص في معرفة العباد المؤمنين لربهم تعالى، وأنهم يعرفونه بصورة معينة... الخ.

وأعلمُ الخلق بالله تعالى رسلُه الكرام عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ثم أتباعهم من بعدهم، لأن العلماء ورثة الأنبياء، والله تعالى أعلم.

١١ ـ زيادة ثواب المطيع، وغفران الذنوب للعاصي ـ من البشر ـ ما لم يكن كفراً، لأن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك، لأنه يغفر الذنوب جميعاً، وقد مر هذا الموضوع بشيء من التفصيل فيما مضى، فلا داعي لإعادته، حيث جعل الحسنة إن هم بها ولم يعملها تكتب حسنة، فإن عملها فإنها تضاعف إلى عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، بينما جعل السيئة، إن هم بها لم تكتب عليه سيئة، فإن عملها تكتب عليه سيئة واحدة، فإن تاب واستغفر محيت عنه. وكل ذلك فضل من الله تعالى، ودلالة على محبة الله عز وجل لعباده المؤمنين، وتفضيله لهم، وتكريمه جل شأنه إياهم، والله تعالى أعلم.

١٢ ـ ومن تكريم الله تعالى لعباده، لطفه سبحانه وتعالى فيهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[2].

وتقربه سبحانه وتعالى إلى عباده أكثر من تقرب عباده إليه، كما قال سبحانه

---

(١) سورة المجادلة (١١).

(٢) سورة الشورى (١٩).

وتعالى ـ في الحديث القدسي ـ: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. . . ومن تقرَّب إليّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإذا أقبل إليَّ يمشي أقبلت إليه أهرول». متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورروياه عن غيره أيضاً[1].

وهو ولي المؤمنين من عباده:

لذا يخرجهم سبحانه وتعالى من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ. . .﴾[2].

وحذَّرهم الشيطان لأنه عدو لهم، وقد أخرج أبويهم من الجنة، فلا يكون سبباً في إدخالهم النار أيضاً، كما قال تعالى: ﴿. . . وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4].

وحذَّرهم من الدنيا حتى لا تطغيهم: ﴿. . . فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ. . .﴾[5].

وتكفل برزقهم، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[6].

ثم محبته سبحانه وتعالى لعباده المتقين ـ وقد سبق بيان ذلك أيضاً ـ ثم من محبته تعالى لعباده ما بينه لهم من الحلال والحرام، وما رسمه لهم من حياتهم وأعمالهم، وفتح لهم باب التقرب إليه، وإذا أخطؤوا أو عصوا، فتح لهم باب

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الذكر: باب فضل الذكر والدعاء. . .، رقم (١٩ ـ ٢٢). وكتاب التوبة: باب في الحض على التوبة. . .، رقم (١).

(٢) سورة البقرة (٢٥٧).

(٣) سورة البقرة (١٦٨، ٢٠٨) وسورة الأنعام (١٤٢).

(٤) سورة يس (٦٠).

(٥) سورة فاطر (٥ ـ ٦).

(٦) سورة الذاريات (٢٢ ـ ٢٣).

التوبة، ثم ابتلاؤه لهم ليكفِّر عنهم سيئاتهم... إلى آخر ذلك، والله تعالى أعلم.

وخلاصة هذا التكريم

لا بد من تحقق الإنسان لكي ينال تكريم الله تعالى وتفضيله، من التحقق بثلاثة أمورٍ رئيسة: قيامه بحق الخلافة في الأرض، وبحق الفطرة في الإيمان به تعالى وتوحيده، وبحق العبودية لله تعالى.

١٣ ـ لقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان خليفة في الأرض، وأبلغ الملائكةَ بذلك، ولا يُعيّن في هذا المنصب إلا الكفء والأفضل والأخير.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(١) لهذا أمرهم بالسجود إليه مباشرة بعد خلقه.

١٤ ـ لقد فطر الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان على الإيمان به سبحانه، وإنما يحوِّله عن الإيمان عواملُ خارجية مما يحيط به.

قال ﷺ: «كل مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿... فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾» متفق عليه(٢).

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ

---

(١) سورة البقرة (٣٠ ـ ٣٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الروم: باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...، رقم (٢٢ ـ ٢٥).

﴿أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾[2].

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً...» الحديث رواه مسلم[3] من حديث عياض بن حمار المُجاشِعي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

١٥ - وكما فطر الله سبحانه وتعالى عبادَه على الإيمان واليقين وعدم الشرك. كذلك جبلهم على عبادته وطاعته، وخلقهم مقرونين بالعبادة له، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4]، فهو سبحانه وتعالى غني عن عبادة خلقه، وغير محتاجٍ لها، لكنهم يؤدون طوعاً أو كرهاً، قياماً بحق العبودية له سبحانه وتعالى، واحتياجاً منهم إليه تعالى، وافتقارهم إليه، والله تعالى أعلم.

فإذا حقق الإنسان هذه الأمور الثلاثة، وقام بها حق القيام، كان مكرَّماً مفضّلاً، وكل هذا يقتضي محبة وطاعة من دله على الله تعالى، ألا وهو رسول الله ﷺ.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: - في حق المطيعين والعاصين -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا

---

(١) سورة الأعراف (١٧٢ - ١٧٣).

(٢) سورة الروم (٣٠).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الجنة: باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم (٦٣).

(٤) سورة الذاريات (٥٦).

﴿تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(١).

فالمؤمنون المطيعون جزاؤهم الجنات والنعيم المقيم، وأما العصاة الكفار فهم في دنياهم لا ينتفعون بحواسهم، بل حالهم كحال البهائم، همها الأكل والشرب... وفي الآخرة مثواهم نار جهنم، وعذابهم فيها. والعياذ بالله تعالى.

التلازم بين المحبة والطاعة

إن التلازم بين المحبة والطاعة قائم لا ينفك، فالمحبة الصادقة تزيد في الطاعة، والطاعة الصحيحة النافعة تزيد في المحبة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾(٢).

فالمحبة إن كانت صادقة تدفع إلى المتابعة، والمتابعة الحقيقية تورث المحبة.

لذا لا يكفي واحد من الأمرين عن الآخر، ويتضح هذا من فعل النبي ﷺ حينما نزل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٣) وقد عُرِف ﷺ بذلك عند الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأن من خصائصه ﷺ أنه غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ في الشفاعة ـ قوله ﷺ: «... فيأتوني، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك...» الحديث متفق عليه(٤).

وفي حديث أنس رضي الله عنه ـ الذي في الشفاعة أيضاً ـ قوله ﷺ: «...

---

(١) سورة محمد (١٢).
(٢) سورة آل عمران (٣١).
(٣) سورة الفتح (١ ـ ٣).
(٤) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم (٣٢٧).

ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. . .» الحديث متفق عليه[1].

ومع هذا فقد قام بعبادة ربه عز وجل حتى تورمت قدماه ﷺ، وهو ﷺ لا أحد يحب الله عز وجل ويحبه الله عز وجل مثله، كما كان في عبادته ﷺ المثل الأعلى، ومع هذا فقد قام ـ زيادة على عبادته وأجهد نفسه ـ حتى تورمت قدماه الشريفتان.

فقد روى الشيخان[2] من حديث المغيرة بن شعبة، ومن حديث السيدة عائشة رضي الله عنهما أنه ﷺ قام حتى تَفَطَّرَ رجلاه، فقالوا له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

فلو كانت المحبة ـ وحدها ـ كافية، لما اجتهد ﷺ حتى تفطرت قدماه الشريفتان، ولاكتفى بفضل الله تعالى الذي أنزل عليه، ولكن الأمر على العكس تماماً، فقد قام واجتهد

وهكذا كل محبٍّ لرسولِ الله ﷺ يلزمه ـ بصادق المحبة ـ الاتباع التام، والطاعة التامة، بل العمل قدر الطاقة، حتى يكون معه ﷺ.

وهكذا فعل الصحابة الكرام رضي الله عنهم ـ سواء في حياته ﷺ ـ أو بعد وفاته ﷺ ـ **بل لما بلغ عند بعضهم الزيادة في الطاعة، أعادهم ﷺ إلى الطريق** الوسط، لأن الاستمرار في العمل القليل خير، من فعل الكثير ثم تركه.

فلما زوَّج عمرُو بنُ العاص رضي الله عنه ولدَه عبدَ الله، ولم يأتها ـ انشغالاً منه بالعبادة والطاعة، ردَّه رسول الله ﷺ إلى الأمر الوسط.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد: باب كلام الرب سبحانه يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم (٣٢٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة الفتح: باب قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين: باب إكثار الأعمال، رقم (٧٩ ـ ٨١).

فعن عبدالله رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله ألم أُخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزَوْرِك عليك حقاً. . .» الحديث متفق عليه[1].

ولما عزف أبو الدرداء رضي الله عنه عن الدنيا، ودخل عليه أخوه سلمان الفارسي رضي الله عنه، ووجد أُمَّ الدرداء متبذلةً، وسألها، قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. . . . وفي آخر الحديث: قال سلمان لأبـي الدراء رضي الله عنهما بنحو قول رسول الله ﷺ لابن عمرو رضي الله عنهما، فلما ذكر أبو الدرداء ذلك للنبـي ﷺ، قال: «صدق سلمان» رواه البخاري[2] من حديث أبـي جُحيفة رضي الله عنه.

ونحوه جواب النبـي ﷺ للرهط الذين سألوا أزواج النبـي ﷺ عن عبادته، وفي آخر الحديث قال رسول الله ﷺ: «. . . أما والله، إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه[3] من حديث أنس رضي الله عنه.

ولما أراد عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن ينقطع عن النساء والنكاح، ويتفرغ للعبادة، رفض رسول الله ﷺ عليه ذلك.

فعن سعد بن أبـي وقاص رضي الله عنه قال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا. متفق عليه[4].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب النكاح: باب حق الجسم في الصوم ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الصيام: باب النهي عن صوم الدهر. . . رقم (١٨٢ ـ ١٩٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصيام: باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع. . . وفي غيرهما.

(٣) صحيح البخاري: كتاب النكاح: باب الترغيب في النكاح. وصحيح مسلم: كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. . .، رقم (٥).

(٤) صحيح البخاري: كتاب النكاح: باب ما يكره من التبتل والخصاء. وصحيح مسلم: =

وليس معنى هذا الاقتصار على القليل من العبادة، بل المطلوب الزيادة من العبادة، فالفرض فرض واجب، والنافلة مستحب إكثارها، لكن لا يخرج ذلك عن الطاقة التي تقطع الإنسان وتبعده عن العبادة، وتكون سبباً في تركها فيما بعد، أو تكون سبباً في ضياع غيرها من الواجبات، بل الاعتدال مطلوب، والتنسيق بين الحقوق مطلوب أيضاً، ويكون في كلا الحالتين ملتزماً بالسنة، غير خارج عنها.

ومما يدل على الزيادة من النافلة، والإكثار من الطاعة والعبادة ـ مع الالتزام بالاتباع ـ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذاأحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصَره الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه. . .» الحديث رواه البخاري[1].

فالفرض أحب ما يتقرب به العبد لله تعالى من الأعمال، والزيادة من النافلة من أحب ما يتقرب به العبد، بل هي سببٌ لمحبة الله تعالى لذلك المتقرِّب، ولكن ذلك كله مرهون بالطاقة، وموافقة السنة، ومجانبة البدعة.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل عابد من شِرّةٍ، ولكل شِرَّةٍ فترةً، فإما إلى سُنَّةٍ، وإمَّا إلى بدعة، فمن كانت فترتُه إلى سُنَّةٍ فقد اهتدى، ومن كانت فترتُه إلى غير ذلك فقد هلك» رواه أحمد والطبراني والطحاوي وابن حبان وغيرهم بسند صحيح.

وقد روى هذا الحديث أيضاً أبو هريرة وجعدة بن هبيرة وابن عباس وأبو أمامة وغيرهم رضي الله عنهم[2].

= كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (٦ ـ ٨).

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب التواضع.

(٢) مسند أحمد (٢: ١٥٨، ١٦٥، ١٨٨، ٢١٠) (٥: ٤٠٩) وسنن الترمذي: كتاب القيامة: =

والشِّرَّةُ: هي النشاط والرغبة، والاندفاع في العمل. والفترة: هي الانكسار والضعف والخمول عن العمل،

فالمراد ـ والله أعلم ـ ليس منع طلب الأكمل في العبادة، فإن ذلك من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك العمل الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج وقتها المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة، ولهذا جاء التشديد في التعمق المفضي إلى ذلك: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة، والروحة، وشيء من الدُّلْجة» رواه البخاري[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيؤخذ منه الأخذ بالرخصة الشرعية، لأن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطُّعٌ، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضي به استعماله إلى حصول الضرر.

ولهذا حث على السداد ـ وهو من غير إفراط ولا تفريط ـ ثم الاستعانة في أوقات النشاط على العبادة، وذكر الأوقات الثلاثة؛ الغدوة، والروحة، وشيء من الليل[2].

ولهذا بيَّن ﷺ أن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دُووِمَ عليه وإن كان قليلاً.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس. عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تَمَلّوا، وإن أحب الأعمال

= رقم (٢٤٥٣) ومشكل الآثار (٢: ٨٨، ٨٩) وكتاب السنة (١: ٢٧ ـ ٢٨) وصحيح ابن حبان (١: ١٠٧، ٢٨١) والمعجم الكبير (٨: ٢٦٥) ومجمع الزوائد (٢: ٢٥٨ ـ ٢٦٠).

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب الدين يسر ـ وفي غيرهما.

(٢) انظر فتح الباري (١: ٩٤ ـ ٩٥).

إلى الله ما دووم عليه وإن قَلَّ» متفق عليه، واللفظ لمسلم[١].

وذلك لأنه بِدَوام القليل تستمر الطاعة بالذكر والمراقبة والإخلاص والإقبال على الله تعالى، بخلاف الكثير الشاق، حيث ينمو القليل الدائم، بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: إنما أحب الدائم لمعنيين: أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصل، فهو متعرض للذم، ولهذا ورد الوعيد في حق من حفظ آية ثم نسيها، وإن كان قبل حفظها لا يتعين عليه. ثانيهما: أن مداوم الخير ملازم للخدمة، وليس مَنْ لازم الباب في كل يوم وقتاً ما؛ كمن لازم يوماً كاملاً ثم انقطع. اهـ من الفتح[٢].

وخلاصة الأمر أن التلازم بين المحبة والطاعة قائم، فالمحبة الصادقة تدفع إلى الطاعة، والطاعة الصحيحة تزيد في المحبة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾[٣].

كما أن التلازم بينهما موجود، فالمحبة الصادقة تدفع إلى الاتباع في حالتيه، حالة الإقبال وحالة الفترة، كلاهما على السنة، ولا يقع المحب الصادق في المعصية إلا حين الغفلة، والله تعالى أعلم.

ادعاء المحبة والمحبة الصادقة

لقد جرت حكمة الله تعالى أن من ادعى شيئاً ـ وخاصة إذا كان مخفياً ـ كشفته شواهد الامتحان.

فعندما ادعى اليهود والنصارى أنهم أحباب الله تعالى، فضحهم الله تعالى وكشفهم، مبيناً زيف دعواهم، وأنهم لم يكونوا صادقين في هذه الدعوى.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب أحب الدين إلى الله أدومه ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين: باب فضيلة العمل الدائم، رقم (٢١٥ ـ ٢١٨).
(٢) فتح الباري (١ : ١٠٣).
(٣) سورة آل عمران (٣١).

قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ . . .﴾[1].

والمحب لا يعذب محبوبه، فكيف يعذبهم إذاً لولا أنهم كانوا كاذبين، ومِنْ كذبهم ادعاؤهم أنهم أبناء لله تعالى، وحاشا لله تعالى أن يكون له ولد، وهو يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2].

ثم إنَّ المحب يود لقاء حبيبه، لهذا لما ادعوا ولاية الله تعالى، وأن لهم المكانة العليا الخاصة عند الله تعالى طلب منهم أن يتمنوا الموت، ولكن هيهات.

قال الله عز وجل مخاطباً اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

وقال عز شأنه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

وهكذا شأن كل مدعٍ، تكشفه شواهد الامتحان، فهؤلاء اليهود لما علموا صدقَ النبـي ﷺ، وكذبَهم وظلمَهم ـ مع حرصهم على الحياة وطول الأعمار، لم يتمنوا الموت، إذ لو تمنوه لماتوا جميعاً، ولم يبق يهودي على ظهر الأرض[5].

---

(١) سورة المائدة (١٨).

(٢) سورة الإخلاص (٣).

(٣) سورة البقرة (٩٤ ـ ٩٥).

(٤) سورة الجمعة (٦ ـ ٧).

(٥) انظر مسند أحمد (١ : ٢٤٨) وتفسير النسائي (١ : ٢٩٦ ـ ٢٩٨) ومسند أبـي يعلى (٤ : ٤٧١ ـ ٤٧٢) وكشف الأستار (٣: ٤٠ ـ ٤١) وفتح الباري (٨: ٧٢٤) ومجمع الزوائد (٦ : ٣١٤) برجال الصحيح، وروى أوله البخاري: كتاب التفسير: سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

بينما المحب الصادق يتمنى لقاء محبوبه، ولهذا جرت عادة الله تعالى ابتلاء عباده ليكشفهم، فإن كانوا صادقين رفع مكانتهم، وأعلى مراتبهم، وزاد في درجاتهم، وأنالهم من الثواب الكثير... وإن كانوا غير صادقين ـ والعياذ بالله تعالى ـ فضحهم وكشف أمرهم.

قال الله عز وجل ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ * وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

ولهذا كان ابتلاؤه سبحانه وتعالى لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام أشد من غيرهم؛ ليكونوا في أعلى الدرجات، وينالوا مزيد الثواب... وكلما اقترب الإنسان وتشبه بهم كان ابتلاؤه أكثر. ولهذا كان المحبُّون أشدَّ الناس بلاء بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم يدّعون التشبه والتمثل والمشاكلة... فإما أن يكونوا أدعياء فيكشف أمرهم، وإما أن يكونوا صادقين فينالوا درجة المعية.

فعن سعد بن أبـي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟، قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، ثم الأمثل من الناس، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زِيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفِّف عنه، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وماله خطيئة» رواه أحمد والطيالسي وابن أبـي شيبة والدورقي والدارمي والترمذي والنسائي وابن ماجه والطحاوي والحاكم وابن حبان وعبد بن حُميد والبزار وأبو يعلى والشاشي وابن أبـي الدنيا والبيهقي والبغوي وغيرهم، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان[2]، وغيرهم.

---

(١) سورة العنكبوت (١ ـ ٣).

(٢) مسند أحمد (١: ١٧٢، ١٧٣ ـ ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) والزهد له (٥٣) والمسند ـ نسخة أحمد شاكر، رقم (١٤٨١). ومسند الطيالسي (٢٩ ـ ٣٠) والمصنف لابن أبـي شيبة (٣: ٢٣٣) ومسند سعد بن أبـي وقاص (٨٧ ـ ٨٩ رقم ٤١، ٤٢) وسنن الترمذي: كتاب الزهد: باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨) والسنن الكبرى للنسائي: كتاب الطب: باب أي الناس أشد بلاء (٤: ٣٥٢) وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن: باب الصبر على =

وقوله في الحديث: «الأمثل فالأمثل» أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة.

وقوله في الحديث: «فإن كان في دينه صلابة...» هذا في غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم عليهم الصلاة والسلام لا يكون في دينهم رقة أو صلابة، إنما ذلك للصالحين فمن بعدهم من الناس، حيث يبتلون فيصبرون، فيكفِّر الله تعالى عنهم خطاياهم، حتى يمشي أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة، والله تعالى أعلم.

كما أن في هذا دلالة على أن الإنسان كلما قوي إيمانه، وارتفعت مكانته، وعلا مقامه... كان البلاء عليه أكثر، لينال الدرجات العالية، وشدة القرب.

ولهذا قال ﷺ ـ لمن قال له: والله يا رسول الله، إني لأحبُّك ـ: «إن البلايا ـ وفي رواية: الفقر ـ أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه». وقد جاء هذا المعنى بألفاظ متقاربة. رواه أحمد، والترمذي ـ وحسنه ـ وابن حبان والبيهقي من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، ورواه الحاكم ـ وصححه، وأقره الذهبي ـ والبيهقي من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ورواه أحمد والبيهقي وسعيد بن منصور من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه ابن ماجه والبيهقي وابن عساكر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البزار ـ وصححه الحافظ في زوائده ـ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ورواه الطبراني من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه بسند جيد، ورواه الطبراني من

= البلاء، رقم (٤٠٢٣) وسنن الدارمي (٢: ٢٢٨ رقم ٢٧٨٦) ومشكل الآثار (٣: ٦١ ـ ٦٢) والمستدرك (١: ٤٠ ـ ٤١) وصحيح ابن حبان (٤: ٢٤٦، ٢٥٤) والموارد (١٨٠ رقم ٦٩٩ ـ ٧٠٠) ومسند عبد بن حميد (٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٤٦) ومسند الشاشي (١: ١٣٠ ـ ١٣٢) والبحر الزخار (٣: ٣٤٩، ٣٥٣ ـ ٣٥٥) ومسند أبي يعلى (٢: ١٤٣) وكتاب المرض والكفارات (١٧ ـ ١٨ رقم ٣) وشرح السنة (٥: ٢٤٤) والسنن الكبرى للبيهقي (٣: ٣٧٢ ـ ٣٧٣) وشعب الإيمان (٧: ١٤٢) وحلية الأولياء (٣٦٨) والطبقات الكبرى (٢: ٢٠٩ ـ ٢١٠) والعلل للدارقطني (٤: ٣١٥ ـ ٣١٨) وفتح الباري (١٠: ١٤٣).

حديث عثمة الجهني[1] رضي الله عنه.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فإن الابتلاء ليس محدداً، فهو قد يكون في الجسم من كثرة الأمراض والأسقام، وقد يكون بقلة المال وهلاك الحلال... كذلك يكون في القليل البسيط الذي يراه الناس تافهاً لا قيمة له.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2].

فبعدما ذكر أنواعاً من الابتلاءات، عمَّم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ لتشمل كل ذلك وغيره أيضاً.

ولهذا قال ﷺ: «إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع، فإنه من المصائب» رواه البزار ومسدد وابن السني والبيهقي وهناد وأبو نعيم من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير ـ من طريقين ـ من حديث أبـي أمامة رضي الله عنه، ورواه البزار من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، ورواه ابن السني من حديث أبـي إدريس الخولاني ـ مرسلاً ـ وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند الترمذي وابن حبان وغيرهما. فالحديث بطرقه حسن[3]، والله تعالى أعلم.

---

(١) مسند أحمد (٣: ٤٢) وسنن الترمذي، رقم (٢٣٥٠) وصحيح ابن حبان (٤: ٢٥٥) والموارد (٦٢٠ ـ ٦٢١) والمستدرك (٤: ٣٣١) وسنن ابن ماجه: كتاب الرهون، رقم (٢٤٤٨) وشعب الإيمان (٢: ١٧٣ ـ ١٧٥) (٧: ٣١٨ ـ ٣١٩) ومجمع البحرين (٨: ٢٩١) وزوائد البزار (٢: ٥٠٨) وكشف الأستار (٤: ٢٢٩) ومجمع الزوائد (١٠: ٢٧٤، ٣١٣، ٣١٤) وكنز العمال (٧: ٤٧١، ٤٨٣).

(٢) سورة البقرة (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٣) عمل اليوم والليلة (٣١٢ ـ ٣١٤) وموارد الظمآن، رقم (٢٤٠٢) وشعب الإيمان (٧: ١١٧) والزهد لهناد (١: ٢٤٦) وأخبار أصبهان (١: ١٨٣) والكامل لابن عدي (٧: ٢٦٦١) والمعجم الكبير (٨: ١٥٥ ـ ١٥٦، ٢٤٠ ـ ٢٤١) والمطالب العالية (٣: ٢٣١، =

بل إن الشوكة أو النكبة، إذا أصيب بها المسلم فهي مصيبة، يرفعه الله تعالى بها درجات، ويحط عنه بها سيئات، ويغفر الله تعالى بها عنه بعض ذنوبه.

قال ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى ـ شوكةٌ فما فوقها ـ إلا كفَّر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها» متفق عليه[1] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وله روايات عند مسلم.

وعند مسلم[2] ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة يُنْكَبُها، أو الشوكة يُشاكها» وهناك روايات متعددة عنده من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أيضاً.

وقوله في الحديث الأول: «شوكةٌ فما فوقها» ذكرها بالتنوين للتقليل، لا المراد بها الجنس، ليصح ترتيب ما فوقها ودونها في العِظَم والحقارة عليها بالفاء «فما» وهو يحتمل فوقها في العِظم ودونها في الحقارة، وعكسه، والله تعالى أعلم[3].

ولا يسأل الإنسان الابتلاء إذا كان معافى، ولا يسأل المشقة إذا كان مرتاحاً، ولا يسأل الفقر إذا كان غنياً، ولا يسأل المرض إذا كان سليماً... وذلك لأنه قد يأتيه ما لا طاقة له به، ولا يقدر على دفعه أو تحمله، ولهذا كان ﷺ يتعوذ من جهد البلاء.

= ٢٣٢) وزوائد البزار (١: ٣٤٣، ٣٤٤) وكشف الأستار (٤: ٣٠ ـ ٣١) ومجمع الزوائد (٢: ٣٣١).

(١) صحيح البخاري: كتاب المرضى: باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...، رقم (٤٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...، رقم (٤٦ ـ ٥٢) وانظر كتاب الحدائق في علم الحديث والزهديات (٣: ٣٩٦ وما بعده).

(٣) انظر فتح الباري (١٠: ١١٢).

فعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبـي ﷺ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء. . . الحديث متفق عليه[1].

وفي لفظ للبخاري، قال ﷺ: «تعوذوا بالله من جهد البلاء. . .» الحديث.

قال ابن بطال وغيره ـ كما نقله الحافظ في الفتح[2] ـ: جهد البلاء: كل ما أصاب المرءَ من شدةٍ مشقةٍ، وما لا طاقة له بحمله، ولا يقدر على دفعه. اهـ.

ولهذا كان ﷺ يدعو لنفسه بالعافية: «اللهم إني أسألك العافية» كما رواه مسلم، وكان يعلم بعضَهم أن يقول: «اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في جسدي، اللهم عافني في بصري» كما عند مسلم مختصراً وعند أصحاب السنن وغيرهم[3].

ويقول ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية»** متفق عليه[4] من حديث عبد الله بن أبـي أوفى رضي الله عنه.

لهذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لأن أُعافى فأشكر أحب إليَّ من أن أُبتلى فاصبر[5].

ذلك لأن الإنسان إذا طلب شيئاً من الابتلاءات، فقد يشدّد عليه، وقد يأتيه ما لا طاقة له به، وقد يضعف عن حمل ذلك، ولا يقدر على الصبر عليه،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الدعوات: باب التعوذ من جهد البلاء. وكتاب القدر: باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء. وصحيح مسلم: كتاب الذكر: باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء، رقم (٥٣).

(٢) انظر فتح الباري (١١: ١٤٩).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الذكر: باب ما يقول عند النوم، رقم (٦٠). وانظر كتاب الذكر، رقم (٣٣ ـ ٣٥).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب لا تمنوا لقاء العدو ـ وفي غيرهما ـ وصحيح مسلم: كتاب الجهاد: باب كراهة تمني لقاء العدو. . .، رقم (٢٠).

(٥) انظر فتح الباري (٦: ١٥٦).

فيناله الجزع والضعف، فيكون الأمر على العكس، اللهم إلا إذا كان كمذهب أبـي بن كعب رضي الله عنه، ولكن هيهات، لذا فليسأل الله تعالى العافية والمعافاة في الصحة والبدن، والأهل والمال، وفي الدِّين والدنيا، فإن ابتُلي صبر وتحمل، وسأل الله تعالى مزيد الفضل، لما له يوم القيامة من الثواب الجزيل، والأجر العميم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء ـ أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبـي به في الآخرة، فعجِّله لي في الدنيا، فقال له رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه ـ أو لا تستطيعه ـ أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟» قال: فدعا اللهَ له فشفاه. رواه مسلم(١).

فقد بيّن العلة: «لا تطيقه».

وليس معنى ذلك اشتراط البلاء لكل محب، فالمعافى يحمد الله تعالى على معافاته، لأن البلاء كما قلت مختلف، فالهم والغم و . . . إلى القتل، كل ذلك من البلاء، فمن عفي من كبارها قد يصاب بصغارها، والله تعالى لطيف بعباده.

وذلك لأن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كان نعمة الله تعالى عليه أكثر كان بلاؤه أشد، ولهذا كان ابتلاء الأنبياء أشد، وجعلت عقوبة الحُرِّ ضعفَ عقوبة العبد، وقيل لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ . . .﴾(٢)، فهن لسن كسائر النساء، ونعمة الله تعالى عليهن ـ

(١) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء: باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا، رقم (٢٣).

(٢) سورة الأحزاب: (٣٠ ـ ٣٢).

أنهن أمهات المؤمنين، ونساء النبي ﷺ ورضي الله تعالى عنهن ـ لا تعادلها نعمة عند غيرهن، لذا كما كان الثواب، مضاعفاً كانت العقوبة كذلك، أما من كان دون ذلك، فابتلاؤه أخف، لكن لا بد، حتى يخرج من الدنيا من غير خطايا، لأن عقوبة هذه الأمة في دنياها، بخلاف الأمم الأخرى.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في تعليقه على حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق: في الحديث دلالة على أن القويَّ يحمل ما حُمل، والضعيفَ يرفق به، إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه البلاء، ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهون عليه البلاء، وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك في ملكه فيسلِّم، ولا يعترض، وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء، وأنهى المراتب من يتلذذ به لأنه عن اختياره نشأ، والله أعلم. اهـ من الفتح[1]. أقول: ولكن عافيتك أوسع لي.

وعلى هذا يحمل ابتلاء الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام من آدم، فنوح، فإبراهيم، فإسماعيل، فيعقوب، فأيوب، فيوسف... وآخرهم المصطفى ﷺ، فنالوا الدرجات العلا عند الله تعالى، بعد أن ضربوا لأتباعهم المثلَ الأعلى في الموضوع، لأن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، كما قال عليه وآله الصلاة والسلام.

فإذا صبر المحب تبين نقاءُ معدنه، وصفاءُ جوهره، وصحةُ نسبته، وصادقُ ولائه، وكمالُ اتباعه، فنال المعيةَ، وشدةَ القرب، ونفعه حبُّه، وإن كان مقصراً في العمل.

والمحبة الصادقة نافعة مع قلة العمل، وأعني بقلة العمل المحافظة على الفرائض والنوافل من غير توسع في النوافل... وذلك لأن القليل الدائم أفضل من الكثير المنقطع، كما مر بيانه، وسيأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى.

---

(١) فتح الباري (١٠ : ١١٢).

كما أن المحبة الصادقة ليست عاصمة من الذنوب، بل قد يقع المحب في المعصية ـ صغيرة أو كبيرة ـ كما مر في قوله ﷺ: «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله» ﷺ.

والمحبة الصادقة جابرة للنقص والخلل في العمل، حتى نال المعية، مع أنه لا يستطيع أن يعمل عملهم.

لكن المحب حريص على العمل، لكن يحول بينه وبين الأداء الكامل عوائق ـ ضعف الجسم، أسقام، قلة الوقت، كسب العيش، القيام على صبية صغار، أو والدين كبيرين، أسفار، قلة ذات اليد. . . ـ ويتضح هذا من قوله: (إن الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم. . .) فقوله: لا يستطيع: دلالة على الحرص على الأداء، لكن لا طاقة له، ولو كان له طاقة لفعل، ولهذا نظائر.

فعن أبـي كبشة الأنماري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «. . . إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربه، ويصِلُ فيه رَحِمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبدٍ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيته، فأجرهما سواء. . .». الحديث رواه أحمد والترمذي وصححه، وابن ماجه بنحوه[1].

فهما في الأجر سواء، مع أن الثاني لا مال له، لكن لما علم الله تعالى صدقَ نيته كتب له مثلَ أجر الأول، لأن الأعمال مرتبطة بالنية، كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

وهكذا يتضح الفرق بين المحب الصادق، ومدعي المحبة، فالمحب الصادق يثبت عند الامتحان، فينال المعيةَ والقربَ والدرجات العاليةَ وغفرانَ الذنوب. . .

---

(١) مسند أحمد (٤: ٢٣٠، ٢٣١) وسنن الترمذي: كتاب الزهد: باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥) وسنن ابن ماجه: كتاب الزهد: باب النية، رقم (٤٢٢٨).

ومدعو المحبة تكشفهم الامتحانات والابتلاءات، فيزوغون عن الطريق، وينكصون أدراجهم، ويفضحهم الله تعالى. أسأله تعالى مزيد فضله ورضاه من غير ابتلاء ولا محنة.

فعل الطاعة

إن الباعث على الطاعة ـ كما مر ـ أمران: إما رغبة وإما رهبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

كما أن الباعث على العبادة أيضاً إما رغبة أو رهبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿... وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[3].

والطاعة لله تعالى عبادة له تعالى، وطاعة رسوله ﷺ عبادة لله تعالى أيضاً، لأنه تعالى هو الذي أمر بها، فمن قام بها فقد أطاع الله تعالى، ومن تركها فقد عصى الله عز وجل.

والله عز وجل رؤوف رحيم بعباده، ومن رحمة الله عز وجل جعلَ نبيَّه وصفيَّه ﷺ رحمةً للعالمين، وبالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ورحمةً مهداة للخلق.

كما أن الله عز وجل خلق الناس متفاوتين في القوة والفهم والإدراك والطول والضخامة... لحكمة يريدها سبحانه وتعالى. كذلك كان الناس متفاوتين في الطاعة والامتثال، لكن هناك حد أدنى لا يجوز تعديه هبوطاً، وجعل المجال مفتوحاً ـ علواً وهمة ـ حسب الهمة والنشاط والقوة والنية والولاء والصدق والمحبة...

---

(١) سورة فصلت (٤١).
(٢) سورة آل عمران (٨٣).
(٣) سورة الرعد (١٥).

وقد قسم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام: سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه.

قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ . . . ﴾[1].

فقد ذكر في الآية الأولى اصطفاء هذه الأمة وتوريثها الكتاب، وجعلهم ثلاثة أقسام، ثم بين ثوابها.

ومما يدل على أن الظالم لنفسه من هذه الأمة: الآيةُ الأخيرة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . . ﴾ فالظالم لنفسه من هذه الأمة، وهو القسم الثالث الذين يدخلون النار، ثم تدركهم الشفاعات ورحمة الكبير المتعال، فيُنقلون منها إلى الجنة، وقد سبق بيان ذلك في آخر الفصل الثاني.

وما في هذه الآية نظير ما جاء في سورة الواقعة، حيث قال جل شأنه: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] فأصحاب الميمنة: من كانوا عن يمين العرش، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، وأصحاب الشمال: من كانوا عن شماله، وهم من يأخذوها بشمالهم، وأما السابقون: فهم الذين يكونون بين يديه، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء.

فالقسم الأول: ـ وهم السابقون للخيرات ـ من يقومون بالواجبات والمستحبات. . . والتاركون للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

---

(١) سورة فاطر (٣٢ ـ ٣٦).

(٢) سورة الواقعة (٧ ـ ١١).

والقسم الثاني: ـ وهم المقتصدون ـ من يقومون بالواجبات، والتاركون للمحرمات، وقد يتركون بعض المستحبات، ويفعلون بعض المكروهات.

والقسم الثالث: ـ وهم ظالمو أنفسهم ـ ممن يفرِّط في بعض الواجبات ويرتكب بعض المحرمات، وهؤلاء نظير قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] كما يوضح ذلك حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه ـ في البخاري[2] ـ وفي آخره: «... أما القوم الذين كانوا شطرٌ منهم حسن وشطرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم».

وقد حث الله سبحانه وتعالى هذه الأمة على الإسراع إلى طاعته ومغفرته وجنته... لينالوا السعادة والهناء.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ...﴾[3].

وقال جل شأنه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

وقال عز من قائل: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[5] في آيات كثيرات.

وقد سبق بيان النبي ﷺ الداعي إلى المأدبة في الدار، فمن دخل الإسلام دخل الجنة.

---

(١) سورة التوبة (١٠٢).
(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: سورة براءة: باب ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ...﴾.
(٣) سورة يونس (٢٥).
(٤) سورة آل عمران (١٣٣).
(٥) سورة الحديد (٢١).

وقد استجاب المؤمنون لدعوة الله تعالى ودعوة رسوله ﷺ، ولكنهم يختلفون في نوعية تلك الإجابة، فهم على أقسام ثلاثة أيضاً: منهم من يعمل رغبة في الثواب وخوفاً من العقاب، ومنهم من يعمل رغبة في المنزلة والقرب وعلو الدرجات، ومنهم من يعمل شكراً وقياماً بحق العبودية لله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: وعمّال الآخرة على قسمين: منهم من يعمل على الأجر والثواب، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة، فهو ينافس غيره الوسيلة والمنزلة عند الله تعالى، ويسابق إلى القرب منه.

وقد ذكر الله تعالى النوعين في سورة الحديد، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2] فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ...﴾[3] فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب... ثم ذكر الشهداء، وهل هو وصف: فيكونون صديقين وشهداء، فهذه هي المنزلة والمرتبة، أم هو عطف، واستئناف للكلام على الشهداء، ثم ذكر الأشقياء...

ثم قال: والمقصود: أنه سبحانه وتعالى ذكر أصحاب الأجور والمراتب، وهذان الأمران هما اللذان وَعد بهما فرعونُ السحرةَ إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام، فقالوا: ﴿... أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[4] أي أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي، والقرب مني.

فالعمال عملوا على الأجور، والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك، وأعمالُ أولئك البدنية قد

---

(١) الوابل الصيب (١٤٩ ـ ١٥٠).

(٢) سورة الحديد (١٨).

(٣) سورة الحديد (١٩).

(٤) سورة الشعراء (٤١ ـ ٤٢).

تكون أكثر من أعمال هؤلاء. اهـ.

قلت: وهناك مرتبة هي أعلى من المرتبتين السابقتين، ألا وهي العمل قياماً بحق العبودية لله تعالى، شكراً له على نعمائه المتواصلة المتعددة غير المحصورة، ويتضح هذا المعنى: أن النبي ﷺ نزل عليه سورة الفتح، وفيها: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . . .﴾[1]، فما الذي حصل؟ قام النبي ﷺ حتى تفطرت قدماه الشريفتان، كما سبق ذكره، من حديثي السيدة عائشة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما المتفق عليهما، وفيهما قوله ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» فالفاء في قوله: «أفلا» للسببية، وهي عن محذوف تقديره: أأترك تهجدي لما غفر لي، فلا أكون عبداً شكوراً، ويكون المعنى: أن المغفرة هي سبب لكون التهجد شكراً له فكيف أتركه.

لهذا قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفاً من الذنوب، وطلباً للمغفرة والرحمة. فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك، فأفادهم أن هناك طريقاً آخر للعبادة، وهو الشكر على المغفرة وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئاً. فيتعين كثرة الشكر على ذلك، والشكر: الاعترافُ بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكوراً، ومن ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2]. اهـ من الفتح[3].

فقوله ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» فيه أمران: كونه ﷺ عبداً، وكونه ﷺ عبداً شكوراً. وإذا كان قوله: «شكوراً» صيغة مبالغة من «شاكر» أي كثير الشكر، فإن الله سبحانه وتعالى وصفه بالعبدية في أعلى المقامات، في تنزيل القرآن عليه ﷺ، وفي الإسراء والمعراج، وفي قيامه ﷺ بالدعوة.

---

(١) سورة الفتح (١٢).

(٢) سورة سبأ (١٣).

(٣) فتح الباري (٣: ١٥).

قال الله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ...﴾[1] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا...﴾[3].

وقال عز شأنه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[5] في آيات كثيرات.

وإذا كان الله عز وجل قد وصف نبيه وصفيه ﷺ بذلك، وأنه ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر... وأن عبادتَه ﷺ قيامٌ بحق العبودية لله تعالى وشكرٌ على نعمائه... فإن هذا ليس خاصاً به ﷺ، وإلا فماذا يقال في أهل بدر، وقد غَفر الله تعالى لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر.

فقد قال ﷺ لعمر رضي الله عنه ـ في قصة حاطب رضي الله عنه ـ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» متفق عليه[6] من حديث علي رضي الله عنه، وفي بعض الروايات عند البخاري: «فقد وجبت لكم الجنة» وفي بعض الروايات: «إن الله اطلع على أهل بدر...» بصيغة الجزم.

---

(١) سورة الكهف (١).
(٢) سورة الفرقان (١).
(٣) سورة الإسراء (١).
(٤) سورة النجم (١ ـ ١٠).
(٥) سورة الجن (١٩).
(٦) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب الجاسوس. وكتاب الاستئذان: باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره ـ وفي غيرها ـ وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم...، رقم (١٦١).

وكذا فيما قال فيهم رسول الله ﷺ: «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[1].

وكذا في إحلال رضوان الله تعالى على من بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان، كما قال الله عز وجل: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ. . . ﴾[2].

فهل هؤلاء ـ وأمثالهم ـ يعبدون لمغفرة الذنوب؟ وقد غُفرت ذنوبهم. أم أنهم يسألون الدرجات العليا، والمقام الرفيع، والقرب من الله تعالى؟ أم يشكرونه على نعمائه وفضله، ويقومون بحق العبودية له تعالى؟ الأمران الأخيران محتملان، والله تعالى هو المتفضل، لأن الشكر على النعمة نعمة تحتاج إلى شكر، وهكذا يبقى الإنسان عاجزاً، وإن كان مقام النبي ﷺ فوق مقام سائر الناس. حيث قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» بينما سائر الناس يشكرون النعمة ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ كما مر في الآيتين. وشتان بين شكر النعمة وشكر المنعم، وبين شاكر وشكور. والله أعلم.

وخلاصة الأمر: أن عمال الآخرة ثلاثة: الأول: طالبٌ للثواب والأجر، خائف من العقاب. والثاني: طالب للمنزلة والدرجة والقرب من الله تعالى، خائف من الهجر والبعد. والثالث: قائم بحق العبودية، شاكر لنعم مولاه، والله تعالى أعلم.

وهؤلاء الأصناف الثلاث محصورون في عباداتهم وطاعاتهم في إطار الاتباع وعدم الابتداع. والله تعالى أعلم.

إغلاق جميع الأبواب والطرق إلا باب النبي ﷺ وطريقه

إن الله عز وجل لم يدع هذه الأمة تسير على أهوائها، وتعبد حسب تصوراتها، وتطيع حسب رغباتها، وتمشي حسب اختراعاتها وابتداعها. . . ولكنه

---

(١) انظر «الخصال المكفرة. . .» للحافظ ابن حجر رحمه الله، حيث جمع الأحاديث التي فيها مثل هذا اللفظ من الكتب الحديثية المختلفة.

(٢) سورة الفتح (١٨).

سبحانه وتعالى قيّد هذه الأمة بقيد، وسيَّجها بسياج، وأغلق عليها جميع الأبواب، وأوصد عليها جميع الطرق، وفتح لها باباً واحداً تلج منه إلى الله تعالى، وعبَّد لها طريقاً واحداً تسلكه إلى الله عز وجل، وجعل لها صراطاً مستقيماً قصيراً واضحاً بيِّناً مضيئاً، من سلكه أَمِنَ، ومن سار فيه وصل، ومن طرقه سعد... هو: باب النبي المصطفى المختار ﷺ، وطريقته الواضحة الجلية، وصراطه المستقيم، ومحجته البيضاء... ولم يقبل الله تعالى من أحد ـ مهما كان ـ أن يتعبد على غير شرعه، أو يسلك غير طريقه، أو يخترع عبادة له مهما كان.

والمطيع ـ سواء في حال إقباله ونشاطه وهمته... وفي حال فترته ـ يجب أن يكون ذلك ضمن نطاق السنة، وقد مر قبل قليل قوله ﷺ: «فمن كانت فترتُه إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك».

وهذا ما بينه الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

كما أن الله سبحانه وتعالى لم يترك هذه الأمة تتخبط في البحث، وتضل في التفتيش عن منهج تسير عليه، وطريق تسلكه، وقدوة تقتدي به... بل اختصر سبحانه وتعالى لها الطريق. وقيدها بهذا القيد، وأوضح لها السبيل... هو طريق الله تعالى المستقيم، ومنهج النبي الكريم عليه وآله الصلاة والتسليم. وطريقه الواضح الأبلج القويم.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] وهذه احدى بنود وصية رسول الله ﷺ ـ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ولهذا كان ﷺ يبايع الناس عليها وعلى الآيتين السابقتين لها كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند الحاكم وصححه وأقره الذهبي[٢].

(١) سورة الأنعام (١٥٣).
(٢) المستدرك (٢: ٣١٨).

وقال الله تعالى واصفاً نبيه وصفيه ﷺ: ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ...﴾[1].

وقد بين ﷺ في حديثه ـ في قصة مجيء الملائكة ـ ذلك، حيث إنه الداعي، فمن أجابه دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، وفي نهايته: «فقالوا: مَثَلُه كمَثَلِ رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة...» الحديث برواياته رواه البخاري، وقد سبق ذكر ذلك.

ولهذا قال ﷺ ـ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري، وقد سبق ذكره أيضاً.

وقد لخص ﷺ ذلك راداً كل عمل ليس على سنته ومنهجه ﷺ ـ سواء كان العامل هو المخترع والمبتدع لذلك الفعل، أو كان يعمل ما ابتدعه غيره ـ وأن الباب مغلق إلا من طريقه، وليس ثمة طريق أو نهج إلا ما جاء من طريقه ﷺ.

فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه[2].

وفي رواية لمسلم[3] عنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

فإذا كان اللفظ الأول خاص بمن يعمل المحدَث، فإن الثاني يشمل العامل به أيضاً، والله أعلم.

---

(١) سورة الشورى (٥٢ ـ ٥٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. وصحيح مسلم: كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٨).

وهكذا كان شأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم محبة وطاعة، فلا نظير لهم في الوجود في محبتهم وطاعتهم لنبيهم عليه وآله الصلاة والسلام، وقد بينت ذلك في «نشأة علم المصطلح» وفي «الشوق إلى رسول الله ﷺ . . .».

وعلى المسلمين ـ إن كانوا أرادوا الحشر معهم والقرب منهم. . . أن يتبعوهم، ويسلكوا مسلكهم، ويقتفوا أثرهم، وينهجوا نهجهم. . . في محبتهم وطاعتهم لرسول الله ﷺ فيكونون معهم تحت لوائه عليه وآله الصلاة والسلام.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

أما الذين لا ينهجون نهجهم ولا يتبعون المؤمنين في طاعتهم ومحبتهم وعقيدتهم. . . فلهم عذاب شديد.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(٢).

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا وغيره خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتبه لي ذخيرة مدخرةً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وأن يغفر لي خطيئاتي وسيئاتي، ويصلح لي عملي وذريتي، ويجعل سريرتي خيراً من علانيتي، ويجعل علانيتي صالحة.

كما أسأله تعالى أن يرزقني وذريتي وأهلي حبه وحبَّ حبيبه وصفيِّه ﷺ، وأن يجعل ذلك أحب إلينا من أنفسنا وأهلينا ومن الماء البارد على الظمأ، وأن يكرمنا جميعاً بطاعته وطاعة حبيبه وصفيه ﷺ، وأن يكرمنا بشفاعته، ويحشرنا في زمرته، ويجعلنا في صحبته، ويوردنا حوضه، ويسقينا من يده الشريفة شربة هنيئة

---

(١) سورة التوبة (١٠٠).

(٢) سورة النساء (١١٥).

مريئة لا نظمأ بعدها، وأن يكرمنا سبحانه وتعالى برضاه، ويؤمِّنّا جميعاً من عقابه، ويمنن علينا بالتوبة النصوح، ويكرمنا بالفوز العظيم والفضل الكريم، إنه جواد كريم.

كما أسأله تعالى المبتدىء لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمها علينا بإفضاله مع تقصيرنا، الجاعلنا في خير أمة أخرجت للناس، أن يأخذ بأسماعنا وقلوبنا وألسنتنا وجميع جوارحنا إلى طاعته، وأن يملكها عما يخالف طاعته، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا، فإنه إن وكلنا إليها وكلنا إلى غير كاف، وأن يحضرنا بالعصمة والتوفيق، وينطق ألسنتنا بالحق الذي لا تخلطه الشبه، ولا تميل به الأهواء، ولا تخونه الغفلات.

كما أسأله تعالى الصدق في القول، والإخلاص في العمل، ويحشرنا مع أحبابنا تحت لواء الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام، وأن يغفر لي ولوالدي ولوالد والدي، ولمشايخي وأحبابي، ويحفظني في أهلي وأولادي وذريتي ﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] ﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

اللهم لا تجعلني شقياً ولا محروماً، اللهم لا تعذب لساناً يخبر عنك، ويحببك إلى خلقك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك، ولا قدماً تمشي إلى طاعتك وخدمتك، ولا يداً تكتب حديث رسولك وصفيك ﷺ، ولا قلباً يحبك ويحب حبيبك وصفيك ﷺ، ولا جسداً يخضع لك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم لا تدخلني النار، ولا تفضحني فيها، فقد علم أهلها أني كنت أذب عن دينك، وأدافع عن شرعك، وأظهر مكانة وحيك، وأبين عظمة نبيك

---

(١) سورة الأحقاف (١٥).

(٢) سورة النمل (١٩).

وخليلك وصفيك ﷺ.

اللهم احفظ علينا إيماننا وديننا في أنفسنا وأهلينا وأزواجنا وأولادنا وذرياتنا وأحبابنا، يا أرحم الراحمين.

اللهم اجعلني في عيني حقيراً، واجعلني خيراً مما يُظن بي، ولا تشمت بي عدواً ولا حاسداً، واغفر لي ما خفي وعظم، وكما سترت فيما مضى فاستر عليَّ ما بقي، واجعل سريرتي خيراً من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله وسلم وبارك وعظَّم وشرّف على سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وذريته وأتباعه وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين.

المدينة المنورة، صفر الخير، ١٤١٣هـ

وكتب

أبو إبراهيم

خليل إبراهيم مُلَّا خاطر العزامي

نزيل المدينة المنورة

مصادر الكتاب ومراجعه

١ ـ القرآن الكريم.

ـ أ ـ

٢ ـ آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبـي حاتم، ت الشيخ عبد الغني عبد الخالق، ط القاهرة.

٣ ـ الآداب، للإمام البيهقي، ت محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤ ـ إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة، للشيخ عبد العزيز الغماري، مطبوع مع الأزهار المتناثرة.

٥ ـ الأحاديث الطوال، للإمام الطبراني، ت الشيخ حمدي السلفي، نشر وزارة الأوقاف، بغداد.

٦ ـ أخبار أصبهان، للحافظ أبـي نعيم، نشر الدار العلمية، الهند.

٧ ـ أخلاق النبي ﷺ وآدابه، لأبـي الشيخ، ت أحمد محمد مرسي، القاهرة.

٨ ـ الأدب المفرد، للإمام البخاري، تقديم وترتيب كمال يوسف الحوت، ط عالم الكتب، بيروت.

٩ ـ الإدراك عند الجمادات ـ مخطوط ـ خليل إبراهيم ملا خاطر.

١٠ ـ إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، للإمام القسطلاني، ط الميرية، وبحاشيتها شرح صحيح مسلم للنووي.

١١ ـ الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة، للحافظ السيوطي، نشر مكتبة دار التأليف، القاهرة.
١٢ ـ الاستيعاب، للحافظ ابن عبد البر، بحاشية الإصابة.
١٣ ـ أسد الغاية، لابن الأثير الجزري، دار الفكر، بيروت.
١٤ ـ الإصابة في معرفة الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني، دار نهضة مصر، القاهرة.
١٥ ـ الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، للكلاعي، ت الدكتور مصطفى عبد الواحد، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.
١٦ ـ الأم، للإمام الشافعي، ط مطابع الشعب، القاهرة.
١٧ ـ الإلماع، للقاضي عياض، ت السيد أحمد صقر، نشر دار التراث، والمكتبة العتيقة.

ـ ب ـ

١٨ ـ البحر الزخار = مسند البزار، ت الدكتور محفوظ الرحمن زين الله، نشر مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم.
١٩ ـ البحر المحيط، للإمام أبـي حيان، نشر مكتبة النصر الحديثة، الرياض.
٢٠ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير الدمشقي، تصوير مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر بالرياض.
٢١ ـ بذل الماعون في فضل الطاعون، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ت أحمد عصام الكاتب، نشر دار العاصمة، الرياض.
٢٢ ـ البعث والنشور، للإمام البيهقي، ت الشيخ عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

ـ ت ـ

٢٣ ـ تاريخ بغداد، للإمام الخطيب البغدادي، طبعة الخانجي، مصر.
٢٤ ـ التاريخ الكبير، للإمام البخاري، ط دائرة المعارف العثمانية، الهند.

٢٥ ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للحافظ المزي، ت عبد الصمد شرف الدين، ط دار القيمة.
٢٦ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي، ت الدكتور أحمد حجازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٧ ـ الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري، دار الفكر، بيروت.
٢٨ ـ تفسير الآلوسي = روح المعاني، دار إحياء التراث العربي.
٢٩ ـ تفسير الرازي = التفسير الكبير، تصوير دار إحياء التراث العربي.
٣٠ ـ تفسير أبي السعود، ت عبد القادر عطا، نشر مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٣١ ـ تفسير الطبري = جامع البيان، دار المعرفة، ونسخة دار المعارف بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، القاهرة.
٣٢ ـ تفسير القرطبي = جامع أحكام القرآن، نشر دار الكاتب العربي، القاهرة.
٣٣ ـ تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت.
٣٤ ـ تفسير الكشاف، للإمام الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
٣٥ ـ تفسير النسائي، للإمام النسائي، ت سيد الجليمي وصبري الشافعي، نشر مكتبة السنة، القاهرة.
٣٦ ـ التقصي للحافظ ابن عبد البر = تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مكتبة القدسي، القاهرة.
٣٧ ـ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، للحافظ ابن حجر، نشر السيد عبد الله هاشم اليماني، المدينة المنورة.
٣٨ ـ تلخيص المستدرك، للإمام الذهبي، بحاشية المستدرك.
٣٩ ـ التمهيد، للحافظ ابن عبد البر، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
٤٠ ـ تهذيب الكمال، للحافظ المزي، ت الدكتور بشار عواد، مؤسسة الرسالة.

- ج -

٤١ ـ جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن عبد البر النمري، نشر المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٤٢ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للإمام الخطيب البغدادي، ت الدكتور محمود طحان، دار المعارف، الرياض.

٤٣ ـ جزء الحسن بن عرفة، ت عبد الرحمن عبدالجبار **الفريوائي**، نشر الكويت.

٤٤ ـ جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام ﷺ، لابن القيم الجوزية.

- ح -

٤٥ ـ حجة الله على العالمين، للشيخ يوسف النبهاني، دار الجندي، القاهرة.

٤٦ ـ حلية الأوليـاء ، للحافظ أبـي نعيم ، ط مكتبة الخانجي والسعادة، مصر.

- خ -

٤٧ ـ الخصائص التي انفرد بها النبـي ﷺ عن غيره من الأنبياء، خليل إبراهيم ملا خاطر، مخطوط.

٤٨ ـ الخصائص الكبرى، للحافظ السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٩ ـ الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة، للحافظ ابن حجر، ت الشيخ أحمد حسن جابر رجب.

- د -

٥٠ ـ الدر المنثور، للحافظ السيوطي، دار الفكر، بيروت.

٥١ ـ دلائل النبوة، للإمام البيهقي، ت الدكتور عبد المعطي القلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٢ ـ دلائل النبوة، للإمام التيمي، ت محمود الحداد، نشر دار طيبة، الرياض.

٥٣ ـ دلائل النبوة، للحافظ أبـي نعيم، ت الدكتور محمد رواس القلعجي، ط المطبعة العربية، حلب.
٥٤ ـ ديوان الإمام الشافعي، جمع الأستاذ محمد عفيف الزعبـي، ط دار النور، بيروت.

- ر -

٥٥ ـ الرسالة، للإمام الشافعي، ت الشيخ أحمد شاكر، ط مصطفى البابـي الحلبـي، القاهرة.
٥٦ ـ رياض الصالحين، للإمام النووي، ت عبد العزيز رباح، أحمد الدقاق، نشر دار المأمون للتراث، دمشق.
٥٧ ـ الزرقاني على المواهب = شرح المواهب اللدنية، دار المعرفة، بيروت.
٥٨ ـ الزهد، للإمام أحمد بن حنبل. دار الباز، مكة المكرمة.
٥٩ ـ الزهد، لابن أبـي عاصم.
٦٠ ـ الزهد، للإمام هناد بن السري، ت الدكتور عبد الرحمن عبد الجبار، دار الخلفاء، الكويت.
٦١ ـ الزهد والرقائق، للإمام عبد الله بن المبارك، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.
٦٢ ـ زوائد البزار، للحافظ ابن حجر. ت صبري عبد الخالق. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت.

- س -

٦٣ ـ سبل الهدى والرشاد، للإمام الصالحي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
٦٤ ـ السنة، لابن أبـي عاصم، ت الشيخ ناصر الألباني، نشر المكتب الإسلامي.
٦٥ ـ سنن الترمذي، ت الشيخ أحمد شاكر وآخرين، تصوير المكتبة الإسلامية.

٦٦ ـ سنن الدارقطني، نشر السيد عبد الله هاشم اليماني، المدينة المنورة.
٦٧ ـ سنن الدارمي، نشر السيد عبد الله هاشم اليماني، المدينة المنورة.
٦٨ ـ سنن أبـي داود، ت الشيخ محمد محيـي الدين عبد الحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية.
٦٩ ـ السنن الصغرى، للإمام البيهقي، ت الدكتور عبد المعطي قلعجي، ط القاهرة.
٧٠ ـ السنن الكبرى، للإمام البيهقي، ط دائرة المعارف العثمانية، الهند.
٧١ ـ السنن الكبرى، للإمام النسائي. ت الدكتور عبد الغفار البنداري، وسيد كسروي. دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٧٢ ـ سنن ابن ماجه، ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٧٣ ـ سنن النسائي، بحاشيتي السيوطي والسندي.
٧٤ ـ سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبـي، نشر مؤسسة الرسالة.
٧٥ ـ السيرة النبوية، لابن كثير. ت مصطفى عبد الواحد. دار المعرفة.
٧٦ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، بشرح الروض الأنف، مكتبة الباز، مكة المكرمة.

- ش -

٧٧ ـ شرح السنة، للإمام البغوي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.
٧٨ ـ شرح الشفا، للإمام ملا علي القاري. مصطفى البابـي الحلبـي، القاهرة.
٧٩ ـ شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، مطبعة حجازي، القاهرة.
٨٠ ـ شرح معاني الآثار، للإمام الطحاوي، ت محمد زهدي النجار، القاهرة.
٨١ ـ شرف أصحاب الحديث، للإمام الخطيب البغدادي، ت الدكتور محمد سعيد خطيب أوغلي، تركيا.
٨٢ ـ شعب الإيمان للإمام البيهقي، ت الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٣ ـ شعب الإيمان البيهقي، ت مختار أحمد الندوي، دار السلفية، الهند.
٨٤ ـ الشفا، للقاضي عياض، ت البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
٨٥ ـ شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ، خليل إبراهيم ملا خاطر، مخطوط.
٨٦ ـ الشمائل المحمدية، للإمام البغوي، ت الشيخ إبراهيم اليعقوبي، نشر دار الضياء، بيروت.
٨٧ ـ الشمائل المحمدية، للإمام الترمذي، بشرح ملا علي القاري، والمناوي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
٨٨ ـ الشمائل المحمدية، لابن كثير الدمشقي، نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.

ـ ص ـ

٨٩ ـ الصحاح للجوهري، ت الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت.
٩٠ ـ صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، المطبعة السلفية، القاهرة.
٩١ ـ صحيح ابن حبان = الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ت الأستاذ كمال يوسف الحوت، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٢ ـ صحيح ابن خزيمة، ت الدكتور مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي.
٩٣ ـ صحيح مسلم، ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
٩٤ ـ الصِلات والبُشر في الصلاة على خير البشر، للإمام الفيروز أبادي. ت محمد نور الدين الجزائري وآخرين، دمشق.

ـ ط ـ

٩٥ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، ت الدكتور إحسان عباس، نشر دار

صادر، دار بيروت، ببيروت.

- ع -

٩٦ ـ عارضة الأحوذي، للقاضي أبـي بكر ابن العربـي المعافري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٧ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، للإمام الإشبيلي، ت الشيخ خضر محمد خضر، نشر مكتبة دار الأقصى، الكويت.
٩٨ ـ عشرة النساء، للإمام النسائي، ت عمرو علي عمر، نشر مكتبة السنة، القاهرة.
٩٩ ـ عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل، خليل إبراهيم ملا خاطر، ط ٦ نشر دار القبلة بجدة.
١٠٠ ـ علامات النبوة، للإمام البوصيري، وهو جزء من «إتحاف الخيرة...» نشر مكتبة السوادي.
١٠١ ـ علل الحديث، للإمام ابن أبـي حاتم، تصوير مكتبة المثنى، بغداد.
١٠٢ ـ العلل، للإمام الدارقطني. ت الدكتور محفوظ الرحمن زين الله. دار طيبة. الرياض.
١٠٣ ـ عمل اليوم والليلة، للإمام ابن السني، ت عبد الرحمن البرني، نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.
١٠٤ ـ عمل اليـوم والليلة ، للإمام النسائي ، ت الدكتور فاروق حمادة، الرباط.
١٠٥ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.

- غ -

١٠٦ ـ غريب الحديث، لأبـي عبيد، نشر دائرة المعارف العثمانية، الهند.

١٠٧ ـ غريب الحديث، لابن قتيبة، ت الدكتور عبد الله الجبوري، نشر وزارة الأوقاف، بغداد.

ـ ف ـ

١٠٨ ـ فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، ط المطبعة السلفية، القاهرة.
١٠٩ ـ فتح القدير، للشوكاني. ط مصطفى البابي الحلبي. القاهرة.
١١٠ ـ فضائل الصحابة، للإمام أحمد بن حنبل، ت وصي الله محمد عباس، نشر مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة.
١١١ ـ فضائل الصحابة للإمام النسائي، ت الدكتور فاروق حمادة، المغرب.
١١٢ ـ فضائل المدينة، للإمام الجندي، ت محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير، ط دار الفكر، دمشق.
١١٣ ـ فضائل المدينة المنورة، خليل إبراهيم ملا خاطر، نشر دار القبلة بجدة، ودار التراث بالمدينة المنورة، ومؤسسة علوم القرآن.
١١٤ ـ فضائل النبي الكريم كما وردت في القرآن العظيم، خليل إبراهيم ملا خاطر، مخطوط.
١١٥ ـ فضل الصلاة على النبي ﷺ، للقاضي إسماعيل، ت الشيخ ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.
١١٦ ـ الفقيه والمتفقه، للإمام الخطيب البغدادي، ت الشيخ إسماعيل الأنصاري، الرياض.

ـ ق ـ

١١٧ ـ القاموس المحيط، للفيروز أبادي، مطبعة السعادة، مصر.
١١٨ ـ قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، للحافظ السيوطي، المكتب الإسلامي، بيروت.
١١٩ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ﷺ، للحافظ السخاوي.

دار الكتاب العربـي، بيروت.

ـ ك ـ

١٢٠ ـ الكاشف، للإمام الذهبـي، ت عزت عطية، وموسى محمد علي الموشي، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

١٢١ ـ الكامل، للإمام ابن عدي، دار الفكر، بيروت.

١٢٢ ـ كتاب التوحيد، للإمام ابن خزيمة.

١٢٣ ـ كتاب الحدائق، في علم الحديث والزهديات، لابن الجوزي. ت مصطفى السبكي. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٢٤ ـ كتاب العظمة، لأبـي الشيخ. ت رضاء الله محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة ـ الرياض.

١٢٥ ـ كتاب الغريبيْن، لأبـي عبيد الهروي، ط لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

١٢٦ ـ كتاب المجروحين، للإمام ابن حبان البستي، ت محمود إبراهيم زائد، دار الوعي، حلب.

١٢٧ ـ كتاب المرض والكفارات، لابن أبـي الدنيا. ت عبد الوكيل الندوي ـ نشر الدار السلفية. الهند.

١٢٨ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار، للحافظ الهيثمي، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة.

١٢٩ ـ كشف الخفاء، للإمام العجلوني، ط ثانية، تصوير دار إحياء التراث العربـي، بيروت.

١٣٠ ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، نشر مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

ـ ل ـ

١٣١ ـ لامع الدراري على جامع البخاري، للشيخ رشيد الكنكوهي. ضبط الشيخ محمد يحيـى الصديقي. المكتبة الإمدادية ـ مكة المكرمة.

١٣٢ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
١٣٣ ـ لقط اللآلىء المتناثرة في الأحاديث المتواترة، للإمام الزبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- م -

١٣٤ ـ مجمع البحرين بزوائد المعجمين، للحافظ الهيثمي. ت عبد القدوس محمد نذير، مكتبة الرشد، الرياض.
١٣٥ ـ مجمع الزوائد، للحافظ الهيثمي، نشر دار الكتاب، بيروت.
١٣٦ ـ مجمل اللغة، لابن فارس، مؤسسة الرسالة.
١٣٧ ـ المحدث الفاصل، للرامهرمزي، ت الدكتور محمد عجاج الخطيب.
١٣٨ ـ المحرر الوجيز، لابن عطية، نشر وزارة الأوقاف، المغرب.
١٣٩ ـ المختارة. للمقدسي، ت الدكتور عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
١٤٠ ـ مختصر سنن أبـي داود، للحافظ المنذري، مع معالم السنن للخطابـي.
١٤١ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لملا علي القاري، المكتبة الإمدادية، باكستان.
١٤٢ ـ المستدرك للإمام الحاكم النيسابوري، نشر مكتبة النصر بالرياض عن النسخة الهندية.
١٤٣ ـ مسند الإمام أحمد، ت الشيخ أحمد شاكر، ط دار المعارف، مصر.
١٤٤ ـ مسند الإمام أحمد، تصوير بيروت، دار صادر والمكتب الإسلامي، بيروت.
١٤٥ ـ مسند أبـي بكر الصديق، للمروزي.
١٤٦ ـ مسند الحميدي، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ط باكستان.
١٤٧ ـ مسند سعد بن أبـي وقاص، للإمام الدورقي، ت عامر حسن صبري، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت.
١٤٨ ـ مسند الشاشي، للحافظ أبـي سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، ت الدكتور محفوظ الرحمن زين الله، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

١٤٩ ـ مسند الإمام الشافعي، ط بيروت.
١٥٠ ـ مسند الشهاب للقضاعي، ت الأستاذ حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة.
١٥١ ـ مسند الطيالسي، تصوير دار الكتاب اللبناني، ودار التوفيق، بيروت، عن الطبعة الهندية.
١٥٢ ـ مسند عبد بن حميد = المنتخب، ت السيد صبحي السامرائي. مكتبة السنة، القاهرة.
١٥٣ ـ مسند علي بن الجعد، ت الدكتور عبد المهدي عبد الهادي، نشر مكتبة الفلاح، الكويت.
١٥٤ ـ مسند ابن المبارك، ت السيد صبحي السامرائي، مكتبة المعارف، الرياض.
١٥٥ ـ مسند أبي عوانة، دائرة المعارف العثمانية، الهند.
١٥٦ ـ مسند أبي يعلى الموصلي، ت الأستاذ حسين أسد، ط دار المأمون للتراث، دمشق.
١٥٧ ـ مسند أبي يعلى الموصلي، ت الأستاذ إرشاد الحق الأثري، نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.
١٥٨ ـ مشكل الآثار، للإمام الطحاوي، دائرة المعارف العثمانية، الهند.
١٥٩ ـ مصنف ابن أبي شيبة، نشر الدار السلفية، الهند.
١٦٠ ـ مصنف عبد الرزاق، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ط بيروت.
١٦١ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ت الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، نشر الكويت.
١٦٢ ـ معالم السنن، للإمام الخطابي، ت الشيخ أحمد شاكر وحامد الفقي، القاهرة.
١٦٣ ـ معاني الآثار، للإمام الطحاوي، بشرحه.
١٦٤ ـ المعجم الصغير = الروض الداني، ت الأستاذ محمد شكور مرير. المكتب الإسلامي، ودار عمار.

١٦٥ ـ المعجم الكبير، للإمام الطبراني ت الأستاذ حمدي السلفي، نشر وزارة الأوقاف، بغداد.
١٦٦ ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت عبد السلام هرون. دار الكتب العلمية، إيران.
١٦٧ ـ معرفة السنن والآثار، للإمام البيهقي. طبعتان.
١٦٨ ـ معرفة الصحابة، للحافظ أبي نعيم، ت الدكتور محمد راضي بن حاج عثمان، نشر مكتبة الدار ومكتبة الحرمين.
١٦٩ ـ المعرفة والتأريخ، للإمام الفسوي، ت الدكتور أكرم العمري. مؤسسة الرسالة.
١٧٠ ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، للحافظ العراقي، بحاشية إحياء علوم الدين.
١٧١ ـ المقصد العلي، للحافظ الهيثمي، ت الدكتور نايف الدعيس. نشر تهامة، جدة.
١٧٢ ـ المقاصد الحسنة، للإمام السخاوي، ت الشيخ عبد الله بن الصديق، نشر مكتبة الخانجي والمثنى.
١٧٣ ـ المقامات العلية في الكرامات الجلية، للحافظ ابن سيد الناس. ت عفت وصال حمزة. دار الملاح بدمشق.
١٧٤ ـ منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لابن الأثير الجزري، ت الدكتور الطناحي، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
١٧٥ ـ المناهل السلسلة في الأحاديث المسلسلة، للشيخ عبد الباقي الأنصاري. دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٧٦ ـ منحة المعبود إلى ترتيب مسند الطيالسي أبي داود، للشيخ الساعاتي، ط القاهرة.
١٧٧ ـ المنهاج في شعب الإيمان، للإمام الحليمي، ت حلمي محمد فودة. دار الفكر.

١٧٨ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للحافظ الهيثمي، المطبعة السلفية، القاهرة.
١٧٩ ـ المواهب اللدنية، للإمام القسطلاني، بشرح الزرقاني.
١٨٠ ـ موطأ الإمام مالك، ت الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابـي الحلبـي، القاهرة.

- ن -

١٨١ ـ نصب الراية للإمام الزيلعي، دار المأمون، القاهرة.
١٨٢ ـ النظم المتناثر في الحديث المتواتر، السيد محمد بن جعفر الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

- و -

١٨٣ ـ الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، لابن القيم الجوزية، ت الشيخ إسماعيل الأنصاري، نشر إدارة الإفتاء بالرياض.
١٨٤ ـ الوفا بأحوال المصطفى ﷺ، لابن الجوزي، ت مصطفى عبد الواحد. دار الكتب الحديثة.

فهرس الكتاب

- المقدمة ٧
- حقائق لا بد من ذكرها ١٧

١ - إتقان الخالق جل شأنه صنع هذا الكون ١٧
٢ - عظمة هذا الخالق المدبر.................. ١٨
٣ - جميع ما في هذا الكون هو ملك لله عز وجل، وهو مقر بوحدانيته ١٨
٤ - قيام هذا الكون بحق العبودية لله عز وجل ١٨
٥ - كل ما يجري في هذا الكون فهو بأمر الله عز وجل وقدرته .. ١٩
٦ - جميع هذا الكون - كليه وجزئيه - مسخر بقدرة الله عز وجل وأمره ٢٠
٧ - تسخير ما في هذا الكون مما بين السماء والأرض للإنسان .. ٢١
٨ - هذه الجمادات مدركة، ومطيعة.................. ٢١
٩ - لله عز وجل في هذا الكون خواص، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص ٢٢
١٠ - تفضيل سيدنا محمد ﷺ على سائر الخلق ٢٢
١١ - اعتراف هذا الكون بما فيه من جماد ونبات وحيوان وجن وإنس - سوى فسقة الإنس والجن - برسول الله ﷺ ٢٤

الباب الأول

محبة الجمادات وطاعتها للنبي ﷺ

الفصل الأول

محبة الجمادات للنبي ﷺ

١ ـ محبة جبل أحد ٢٩
٢ ـ حنين الجذع ٣١
٣ ـ سلام الحجر ٣٥
٤ ـ سلام الشجر ٣٦
٥ ـ سجود الحجر والشجر ٣٧
ـ السجود نوعان: ١ ـ سجود عبادة ٢ ـ سجود تحية وتعظيم ... ٣٨
٦ ـ إضاءة المدينة يوم دخوله ﷺ ٤٠
٧ ـ إخبار الشاة المسمومة ٤٠
٨ ـ إخبار الشاة التي ذبحت بغير إذن أهلها ٤٢
٩ ـ تسبيح الطعام ٤٤
١٠ ـ تسبيح الحصى ٤٤
١١ ـ إخبار الشجرة له ﷺ ليلة الجن ٤٥
١٢ ـ شهادة الشجر بنبوته ﷺ ٤٦
١٣ ـ أدب الحيوانات ٤٧
١٤ ـ سجود الجمل ٥٠

الفصل الثاني

طاعة الجمادات للنبي ﷺ

١ ـ استجابة جبل أحد ٥٥
٢ ـ استجابة جبل حراء ٥٦
٣ ـ استجابة جبل ثبير ٥٧
ـ بين اهتزاز الجبل بالنبي ﷺ وبمن معه، ورجفة الجبل

بموسى عليه السلام وبمن معه ٥٩
٤ ـ تفرق الغيم ٦٢
٥ ـ انشقاق القمر ٦٤
٦ ـ اهتزاز المنبر الشريف ٦٦
٧ ـ تساقط الأصنام بإشارته ﷺ ٦٧
٨ ـ رميه ﷺ التراب يوم بدر وحنين ٦٩
٩ ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ ٧٢
ـ الاختلاف في كيفية نبع الماء على قولين، وترجيح الأول ٧٢
١٠ ـ تكثير الماء ٧٥
١١ ـ تكثير الطعام ٧٩
١٢ ـ استجابة الحجر ٨٤
١٣ ـ استجابة الشجر ٨٦
١٤ ـ استجابة الضرع ٨٨
١٥ ـ استجابة الحيوانات ٩١
ـ خاتمة الباب ٩٥

الباب الثاني
محبة الإنسان وطاعته للنبي ﷺ
الفصل الأول
محبة الإنسان للنبي ﷺ

ـ عوامل المحبة وأسبابها ١٠١
١ ـ المحبة الفردية ١٠١
٢ ـ المحبة الجبلية ١٠٢
٣ ـ المحبة الغريزية. (أو الشهوانية) ١٠٢

٤ ـ المحبة الفطرية ١٠٢
٥ ـ محبة المشاكلة واتحاد الصفة ١٠٣
٦ ـ محبة المصلحة والمنفعة ١٠٣
(١) المنفعة للشخص نفسه ١٠٣
(٢) المنفعة لغيره ١٠٣
٧ ـ المحبة الروحية أو محبة المقابلة ١٠٤
٨ ـ الصفات الكاملة ١٠٥
ـ تطبيق ذلك بالنسبة لمحبة النبي ﷺ ١٠٦

الدافع إلى محبة النبي ﷺ

١ ـ جعله الله تعالى سبباً لهداية الخلق ١١٠
٢ ـ رحم الله تعالى به هذه الأمة، فأكرمها وفضلها ١١١
٣ ـ هو ﷺ أولى بأمته من أنفسها ١١٢
٤ ـ حرصه ﷺ على أمته ١١٤
٥ جعله الله تعالى رحمة مهداة ١١٦
٦ ـ وضع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة ١١٧
٧ ـ ما يكنه قلبه الشريف ﷺ تجاه أمته ١١٩
٨ ـ شفاعاته ﷺ في الآخرة ١٢١
٩ ـ اشتياقه ﷺ لرؤية أحبابه ١٢٣
١٠ ـ ما جبل عليه ﷺ من صفات الجمال والكمال ١٢٥
١١ ـ ما أكرمه الله تعالى به من الخصائص والمميزات والمكرمات والمعجزات ١٢٧
١٢ ـ أمر الله تعالى توقيره واحترامه وتشريفه وتبجيله ﷺ ١٢٨
١٣ ـ مسارعة ربه عز وجل في هواه ﷺ ١٣٠
١٤ ـ تكريم كل ما يتصل به ﷺ ١٣١
١٥ ـ مكافأته على معروفه ﷺ إلينا ١٣٢
١٦ ـ هو رسول الله ﷺ ١٣٣

١٧ ـ أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بذلك ....

الأدلة على وجوب محبة النبي ﷺ

١ ـ تقديم محبته ﷺ ١٣٥
(أ) تقديم محبته ﷺ على محبة الوالد والولد ١٣٥
(ب) تقديم محبته ﷺ على محبة الوالد والولد والمال والناس أجمعين ١٣٦
(ج) تقديم محبته ﷺ على النفس ١٣٨
٢ ـ وجوب محبته ﷺ لمحبة الله عز وجل له ﷺ ١٣٩
٣ ـ الأمر بتوقيره ﷺ ١٤٠
٤ ـ عدم الرغبة بالنفس عنه ﷺ ١٤٢
٥ ـ جعل اتباعه ﷺ سبباً في محبة الله تعالى للمتبع ١٤٣
٦ ـ الأمر بطاعته ﷺ ١٤٥
٧ ـ جعله الله تعالى أسوة حسنة ١٤٦
٨ ـ التحذير من تقديم محبة غيره ﷺ على محبته ١٤٧
ـ في هذه الآية الكريمة أمور ١٤٧
٩ ـ محبته ﷺ فرع الإيمان به ﷺ ١٥١
١٠ ـ تحقق حلاوة الإيمان ١٥٢
١١ ـ ثواب المصلي عليه ﷺ ١٥٥
١٢ ـ الدين النصيحة ١٥٧
١٣ ـ فعل الصحابة الكرام وحالهم وتصرفهم رضي الله عنهم ١٥٩

آثار المحبة ونتائجها

١ ـ استمرار المحبة بعده ﷺ ١٦٧
٢ ـ الطاعة ١٦٨
٣ ـ الاقتداء به والتخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته ﷺ ١٧٠
٤ ـ تعظيم ذكره ﷺ إذا ورد ١٧١

٥ - تعظيم سنته ﷺ ١٧٤
٦ - كثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ ١٧٩
٧ - تعظيم أهل بيته وصحابته ﷺ ورضي الله عنهم ١٨٢
٨ - تعظيم حرمه وبلده ومسجده ﷺ ١٨٦
٩ - أن يحب ما يحبه، ويكره ما يكرهه ﷺ ١٨٧
١٠ - أن يشتاق لرؤيته ﷺ ١٩٢
١١ - تمني حضور عصره والتحسر على فقدانه وما فاته من مجالسته ﷺ وغير ذلك ١٩٤
١٢ - الرضى بما شرعه ﷺ ١٩٥
١٣ - محبة الله تعالى ١٩٧

ثمرات المحبة

١ - تذوق حلاوة الإيمان ١٩٨
٢ - محبة الله سبحانه وتعالى لذلك العبد المحب ٢٠١
٣ - معيته ﷺ في الآخرة ٢٠٣
٤ - اشتياق الرسول ﷺ إلى رؤيتهم ٢٠٤
٥ - حصول السعادة في الدارين ٢٠٦
٦ - إعطاؤه صفة الإيمان ٢٠٨
٧ - محبه ﷺ لا يخرج عن سمة الإيمان ولو ارتكب معصية ٢٠٩
٨ - حشرهم تحت العرش ٢١٢
٩ - دخول الجنة ٢١٣
١٠ - رفاقه في الجنة ٢١٤
- خاتمة الفصل ٢١٥
- أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيد المسلمين ٢١٧

الفصل الثاني
طاعة الإنسان للنبـي ﷺ

- معنى الطاعة ٢٢٣
- جعله الله تعالى منة يمتن بها على المؤمنين ٢٢٥
- الإيمان به أنه رسول الله ﷺ ٢٢٧
- جعله الله تعالى رسولاً له، فطاعته ﷺ من طاعته تعالى ٢٣١
- ما أرسله الله تعالى إلا ليطاع بإذنه تعالى ٢٣٢
- تعليق الثواب والعقاب على بعثة الرسل عليهم السلام ٢٣٣
- الطاعة نعمة من الله تعالى ٢٣٦
- أمر الله تعالى بطاعته ﷺ ٢٣٧
- عطف طاعة الرسول ﷺ على طاعة الله تعالى ٢٣٨
  - الأولى، عطف لفظ الرسول ﷺ على لفظ الجلالة ٢٣٩
  - الثانية، عطف طاعة الرسول ﷺ على طاعة الله تعالى ٢٤٢
- أمر الجن بطاعته ﷺ ٢٤٤
- السمع له وطاعته ﷺ ٢٤٥
- الأمر باتباعه ﷺ ٢٤٩
  - تنفيذ الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٣
  - معنى الاتباع ٢٥٦
- الأمر بالأخذ بما جاء به ﷺ ٢٥٨
- وجوب الرد إلى حكمه ﷺ عند التنازع ٢٦١
- لا خيار مع قضائه ﷺ ٢٦٣
- وجوب التسليم لحكمه ﷺ ٢٦٤
- وجوب الاستجابة لدعوته ﷺ ٢٦٨
- جعل طاعته ﷺ عبادة محضة ٢٧١
- جعله الله تعالى مُشَرِّعاً ٢٧٤

- جعله الله تعالى هادياً إلى صراطه المستقيم ٢٧٧
- جعله الله تعالى بشيراً ونذيراً ٢٨٢
- التسليم الكامل لوعده ﷺ ٢٨٦
- جعله الله تعالى أسوة حسنة ٢٨٩
- جعل الله تعالى طاعة رسوله ﷺ طاعته تعالى ٢٩٤
- جعل الله تعالى مبايعة رسوله ﷺ مبايعة له تعالى ٢٩٧
- تحريم التقدم بين يديه ﷺ ٢٩٩
- التحذير من رفع الصوت فوق صوته ﷺ ٣٠٠
- تحريم مخالفته ﷺ ٣٠٣
- تحريم منازعته ومشاققته ﷺ ٣٠٤
- تحريم محادَّتِه ﷺ ٣٠٦
- تحريم إيذائه ﷺ ٣٠٨
- توعد المتثاقلين عن إجابته ﷺ ٣١٠
- وجوب استئذانه ﷺ عند الانصراف ٣١١
- تحريم التولي عن طاعته ﷺ ٣١٢
- تحريم معصيته ﷺ ٣١٤
- أخذ الله تعالى الميثاق له من جميع الأنبياء السابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام ٣٢٥
- الحامل على المعصية ٣٣٠
- أهم وسائل إبليس في إضلال الخلق ٣٣٠

جزاء المعصية

١ - هو عاص لله تعالى ٣٣٩
٢ - هو من حزب الشيطان ٣٣٩
٣ - العاصي غير موفق ٣٤٠

٤ ـ لا يحبه الله عز وجل ٣٤٠
٥ ـ وَكْل أمره إلى الله عز وجل ٣٤٢
٦ ـ هو ضال من الضالين ٣٤٢
٧ ـ المعصية من النفاق ٣٤٤
٨ ـ كفر مخالفه ﷺ ٣٤٦
٩ ـ مقاتلة العاصي ٣٤٧
١٠ ـ بطلان عمل العاصي ٣٤٨
١١ ـ استحقاق العاصي اللعن ٣٤٩
١٢ ـ تحسرهم يوم القيامة ٣٤٩
١٣ ـ لا يدخل العاصي المسلم الجنة مع أول الداخلين ٣٥٣
١٤ ـ الخلود في النار ٣٦٠

ثواب المطيع لله تعالى ولرسوله ﷺ

١ ـ هو مطيع لله تعالى ٣٦١
٢ ـ الطاعة توفيق من الله تعالى ٣٦٢
٣ ـ الطاعة من صفات المؤمنين ٣٦٣
٤ ـ المطيع يحبه الله عز وجل ٣٦٤
٥ ـ هو من حزب الله تعالى ٣٦٥
٦ ـ عدم نقصان العمل ٣٦٦
٧ ـ إعطاؤهم الأجر الحسن ٣٦٧
٨ ـ الهداية ٣٦٨
٩ ـ الفلاح والظفر ٣٦٩
١٠ ـ المطيع مخلص لله عز وجل ٣٧١
١١ ـ نجاة مطيعه ﷺ ٣٧٢
١٢ ـ أمان المطيع في القبر ٣٧٣
١٣ ـ توبة الله تعالى على المطيع المتبع ٣٧٤

١٤ ـ فوز المطيع ٣٧٤
١٥ ـ غفران ذنب المطيع ٣٧٥
١٦ ـ رحمة الله تعالى المطيع ٣٧٧
١٧ ـ رضاه تعالى عن المطيع ٣٨٠
١٨ ـ دخول الجنة ٣٨١
١٩ ـ الخلود في الجنة ٣٨٤
٢٠ ـ رفقاؤهم في الجنة ٣٨٦
ـ خاتمة الفصل ٣٨٨

خاتمة الكتاب أحسن الله تعالى ختامنا جميعاً

ـ الأمر الأول: أن يسبق الجماد الإنسان في المحبة والطاعة، أو يستوي معه فيهما ٣٩١
ـ الأمر الثاني: أن يسبق الإنسان الجماد في المحبة والطاعة ٣٩٥
ـ مظاهر التكريم والتفضيل للإنسان ٣٩٥
ـ خلاصة هذا التكريم ٤٠٥
ـ التلازم بين المحبة والطاعة ٤٠٧
ـ ادعاء المحبة، والمحبة الصادقة ٤١٢
ـ الطاعة ٤٢٢
ـ إغلاق الله تعالى جميع الأبواب إلا باب المصطفى ﷺ ٤٢٨
ـ مصادر الكتاب ومراجعه ٤٣٤
ـ فهرس الكتاب ٤٤٨
ـ فهرس بكتب المؤلف ٤٥٨

كتب للمؤلف

(أ) المدرسة المدنية:

١ ـ الخصائص التي انفرد بها النبي ﷺ عن جميع الأنبياء عليهم السلام.

٢ ـ عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل، ط تاسعة، وترجم لعدد من اللغات.

٣ ـ شمائل الرسول الأمين ﷺ ـ تحت الطبع.

٤ ـ سيرة الرسول ﷺ ـ العهد المكي ـ كما وردت في كتب السنة.

٥ ـ الإشارة للحافظ مغلطاي ـ تحقيق.

٦ ـ فضائل النبي الكريم كما وردت في القرآن العظيم.

٧ ـ الأمانة العظمى ونبيها ﷺ، نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.

٨ ـ الشوق إلى رسول الله ﷺ من الجذع إلى ثوبان.

٩ ـ مع الرسول ﷺ في رمضان.

١٠ ـ الحسن بن علي الخليفة الراشد الخامس.

١١ ـ فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم، نشر دار القبلة.

١٢ ـ فضائل المدينة المنورة ـ ٣ مجلدات ـ ط الثالثة ـ نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.

١٣ ـ مختصر فضائل المدينة المنورة ـ ط الثانية.

١٤ ـ فضائل مكة المكرمة.

١٥ ـ مكانة الحرمين الشريفين ـ نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.

١٦ ـ أمية النبي المصطفى ﷺ والرد على منكريها ـ تحت الطبع.
١٧ ـ الصلاة على النبي ﷺ.

(ب) **مدرسة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:**

١٨ ـ الإمام الشافعي وأثره في الحديث وعلومه.
١٩ ـ مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه، والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه، للخطيب البغدادي ـ تحقيق ـ ط ثانية.
٢٠ ـ بيان خطأ من أخطأ على الشافعي، للإمام البيهقي ـ نشرتهما رئاسة الإفتاء بالرياض.
٢١ ـ حجية الحديث المرسل عند الإمام الشافعي، ستعاد طباعته إن شاء الله تعالى.
٢١ ـ مناقب الإمام الشافعي، لابن الأثير الجزري ـ تحقيق ـ وهو من كتابه الشافي ـ نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.
٢٣ ـ الشافي في شرح مسند الشافعي، لابن الأثير الجزري، تحت الطبع.
٢٤ ـ ثلاثيات الإمام الشافعي، نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.
٢٥ ـ السنن للإمام الشافعي ـ رواية المزني ـ تحقيق، نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.
٢٦، ٢٧ المسند للإمام الشافعي، ومعه شافي العي على مسند الشافعي، للحافظ السيوطي ـ تحقيق.
٢٨ ـ الشافعي وعلم مختلف الحديث ـ ستعاد طباعته إن شاء الله تعالى.
٢٩ ـ مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير الدمشقي، تحقيق، نشر مكتبة الإمام الشافعي، بالرياض.
٣٠ ـ مناقب الإمام الشافعي، للآبري، تحقيق.
٣١ ـ تخريج أحاديث الأم، للإمام البيهقي، تحقيق.

(جـ) علوم الحديث رواية:

٣٢ ـ مجموع الحديث، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ تحقيق ـ بالاشتراك مع الأخ الأستاذ الدكتور/ محمود طحان، نشر جامعة الإمام.

٣٣ ـ سبل السلام، تعليق وتصحيح ـ بالاشتراك ـ ط ثالثة ـ نشر جامعة الإمام بالرياض.

٣٤ ـ شرح أربعين حديثاً ـ مكتوب على الآلة الكاتبة.

٣٥ ـ صحيفة أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، جمع، وتخريج، وتعليق.

(د) علوم الحديث دراية:

٣٦ ـ بدعة دعوى الاعتماد على الكتاب دون السنة.

٣٧ ـ مكانة الصحيحين ـ ط ثانية ـ نشر دار القبلة.

٣٨ ـ السنة النبوية وحي.

٣٩ ـ شبهات حول السنة ودحضها ـ تحت الطبع.

٤٠ ـ الإصابة في صحة حديث الذبابة ـ نشر دار القبلة.

٤١ ـ نشأة علوم الحديث، سيطبع قريباً إن شاء الله تعالى.

= المبسوط في علوم الحديث، وطبع منه.

٤٢ ـ الحديث المتواتر.

٤٣ ـ الحديث الآحاد ـ الحلقة الأولى.

٤٤ ـ الحديث المعلل ـ ط ثانية ـ نشرتها كلها دار الوفاء بجدة.

٤٥ ـ مقدمة شرح صحيح مسلم. للإمام النووي رحمه الله، شرح وتخريج وتعليق، نشر مكتبة المدينة المنورة.

(هـ) بين الإنسان والجماد:

٤٦ ـ الإدراك عند الجمادات.

٤٧ ـ معرفة الله عز وجل بين الإنسان والجماد.

٤٨ ـ شوق الجمادات واستجابتها له ﷺ.

٤٩ ـ محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجماد، ط ثانية: نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.

(و) بحوث مهمة في الكتاب والسنة:

٥٠ ـ حقوق الوالدين. نشر دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن.

٥١ ـ حقوق الزوجين.

٥٢ ـ المرأة في القرآن.

٥٣ ـ الإحسان في القرآن.

٥٤ ـ زواج السيدة عائشة ومشروعية الزواج المبكر، نشر دار القبلة.

٥٥ ـ النظافة بين العلم والإيمان.

(ز) الفتن وأشراط الساعة:

٥٦ ـ العداوة بين الإنسان والشيطان وأثر ذلك على الجريمة.

٥٧ ـ كيف أرسى الإسلام قواعد الأمن في الأرض.

٥٨ ـ أشراط الساعة.

٥٩ ـ أخبار الدجال.

٦٠ ـ الردة قديمها وحديثها.

٦١ ـ المسيح عليه السلام، قطعية رفعه، وتواتر نزوله.